الفاو ـ مدينةُ الفداء وبوّابةُ النصرِ العظيم

من التحرير.. الى البناء

« مِنْ هنا مرَّ مَلِكُ العراقِ العظيم »

عِبارةٌ يَبْدُو أنَّ أسْلافِ العيلاميّينَ قَدْ نَسوَها بَعْدَ أنْ أعْمَتْهُمْ الضَّلالةُ والغَطْرسَةُ الجَوْفاءُ عَنْ أنْ يَقرؤوا مَصيرَ تاريخِهِم العدوانيّ على العراقِ، يومَ قامَ المَلِكُ الآشوريّ بتأديبِهِمْ خِلالَ معركةِ نَهر الكَرْخة، ودَمَّرَ مُلْكَ عَيْلامَ، وَعَادَ برأسِ مَلِكهِمْ محمولاً على رَأْسِ حَرْبةِ رُمْحٍ مُحذِراً أهْلَ عَيْلامَ مِنْ مُعاوَدةِ التحرُّشِ بالعراق، من خِلال عبارةٍ بالغة الدلالةِ: « من هُنا مرَّ مَلِكُ العراق العظيم » منقوشةً على حجرٍ مِنْ المرمر.

لقد شَهِدَتْ شِبْهُ جزيرةِ الفاوِ خلالَ تاريخها العريقِ، أحداثاً كثيرةً، دَخلها أكثر مِنْ محتَلٍ، ولكنها كانَتْ دائماً تَحترقُ لِتولَدُ من جديدٍ، مثْلَ طفلٍ في حُضْنِ أمّهِ ـ (العراق) يأبى الرضاعةَ من ثَدْيِ أجنبيّ ويأبى الأنفصالَ. فالمحتلّونَ الأيرانيون، مثلاً ـ استبدلوا أسْمَ الفاو حالما احْتلُوها، وتصرّفوا إزاءَها كما لو كانَتْ أرْضاً إيرانيّةً.. ولكنَّ الأيرانيّينَ الذينَ « كَبُرَتْ أطْماعُهم وإزْدادُوا غُروراً وصَلَفاً على صَلَفِهِمْ وغُرورِهم عِنْدمَا أحتلُّوا الفاوَ بَعْدَ مَعارِكَ شباط وآذارعام ١٩٨٦ بِمُوجب تَسْهيلاتٍ وخَدَماتٍ في الإسْتِشارةِ والعَملِ الأسْتخباريّ.. إستطاعَ جنْدُ العراقِ النشامى، جُنْدُ القائدِ العظيم صدام حسين الذي قادَ وأشْرفَ مُباشرةً على معركةِ تحريرِ الفاوِ. إستطاعوا تَحْريرَها خِلالَ ٣٥ ساعة.

جاءَ في بيانِ تحرير الفاو الصادر عن القيادة العامة للقوات المسلحة بتاريخ ١٨ نيسان ١٩٨٨ ما يلي:

أيُّها الشعبُ العراقيُّ العظيم

يا ابناءَ أمتنا العربيةِ المجيدة

أيُّها الرجالُ النَشامى في قوّاتِنا المسلحةِ الباسلة

إنّهُ يومٌ مجيدٌ هذا اليومُ غُرّةُ شَهْرِ رمضانَ المُباركِ، إنّهُ يومُكم..

يومُ العراقيِّينَ، يَوْمُ العربِ . . هذا اليومُ الذي بَارَكَ اللهُ سبحانَهُ جِهادَ القَواتِ المُسلَّحةِ وأظْهَرَ الحَقَّ على الباطلِ . . إنَّ الباطلَ كانَ زَهُوقاً.

إنَّهُ يومٌ من أيَّامِ الحَقِّ المتميِّزةِ. وإنَّهُ عَلَمٌ من أعْلامِ المجدِ يرفُّ فوقَ هاماتِكُمْ يُباركُ اللهُ فيهِ مَسْعَاكُمْ وصَبْرَكُمْ وتَضْحياتِكُمْ.

أيها المؤمنونَ العراقيونَ

لقد نَصرَكُمُ اللهُ سبحانَهُ وتَعالى ودَخَلَ أبناؤكم بَعْدَ أنْ حَفِظَهُمْ مِنْ كلِّ مكروهٍ مَرْفُوعي الهامَ مدينةَ الفاوِ العزيزةِ المحُرَّرةِ مُحرِّرينَ ترابَها من دَنَسِ الغُزاةِ راكِلينَ بأقْدامِهِمْ كلَّ أثرٍ مِنْ آثارِ الغُزاةِ الذينَ لَفظَتْهُمْ صَيْحاتُ المُحرِّرينَ ونيرانُهم خارجَ أرْضِنا الطاهرةِ يَلْعَنُونَ حظَّهم ويَلْعَقُونَ جِراحَهم على الضَّفةِ الشَّرقيَّةِ مِنْ شطِ العَرب . . مُبْتعدينَ عَنْ خطِّ المواجهةِ مَعَ العراقيِّينَ وَغضْبَتَهُم . . ويا ويلهم مِنْ عَذابِ اللهِ ومِنْ غَضْبةِ الحليمِ إذا غضِبَ. »

ومثلما تَطْهرتْ الفاوُ ـ مدينةُ الفداءِ وبَوّابةُ النَّصرِ العظيم ـ بِدماءِ العراقيِّين وبعَطائهم السخيِّ . . ها هيَ اليوم يُعادُ بِناؤها بعَرَقِ العراقيِّينَ وعَطائِهم الذي لا يَعْرفُ حدوداً.

ومثلما قادَ القائدُ الفذُّ صدام حسين، معركةَ تحريرِ الفاو وأشرفَ بنفسه عليها ميدانياً . . يقودُ القائدُ حَمْلةَ إعمارِ وبناءِ الفاو، ويُشرفُ عليها بنَفْسهِ مُباشرةً.

وكما شاركَ العربُ الشُرفاءُ في مَعركةِ التحريرِ والكرامةِ هذه، كلٌ مِنْ مَوْقعِهِ وحَسْبَ إستطاعتِهِ . . حَتى تلكَ الأمُّ ـ في أقصى الوطنِ ـ التي رَفَعتْ يَدَيْها إلى السَّماءِ داعيةً بالنصرِ للعراق . كما قالَ القائدُ صدام حسين . . فأنَّ القائدَ صدام حسين . . أبى إلّا أنْ يكون لجميعِ العربِ الشُرفاءِ ، دورٌ في إعمارِ وبناءِ الفاو وأنْ تَصْطَفَ الحجارةُ مِن كلِّ أقطارِ الوطنِ العربي لِتُشكِّلَ الركْنَ الركينَ والأساسَ المتينَ ـ رَمْزاً لوَحْدةِ الأمَّةِ في النضالِ والتحريرِ والمَصيرِ . . تَصْطَفَ في الفاو ـ مدينةِ الفداءِ وبوَّابةِ النصرِ العظيم.

المجدُ للعراقِ العظيم

المجدُ لقائدِ العراقِ العظيمِ صدام حسين

المجدُ لأُمَّةٍ تَبْني بيدٍ . . وتُدافعُ عن كرامتها وترابها بيدٍ . . والخلود للشهداءِ الـ ٥٢ الفاً و ٨٥٨ مِنْ رجالِ العراقِ الذين رَوَّت دماؤُهُمْ وطَهَّرتْ أرضَ الفاوِ من الغزاةِ المُعتدين.

واللهُ اكبرُ ولْيَخْسأ الخاسئون.

« رئيس التحرير »

القصائد القدسيات

دراسة
عبد الجبار محمود السامرائي

بغداد ص . ب ٤٦٩

كانت القدس هي مركز الجاذبية الصليبية خلال الشوط الثالث من حملات الفرنج، ولهذا كانت الهدف الذي جمعوا له الجموع، وأقبلوا بخيلهم لغزوه، فاذا سقط هذا الهدف في يد العرب المسلمين كان معنى ذلك ان الحروب الصليبية لم تؤد الى غاية، ولم تصل الى الهدف المرسوم، وأن بقاء الفرنج في هذه الديار بقاء محدود الأمد.

ولما تطاول الأمد على امتلاك الصليبيين للقدس زهاء تسعين سنة، فقد خلق في النفوس استبعاد ان تعود الى اصحابها العرب المسلمين، فكان استرجاعها أمنية عدت في عداد المستحيل (١) لقد احتل الصليبيون القدس في ٧ حزيران سنة ١٠٩٩ م. بجيش قوامه سبعين ألفا فضربوا من حولها الحصار، ولم تستطع حاميتها المكونة من ألف جندي مصري أن تقاوم الحصار الذي دام ثمانية وثلاثين يوما فسقطت المدينة بيد الصليبيين في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ م، فاقتحمتها جيوشهم وعلى رأسها عديد من امراء الاقطاع الاوربيين، في مقدمتهم (جود فري دوبويون) أمير مقاطعة اللورين الفرنسية، والكونت (نذكر يد ريموند) أمير مقاطعة تولوز، و (ريكاردوس) أمير سالارنوس، والكونت (فلاندرة وكيرمونت وجراد وبلدوين وسان جيل) وغيرهم كثيرون. دخل الصليبيون (القدس مدينة الانبياء والسلام. . . فصنعوا بها وبأهلها مالا يقرّه نبي من الانبياء ولا مؤمن بالسلام. . .)، فملأوا المدينة « دما وزيتا ودموعا » ولم يتركوا من سكانها أحدا. . . (٢) وفي الصورة القلمية التي رسمها (ميشو) عن فتح الفرنج بيت المقدس تقرأ وصفا دقيقا ومؤثرا لتلك المجزرة، يقول: (سرعان ما صارت المذبحة عامة، فذبح المسلمون في الطرقات وفي المنازل، ولم يعد في بيت المقدس ملجأ للمغلوبين، فبعض الذين فروا من الموت ألقوا بأنفسهم من فوق الاسوار، وآخرون جروا جماعات، يختبئون في القصور والابراج، وبخاصة المساجد. ولكنهم لم يستطيعوا أن يفرّوا خوفا من ان يتبعهم الصليبيون، فبعد ان صار هؤلاء سادة مسجد عمر، الذي دافع المسلمون عن انفسهم حينا فيه ـ وجددوا فيه المناظر المحزنة، فدخل المسجد المشاة والفرسان، واختلطوا بالمنهزمين، وفي وسط أشنع ضوضاء كنت لا تسمع الا الأنين وصيحات الموت، لقد كان المنتصرون ـ يقصد الفرنج ـ يسيرون على اكوام من الجثث ليتبعوا من يحاول الفرار عبثاً، وقال شاهد عيان:

ارتفعت الدماء الى ركب الخيل وأعنتها في الهيكل، وتحت ايوان المسجد، وكل الذين أبقى عليهم التعب من الذبح، او أسروا طمعاً في أن يفدوا انفسهم بفدية غالية، قتلهم الصليبيون. لقد أكرهوا على ان يلقوا أنفسهم من أعالي البروج والبيوت ويكونوا طعاماً للنيران، وكانوا يخرجونهم من الأقبية واعماق الارض، ويجرونهم في الميادين العامة، حيث يذبحونهم فوق اكداس الموتى، ولم تثنهم دموع النساء ولا صيحات الأطفال. لقد كانت المذبحة هائلة، وكانت الجثث مكدسة، لا

في القصور ولا في المساجد ولا في الشوارع فحسب، لكن، في أخفى الأماكن وأكثرها انفراداً، وهكذا جنون الانتقام والتعصب، ولم تنته المذبحة الا بعد اسبوع والمؤرخون الشرقيون واللاتين، متفقون على أن عدد القتلى بلغ سبعين الفاً، وبعدئذ امر من بقي من المسلمين الذين لم ينجوا من القتل الا ليقعوا في استعباد مخوف - أن يدفنوا الاجسام المشوهة لأصدقائهم واخوانهم، فأخذوا ينقلون وهم يبكون، هذه الجثث خارج بيت المقدس، وساعدهم في ذلك بعض الصليبيين الذين وصلوا المدينة أخيراً، فلم يظفروا بكثير من الأسلاب، وأخذوا يبحثون عن بعض الغنائم بين الموتى)[3]

وكان من الطبيعي أن يستنجد العرب بعضهم ببعض، يطلبون العون، ويسألون المساعدة، لرد هذا الخطر الصليبي الداهم، والعدو المنقض بكلّ ما أوتي من قوة، وأن يرسل بعض الملوك الى بعض رسائل، عسى أن تتكاتف القوى، وتتحد الجهود، لاستخلاص بيت المقدس من يد الغزاة. ورأى صاحب (النجوم الزاهرة) أن الفرنج بعد ان استولوا على بيت المقدس وأظهروا فيه ما أظهروا من ضروب الوحشية، وألوان القسوة والجبروت، خرج المستنفرون من دمشق، مع قاضيها، (زين الدين أبي سعد الهروي)، فوصلوا بغداد، وحضروا في الديوان، وقطعوا شعورهم، واستغاثوا، وبكوا، وقام القاضي في الديوان، وأورد كلاماً أبكى الحاضرين، وأنشأ القاضي الهروي قصيدة للابيوردي:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم
فلم يبق منا عرضة للمراجم[4]
فإيهٍ بني الاسلام ان وراءكم
وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمةً في ظلّ أمنٍ وغبطةٍ
وعيش كنوّار الخميلة ناعم؟
وكيف تنام العين ملء جفونها
على هفوات ايقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم
ظهور المذاكي[5] أو بطون القشاعم[6]
تسومهم الروم الهوان وانتم
تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

- ومنها أيضاً:

أرى أمتي لا يشرعون الى العدى
رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون الثأر خوفاً من الردى
ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى
ويغضي على ذل كُماة الأعاجم؟

- ومنها أيضاً:

فليتهم اذ لم يذودوا حميةً
عن الدين ضنوّا غيرةً بالمحارم
وان زهدوا بالأجر اذ حمي الوغى
فهلا أتوه رغبةً في الغنائم

● وأمام هذا الخطر المدمر الذي ألمّ بالشرق وأحدق بالحضارة العربية الاسلامية استيقظت في الوطن العربي روح المقاومة، وأنبتت الأرض نبتاً ملائماً لذلك الخطر في النوع والكفاءة والأدوات فلقد كان الصليبيون جفاة لا يمتلكون سوى القدرة على سفك الدماء... فاستثارت صفاتهم هذه روح الفروسية في الشرق، وعلت هذه الظاهرة وتقدم اصحابها فتسلموا زمام الامور من العلماء والفلاسفة والحكماء طوال قرون العصور الوسطى، أي منذ أن قامت الدولة العربية في (الموصل) سنة ١١٢٧ م وحتى سقوط نظام المماليك في قلعة القاهرة على يد (محمد علي) سنة ١٩١١ م.

ولكن فروسية المسلمين لم تكن مجرد شجاعة ومهارة في القتل والسلب والنهب كما هي عند الصليبيين، بل كانت فروسية عربية ذات سمات وشمائل تنبع من القيم الروحية والمشاعر الانسانية التي صنعتها حضارة الاسلام، فكانت لهذه الفروسية العربية عشر خصال يتربى عليها الفرسان المحاربون ويتخلقون بها: (التقوى، الشجاعة، رقة الشمائل، الصبر، مراعاة الجوار، المروءة، الكرم، حسن الضيافة، مساعدة النساء والأرامل، والوفاء بالعهود)... وبهذا النوع من الفرسان قرر الوطن العربي ان يتصدى للموجة الصليبية، تلك التي مثلها « فرسان » الاقطاع الأوربي (٧)، وبعد أن استقرت الأمور لصلاح الدين الايوبي بمصر، كانت عينه على جنوب فلسطين، فهناك الطريق الذي يجب ان يفتح كي يتم اتصال مصر بالمشرق العربي، وكي تتحقق الخطوة الكبيرة في الاستراتيجية العربية باحكام الحصار حول الكيان الصليبي من الشمال والشرق والغرب والجنوب[8] أي على: ضرورة الالتفاف من حول الكيانات الصليبية حتى لا يصبح أمام الصليبيين منفذ سوى البحر الأبيض المتوسط، الذي جاءوا عبره من اوربا، ولا بد من

الاحاطة بهم والضغط عليهم حتى يعودوا عبره الى البلاد التي بدأوا منها هـذا العدوان الصليبي الكبيـر[٩] وحتى يحقق صلاح الدين هذا الهدف قام بأربع حملات في سنة ٥٦٨ وسنة ٥٧٩ وسنة ٥٨٠ وسنة ٥٨٣ هـ[١٠] وعنـدما لاحت في الأفق بـوادر الاستقرار في الوضع الداخلي بمصر، وتلك الـوحدة في الجبهـة القومية العربية، لم يكن أمام صلاح الدين الا أن يتوجه بقلبه وعقله وجيشه لقتال الصليبيين في فلسطين[١١] وشهـدت أعوام ٥٧٥ ـ ٥٧٨ هـ (١١٧٩ ـ ١١٨٢ م) عدة معارك ومناوشات قام بها صلاح الدين ضد القوات الصليبية على ارض فلسطين. . فهدم حصن الصليبيين عند «مخاضة الأحزان». بـالقرب من «بانياس»، واستطاع جيشه أن يقلق راحة العدو ويغنم منه في «بعلبك» و «بيروت» و «بيسان» و «جنين» و «اللجون» و «الغور». . . بل لقد تعرض مع جيشه لهزيمة كادت تودي به في سنة ١١٨٢ م عندما دخل ضد الصليبيين معركة في «الرملة». . وكانت هذه الكسرة (وهناً عظيماً جبره الله بوقعة حطين). فلقد قضى صلاح الدين بعد هذه النكسة خمس سنوات في الاستعداد للقاء الكبير الذي حدث عند «طبرية» في سنة ١١٨٧ م، وهو اللقاء الذي أباد فيه الجيش الصليبي في «حطين» ففتح الباب على مصراعيه لتحرير القدس[١٢]

ولم ينتظر صلاح الدين حتى يستفيق الفرنج من كسرتهم في حطين، بل مضى يتبع فلولهم المنهزمة، حتى اذا حرر الأماكن المحيطة بالقدس، واجتمعت اليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحر، مضى الى القدس فحررها ظهر يوم الجمعة ٢ تشرين الاول ١١٨٧ (٢٧ رجب ٥٨٣ هـ). وكان لهذا التحرير رنة فرح كبيرة في صدر العالم العربي والاسلامي كله، وظفرت هذه المعركة الخالدة بنصيب موفور من الشعر لم تظفر به معركة منذ شبّت الحروب الصليبية، الى أن وضعت الحرب أوزارها، ذلك أن طرد الفرنج من القدس كان هدف (صلاح الدين) الأول، لأنه متى طردهم من البلاد التي أتوا من وراء البحار لامتلاكها، فقد هانت عليه بقية الامارات اللاتينية[١٣]

وبعد ان تحررت القدس ظفر هذا الحدث العظيم بتقدير جليل لم يظفر به نصر سواه، في تاريخ الحروب الطويلة، فقد كان يوم تحرير القدس يوافق ذكرى الاسراء بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام بمكة الى المسجد الأقصى بالقدس. وقد تم في هذا التاريخ التوقيع على نسختي المعاهدة الخاصة باستلام الصليبيين، ودخل العرب المسلمون المدينة المقدسة، في لحظات تاريخية حملت من مشاعر القدسية وشحنات التسامي ما عجزت عن وصفه أقلام المؤرخين والأدباء الذين شهدوا هذا الحدث الكبير. وفي الوقت الذي انصرف فيه اللاتين الصليبيون بجمع المال والمتاع استعداداً للرحيل، واغلقوا أبواب البيوت على انفسهم، دخل العرب ساحة المسجد الأقصى ليعيدوا الى المقدسات قدسيتها[١٤] ولم يكن صلاح الدين عظيماً كعظمته في هذا الموقف، يوم تحرير القدس فقد أمر بانتشار الأمراء والجنود ليمنعوا اي اعتداء أو اهانة تقع لأي مسيحي، وقد توجه اليه الالاف من النساء وبنات الفرسان الذين أسروا أو قتلوا في تلك المعارك وخدمهم يسألنه الرحمة، فأمر باطلاق سراح ازواجهن واخوانهن ومنح بعضهن هبات مالية مناسبة[١٥] وفي خارج المدينة المقدسة، جلس البطل صلاح الدين في خيمته، في تواضع ليس له مثيل، يتلقى التهاني، ويلقى الأكابر والأمراء، ومن حوله جمهرة غفيرة من العلماء والفقهاء الذين يمثلون مختلف المدن والأقاليم العربية، والذين كانوا قد توافدوا على المعسكر منذ أن علموا بتوجه الجيش لفتح القدس الشريف[١٦] ولقد نظم الشعراء في يوم تحرير القدس قصائد عصماء عرفت فيما بعد بـ (القدسيات). وقد تنوعت الاشادة في شعر القدسيات بهذه المعركة، فحيناً يصفها، وحيناً يتحدث عن نتائجها، وحيناً يصور بهجة العرب والمسلمين بها، وحزن الفرنج على خسارتها. لقد تغنى الشعراء، وأطالوا وامتلأ العالم العربي والاسلامي كله بنغمات من الطرب والبهجة، وتدفق الشعر فياضاً قوياً، يصف ذلك كله[١٧] وهل ثمة يوم أعظم من يوم تحرير القدس من براثن الصليبيين؟

● وكان أكثر من نظم الشعر في يوم القدس (العماد الاصفهاني)، وكان يصاحب صلاح الدين في المعركة. ومما هنأ به البطل الكبير قصيدة منها:

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
وأشرف من اضحى وأكرم من أمسى
وقيل لنا في الأرض سبعة أبحر
ولسنا نرى الا أنامله الخمسا
فلا عدمت أيامنا منه مشرقاً
ينير بما يولي لياليـنا الدمسا
جنودك أملاك السماء وظنهم
عداتك جن الأرض في الفتك لا الأنسا
فلا يستحق القدس غيرك في الورى
فأنت الذي من دونهم فتح القدسا

ومن قبل فتح القدس كنت مقدساً
فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا
وقد شاع في الآفاق عنك بشارة (١٨)
بأن أذان القدس قد بطل النقسا

● وكان من الشعراء الذين وصلوا الى مخيم صلاح لمدحه وتهنئته بهذا اليوم العظيم، شاعر مصري يدعى (محمد ابن اسعد ابن علي بن معمر الجلبي) المعروف بـ (الجواني المصري) وكان نقيب الأشراف بالديار المصرية، فأنشده قصيدة منها:

أترى مناماً ما بعيني أبصر
القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقمامة قمت من الرجس الذي
بزواله وزوالها يتطهر
ومليكهم في القيد مصفود ولم
يُرَ قبل ذاك لهم مليك يُؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
من كان هذا فتحه لمحمد
ماذا يُقال له، وماذا يذكر؟
يا يوسف الصدّيق أنت لفتحها
فاروقها عمر الامام الأطهر
نثر ونظم طعنه وضرابه
فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع، حيث الـ
عيون خواشع، حيث الجباه تعفّر
غاراته جمع فان خطبت له
فيها السيوف فكل هام منبر
اذ لا ترى الا طل بسنابك
تحذى نعالاً أو دماء تهدر
وصوافناً تختار أن تطأ الثرى
فيصيدها عنه طل ومنوّر
تمشي على جثث العدا عرجاً ولا
عرج بها لكنها تتعثر(١٩)

ـ ان مطلع هذه القصيدة يعبر عن الفرحة بالنصر في الوقعة، وتصور القصيدة أن آثار بيت المقدس تطهرت، وخاصة كنيسة القيامة بالقدس من رجس المحتلين، وان آثاره كذلك، أن غدا ملك الصليبيين في القيد، وان من آثاره هذا العدد الذي لا حصر له من قتل الغزاة، تمشي على جثثهم الجياد عرجاً وما بها من عرج(٢٠)

ـ وتدل هذه القصيدة على ان العرب لم يكونوا يستهينون بأمر الفرنج وملوكهم، وانما كانوا يرون الغلبة عليهم محتاجة الى جهد جهيد، ويرون ملوكهم أشداء أقوياء، ولهذا انصرف الشعر الى تمجيد صلاح الدين تمجيداً رفعه الى درجة أنه يشبه بالخلفاء الراشدين(٢١)

● وأتى الى صلاح الدين شاعر آخر هو (شهاب الدين فتيان الشاغوري) فهنئاه بقوله:

رب الملاحم لم يؤرخ مثلها الـ
علماء قدماً في قديم الأعصر
خلعت عليه خلعة الملك التي
زيدت بهاراً بالطراز الأخضر(٢٢)
لم لم تدن شوس الملوك له وقد
ملك السواحل في ثلاثة أشهر
واستنقذ البيت المقدس عنوة
من كل ذي نجس بكل مطهر
ورأيتهم يوم التقى الجمعان
بالبيت المقدس هول يوم المحشر
وردت دين الله بعد قطوبه
بالمسجد الأقصى بوجه مسفر
وأعدت ما أبداه قبلك فاتحاً
عمر فأنت شريكه في المتجر
حتى جمعت لمعشر الاسلام بين
الصخرة العظمى وبين المشعر(٢٣)

ـ وهذه الأبيات الأخيرة زاخرة بالمعاني الدينية العزيزة على نفوس المسلمين. وأما (الطراز الأخضر) الذي كثر ذكره في اشعار ـ الشعراء، فاشارة الى تنبؤ او حلم من احلام المسلمين، على رواية، وفيه ان شيخاً من شيوخهم رأى قبل يوم الفتح بعشر سنين ـ على رواية ـ واثنتين وخمسين سنة، على رواية أخرى، كان انساناً ذا جهامة وقف على حائط بجامع دمشق وهو يقول:

ملك الصياصي والصواصي ناصر
للدين بعد اياسه ان ينصرا
وسيفتح البيت المقدس بعدما
يطوى الطراز له ويقتل قيصرا(٢٤)

● وقدم على صلاح الدين شاعر يقال له (الرشيد بن بدر النابلسي) فهنأه بيوم القدس في قصيدة منها:

هذا الذي كانت الآمال تنتظر
فليوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت
في سالف الدهر أخبار ولا سير
الآن قرّت جنوب في مضاجعها
ونام من لم يزل حلفاً له السهر
يابهجة القدس اذ أضحى به علم الا
سلام من بعد طي وهو منتشر
« الله اكبر » صوت تقشعر له
شمّ الذرا وتكاد الأرض تنفطر
يا مالك الأرض مهدها فما أحد
سواك من قائم للمهد ينتظر
ما اخضر هذا الطراز الساحلي ثرى
الا لتعلو به اعلامك الصفر[25]
أضحى بنو الأصفر الا نكاس موعظة
فيها لأعدائك الآيات والنذر
يغنيك اجمال قولي عن مفصله
في لفظة البحر معنى تحته الدرر[26]

● وأما الشاعر المعروف بـ (أبي الحسن علي ابن محمد الساعاتي) شاعر مصر والشام في زمانه، فقد نظم في يوم القدس قصيدة منها

ـ أعيا وقد عاينتم الآية العظمى
لأية حال تذخر النثر والنظما؟
وقد شاع فتح القدس في كل منطق
وشاع الى أن أسمع الأسل الصما
حبا (مكة) الحسنى وثنى بيثرب
وأطرب ذيّاك الضريح وما ضمّا
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها
فيشهد أن السيف من يوسف أصمى
وما كان الا الداء أعيا دواؤه
وغير الحسام العضب لا يحسن الحسما
وأصبح ثغر الدين جذلان باسماً
وألسنة الأغماد توسعه لثما
سلوا الساحل المخشي عن سطواته
فما كان الا ساحلاً صادف اليما[27]

● وأتى العماد الاصفهاني في كتابه (البرق الشامي) على ذكر شاعر يقال له (الحكم ابو الفضل الجلياني) قال ان له قدسيات طوالاً، وقف العماد على بعضها، ونقل الينا جزءاً منها.

وأما القصيدة الفتحية الناصرية التي هنأ بها (الجلياني) الناصر صلاح الدين بيوم تحرير القدس فأولها:

في باطن الغيب مالا تدرك الفكر
فذو البصيرة في الأحداث يعتبر
مالي أرى ملك الافرنج في قفص
اين القواضب والعسالة السمر؟
والاسبتار[28] الى الداوية[29] التأموا
كأنهم سد يأجوج اذا اشتجروا
ياوقفة التل[30] ما ابقيت من عجب
جحافل لم يفت في جمعها بشر
ويا ضحى السبت[31] ماللقوم قد سبتوا
تهوّدوا أم بكأس الطعن قد سكروا
حطوا بحطين ملكاً كافياً عجباً
في ساعة زال ذاك الملك والقدر؟
اهوى اليهم صلاح الدين مفترساً
وهو الغضنفر أعدى ظفره الظفر
وعاين الملك الابرنس في دمه
فمات حيًا وهو يعتذر
راى مليكاً ملوك الأرض تتبعه
والنجم يخدمه والشمس والقمر
هذا المليك الذي بشرى النبي به
في فتنة البغي للاسلام ينتصر
أنسى ملاحم ذي القرنين واعترفت
له الرواة بما لم ينمه أثر
أعين أسكندر بالخضر وهو له
عون من الله يستغني به الخضر
وصنع ذي العرش ابداع بلا سبب
فلا تقل: كيف هذا الحادث الخطر؟
بينا سباياه تجلى في دمشق اذا
ملك الفرنج مع الأتراك محتجر
ازاءه زعماء الساحلين معاً
مصفدين بحبل القهر قد أسروا
يتلوهم (صلبوت) سيق منتكساً
وحوله كل قسيس له زبر

يسبي فرنجة من أقطارها وله
مع المجوس حروب قدمها سعر
وبعض ابنائه بالقدس منتدب
وبعضهم (رومة) الكبرى له وطر
براية تخرق الأرض الكبيرة في
جمع تقول له الأجسام: لاوزر[32]

● ويذكر ان الشعراء الذين تحدثوا عن معركة بيت المقدس التي دارت رحاها بعد معركة حطين خصصوا جزءاً من قصائدهم للحديث عن معركة حطين، تاج معارك صلاح الدين، فقد نظروا اليها على أنها مقدمة لهذا الفتح المجيد. ومن ذلك قصيدة لفخر الكتاب (الحسن الجويني) من أهل بغداد منها:

جند السماء لهذا الملك أعوان
من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما نحكيه من زمن
وقد مضت قبل ازمان وأزمان
هذي الفتوح فتوح الأنبياء، وما
له سوى الشكر، بالافعال أثمان
اضحت ملوك الفرنج الصيّد في يده
صيداً، وما ضعفوا يوماً، وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا، وهم
- خوف الفرنجة - ولدان ونسوان
تسعون عاماً بلاد الله تصرخ وال
اسلام انصاره صم وعميان
فالآن لبى (صلاح الدين) دعوتهم
بأمر من هو للمعوان معوان
للناصر ادخرت هذي الفتوح، وما
سمت لها هم الأملاك مُذ كانوا
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد
تنزّلت فيه آيات وقرآن
اذا طوى الله ديوان العباد فما
يطوى لأجر صلاح الدين ديوان[33]

● وقال ابن جبير الرحالة الاندلسي مخاطباً صلاح الدين ومشيراً الى تحرير بيت المقدس:

وغبّرت آثارهم كلها
فليس لها الدهر من جابر
وأمضيت جدك في غزوهم
فتعساً لجدهم العاثر
فكلهم غرق هالك
بتيار عسكرك الزاخر

الى ان يقول:

فتحت المقدس من ارضه
فعادت الى وضعها الطاهر
وأعليت فيه منار الهدى
وأحييت من رسمه الداثر
لكم ذَخَر الله هذا الفتوح
من الزمن الأول الغابر
خصّك من بعد فاروقه
بها لا لاصطناعك في الآخر
عبتك الغيث في النفوس
بذكر لكم في الورى طائر

- والقصيدة واضحة المعنى، سهلة العبارة، تحمل كثيراً من التفاؤل، فبعد تحرير القدس، أمّل الناس استرداد جميع اجزاء الوطن المغتصب[34] من براثن الغزاة الصليبيين، وهذا ما حدث فعلاً في مقبلات الأيام.

● ثم أتت الحملة الصليبية الثالثة نجدة للفرنج الذين ازاحهم صلاح الدين عن البلاد، فلم تستطع هذه الحملة أن تغير شيئاً من موقف صلاح الدين، لأنها عجزت عن استرداد بيت المقدس من يده. وفي ذلك يقول الشاعر.

« الحكيم أبو الفضل الجلياني »: -

يا منقذ القدس من أيدي جبابرة
قد أقسموا بذراع الرب تدخله
ما كذبوا كذبهم في وصف ربهم
وصدق الوعد مأموناً محوله
أما رأيت - ابن أيوب - استقل بما
يعيي الزمان وأهليه تحمله
هاج الفرنج وقد حاروا لفتكته
واستنفروا كل مرهوب تغلغله
لما سبى القدس قالوا كيف نتركها
والربّ في حفرة منها تمثله
فكم مليك لهم شق البحار سرى
لينصروا القبر والأقدار تخذله

استعرضوا الأهل والعدوى تمزقهم
واستكثروا المال والهيجا تنفله
هم الفراش لهيب الحرب تصرعه
وكلما لجّ صدماً حلّ مقتله
سيف أمام فلسطين يرى أمما
خلف البحار لقد أمهاه صيقله
كم قد أعداوكم فلّ جمعهم
من غير ضرب ولا طعن يزيله
وانما اسم صلاح الدين يذكر في
جيش العدا فيسبيهم تخبيله[٣٥]

● هكذا اشترك العالم العربي والاسلامي كله في تهنئة القائد المنتصر صلاح الدين الأيوبي بيوم تحرير القدس. والواقع ان الشعراء مهما جوّدوا وان الكتاب والخطباء مهما أبدعوا، فان الفضل كل الفضل في تجويدهم لسيف هذا الرجل[٣٦] الداهية، ولبطولة الجند الشامي الذين حاربوا معه باخلاص. لقد امتازت القصائد (القدسيات) بالحماسة المتدفقة وبحرارة العاطفة التي تدل على ما كان يعتمل في نفوس الشعراء يومئذ، من اضطرام نيران الالم، لاغتصاب القدس العربية، ولما أصاب اهلها من ويلات وتشريد، وذبح وتقتيل. لقد تلونت هذه القصائد الواناً شتى، بين حزن وحسرة، بين فرح وبهجة، وبين تمجيد للبطل المنقذ الناصر صلاح الدين، وحث على النزال، الى غير ذلك من الوان العواطف والخلجات التي ألمت بالامة ابان الحروب الصليبية[٣٧] ● وبعد... لقد لاحظنا ان الشعر الذي تناول الصراع بين المسلمين والصليبيين، وخاصة (القدسيات) منه، اقتصر على الحماسة، وتمجيد البطولة، وتسجيل بعض الحوادث التي جرت اثناء الصراع، واظهار السرور والابتهاج باخبار الانتصارات، وتقديم التهاني للبطل صلاح الدين، وحثه على مواصلة الجهاد واستئصال شأفة الخطر الصليبي من قلب العالم الاسلامي[٣٨] وفي الحقيقة فان الشعراء الذين عاصروا هذه الأحداث، والذين أرخوا لتطوراتها وتغيراتها ومعاركها، التزموا مبدأ التذكير بالقدس وتحريرها، والحديث عن مقدساتها وضرورة تطهيرها. بل ان هؤلاء الشعراء لم يتركوا المناسبات الخاصة والشخصية، دون ان تكون مقاماً لحديثهم عن تحرير القدس وتطهيرها من دنس الصليبيين، وعندما ذهب الشاعر العماد الكاتب، الى صلاح الدين ليعزيه في وفاة عمه، لم ينس الشاعر في سياق هذا العزاء ان يعيد التذكير بالقدس داعياً الى عدم اهمالها وتجهيز العدة لتحريرها من جديد، فيقول:

فصبوا على الافرنج سوط عذابها
بأن تقسموا ما بينها القتل والاسرا
ولا تهملوا البيت المقدس، واعزموا
على فتحه غازين، وافترعوا البكرا

وعندما يهنئه بتحرير (غزة) يذكره بالقدس، فتحريرها فتح لباب تحرير الشام كله من يد الغاصبين فيقول:

وهيجت للبيت المقدس لوعة
يطول بها منه اليك التشوّق
هو البيت ان تفتحه، والله فاعل
فما بعده باب من الشام مغلق

● واذن، كانت القدس هي القضية التي اجمعت من حولها أهداف الكلمة كما اجمعت من حولها الامارات والولايات وكل المذاهب والفرق والاتجاهات... وأصبح تحرير القدس - هو طريق الوحدة العربية[٣٩] ولقد كان طبيعياً ومنسجماً مع حركة التاريخ وارادة الحياة ان ينتصر صلاح الدين في هذا الصراع، لانه فرق بين الذين جاءوا من مختلف البلاد الاوربية بشريعة المجازر وقانون الدمار وقيم السلب والنهب ليقيموا بواسطتها ملكاً على أنقاض الشريعة الاسلامية وقيمها والمؤمنين بها، وبين الذين أثارتهم هذه البشاعات فهبوا يعيدون الحق الى نصابه ويمحون عن الانسان المتحضر تلك الوصمة التي لطخ بها الصليبيون هذه الصفحة من صفحات التاريخ[٤٠]

ومثلما كتبت الهزيمة على الصليبيين الغزاة، سيهزم الصهيونيين البغاة، وتتحرر القدس من دنسهم، لأن للباطل جولة، وفي النهاية: «لا يصح الا الصحيح»...

* « المصادر والهوامش » *

(١) د. أحمد احمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ط ١ ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ مطبعة نهضة مصر.
وانظر: د. عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية ص ١٠٥ دار الفكر العربي ـ القاهرة / ١٩٤٨.
(٢) محمد عمارة: معارك العرب ضد الغزاة ـ مقالة (تحرير القدس) ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت / ١٩٧٢.
(٣) د. احمد بدوي: نفس المصدر ص ١١ ـ ١٢.
(٤) المراجم: جمع مرجمة، وهي القبيح من الكلام.
(٥) المذاكي: الخيل التي تم سنها (لسان العرب ١٤ / ٢٨٨).
(٦) القشاعم: جمع قشعم وهو المسن من النسور. لسان العرب ١٢ / ٢٨٤.
(٧) محمد عمارة: معارك العرب ضد الغزاة ص ٢٩ ـ ٣٠
(٨) نفس المصدر ص ٣٣.
(٩) نفس المصدر ص ٣٠.
(١٠) نفس المصدر ص ٣٣.
(١١) نفس المصدر ص ٣٤.
(١٢) نفس المصدر ص ٣٥. (١٣) د. احمد بدوي: نفس المصدر ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠.
(١٤) محمد عمارة: نفس المصدر ص ٥٤.
(١٥) ابن الاثير: الكامل ١١ / ٥٥٩ بيروت / ١٩٦٦ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ٢ / ٢١٤ تحقيق جمال الدين الشيال ـ القاهرة / ١٩٥٧.
(١٦) محمد عمارة: المصدر نفسه ص ٥٥
(١٧) د. أحمد بدوي: نفس المصدر ٤٦٢
(١٨) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ٢ / ١٠١ القاهرة ١٢٨٧ ـ ١٢٨٨ هـ.
(١٩) مفرج الكروب ص ٢٠٠ والروضتين ٢ / ١٠٥.
(٢٠) د. عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية ص ١٣٢ الطبعة الأولى ـ دار الفكر العربي. القاهرة / ١٩٤٨.
(٢١) د. أحمد بدوي: نفس المصدر ص ١٠٦.
(٢٢) بهر بهاراً: غلب ضوءه ضوء الكواكب.
(٢٣) الروضتين ٢ / ١١٩.
(٢٤) الروضتين ٢ / ١٠٤.
(٢٥) يبدو أن لون راية صلاح الدين كان اللون الأصفر. وصف سعاد بن عبد الله راية صلاح الدين بقوله:

ورايـة مـا هـنـت يـومـاً ذوائـبـهـا
الا هـل قـدّ هـــال مـن الـدّبـل

صفراء، عالقة بالنصر، حائزة
بالحول مالم يحزه الغير بالحيل
منشورة ليس يطوى عزم صاحبها
حتى ينال مكاناً قط لم ينل

ـ ووصف شهاب الدين الشاغوري هو الأخر راية صلاح الدين بقوله:

رايـاتـه صـفـر تـسـود وتـنـشـني
حمراً تمج نجيع آل الأصفر

ـ وقال ابو الفضل الجلياني في تلك الراية:

أرى الرايـة الـصـفـراء يـرمـي اصطفـافـهـا
بـنـي أصـفـر بـالـراجـفـات الـلـهـازم

ـ براجع كتاب الروضتين ٢ / ١١٩ و ١١٦
(٢٦) الروضتين ٢ / ١١٨
(٢٧) الروضتين ٢ / ١٠٦
(٢٨) الاسبتار: كان واجبهم اسعاف المرضى وبعد [illegible] الصليبيين على القدس تحولوا الى هيئة من الفرسان المحاربين.
(٢٩) الداوية: كان واجبهم ارشاد الحجاج النصاري وحمايتهم، وكانوا مقاتلين وقس وخلال الحروب الصليبية كانوا يقومون بالتقليات.
(٣٠) وقعة التل: المقصود بها معركة حطين (تل حطين).
(٣١) ضحى السبت: هو اليوم التالي لليوم الذي انتصر فيه صلاح الدين في موقعة حطين.
(٣٢) الروضتين: ٢ / ١١٦.
(٣٣) الروضتين ٢ / ١٠٤ وانظر: د. أحمد احمد بدوي: صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه ص ١٠١ ـ ١٠٣ القاهرة / ١٩٦٠.
(٣٤) د. أحمد بدوي: المصدر السابق ص ١٠٨ ـ ١٠٩.
(٣٥) الروضتين ٢ / ١٥١.
(٣٦) د. عبد اللطيف حمزة / أدب الحروب الصليبية ص ١٤٤
(٣٧) د. د. احمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة نهضة مصر.
(٣٨) عبد الكريم توفيق العبود: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ص ١٤٩ (بتصرف) الناشر / وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد / ١٩٧٦.
(٣٩) معارك العرب ضد الغزاة ص ٤٧ ـ ٤٨.
(٤٠) نفس المصدر ص ٥٩

* * *

عبد الرحمن حلمي ومخطوطته في تاريخ بغداد في القرن التاسع عشر

دراسة
د. عماد عبد السلام رؤوف
كلية التربية ـ جامعة بغداد

المؤلف

وضع هذا الكتاب، في منتصف القرن التاسع عشر، مؤرخ بغدادي ينتمي الى الاسرة العباسية السهروردية المشهورة في الدور وبغداد بكثرة من خَرَّجته من العلماء والمؤلفين، وهو الشيخ ابي الخير عبد الرحمن حلمي بن الشيخ محمد عبد المحسن ابن الشيخ محمد صالح بن محيي الدين بن مصطفى بن عَبد القادر بن محمد بن كمال الدين بن احمد سيف الدين العباسي نسباً والسهروردي طريقة وشهرة.

وليس من العسير أن نُدرك ما لبيئة المؤلف وثقافة أسرته من اثر على اهتماماته العلمية، واتجاهاته في مجال الكتابة والتأليف، فأبوه محمد عبد المحسن كان مدرساً وقاضياً ومؤلفاً لعددٍ من الكتب احدها في تاريخ بغداد، سماه «تاريخ حوادث بغداد الجديدة»[1] وجده محمد صالح، كان ـ هو ايضاً ـ مدرساً وقاضياً، له كتاب في الموضوع نفسه، بل ان جده الاعلى، الشيخ احمد سيف الدين كانت له «مع الولاة مواقف مشهورة ومناظرات معلومة كان يقيِّد عليهم الأوابد، ويجمع لهم من أعمالهم الشوارد، وقد استقصى عنهم ذلك»[2] فيكون هو قد ورث اهتمامه بتاريخ بغداد عن آبائه وأجداده، اذ كان تسجيل حوادث هذه المدينة قد غدا تقليداً أُسرياً محضاً يكمِّل فيه كل واحدٍ ما انتهى عنده سلفه، وربما استفاد مما كتبه آباؤه في كتابه هو، فتتداخل الكتب لتؤلف شريطاً تاريخياً واحداً، متسق الأحداث، متعاقب العهود، واذا كانت مؤلفات أجداد الاسرة قد فقدت، فإن في مؤلفات عبد الرحمن حلمي وابيه محمد عبد المحسن، ما يؤكد صحة هذا الاستدلال الى حدٍ بعيد.

ومعلوماتنا عن سيرة مؤرخنا العباسي محدودة، استقينا أغلبها من خلال ما كتبه هو في تاريخه، وان لم نهمل ما اورده حفيده من شذرات قليلة عن حياته، في كتابه الذي عنونه «اعمال الاجداد في محلات ومعاهد وآثار.. بغداد»[3] وحدد فيها تاريخ وفاته.

وخلاصة ما توصلنا اليه، في هذا الصدد، انه ولد سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م، وانه الثالث في تسلسل الولادات في اسرته، التي تتألف من ستة من الذكور، وابنتين اثنتين[4] وقد عاش في بيت اسرته في محلة فراشة احدى محلات بغداد الشرقية القديمة،[5] ونال تعليماً جيداً بحسب مستوى عصره، اذ تتلمذ على ايدي علماء بارزين في مدينته، ذكر منهم الشيخ محمد امين ابن علي السويدي (المتوفي سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م) وهو من المهتمين بالتاريخ والأنساب، وقد ألَّف فيهما، وأشار هو الى انه اجازه «بكل العلوم»[6]. ومنهم ايضاً الشيخ يحيى المزوري العمادي (المتوفي سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م) ونال منه الاجازة «بجميع العلوم العقلية والنقلية» وذلك سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م،[7] ونظراً لعلاقات اسرته الوثيقة بالعديد من علماء عصره، فمن المؤكد انه نال اجازات عديدة منهم، ولكنه لم يصرح باسمائهم جميعاً.

وتزوج من فتاة تدعى (خديجة) فانجب منها ولداً سماه محمد امين سيكون هو ايضاً مؤرخاً،[8] وبنتين، هما فاطمة وآمنة، وشاء القدر ان تتعرض اسرته الى نكبة داهمة، فقد توفي معظم اخوته بالطاعون الذي اصاب العراق سنة ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ م، ولم يسلم منه غير اخاه عبد القادر، ثم فشا المرض في زوجته، وابنته آمنه، فتوفيتا، مما اضطره - بالحاح من والده - الى مغادرة بغداد، التي اصابها الغرق ايضاً، قاصداً بلدة (الدور)[9] موطن اسرته الاول، ليقيم فيها برهة من الزمن ريثما تتجلى الغمة عن بغداد، وبعد مدة عاد اليها، واقام في محلة باب الاغا، وتزوج للمرة الثانية من ابنة احد الضباط الكبار في الجيش[10]، وانجب ولدين هما عبد المحسن ومحمد سليم، وقد عرف كل منهما بالعلم والتأليف. وتوليا المناصب الدينية، وكانت لأولهما « مجاميع فيما وقع في بغداد من النوادر التاريخية، وفي تاريخ العوائل المشهورة، مع عزوهم الى أصلهم وسبب مجيئهم بغداد »[11] وهو من الكتب التي لم تصلنا، وان كان مما يلفت النظر تشابه موضوعه مع موضوع كتاب أبيه الذي نحن بصدد دراسته الآن.

ومعلوماتنا عن الوظائف التي تولاها عبد الرحمن، قبل وفاة ابيه سنة ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٦ م غير كافية، ولكننا نعلم انه تولى - بعدها - الاشراف على اوقاف جامع الشيخ عمر السهروردي، الذي تتولى الأسرة رعايته منذ قرون، كما تولى وظائف الامامة والخطابة والتدريس فيه. وشغل، من الوظائف الحكومية، منصب مدير الاعشار في ولاية نامق باشا الاولى (١٢٦٧ - ١٢٦٨ هـ / ١٨٥٠ - ١٨٥١ م) وصار عضواً في مجلس ادارة ولاية بغداد، هذا بينما شغل أخوه عبد القادر سائر وظائف ابيه الأخرى، واثرت عنه اعمال مهمة في نطاق تعمير جامع الشيخ عمر السهروردي وتطوير مرافقه[12]

وتولى، في الوقت نفسه، الاشراف على اوقاف اخرى، منها وقف السيدة خديجة زوجة محمد الرواف للبساتين التي في جهة الباب الشرقي على أعمال البر والخير[13].

وترجم له السيد عبد الحميد عبادة في كتابه « العقد اللامع في آثار بغداد والمساجد والجوامع » فقال « كان متواضعاً ورعاً مشغولاً بالطاعة الربانية، وبتدريس العلوم بتلك المدرسة (يريد مدرسة الشيخ عمر السهروردي) وكانت تهرع اليه الطلبة من كل فج وجانب. . وكان معتمداً لدى الولاة والوزراء »[13].

ومن ناحية اخرى كان عبد الرحمن حلمي شخصية إجتماعية تربطها بأبناء مدينته وأسرهم روابط وصلات عميقة، وقد أشار هو، في ترجمته لعدد من معاصريه، الى ما يربط بهم من صلات، فقال مثلاً عن السيد حسين رفه انه « أجل اصدقائنا »[14] ووصف خليل افندي بأنه « من أحبابنا المقربين لدينا، وهو من سكنة محلتنا ولنا معه صداقة تامة، لا ينفك عن مجالستنا »[15] وأشار الى الحاج رسول أفندي بقوله « هو من أكثر جماعة الدولة حباً الينا واكثرهم زيارة وتردداً على مجلسنا »[16] ووصف السيد احمد الدركزلي بانه « من أحبابنا وملازمينا مع جماعة أخرى كالاخ عبد القادر باشا وأنيس أفندي وحسيب باشا[16] والي بغداد ونحن مع الجميع في حبور »[17] وغير ذلك من العبارات التي يفهم منها طبيعة علاقاته الاجتماعية والثقافية بمعاصريه، وهي علاقات مكنته، الى جانب عوامل اخرى، من ممارسة نفوذ غير عادي في الحياة العامة لمدينته، ولا أدل على ذلك من انه توسط لمحمد سعيد افندي نقيب الأشراف ببغداد لدى واليها رشيد باشا (١٢٦٨ - ١٢٧٣ هـ / ١٨٥١ - ١٨٥٦ م) أيام كان الاخير في الأستانه، وذلك « في قضاء مصالحه - أي مصالح محمد سعيد - بخصوص بعض اوقاف الحضرة » فما كان منه الا ان استجاب[18]. ووصف مجلسه في الحديقة التي أنشأها في جامع عمر السهروردي، بانها « كانت مجلس الوزراء والاصفياء من العلماء »[19] وقال عبد الحميد عباده « وكان معتمداً لدى الولاة والوزراء »[20].

وكانت وفاته - رحمه الله - في ٢٢ رمضان سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م، ودفن في رواق جامع السهروردي، عن يمين جداره القبلي[21] وارخ وفاته الشاعر أحمد عزت العمري، بقوله:

ان عبد الرحمن ذات شريف	قد تحلى بخدمة المعبود
صرف العمر في صلاة وصوم	وقضى نحبه عقيب السجود
فرحت بقدومه الحور حتى	قابلت روحه بند وعود
ولسان الحال قد قال أرخ	جاء عبد الرحمن دار الخلود

الكتاب

ليست ثمة معلومات عن مؤلفات عبد الرحمن حلمي وآثاره العلمية وقد اشار عباده الى ان « له مؤلفات ذهبت بالغرق »، والكتاب الوحيد الذي وصلنا، هو هذا الذي نحنُ بصدده الآن،[22] وليس للكتاب عنوان، وربما كان له، لكنه ضاع بسقوط الورقة الأولى منه، فاننا وجدناه يبتدىء بخطبه المؤلف رأساً، ولولا أن المؤلف ذكر أسمه في خطبته لما توصلنا اليه هو ايضاً.

ويتضح مما ذكره انه لم يؤلف كتابه هذا استجابة لطلب احدٍ

ـ كما هو التقليد السائد غالباً في عصره ـ وانما ألّفه لدواعي ثقافية خاصة به، وهي رغبته في ان يدون ما رآه في عصره من العلماء والفضلاء. فقال « فقد ظهر في هذا البلد كثير من أهل العلم والفضل وبرز فيه رجال لهم أخبار من محاسن الأخبار وكياسة واستبصار ووددت أن أذكر في هذه العجالة من رأيته منهم في عصري وقد شاهدته وكنت منه على اتصال في مصري »[٢١]. وهكذا فانه شرط في كتابه ان لا يذكر فيه الا من يعرفهم من معاصريه بصفة شخصية، وربما كان هوالسبب وراء اغفاله الكلام على أسر بغدادية، وردت أسماء بعض رجالها في كتابه عرضاً، والمصنف نفسه، فانه لم يشر الى أية مصادر استقى منها مادته العلمية، باستثناء كتاب أبيه الشيخ محمد عبد المحسن الذي أرّخ فيه ما وقع في بغداد في أعقاب انتهاء حكم واليها داود باشا، وفي حكم خلفه علي رضا باشا اللاظ، فقال واصفاً منهجه في التأليف « وأذكر لأدنى مناسبة ما حرره يراع ساكن الجنان والمتفيء بظل عرش الرحمن. . سيدي المعظم ووالدي المفخم. . »[٢٢] وفي الواقع فانه اقتبس فقرات، بل صفحات بكاملها، من كلام أبيه، استفاد منها في ايراد التفاصيل الخاصة بما اصاب بعض الاسر البغدادية في عهد علي رضا باشا اللاظ، وبخاصة تلك التي كانت محسوبة على سابقه، داود باشا، من اضطهاد وتنكيل، ويظهر انه أورد تلك المعلومات، بهدف العظة والعبرة، اذ قال انه ذكرها « ليطلع العاقل على ما مر على هذا البلد من مخاطر وغمة من سوء مناظر فيزيده عقلاً واعتباراً »[٢٣] هذا مع ان منهج أبيه وغايته من تأليفه يختلفان تماماً عما ألزم به نفسه، فما كتبه محمد عبد المحسن كان في أصله رسائل مفصلة أرسلها الى داود باشا بعد ان عُزل عن ولاية بغداد، وصف فيها ما جرى لأتباعه، وأهل بغداد، من نكبات بشرية وطبيعية في عهد علي رضا باشا، ولذا فانه استخدم، في طول رسائله تلك، ضمير المخاطب، والغريب ان مؤرخنا عبد الرحمن حلمي أبقى بعض تلك الضمائر في اقتباساته، ونظنه فعل ذلك عن غير قصد، لأن الكتاب لم يخرج عن مسودته الاولى، وفيه من الشطب والتعديل ما دلّ على ان مؤلفه لم يكن قد فرغ منه ليخرجه الى البياض.

وعلى أية حال، فان الكتاب جاء جم الفوائد، كثير التفاصيل، وبخاصة ما يتعلق منه بالتاريخ الاجتماعي لمدينة بغداد في القرن التاسع عشر، كما انه ضم ايضاً معلومات مهمة عن خطط بغداد وعشائرها والاحداث السياسية التي جرت في عهده، وفي عهد ابيه المذكور. وسنأتي ـ فيما يلي ـ الى تحليل جوانبه المختلفة.

الجانب الاجتماعي:

يمكننا ان نعد مخطوطة السهروردي هذه أقدم قائمة، واكثرها تفصيلاً عن الأسر البغدادية في القرون المتأخرة، فليس ثمة ما يضاهي معلوماتها سعة ودقة، اذ تكلم فيها على (٦٦) اسرة، تعد ـ فيما يظهر ـ أبرز أسر المدينة واكثرها شهرة، وهي:

١ ـ بيت احمد شكري
٢ ـ بيت السيد فتاح
٣ ـ بيت رفه
٤ ـ بيت الملا اسماعيل
٥ ـ بيت الدباغ
٦ ـ بيت ملا سليمان الجوره بجي
٧ ـ بيت اوده باشي
٨ ـ بيت السيد حسين رفة
٩ ـ بيت معروف
١٠ ـ بيت مصطفى اغا
١١ ـ بيت فتحي الموصلي
١٢ ـ بيت علاوي
١٣ ـ بيت فيشتي
١٤ ـ بيت مصطفى
١٥ ـ بيت شيخ عمر
١٦ ـ بيت ابراهيم نديم
١٧ ـ بيت السويدي
١٨ ـ بيت العشاري
١٩ ـ بيت الاعظمي
٢٠ ـ بيت مهدي چلبي
٢١ ـ بيت عبد الرحمن الاعظمي
٢٢ ـ بيت البمنجي
٢٣ ـ بيت عبد الرزاق الشيخلي
٢٤ ـ بيت الشوشه جي
٢٥ ـ بيت امين
٢٦ ـ بيت محمد رفيع
٢٧ ـ بيت الرواف
٢٨ ـ بيت تاتار اغاسي
٢٩ ـ بيت الخاصكي
٣٠ ـ بيت نائب بغداد
٣١ ـ بيت بكتاش
٣٢ ـ بيت وهب اغا

٣٣ - بيت عبود
٣٤ - بيت البرزنجي ٣٥ - بيت ينكجري افنـديـسي (وهم آل الرهاوي)
٣٦ - بيت النقيب
٣٧ - بيت الحاج طه
٣٨ - بيت العشاري (اشار الى بعض رجالاته في موضع سابق)
٣٩ - بيت الراوي
٤٠ - بيت عبد الكريم افندي
٤١ - بيت القيار
٤٢ - بيت الفناهره
٤٣ - بيت مصطفى الخليل
٤٤ - بيت الحاج صالح كاتب الكمرك
٤٥ - بيت يوسف بك
٤٦ - بيت عزيز اغا
٤٧ - بيت الحاج حبيب
٤٨ - بيت رضوان اغا
٤٩ - بيت نائب زاده
٥٠ - بيت السويدي (اشار الى بعض رجالاته في موضع سابق)
٥١ - بيت محمود بن زكريا النقيب
٥٢ - بيت محمد سعيد المفتي
٥٣ - بيت يحيي المزوري
٥٤ - بيت مرزا اغا
٥٥ - بيت القنوي
٥٦ - بيت اغا زاده
٥٧ - بيت الجاويش
٥٨ - بيت خليل افندي (الدفتري)
٥٩ - بيت بكتاش
٦٠ - بيت الدوري
٦١ - بيت متولي الدور
٦٢ - بيت محمد سعيد نقيب بغداد
٦٣ - بيت الحاج رسول افندي
٦٤ - بيت الدركزلي
٦٥ - بيت الحيدري
٦٦ - بيت الشاوي.

وموطن أهمية كلامه على هذه الأسر، انه ضمنه معلومات ذات فائدة حقيقية في دراسة منشأها، والمدن التي انحدرت منها، فقال في كلامه على بيت السيد فتاح ان « رجاله من بلدة الموصل واستوطنوا بغداد قبل سنة ١٢٣٦ هجرية »[٢٤] ووصف بيت الدباغ بان « أصلهم من الموصل سكنوا بغداد سنة ١٢٣٠ »[٢٥] ووصف بيت الجوره بجي بالموصلي، فعرفنا بأصلهم، ومثله ما ذكره عن بيت فتحي الموصلي،[٢٦] وبيت علاوي، اذ قال عنه « هو من البيوت الموصلية »[٢٧]، وقوله عن بيت البرزنجي انهم « من اهل برزنجه »[٢٨] وعن بيت السويدي انهم « من اهل قرية الدور العليا »[٢٩] وعن بيت الرواف انهم « من اهل نجد »[٣٠] وعن بيت عبود انهم « من اهل الموصل جاءوا الى بغداد »[٣١] ومثل هذه المعلومات تفيدنا في تحديد تواريخ هجرة الأسر الى بغداد، فضلاً عن مناطق هجرتها، مما يفتح مجالات جديدة للبحث في تاريخ الهجرات الاجتماعية، وآثارها الاقتصادية والسياسية، أبان ذلك العصر.

ويزيد من أهمية هذه القائمة، انه اشار في مواضع عديدة، الى المهن التي اشتهرت بها تلك الأسر، وصلة ذلك بالعوامل التي ادت الى هجرتها الى بغداد، وعند تحليلنا للمعلومات التي أوردها عن الخلفيات الاقتصادية لتلك الاسر، توصلنا الى انه ذكر:

٢٨ أسرة من العلماء
١٣ أسرة من الموظفين وارباب المناصب العسكرية (اغوات)
١٣ أسرة من التجار واهل الحرف
٤ اسر من الوجهاء
٨ اسر لم تحدد مهنهم
المجموع ٦٦ أسرة

واهتمام عبد الرحمن حلمي بتسجيل اخبار اسر تنتمي الى فئة العلماء - وهو منهم - وفئة الموظفين وارباب المناصب، والوجهاء الذين يستندون في ثروتهم على ملكياتهم العقارية او الزراعية، يبدو مألوفاً لدى مؤرخي ذلك العصر، فهذه هي الفئات التقليدية السائدة في مجتمعات المدن العربية في القرون الاخيرة، وهي التي تحظى، على الدوام، بعناية المؤرخين، حتى ان مؤرخاً معروفاً، هو ياسين بن خير الله الخطيب العمري، لم يأنف - وهو يؤرخ لبغداد، في اواخر القرن الثامن عشر، من ان يصرح بانه ذكر من ادركه من « وزراء وعلماء وامراء وشعراء، ممن سافر الى بغداد، ولا نذكر ما عداهم لأن غيرهم تجار وأرباب صنائع فلا فائدة بذكرهم »[٣٢]

الّا ان الـذي يستلفت النظر فعلاً، هو اهتمام المؤلف بالترجمة لأسر التجار البارزة في المدينة، فقال عن بيت السيد فتاح

انهم، بعد استيطانهم بغداد «أخذوا بالبيع والشراء وصار لهم حظ وافر»[٣٥] وعن بيت الدباغ بانه «بيت تجارة وكانوا يحترفون دباغة الجلود وصار لهم مال بذلك»[٣٦] ووصف بيت الشوشه جي بانه «بيت تجارة»[٣٧] وذكر عن الملا سليمان الجوره بجي الموصلي انه «جاء بغداد بسبب التجارة والبيع والشراء بالجوربه وغير ذلك»[٣٨] ووصف بيت فتحي الموصلي بانه «بيت كسب وسعي وتجارة»[٣٩] وبيت علاوي بأنه «من البيوت الموصلية بسبب التجارة»[٤٠] وبيت مصطفى بانه «بيت تجارة واهله أجواد»[٤١] وغير ذلك.

ونلاحظ ايضاً ان اهتمام عبد الرحمن حلمي برجال هذه الفئة لم يكن بسبب انهم عرفوا، الى جانب تجارتهم، بالادب مثلاً، ولكن لكونهم اشتهروا بالتجارة وحدها، بوصفها نشاط اقتصادي حضري له اهميته الاجتماعية، وعندنا ان سبب هذا الاهتمام يعود الى ازدياد دور التجار انفسهم في الحياة العامة للمدن العراقية خلال القرن التاسع عشر، واتساع مجالات نشاطاتهم لتشمل جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية، وبخاصة في مجال تأسيس المساجد والمدارس ووقف لادامتها ودفع رواتب العاملين عليها من الائمة والخطب، والمدرسين والطلبة وغيرهم، فهي اذن نشاطات لم تكن بعيدة عن الاهتمامات العامة لمجتمع المدينة، وبخاصة فئة العلماء الذين كانوا يمارسون نشاطاتهم الثقافية والروحية من خلال تلك المؤسسات.

ومنهج عبد الرحمن حلمي في عرضه للاسر البغدادية في منتصف القرن التاسع عشر، يتحدد في جملة من الأمور، اهمها اشارته الى موطن الاسرة الاول، ومهنتها ـ على ما ذكرنا ـ والتنويه بأبرز رجالاتها مع التطرق الى ما حازته تلك الاسر من سمعة طيبة ومجد. ويشير ـ في بعض الاحيان ـ الى صلة رجال الأسرة بالسلطة، والى طبيعة ما ترتبط به، مع اسرته، من علاقات ووشائج مختلفة.

وفضلاً عن ذلك، فان في الكتاب إشارات مهمة الى أسماء بعض القبائل والعشائر وتحركاتها في خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر وأخبارها، مثل قبيلة الخزاعل ونشو الطاعون فيها سنة ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ م، وانتفاضتهم على علي رضا باشا وامتناعهم عن دفع الرسوم الأميرية، وتحركات قبيلة شمر الجربا بزعامة شيخها صفوق في نواحي سنجار، وانتفاضة قبيلتي الجبور وعقيل على علي رضا ايضاً، وسعي الأخير في اثارة النزاع بين قبيلتي شمر وعنزة، وبين عشائر بني تميم، كما تضمن ايضاً اشارات متفرقة الى عشائر وحمائل مختلفة، مثل الكبيبات في جهة بعقوبا والبو عواد والبو بايز والبو واوي والسادة المواشطة وغيرهم.

الجانب الاقتصادي:

لا تخلو المخطوطة من اشارات ذات شأن الى بعض جوانب الحياة الاقتصادية في النصف الاول من القرن التاسع عشر، مثل تنويهها بأنواع من العملات السائدة في ذلك العهد، كالقرش، والقرش رايج ببغداد، والقرش الصاغ، والأقجة (وهي الدرهم الفضي العثماني) وتحديدها قيمة الأقجة بثلاثة قروش صاغ، وهي اشارة مهمة تدل على تذبذب العلاقة بين هذين النوعين من العملات العثمانية آنذاك.

ومن ناحية اخرى، فان المخطوطة تحتوي على معلومات مهمة حول الاوزان المستخدمة في سوق بغداد، واسعار المواد المعاشية الاساسيه في بعض سني الغلاء، مما يفيد في معرفة القوة الشرائية الفعلية للعملات المتداولة في تلك الظروف، وذلك على النحو الآتي:ـ

المادة	الوزن	السعر بالقرش الرائج
الارز	وزنه	٧١ قرشاً
السمن	من	٩٠ ثم ١٢٠ قرشاً
الشعير	وزنه	٢٠ ثم ٥٠ قرشاً
الشمع	أقة	١٠ قروش
التمر الخضراوي	اقة	٣ قروش
التمر الاشرسي	اقة	٣ قروش
التمر البيدراية	اقة	٣ قروش
التين البيشتك	اقة	٦٠ قرشاً
الذرة	اقة	٣٠ قرشاً
المرطمان	حقة	١٠ قروش
اللوبية	حقة	١٠ قروش
الباقلاء	حقة	١٠ قروش
سائر انواع الحبوب	حقة	١٠ قروش
الشيرج	حقة	١٠ قروش

وسجل مقادير رواتب بعض فئات المجتمع البغدادي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن التاسع عشر، مما يُعين

الباحث على دراسة المستوى المعاشي لها، ومن تلك الفئات: المدرسون والوعاظ ومتولو الأوقاف والخطباء وغيرهم، وهي رواتب تبدو طيبة للغاية، فوارد أبيه محمد عبد المحسن، كان يقرب من خمسة آلاف آقجه (الأقجة = ٣ قروش صاغ) مؤلفاً من رواتب عدة وذلك على النحو الآتي:-

النظارة على اوقاف الشيخ عمر السهروردي والتدريس في جامعه	٧٢٠آقجة
النظارة على اوقاف محمد الفضل والوعظ في جامعة	١٠٨٠آقجة
حصة من اوقاف الامام محمد الدوري	٣٦٠آقجة
الخطابة في جامع مرجان	٥٠٠آقجة
التدريس والامامة والتولية في جامع حسب الله	٥٠٠آقجة
المجموع	٤٤٨٠آقجة

فاذا ما لاحظنا أسعار المواد في القائمة أعلاه، وهي تمثل أعلا ما تصل اليه في أيام الغلاء، تبين لنا المستوى المعاشي المرتفع الذي كان عليه واحد من فئة العلماء في ذلك العهد.

وتطرق عبد الرحمن حلمي، فيما تطرق اليه، الى الضرائب والمصادرات التي كان يتعرض لها التجار وأهل الحرف بين حين وآخر، فأشار الى ما فرضه علي رضا باشا من الضرائب على التجار والبزازين والخفافين والحدادين والعطارين وغيرهم من الوجوه والأغنياء «فالذي لم يدفع يُحبس ويُضرب»[١٢]

ولم يقصر المؤلف اهتمامه على الحياة الاقتصادية داخل المدينة نفسها، وانما تناول بعض الأوضاع الاقتصادية في الريف ايضاً، فسجل مثلاً تحول نهر دجلة عند بلدة الدور وما سببه هذا التحول من أزمة اقتصادية، ادت الى هجرة السكان منها الى بغداد، كما تكلم على مشاكل الملكية الزراعية في الدور، واشار الى عدد من الولاة الخاصة بها، كما انه وضح الصلة بين حيازة الملكية الزراعية وبين تولي السلطة الادارية في مكان ما، حين اشار الى ان جده محمد صالح وكان - على ما وصفه - حاكماً الطاغياً «يحكم الدور وسر من رأى وتكريت والدجيل وما والاها شرعاً وادارة ولقب بمتولي الدور وسر من رأى وتكريت والدجيل ومتسلمها وقاضيها الى غير هذه الالقاب التي كانت تختلف باختلاف توالي الولاة (في) مدينة بغداد»[١٣] فملكيته الواسعة اذن هي التي دفعت ولاة بغداد الى تخويله حكم تلك المنطقة المهمة وتفويضه صلاحياته المختلفة فيها.

الجانب السياسي:

ان معظم المعلومات التي اوردها المؤلف عن هذا الجانب، استقاها من كتاب أبيه المشار اليه سابقاً، وهي رواية شاهد عيان عاصر احداث الاضطهادات التي عانى منها البغداديون إثر اعادة الحكم العثماني المباشر الى العراق، ولذا فقد حفلت المخطوطة بمعلومات مهمة عن تعسف الوالي علي رضا باشا، وغصبه للدور والاموال، وكراهية أهل بغداد له، ولأعوانه الذين لا يتورعون عن ايذاء الناس طمعاً فيما يملكون،[١٤] كما تضمنت تفاصيل عن نكبة علي رضا لرضوان آغا، أحد اتباع داود باشا، واضطراره الى مغادرة بغداد، ثم مصادرة أمواله، والتنكيل بأهله،[١٥] ولثورة الشيخ صفوق الجربا على علي رضا في سنجار وقدوم محمد امين باشا الجليلي احد اواخر ولاة الجليليين في الموصل الى بغداد، والتحركات القبلية المصاحبة لتلك الأحداث.[١٦]

الجانب الخططي:

احتوى المخطوط، في ما بين تفاصيله العديدة، على اشارات مهمة عن مواضع جغرافية في بغداد في منتصف القرن التاسع عشر، من شأنها ان تفيد الباحث في خطط هذه المدينة، مثل اشارته الى المدرسة السليمانية (التي انشأها سليمان باشا الكبير) والى مسجد حسب الله، وجامع الامام الاعظم، والقصبه الاعظمية، ومحلة باب الاغا، ومحلة الاغوات، ومحلة قراشة، وجامع قنبر علي، ودار الامارة (السراي) وغير ذلك من مواضع كانت معروفة في عهده.

كما انه اشار الى مدن ومواضع جغرافية خارج بغداد، مثل الحلة والحسكة وتكريت والدور والدجيل وسنجار والعمادية ورواندوز وعانة وبعقوبة وهيت، والى مواضع في الدور، مثل الواعية والخيزرانية والرشيدية والرحمانية، وهي مواضع لم نكن لنسمع بها لولا اشاراته تلك وما اورده بشأنها من معلومات.

الجانب الاداري:

والمخطوط حافل باسماء المناصب والوظائف الادارية التي كانت معروفة في سراي بغداد وفي قواتها المسلحة ابان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ويمكننا ان نعد عبد الرحمن حلمي آخر من سجّل لنا وجود تلك المناصب والوظائف والالقاب، قبل ان تأتي عليها حركة التنظيمات العثمانية في سبعينات القرن الاخير، ومنها: الاورده باشي (أي آمر القاعة حيث مبيت العسكريين) والتاتار آغاسي (أي المسؤول عن شؤون البريد) والخاصكي (رتبة عسكرية عثمانية) والينكجري أفندیسي (ويظهر انه المسؤول عن الشؤون الادارية لاورطات الانكشارية)

في بغداد) وكاتب الكمرك، والمصرف، والدفتردار (وظيفتان ماليتان) والكَتْخُدا (نائب الوالي ومساعده) والجَبَخانه جي باشي (المسؤول عن مخازن العتاد) والجاووش (ضابط انكشاري موكل بتبليغ الاوامر وتنفيذ العقوبات) والمحاسَبه جي افندي (مدير المحاسبات العامة) وغير ذلك من وظائف والقاب.

الجانب الثقافي

وفي الكتاب اخيراً بعض اللمحات عن الحياة الثقافية في بغداد والدور آنذاك، فقد تكلم فيه مؤلفه على الاسر العلمية، ونوه ببعض رجالاتها، واهتم - على نحو خاص - بالترجمة للعلماء من اسرته، وسجل عنوانات مؤلفاتهم العديدة في العلوم الدينية واللغوية وفي المنطق والعقائد والتاريخ،[17] واشار الى اعمالهم الثقافية في بلدتهم «الدور» وما انشأوه فيها من المدارس،[18] ثم ما اصاب الحياة الثقافية فيها نتيجة هجرة بعض سكانها الى بغداد،[19] وما يتصل بذلك من شؤون.

ـــ الهوامش ـــ

(١) المخطوط ص ٦٤ وله ترجمة في آخر كتابه «نجاة الناس بكلمة الاخلاص» كتبها حفيده محمد صالح بن سليم (بغداد ١٣٤٥ هـ).

(٢) المخطوط ص ٨٦

(٣) نسخة بخط مؤلفها، لدى كاتب البحث، ج ٢ ص ٥٠٨

(٤) هم محمد اسعد (ولد ١٢١٠ هـ / ١٧٩٥ م) وعبد القادر (ولد ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م) ومحمد صالح (ولد ؟) وعبد الغني (ولد ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م) وعبد العزيز (ولد ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م) وحبيبة (ولدت ١٢٢٣ هـ / ١٨٠٨ م) وعائشة (ولدت ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م).

(٥) محلة قديمة، وردت الاشارة اليها اول مرة في حوادث سنة ٧٠٠ هـ وكانت تقرب من محلة قنبر علي، وبعد عقد سوق الشورجة من عقودها.

(٦) المخطوط الورقة ٤٧

(٧) المخطوط الورقة ٤٦

(٨) ولد سنة ١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦ م وتولى مناصب علمية وشرعية مهمة، واصبح عضواً في محكمة استئناف بغداد، وله كتاب (تاريخ بغداد) ذيل به تاريخ جده الشيخ محمد صالح العباسي. وتوفي سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٢ م، والغريب ان محمد صالح السهروردي، نقل عن جده محمد عبد المحسن، وهو والد عبد الرحمن حلمي، ان (محمد امين) هذا توفي في الطاعون ايضاً (آثار الاجداد الورقة ٧٦٠)

(٩) عرفت هذه المحلة بباب الاغا نسبة الى من نزلها وهو محمد اغا واحمد اغا الشابندريين وحيث ان احمد المذكور توظف في الكمرك اعطى هذا اللقب (محمد صالح السهروردي: لب الالباب ٢/ ٣٧٠)

(١٠) ويدعى (جَبَه خانه جي باشي عبوه اغا) ويظهر انه كان مسؤولاً عن مخازن العتاد في قلعة بغداد.

(١١) لب الالباب ٢ / ٣٧٢

(١٢) ذكر الشيخ محمد صالح السهروردي منها.

١ - بناء الطارمة القبلية

٢ - الطاق المطل على الصحراء. وقد ارخ الشاعر عبد الباقي العمري هذا التعمير، في قصيدة له، منقوشة على الرخام في جدار المدرسة الملحقة بالجامع، ومنها بيت التاريخ:

فارفع الكف داعياً يا مؤرخ   شاد عبد الرحمن قصراً مشيداً

١٢٨٧ هـ (٨٧٠ م)

(١٣) المخطوط ٨ وقد تحولت هذه البساتين الى محلة كبيرة في الثلاثينات عرفت بمحلة الرواف.

(١٣أ) المخطوط العقد اللامع، مخطوط، الورقة ٣٢

(١٤) المخطوط ٤

(١٥) المخطوط ٥١

(١٦) المخطوط ٨٦

(١٦أ) لم نعرف والياً ببغداد بهذا الاسم

(١٧) المخطوط ٨٦

(١٨) المخطوط ٨٥

(١٩) اعمال الاجداد ٥٠٨

(٢٠) العقد اللامع ٣٢

(٢٠أ) كان على قبره قفص من الخشب، ثم ازيل، وسوي بالارض، وطبق مع سائر القبور التي في ساحة الجامع.

(٢١أ) تقع هذه النسخة في ٨٩ صفحة، في كل منها نحو ١٦ سطر، وكان السيد مصطفى عماد الدين بن محمد صالح بن محمد سليم (والاخير هو اخو المؤلف) قد اهداها صيف سنة ١٩٨٣ فله مني كل شكر وثناء.

(٢١) المخطوط ص ٢

(٢٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٢٣) المخطوط ص ٢.

(٢٤) المخطوط ٢

(٢٥) المخطوط ٣

(٢٦) المخطوط ص ٤

(٢٧) المخطوط ص ٥

(٢٨) المخطوط ص ١٠

(٢٩) المخطوط ص ٦

(٣٠) المخطوط ص ٨

(٣١) المخطوط ص ١٠

(٣٤) ياسين العمري: غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ص ٣٢٢ (بغداد ١٩٦٨)

(٣٥) المخطوط ٢

(٣٦) المخطوط ٣

(٣٧) المخطوط ٨

(٣٨) المخطوط ٣

(٣٩) و (٤٠) المخطوط ٥

(٤١) المخطوط ٥

(٤٢) المخطوط ٣٣

(٤٣) المخطوط ٦٢

(٤٤) المخطوط ١٤

(٤٥) المخطوط ١٧

(٤٦) المخطوط ٤٣

(٤٧) المخطوط ٦٤ و٨١

(٤٨) المخطوط ٦٣

(٤٩) المخطوط ٥٢


الشيخ عبد القادر البغدادي
الياس
خلف
خضر
صالح
شجرة نسب السهروردي العباسيين
على ما جاء في وريقاتهم المخطوطة
نظمها / الراوي محمد عزت محمد سليم آل أحمد
خطها / الراوي عبد الرحمن عرفان بن محمد سليم آل أحمد
٢٨ شوال ١٤٠٩ هـ

خصوصية تحديد الاتجاه في الخرائط عند العرب

دراسة

د. فلاح شاكر اسود

كلية الاداب / جامعة بغداد

لم يكن وضع الجنوب في اعلى الخرائط العربية والشمال في اسفلها دليل جهل العرب بالمفاهيم الجغرافية واساسيات الخارطة ومتطلباتها الضرورية. كما انه لم يؤثر على صحة الخارطة العربية ومطابقتها مع الطبيعة. وذلك لان دور العرب في كافة فروع الحضارة دور بارز، ولهم اسهامات جليلة. ومن هذه الاسهامات دورهم المتميز في علم الخرائط، الذي قاموا به غيرهم من الحضارات والامم التي سبقتهم.

لقد ساهم العرب في تطور هذا العلم ودفعه الى الامام من خلال:

١ ـ اضافاتهم الهامة لكشوف من سبقهم، واكتشاف بعض الظواهر بمقارنة ارصادهم الجديدة بارصاد الاقدمين، وتصحيح كثير من الاخطاء والمواقع.

٢ ـ انتشار المراصد التي تضم العديد من الاجهزة الرصدية الدقيقة.

٣ ـ تطهير علم الفلك من شوائب التنجيم

٤ ـ جعلهم علم الفلك علماً استقرائياً، وعدم وقوفهم عند حد النظريات كما فعل اليونان(١)

لقد اطلع العرب على تراث اليونان والهنود والكلدان والسريان وغيرهم من الامم التي سبقتهم، وترجموا كتبهم الى اللغة العربية، وحفظوا نتاج هذه الامم ومنجزاتها، وبذلك ساهم العرب في حفظ تراث الامم الاخرى الذي كاد ان يفقد ويضيع وايصاله الى اوربا.

واذا كانت موجة الرجعية التي سادت اوربا، قد نادت باستعادة النصوص اليونانية القديمة، نتيجة الحقد والكراهية للتراث العربي. قد ادت للرجوع الى جغرافية بطليموس واخطاء اليونان التي تجاوزها العرب منذ ستة قرون وبذلك عاشت اوربا فترة من التأخر امتدت خلال الفترة ١٤٥٠ ـ ١٥٥٠، انتهت باضطرارهم الرجوع الى مؤلفات الحضارة العربية، واقتباس منجزاتها الزاهرة(٢)

واصبح الاوربيون من بداية القرن الخامس عشر ينهلون من معين الجغرافية العربية الذي لا ينضب، وكانت خارطة الادريسي الاثر الوحيد الهام في علم الخرائط والمرجع الاساسي في اوربا قبل القرن الرابع عشر(٣)

لقد كانت جغرافية بطليموس من المؤلفات الهامة التي اعتز بها العرب، ولهذا ترجمت الى العربية، ودرست بتمحص ودقة. وقد وجد العرب بطليموس رغم احترامهم له، واقعاً في اخطاء كبيرة، وخاصة فيما يتعلق بتحديد المواقع من حيث الطول والعرض لاغلب الاماكن التي وردت عنده، وقام العرب نتيجة إعادة الارصادات من جديد في مراصدهم التي انشأوها وبالآلاتهم الدقيقة التي اخترعوها، بتصحيح كثير مما ورد لدى بطليموس، مما جعل كتابه رغم وجوده لا قيمة علمية له.

ومن الامثلة على هذه الاخطاء التي وردت وصححت نستشهد بما يلي(٤)

١ ـ مبالغة بطليموس في تحديد طول البحر المتوسط، حيث جعله

يمتد ٦٢°. انقص الطول في الجغرافية المأمونية الى ٥٤° ثم انقصه ابو الحسن المراكشي والذي عاش في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي في كتابه جامع المبادىء والغايات الى ٤٤° وهو ما يقارب طوله الحقيقي في الوقت الحاضر.

٢ ـ مبالغته في تحديد موقع جزيرة سيلان، واخطأ في تحديد وضع بحر قزوين والخليج العربي بشكل كبير.

٣ ـ مبالغته في تحديد امتداد الجزء المعمور في الارض المعروفة آنذاك

٤ ـ جعله المحيط الهندي بحر مقفل

٥ ـ جعله جداول خطوط الطول والعرض غير متطابقة مع بعضها، كما لا تنطبق على المناطق المحددة من قبله. لانه لم يستند الى المسوحات الارضية وانما اعتمد على الخيال، وان اخطاءه من المبالغة ادت الى ان يصل الفرق عند دوائر العرض مئات الكيلومترات وفي اقواس الطول حوالي ٢٠٠٠ كم. وبذلك فان استخدام دوائر العرض واقواس الطول لتحديد الاماكن اصبح غير مجدي، وان التحديدات الصحيحة التي وردت لديه لبعض الاماكن جاءت من قبيل الصدفة.

لقد صحح العرب معظم القياسات اليونانية. فالبيروني مثلاً عندما دعي الى بلاط محمود الغزنوي صحح اخطاء قياسات قسم من قارة اسيا فيما يخص ما وراء الهند والسند، وبلاد الروم. فاصبحت قياساته الجديدة الاساس لرسم خارطة الشرق. كما ادخل العرب تحسينات مهمة على وضع الجزيرة العربية والمناطق الممتدة حول نهري دجلة والفرات، والمنطقة الممتدة بين فارس واسيا والسند، كما رسموا النهرين (دجلة والفرات) بشكل اكثر دقة، وصححوا رسم الخليج العربي من شكله المستدير في خارطة بطليموس الى وضعية اقرب الى شكله الصحيح، وكذلك بحر قزوين. ورسم العرب المحيط الهندي والمحيط الهادي بشكل بحر مفتوح على نقيض رسمه عند بطليموس. وعارض العرب مفهوم مارينوس الصوري وبطليموس بخصوص احاطة الارض بقارة، واعتبروا القارات الثلاث (اسيا واوربا وافريقيا) محاطة بالمياه من كل جانب، وان منابع نهر النيل في خارطة بطليموس مخالفة تماماً لما عند الادريسي.

اضافة لهذا التقدم الهائل في مفاهيم رسم الخرائط، فقد وجد العرب في انفسهم القدرة والكفاءة لاعادة قياسات ايراتوستين حول محيط الارض. فقد نقل اغلب العلماء عن الكاتب اليوناني كْليوميدس ان مقدار محيط الارض حسب قياسات ايراتوستين هو ٢٥٢٫٠٠٠ اسطاديون، وبذلك يكون طول الدرجة ٢٥ ر ١١٠ كم ومحيط الارض ٣٩٥٩٠ كم وهو اقل من الحقيقة بمقدار ٤٨٠ كم. واعتقد العالم الايطالي كُومبا ان قياس ايراتوستين يعادل ٤٦٦٢٠ كم. لان طول الدرجة ٥ ر ١٢٩ كم وبذلك تكون الزيادة ٦٥٥٠ كم[١] واذا قارنا هذا القياس مع القياس العربي نجد ان طول الدرجة لدى العرب تعادل ٢٥ فرسخاً الفرسخ العربي يعادل ١٢ الف ذراع والذراع ٢٤ اصبعا، والاصبع ٦ حبات شعير. واذا اعتبرنا ان حبة الشعير الواحدة تعادل ٥٧٥ ر ٢ ملمتر. فان طول الدرجة الواحدة، ستكون ٢٤ ر ١١١ م، وبذلك يكون محيط الارض لدى العرب ٤٠٠٤٦ كم. واذا علمنا ان الطول الحقيقي ٤٠٠٧٥ كم، فان الفرق في القياس العربي يصل الى ٢٩ كم فقط وهو افضل بكثير من القياس اليوناني كما ان مفهوم دوائر العرض واقواس الطول واضحاً لدى العرب، وخصوصاً اذا علمنا الارتباط الوثيق بين تحديد الاتجاه على الخارطة وبين اقواس الطول. فقد ذكر المسعودي على سبيل المثال (ان عرض كل بلد هو بعده عن خط الاستواء، وان شئت ارتفاع القطب عليه، ان كان في النصف الشمالي من الارض. فارتفاع القطب الشمالي، وان كان في النصف الجنوبي من الارض فارتفاع القطب الجنوبي. لانه كلما تباعدت المدينة عن خط الاستواء درجة ارتفع احد القطبين درجة، وانخفض العرض درجة. والطول هو بعد المدينة من الغرب، وربما بعدها من المشرق. ومن المغرب الى المشرق مائه وثمانون درجة.....)[٢]

وقد اعطى البيروني طريقة رسم اقواس الطول ودوائر العرض، يمكن ملاحظتها في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية[٣]

كما استطاع العرب قياس خط منتصف النهار بدقة وبطريقة جديدة فاق ما كان عند غيرهم كما استخدم العرب المساقط في رسم الخرائط، وهي طريقة متقدمة جداً ومتطورة

ويعتبر المسقط الذي رسمت عليه الخارطة المأمونية افضل من المسقط الذي استخدمه بطليموس واكثر دقة. والمسقط الموجود في كتاب سهراب هو المسقط الاسطواني البسيط، حيث تكون فيه دوائر العرض افقية وموازية لخط الاستواء ومتساوية في الطول. وان المسافة بين هذه الخطوط

تزداد كلما ابتعدنا عن خط الاستواء، وان خطوط الطول متوازية وعلى مسافات متساوية. وكذلك لوح الترسيم الذي استخدمه الادريسي كمسقط لتوقيع الاماكن والمدن بموجب احداثيات جغرافية حسب الدرجات والدقائق.

يتضح مما مر سابقاً بان العرب قد بلغوا درجة متقدمة في مفهوم علم الخرائط. واذا علمنا ان اتجاه الخارطة هو احد عناصرها المهمة. فان العرب قد وفقوا في تحديد اتجاهات الخارطة بشكل جيد وصحيح. لان التطابق بين الخارطة وسطح الارض تطابقاً جيداً. وان توجيه الخارطة بشكلها الحقيقي سوف يجعلها تتجه نحو الجهات الحقيقية حيث يكون الشمال الى الاعلى والجنوب الى الاسفل والشرق الى اليمين والغرب الى اليسار.

ومع صحة الاتجاهات، فان الخرائط العربية قلبت بعد رسمها بشكلها الصحيح، بحيث اصبح الجنوب الى الاعلى مع المحافظة على كل اتجاهات الخارطة الصحيحة. اي عند ارجاع الخارطة الى وضعها الصحيح بحيث يكون الشمال الى الاعلى والجنوب الى الاسفل، تكون الخارطة بوضعها الصحيح المطلوب. واذا بقيت الخارطة بحيث يكون الجنوب الى الاعلى يكون كل شيء في الخارطة على عكس اتجاهه الصحيح، وعلى سبيل المثال تكون اوربا متجهة نحو الاسفل، وافريقيا نحو الاعلى.

شكل رقم (١) يوضح نموذج من هذه الخرائط هي صورة الارض لابن حوقل.

وقد وردت عدة تفسيرات في ذلك هي:

١ ـ اذا وقف المرء قبالة الحجر الاسود، الذي يتجه نحو الشرق. فان الشمال على يمينه، والجنوب على يساره، والشرق خلفه. والغرب امامه[٨]

٢ ـ وقوع الجزيرة العربية بما فيها مكة المكرمة والمدينة المنورة في اقصى الجنوب، ولم يرغب العلماء العرب، ان يعلو هاتين المدينتين المقدستين اي بلد. فاصبحوا يضعون الجنوب في اعلى الصورة والشمال في اسفلها، والغرب في يمينها، والشرق في يسارها مع المحافظة على صحة الاتجاهات الجغرافية بالنسبة لوضع البلاد منها[٩]

٣ ـ ان جميع العواصم الاسلامية سابقاً تقع شمال مكة (المدينة المنورة، الكوفة، دمشق، بغداد، القاهرة) ومعنى ذلك ان الخليفة يتجه في صلاته صوب الجنوب باتجاه الكعبة وبذلك وضع الجنوب في اعلى الخارطة: لان الاتجاه نحو الجنوب يعني الاتجاه صوب القبلة وهي اشرف بقعة يتوجه شطرها المسلمون[١٠]

٤ ـ ان وضع الجنوب اعلى الخارطة مخالفة لغير المسلمين[١١]

٥ ـ ان الكتابة العربية تبدأ من اليمين على عكس الكتابة باللغة اللاتينية التي تبدأ من اليسار

٦ ـ تاثر العرب بالامم الاخرى التي سبقتهم

٧ ـ ان نظرة العرب الى الجنوب نظرة سعة وتفاؤل دائماً، والى الشمال نظرة نحس وتشاؤم، فريح الجنوب تأتيهم بالدفء والمطر في ليالي الشتاء الصحراوية الباردة، وتمدهم بالعشب والكلأ. وريح الشمال تأتيهم بالسموم اللاهب صيفاً وبالقر المجمد شتاءً. واهتمام المسلمين بالركن اليماني لوقوعه الجنوبي، وتفضيل اليد اليمنى على اليد اليسرى، والقدم اليمنى على القدم اليسرى. كما ان القرآن الكريم نعت الذين يستحقون الجنة باصحاب الميمنة، واصحاب اليمين، والذين يستحقون النار باصحاب المشأمة واصحاب الشمال[١٢]

٨ ـ ان العرب وجدوا في انفسهم القدرة على الانفراد بنمط جديد يخالف ما كان سائداً.

ان اغلب التفسيرات السابقة ربطت بين وضع الجنوب في اعلى الخارطة وبين العامل الديني المتمثل بالمحافظة على وضع مكة المكرمة الى الاعلى لا يعلوها شيء. وان هذا الاتجاه الديني ظهر لدى بعض الامم الاخرى. فقد وردت نصوص لدى العراقيين القدماء في تفضيل اليمين باعتباره رمز الخير والبركة والتفاؤل. واستندت الخرائط الرومانية على الاساس الديني، حيث وضعت الشرق في اعلى الخارطة تقديساً لبيت المقدس. اما الخرائط اليونانية فقد وضعت الشمال الى الاعلى، وقد اطلع العرب على هذه الخرائط. اما الخرائط العربية فقد اعتبرت الاتجاهات الحقيقية هي الاتجاهات المطابقة للواقع على سطح الارض. وقد اخذت بهذا المبدأ جميع خرائطهم. اما قلب الخارطة وجعل الجنوب الى الاعلى فهي امور نسبية لا تغير من فهمهم للاتجاهات، ويوضح هذا الرأي ما ورد في كتب التراث. حيث قال قدامة بن جعفر مثلاً:

(اذا قيل الشرق او الغرب او الشمال او الجنوب. كانت هذه الاسماء جميعاً تقال بالاضافة الى شيء بعينه، فان مصر مثلاً ونحن نعدها من اعمال المغرب، مشرق لمن هو في بلاد الاندلس. وكذا خراسان مشرق لنا، ومغرب لاهل الصين، وكذا سائر النواحي لا بد لها من قصبة يشار الى نواحيها.)[١٣]

ومما يوضح معرفة العرب بوضع الشمال في اعلى الخارطة لدى اليونان، وورود عدد من الخرائط العربية، وضعت الشمال الى الاعلى مثل الخارطة المأمونية * وخارطة الخوارزمي التي رسم عليها بحر مايوتس (آزوق) وصورة العراق للجيهاني والبلخي والاصطخري[14]

فالخوارزمي عندما تحدث، عن الانهار والعيون خلف الاقليم السابع، وشرح خريطته بالتفصيل جاء في نهاية حديثه حيث قال (ثم يخرج منها نهران فيما بين البحرين مصبهما الى بحر الشمال، وهذه صورة ذلك) ثم وضع الخارطة بحيث يكون بحر الشمال نحو الاعلى، وبذلك يكون الخوارزمي قد وضع اتجاه الشمال الى الاعلى على عكس ما كان مألوفاً لدى الجغرافيين العرب[15]

وقد اوضح كراتشكوفسكي بان خارطة الخوارزمي التي ظهر عليها بحر مايوتس (آزوف) على نقيض الخارطات العربية تجعل الشمال في اعلاها، بينما يحتل الجنوب اعلى الخارطات العربية وهي الطريقة المتبعة في الكارتوكرافيا العربية[16]

وقد تأثرت الخرائط الصينية في القرن الرابع عشر بالخرائط العربية، بوضع الجنوب في اعلى الخارطة على عكس المألوف في الخرائط الصينية في العهد المغولي، ولو ان الخرائط الصينية استعملت كلتا الطريقتين[17]

ان اطلاعي المتواصل، وتفكيري في ايجاد تفسير لما ورد، لم يرشدني الى رأي ورد في اي من كتب التراث يوضح ذلك. لان كل الجغرافيين العرب، لم يفسروا في كتبهم هذه الظاهرة التي اعتبروها ظاهرة اعتيادية، طالما انها لاتمس جوهر الموضوع او تنقص من قيمته العلمية.

والتفسير الذي يمكن ان اقدمه هو انه لا علاقة بين الاتجاه الديني وبين قلب الخارطة. لان ملاحظ الخرائط العربية يجد ان مكة المكرمة تقع قريباً من الوسط بفارق قليل لا يؤثر على ابراز العامل الديني. ولكن بما ان العالم الاسلامي يقع شمال خط الاستواء، وبالتالي فان النظر باتجاه الجنوب يكون اكثر ملاءمة لوضوح الخارطة. بينما يكون اتجاه الشمال اكثر ملائمة بالنسبة للاقاليم التي تقع جنوب خط الاستواء. لذا فان العرب قلبوا الخارطة لزيادة الايضاح وسهولة فهم الخارطة.

ان هذا الموضوع لم ينقص من الدور البارز للكارتوكرافيا العربية التي قدمت لنا نماذج رائعة من الخرائط سواء الخرائط التي استندت على الاساس الفلكي، ام الخارطات التي رسمت على اساس اقليمي. ومثلت خارطة الادريسي القمة التي بلغها فن رسم الخرائط في القرون الوسطى من حيث الضبط والدقة والجمال.

الهوامش والمصادر

(١) قدري طوقان وفاضل الطائي وآخرون، نشاط العرب العلمي في مائة سنة، بيروت ١٩٦٣ منشورات هيئة الدراسات العربية في الجامعة الامريكية. ص ٢٣٥

(٢) جلال مظهر، حضارة الاسلام واثرها في الشرق العالمي، دار مصر للطباعة، القاهرة، بدون سنة ص ٤١١

(٣) كراتشكوفسكي (اغناطيوس) تاريخ الادب الجغرافي العربي ترجمة صلاح الدين هاشم، منشورات الجامعة العربية القاهرة ١٩٦١ الجزء الاول ص ٤٠٥

(٤) ل. ا. سيديد، تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر ط٢ مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٩ ص ٣٧٣

(٥) نلينو (كرلو)، علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى روما ١٩١١ ص ٢٧٢

(٦) المسعودي (ابي الحسن علي بن الحسين) التنبيه والاشراف. القاهرة ١٩٣٨. طبع بالاوفسيت بمكتبة المثنى بغداد ص ٣٩

(٧) البيروني (ابي الريحان محمد بن احمد البيروني الخوارزمي) الاثار الباقية عن القرون الخالية، ليبزك ١٩٢٣ ص ٣٥٩

(٨) الدكتور احمد سوسة، الشريف الادريسي في الجغرافية العربية، ج١ منشورات نقابة المهندسين العراقية ١٩٧٤ ص ٢٣٨

(٩) الدكتور ابراهيم شوكت، خرائط جغرافي العربي الاول. مجلة الاستاذ المجلد ١٠ كلية التربية بغداد ١٩٦٢ ص ٢١

(١٠) الدكتور محمد محمد محمدين، التراث الجغرافي الاسلامي، مطبعة شريف، الرياض، ١٤٠١ هـ ص ٢٠٩

(١١) نفس المصدر ص ٢٠٩

(١٢) احمد عبد الجبار المخيبر، خارطة الادريسي يعلوها الجنوب، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٢٥ سنة ١٩٧٤ ص ١٨١ ـ ٢٠٧

(١٣) قدامة بن جعفر (ابي الفرج)، نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، منشورات مكتبة المثنى، بغداد ص ٢٣٤

(١٤) د. احمد سوسة، مصدر سابق ص ٢٣٩

(١٥) الخوارزمي (ابو جعفر محمد بن موسى) كتاب صورة الارض مطبعة آدولف، هولز هوزن ١٩٢٦ ص ١٥٧

* يتضح ذلك من الخارطة التي عثر عليها الاستاذ فؤاد سزكين.

(١٦) كراتشكوفسكي، مصدر سابق ص ١٠٢

(١٧) نفس المصدر ص ٣٩٨ / ٣٩٩

شكل (١) ب



المصدر : ابن حوقل ، صورة الأرض

الخريطة يظهر فيها كل المواقع متفقة مع اتجاهها الحقيقي

شكل (١) أ



المصدر : ابن حوقل ، صورة الأرض

الخريطة يظهر فيها كل المواقع عكس اتجاهها الحقيقي

الاحتجاج النحوي عند ابن مالك
بين الدليل العقلي والدليل النقلي

دراسة

د. صاحب ابو جناح
كلية الآداب / الجامعة المستنصرية

يعتمد الفكر النحوي عند علماء العربية جملة من الأسس والمقوّمات لبناء هيكله ورسم قواعده وأحكامه التي ينتهي منها إلى تقرير ما هو جائز وما هو ممتنع لغة، وإلى تفسير ظواهر اللغة في أصواتها وفي تركيباتها وما يتصل بذلك من حالات التنوع الإعرابي والتحول الصرفي وألوان التقديم والتأخير في الجمل والعبارات.

والمعروف أنّ في مقدّمة هذه الأسس التي اعتمدها علماء العربية ويعتمدها غيرهم من علماء اللغات الأخرى نهج الاستقراء اللغوي الذي يرتكز الى جملة من المعايير الزمانية والمكانية، قد تختلف رقعتها ضيقاً أو اتساعاً، حسب الاتجاه العام للتجمعات المدرسية أو لأشخاص الدارسين واختياراتهم.

ويصطلح الدارسون وعلماء الأصول على تسمية هذا الجانب من جوانب العملية بركن السماع أو النقل الذي يتخذ لملاحه وثائق وشواهد لتصويب الاستخدامات المماثلة واستبعاد المخالفة فيما يعرف عادة عند هؤلاء الدارسين بعملية « القياس » التي تتسع أو تضيق بحسب الدائرة التي يختطها لنفسه دارس اللغة، ليتحرك بضمنها ليرتضي ما يوافق اختياراته ويرفض ما يخالفها.

وبهذا فإنّ نهج القياس يكمل شرعة النقل والسماع ولا يقف في مواجهتها، فالسماع والقياس ليسا نقيضين - كما يتوهم كثير من الدارسين - بل رديفان يستند ثانيهما على أولهما ويعتمد عليه، فيتمم أحدهما الآخر في طريق بناء القواعد واستنباط الأحكام.

وعلى هذا لا معنى للالتباس الذي يقع فيه بعضهم حين يقرّر أنّ المذهب البصري مذهب قياسي وأنّ المذهب الكوفي مذهب سماعي وأنّ المبرّد كان يتمسّك بالقياس بينما كان ثعلب يعتمد السماع أو النقل والرواية.

والصحيح أن يقال: كان المذهب الكوفي يتسع في النقل والسماع فتتسع - بناء على ذلك - دائرة القياس لديه، فاتسعت بذلك دائرة المباحات لدى الكوفيين وضاقت دائرة المحظورات، على حين ضاقت - إلى حدّ ما - دائرة المباحات عند البصريين واتسعت، الى حدّ ما، دائرة المحظورات.

وهذا هو الاساس الذي استندت إليه جملة المسائل الخلافية بين المذهبين، حيث عوّل الكوفيون، ومعهم الأخفش البصري غالباً، على نقول لم تقع الى علماء البصريين فقاسوا عليها، وتوقّف عندها البصريون - حين ووجهوا بها - أو أنكروها أو تأوّلوها.[1]

وبذلك تكون دائرة القياس لدى الكوفيين ومن تابعهم من بصريين ومتأخرين أوسع منها لدى البصريين، ويكون تمسّك الكوفيين بالقياس لا يقل شأناً عن تمسّك البصريين به، إن لم يزد عليه، ولعلنا جميعاً نروي قول الكسائي

إنّما النحو قياس يُتّبَع ... وبه في كلّ أمر ينتفع

والكسائي هذا هو الذي جوّز إضافة « حيث » إلى المفردات، وجوّز توكيد النكرة المحدودة، وإعمال اسم الفاعل الدال على المضيّ، والعطف على موضع اسم إنَّ، ونحوها من الظواهر التي أنكرها البصريون، وذلك قياساً على شواهد سمعها في كلام أهل البادية، ممّا لم يقع إلى رواة البصريين.

ولعلّ مبعث الملابسة التي نبّهنا إليها ما روي في سيرة عبد الله ابن أبي اسحاق الحضرمي البصري (ت ١١٧ هـ) من أنّه كان شديد التجريد للقياس، وأنه أول من بعج النحو ومدّ القياس وبسط العلل.[٢] وكذلك ما يرويه ابن جني عن شيخه أبي علي، وهو من أئمة البصريين (ت ٣٧٧ هـ) أنّه كان يقول: أُخطىء في خمسين مسألة في اللغة ولا أُخطىء في واحدة من القياس.[٣]

والحق أن هذين الخبرين وما يماثلهما لا يبرّران شيئاً ممّا يقع في وهم بعض الدارسين.

فالنصّان لا يعنيان بأيّ حال من الأحوال أنَّ القياس يقع في مقابل السماع، أو أنَّ أحدهما نقيضٌ للآخر أو ندّ له. بل الذي يفهم من أخبار ابن أبي اسحاق أنه كان يعمل على التنظير لقواعد اللغة بعد أن تحقّق شطر غير يسير من عملية الاستقراء اللغوي، ولا سيّما ما يتصل منها بدراسة النصّ القرآني وقراءاته المختلفة. وحين اتّضحت لدى ابن أبي اسحاق صورة جلية عن قواعد العربية الفصيحة الشائعة أخذ يعترض على الأنماط المغايرة لهذه القواعد، ولا سيّما ما يرد في أشعار معاصريه أو سابقيهم ممّا هو موضع ضرورة حادة بسبب الوزن أو القافية، وحكايته مع الفرزدق معروفة وأخباره معه مشهورة تتداولها كتب الأخبار والتراجم.[١]

أما حكاية أبي علي فلا تعني شيئاً مما يتوهمه الواهمون، بل تفيدُ أنّ الرجل كان منشغلاً بالتنظير لمسائل النحو والصرف وتعليل ظواهرهما وابتداع التمارين غير العملية في مجال الأبنية الصرفية والتراكيب النحوية، وهذه كلّها أُمور تقوم على القياس على الأشباه والنظائر، مما هو قائم في كلام العرب، فهو حريص على أن يكون دقيقاً فيما يستنبط ويقيس؛ لأنَّ فيه إمارة على توفيقه وذكائه، وحريص على أن لا يقع في خطأ أو وهم ممّا بابه الاستنباط والتوليد، ولكنّه لا يضيره أن يقع في الخطأ أو الوهم عندما يروي منقولاً أو مسموعاً من الكلام العربي، لأنَّ ذلك ممّا يقع عادة بسبب السهو أو تداخل الروايات أو النسيان أحياناً، في عصر اضمحلت فيه الرواية الشفهية أو أوشكت وضعف سلطانها وانشغل الناس عنها بالانصراف الى التأليف في العلوم العقلية التي سيطرت على روح العصر وطبعت مؤلفاته بطابعها، بما في ذلك المؤلفات النحوية التي اوشكت أن تختنق عند بعض المؤلفين، ومنهم أبو علي ومعاصره الرمّاني، تحت وطأة الجهد النظري الصرف والمحاكمات العقلية المجرّدة، الأمر الذي جعل أبا علي نفسه يضيق بمغالاة بعض أنداده في هذا الاتجاه ويتبرم بها فيقول: إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء.[٤] صفوة القول أنّ القياس لم يكن يوماً ما نداً أو نقيضاً للسماع[٥]، وأن أهل الكوفة ومن تابعهم من البصريين في طائفة من آرائهم لم يكونوا انداداً للقياس، بل كانوا متمسكين به متّسعين في رقعته، فأضافوا الى مقاييسهم ما لم يكن مباحاً عند البصريين ولا مرضياً بحكم ما ألزم به هؤلاء أنفسهم من التمسك بمروياتهم التي تلقوها بأنفسهم عن أهل البوادي التي طوّفوا فيها، والأعراب الذين وفدوا عليهم في حاضرتهم، علماً بأنهم لم يترددوا في وصف بعض هذه الاستخدامات اللهجية واللغوية بأنها ضعيفة أو شاذّة أو نادرة أو قبيحة أو رديئة أو خبيثة، على نحو ما هو وارد في كتاب سيبويه وفي سواه من كتب البصريين.

ونعود الآن الى ما بدأنا به القول من أنَّ الارتكاز على حصيلة الاستقراء اللغوي صار وسيلة لترسيخ القاعدة العريضة لظاهرة « الاستشهاد » التي تشكّل الوجه الأوسع من أُوجه عملية « الاحتجاج » في النحو العربي، وهو الوجه الذي اتخذ موضوعا للدراسات مدّة عند الباحثين المعاصرين، ومدار مباحثها العناصر المعروفة في عملية الاستشهاد وهي النص القرآني بقراءاته والحديث النبوي وكلام العرب ـ شعره ونثره ـ الذين شملتهم عصور الاحتجاج..

وتتضح فحوى هذه المقولة في قول القائل: اجاز البصريون كذا وحجّتهم قول الشاعر كذا، وأجاز الكسائي والفراء كذا واحتجّا بقراءة فلان أو بقول الشاعر كذا، وأجاز ابن مالك كذا محتجاً بالحديث كذا.

ونريد الآن أن نتناول في هذا البحث الجانب الآخر من جوانب عملية الاحتجاج النحوي، وهو ما يمكن أن نطلق عليه الجانب العقلي أو الاستنباطي أو الاستدلالي في تقرير الحكم النحوي وإثبات صحّته مقابل الجانب النقلي الذي يمثّله « الاستشهاد » المبني على الاستدلال بالنصوص المنقولة عن الكلام العربي الفصيح شعره ونثره.

ولا بدّ هنا من القول إن هذا الاحتجاج العقلي أو الاستدلالي لا يقصد به تفسير الظاهرة النحوية أو اللغوية؛ لأنَّ

هذا التفسير مهمة التعليل النحوي ووظيفة أصحاب العلل. فتفسير رفع الفاعل ونصب المفعول من شأن المعلّلين، وكذلك رفع اسم كان ونصب خبرها، ونصب اسم إنّ ورفع خبرها من شأنهم أيضاً. وينطبق الأمر أيضاً على تفسير ظواهر الإبدال والقلب وسواها من الظواهر اللغوية والصرفية والنحوية فهو من شأن أصحاب العلل وليس للأمر علاقة بقضية الاحتجاج. ومختصر القول أنّ كل ما كان جواباً لسؤال السائل: لماذا رفع هذا أو نصب ذاك؟ ولماذا بني هذا أو أعرب ذاك؟ فهو تعليل وليس احتجاجاً. ولا نريد هنا أن نبسط القول في مباحث العلّة النحوية وتقسيماتها الى علل تعليمية أو علل أوائل وعلل ثوان وثوالث، فهذا ليس من شأن هذه الدراسة، وقد تكفلت بذلك كتب الأصول مثل الايضاح في علل النحو للزجّاجي واللباب في علل البناء والإعراب للعكبري ولمع الأدلة لأبي البركات الأنباري والاقتراح للسيوطي، فضلاً عن غيرها من الآثار والمصنّفات التي ما تزال مخطوطة لم تنشر بعد، أو الدراسات الحديثة التي تناولت بعض قضايا الأصول في الفكر النحوي كدراسات الأساتذة محمد الخضر حسين وابراهيم أنيس وسعيد الافغاني وأمين الخولي وحسن عون ومازن المبارك ومحمد عيد وعلي أبي المكارم ومحمد خير الحلواني وسواهم.

والاحتجاج الذي نبحثه هنا، هو ما يستدلّ به، عقلاً واستنباطاً لا نقلاً وسماعاً، على إثبات صحة حكم أو رأي وتأييده أو ترجيحه.

فقول البصريين: الدليل على أن المصدر أصل للفعل أن المصدر يدلّ على زمان مطلق والفعل يدلّ على زمان معين، فكما أنّ المطلق أصل للمقيّد، فكذلك المصدر أصل للفعل،[١] هو احتجاج بدليل عقلي استنباطي، ينطلق من مقاييس منطقية عقلية، وليس تعليلاً ولا استشهاداً.

وقول الكوفيين: إنّ المصدر مشتق من الفعل لأنّ المصدر يصحّ لصحة الفعل ويعتلّ لاعتلاله، وأنّ المصدر يذكر تأكيداً للفعل ولا شكّ أنّ رتبة المؤكِّد قبل رتبة المؤكد، هو احتجاج عقلي استنباطي يستند على مقاييس لغوية، وليس تعليلاً ولا استشهاداً.

من هنا يتضح لنا أن لا مجال للالتباس بين سبيل الاحتجاج وسبيل التعليل، وأن العلّة النحوية شيء آخر.

ولنا، بعد هذا المدخل التوضيحي الذي كان لا بدّ منه لإزالة الالتباس الذي قد يقع لدى بعض الدارسين في الخلط بين الاحتجاج «الاستدلال» والتعليل، أن نتجه صوب موضوع هذه الدراسة، وهو «الاحتجاج النحوي عند ابن مالك المتوفّى عام ٦٧٢ هـ».

ومن اللازم أن نقرّر هنا أنّ الاحتجاج عند ابن مالك مع كونه، في مجمل جزئياته، يسلك مسالك عقلية استنباطية، لكنه في محاكماته يتمسّك بالمنطق اللغوي، ويستعين بالأشباه والنظائر ليبني أحكامه عليها، متخلّياً عن المنطق الذهني الصرف والمفاهيم العقليّة المجردة وليس عسيراً على من يألف مصنّفات ابن مالك ويتلمّس مكوّناته الثقافية ونهجه الفكري أن يجد تفسيراً لهذه الظاهرة.

فقد عرف عن الرجل سعة مرويّاته وكثرة محفوظه واطلاعه الدقيق على نصوص اللغة وكلام العرب، حتى قيل إنّه جلس يوماً وذكر ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهري في اللغة.[٣] ولا يدّعي هذا إلا صاحب حافظة معجزة يضاف الى هذا تضلّعه في علوم الحديث وروايته، وإحاطته الدقيقة بالقراءات القرآنية وطرقها، فكان فيها إماماً لا يبارى ومصنّفاً بين المصنّفين المتقدّمين.[٢] ومع كل هذا الذي ذكرناه، فإنّ الذهنية العامة التي شيّدت البناء الجدلي النظري في هيكل النحو العربي، وهي في مجملها ذهنية متأثرة بمناهج المتكلمين والمناطقة والمتفلسفين، لم تكن عديمة التأثير في الفكر الاحتجاجي الجدلي عند ابن مالك، إذ لانعدم بين مجموعة من المواقف الاحتجاجية أن نجد موقفاً يستند فيه ابن مالك الى دليل عقلي «نظري» مجرد لا الى دليل عقلي لغوي يستند الى منطق اللغة والى التنظير على أنماط مماثلة من الاستخدام اللغوي، على نحو ما نرى بعدُ عند عرضنا لمجمل مواقفه الاحتجاجية التي انتقيت من كتابه الكبير الجامع «شرح الكافية الشافية» الذي يقع في خمسة مجلدات خُصِّصَ خامسها لفهارس الكتاب التفصيلية.

وقد ارتأينا ـ لأغراض شكلية تتصل بتقسيم الكلام التقليدي ـ أن نقسّم النماذج التي استقريناها في هذا السبيل على ثلاثة محاور: محور الأسماء محور الأفعال، محور الحروف.

أ ـ في مجال الأسماء

١ ـ يقرّر ابن مالك أنّ النحويين يرجّحون انفصال ثاني منصوبي «ظننتكه» قال: وعندي أن اتّصاله أولى، لأنّه ثاني منصوبين بفعل، فكان كالثاني في قوله تعالى: «أنلزمكموها» (هود ٢٨) ثم اعترض على نفسه قائلاً: وقد يرجّح انفصال ثاني مفعولي ظنّ بأنه مع كونه خبر مبتدأ في الأصل منصوبٌ بجائز التعليق والإلغاء، ومع التعليق والإلغاء لا يكون إلّا منفصلاً، فكان

انفصاله مع الإعمال أولى وردّ على هذا الاعتراض قائلاً: وهذا الاعتبار - أيضاً - يستلزم ترجيح انفصال المفعول الأول، وهو ممتنع بإجماع، وما استلزم ممتنعاً فهو حقيق بأن يُمنع.[٨]

واستدلال ابن مالك هنا على صحة مذهبه استدلال عقلي قياسي أو كما يسمّيه «نظري»[٩] يعتمد النظر العقلي المستند على صور الاستخدام اللغوي المسموع، مقابل الدليل «النقلي» الذي يصطلح على تسميته «الاستشهاد».

٢ - يقرر ابن مالك أنّ «سوى» الاستثنائية اسم يستثنى به، ويجرّ ما يُستثنى لإضافته إليه، ويعرب بحركات مقدّرة كما تعرب «غير» بحركات ظاهرة. وهو بهذا يخالف أكثر البصريين[١٠] في ادعّاء لزومها النصب على الظرفية وعدم التصرف[١١].

واحتج لرأيه قائلاً: وإنّما اخترت خلاف ما ذهبوا إليه لأمرين:

أحدهما: إجماع أهل اللغة على أنّ معنى قول القائل «قاموا سواك وقاموا غيرك» واحدٌ. وأنه لا أحد منهم يقول إنّ (سوى) عبارة عن مكان أو زمان، وما لا يدل على مكان ولا زمان فبمعزل عن الظرفية.

الثاني: أنّ من حكم بظرفيتها حكم بلزوم ذلك، وأنّها لا تتصرّف والواقع في كلام العرب نثراً ونظماً خلاف ذلك، فإنّها قد أُضيف إليها وابتدئ بها، وعمل فيها نواسخ الابتداء وغيرها من العوامل اللفظية فمن ذلك قول النبي صلّى الله عليه وسلّم: «سألت ربّي ألا يسلّط على أمتي عدوّاً من سوى أنفسهم»[١٢] وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما أنتم في سواكم من الأمم إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود[١٣]»، ومن ذلك قول الشاعر:

وكلّ من ظنّ الموت مخطئه   أنّ معلّلٌ بسَواءِ الحقّ مكذوبُ

ومن الأُسناد إليها مرفوعة بالابتداء قول الشاعر:

وإذا تباع كريمةٌ أو تشترى   فسواك بائعها وأنت المشتري

..... وقال آخر في وقوعها فاعلة

فلمّا صرّح الشرّ   فأمسى وهو عريانُ
ولم يبقَ سوى العدوا   ن دنّاهم كما دانوا[١٤]

والواضح أن الدليل الذي يحتج به ابن مالك هنا لصحة رأيه يتّجه وجهتين: الأولى عقلية تستند إلى القياس على النظير المماثل معنى ووظيفة والثانية سماعية تستند الى الشواهد الفصيحة في الشعر والنثر حيث استخدمت «سوى» استخداماً لا يحتمل الظرفية، وهو - بعد التأمل والتروي في مدلول الكلمة وإدامة النظر فيها وتتبع استخدامها في الشواهد الكثيرة التي وقعت إليه أو تسقّطها في مظانّها الكثيرة، وهي سمة جليّة من سمات منهجه في البحث والمحاكمة - يتوصّل باقتناع تام إلى اتخاذ موقف أو رأي اجتهادي لا يتحرّج أن يخالف فيه الأئمة الكبار الذين يعرف لهم جلال قدرهم وعلوّ منزلتهم، وفي مقدمتهم سيبويه الذي يتمتع، عند الأندلسيين ولا سيما المغاربة، بمنزلة رفيعة لا يضاهيه فيها نحوي آخر، ومبعث الملابسة في قضية «سوى» ما نقله سيبويه عن الخليل في قوله: «فأمّا (أتاني القوم سواك)، فزعم الخليل أن هذا كقولك (أتاني القوم مكانك) و (ما أتاني أحد مكانك) إلا أنّ في «سواك» معنى الاستثناء[١٥]

والواضح أن هذا تفسير معنى وليس تفسير إعراب، فكأنّ الخليل أراد بقوله: كقولك أتاني القوم مكانك، بدلك أو عوضك[١٦]، لكنّ النحويين فهموا منه معنى الظرفية، مع أنّ مكانك لا تقتضي أن تكون منصوبة على الظرفية، بل هي منصوبة على الحال.

وممن وقع في الالتباس أبو العباس المبرد بقوله: وممّا لا يكون إلّا ظرفاً ويقبح أن يكون اسماً «سوى وسَواء، ممدودة بمعنى سوى وذلك أنّك إذا قلت: عندي رجل سوى زيد، فمعناه: عندي رجل مكان زيد، أي يسدّ مسدّه، ويغني غناءه.[١٧]

وحين وجد المبرّد أنّ العرب استخدمت سوى وسواء أسماء خالية من معنى الظرفية على ما يقتضيه الأصل في وضعها، جعل ذلك - تبعاً لسيبويه[١٨] - ضرورة شعر، وأنهم أجروها مجرى (غير) لأنّها في معناها، وشبّهه باستخدام الكاف التي للتشبيه اسماً إجراء لها مجرى «مثل» لأنّ المعنى واحد[١٩] والحقّ أنّ المبرد هنا لم يوفّق في التنظير بين استخدام سوى اسماً بمعنى غير واستخدام الكاف اسماً (!!) بمعنى مثل، لأنّ الضرورة الشعرية وإقامة الوزن هي التي، فرضت أن تتكرر الكاف في قول الراجز:

وصالياتٍ ككما يؤثْفَين

وأن تقترن بـ «مثل» في قول الآخر:

فصُيّروا مثلَ كعصف مأكول

فهي في كلا النصّين زائدة أفادت ـ عرضاً ـ زيادة التشبيه، وليست اسماً بمعنى (مثل) فتحتمل دخول حرف الجرّ الذي هو الكاف الأولى في «ككما» كما قبلت (مثل) دخول الكاف في قوله تعالى: «ليس كمثله شيء» (الشورى) لأنّ (مثل) في الآية اسم اقترن بحرف الجر التشبيهي (الكاف) لتأكيد نفي الشبيه، على معنى ليس شبيهه أو نظيره شيء[17]. ولو كان دخول الكاف على الكاف يصيّر الثانية اسماً لصارت اللام الثانية اسماً فيما استشهد به الفرّاء من قول الشاعر:

فلا والله لا يُلفى لما بي ... ولا للما بهم أبداً دواءُ[18]

كذلك تدلّ النصوص غير الشعرية التي ساقها ابن مالك على بطلان دعوى ظرفية (سوى)، وأنها لا تستخدم اسماً إلا في ضرورة الشعر، ولا عبرة بما يقال إنّ النحاة المتقدمين لا يحتجّون بالحديث بحجة أنّ روايته جائزة بالمعنى وأنّ العناية لم تكن متجهة إلى ضبط ألفاظه، لأنّ استخدام (سوى) في الشعر اسماً خالياً من معنى الظرفية كثير، وليس هو من مقتضيات الضرورة الشعرية كما يتضح من النصوص التي سردها ابن مالك.

٣ ـ إذا كان صاحب الحال مجروراً بالإضافة لم يجز تقديم الحال عليه بإجماع. قال ابن مالك: «وأكثر النحويين يقيس المجرور بالإضافة فيلحقه به في امتناع تقدّم حاله عليه، فلا يجيزون في نحو: مررت بهند جالسةً مررت جالسةً بهند، وأجاز ذلك أبو عليّ في كلامه في «المبسوط» ويقوله في ذلك أقول وآخذ[19]» واحتج ابن مالك لاختياره الذي وافق فيه أبا علي وابن كيسان وابن برهان بدليل عقلي «نظري» فحواه: إنّ المجرور بحرف مفعول به في المعنى، فلا يمتنع تقديم حاله عليه كما لا يمتنع تقديم حال المفعول به.

ثم أردفه بدليل نقلي سماعي، فقال: وقد جاء ذلك مسموعاً في أشعار العرب الموثوق بعربيتهم. فمن ذلك ما أنشده يعقوب:

فإن تك أذوادٌ أُصبن ونسوةٌ ... فلن تذهبوا فِرغاً بقتل حبال

أراد فلن تذهبوا بقتل حبال فرغا بقتل حبال أراد فلن تذهبوا بقتل حبال فرغا، أي هدراً...

ومن ذلك قول الآخر:

لئن كان بردُ الماءِ هيمانَ صادياً ... إليّ حبيباً، إنها لحبيبُ

ومثله قول الآخر:

إذا المرءُ أعيته المروءةُ ناشئاً ... فمطلبها كهلاً عليه شديدُ

وقد جاء أيضاً تقديم حال المجرور عليه، وعلى العامل في قول الشاعر:

غافلاً تعرِضُ المنيّةُ للمر ... ءِ فيُدعى ولاتَ حينَ إباءُ[20]

واحتجاج ابن مالك «أن المجرور بحرف مفعول به في المعنى، فلا يمتنع تقديم حاله عليه كما لا يمتنع تقديم حال المفعول به» يقترب مما قرّره الرضي بقوله: «إنّ حرف الجرّ مُعدٍّ للفعل كالهمزة والتضعيف، فكأنه من تمام الفعل وبعض حروفه، فإذا قلت: ذهبتُ راكبةً بهند، فكأنّك قلت: أذهبت راكبةً هنداً»[21]

٤ ـ يقرّر ابن مالك ـ تبعاً للجمهور ـ أنّ المضاف الى ياء المتكلم معربٌ، خلافاً للجرجاني وابن الخباز وابن الخشاب الذين ذهبوا الى أنه مبني.[22] قال: «والصحيح أنّه معرب، اذ لا سبب فيه من أسباب البناء المرتّب عليها بناءُ الأسماء.» واحتج بأدلّة نظرية ثلاثة فقال:

فإن زعم أنّ سبب بنائه إضافته الى غير متمكن ردّ ذلك بثلاثة أوجه:

أحدها: أن ذلك يوجب أن يكون المضاف الى الكاف والهاء وسائر الضمائر مساوياً للمضاف الى الياء، وذلك باطلٌ.

الثاني: أنّ ذلك يوجب بناء المثنّى المضاف الى ياء المتكلم، وذلك أيضاً باطل.

الثالث: أن المضاف الى غير متمكن لا يجوز بناؤه من دون أن يكون ذا إبهام يفتقر بسببه الى الإضافة لتتكمّل دلالته بها كـ «غير» و«مثل» والمضاف إلى ياء المتكلم لا يشترط في خفاء إعرابه ذلك، فعُلم أنه معرب تقديراً

فان زعم أنّ سبب بنائه تقدير إعرابه بلزوم انكسار آخره لزم من ذلك الحكم ببناء المقصور، وبناء المتبع وبناء المحكيّ، فانّ آخر كل واحد منها ممنوع من ظهور الأعراب. ولا قائل بأنه مبنيّ، بل هو معرب تقديراً، فكذلك المضاف الى ياء المتكلم معرب تقديراً.[23] وهذه الأدلة التي احتجّ بها ابن مالك لرأيه أدلة (نظرية) عقلية تقوم على الاحتجاج بالنظير والشبيه، فهو يستعين بمنطق اللغة في استخداماتها المتنوعة ليماثل بينها وبين الحالة التي يحتج لها، وينتهي بعد احتجاجه بهذه النظائر الى إبطال الرأي الذي لا يؤيده وتقوية اختياره الذي يطمئن الى صحته.

٥ ـ في باب التعجب يقرّر ابن مالك أنّ «ما» التعجبيّة نكرة عند سيبويه، وما بعدها خبر، موصولة عند الأخفش، والخبر محذوف

ملتزم الحذف بعد (لولا)، قال: لأنّ (ما) لا تكون عنده تامة الا شرطية أو استفهامية أو موصوفة، ولأنّ النكرة المحضة لا يُبتدأ بها غير معتمدة. قال (أي الأخفش): وجعل المبتدأ في التعجّب معرفة لا يخلّ بالأيهام اللازم للتعجب، لأنّ التزام حذف الخبر كاف في الابهام(٢١).

ويخالف ابن مالك رأي الأخفش متعصراً لرأي سيبويه والجمهور ويحتجّ لذلك قائلاً: فيقال له (للأخفش): الخبر المدّعي حذفه أمعلوم أم مجهول؟ فإن كان معلوماً فلا إبهام، وإن كان مجهولاً فحذف المجهول لا يجوز. وادعاء حصر «ما» التامّة في الاستفهام والشرط باطل بقولهم: (غسلته غسلاً نِعمّا). فـ «ما» هذه إمّا زائدة، فزيادتها باطلة، لأن ذلك يخلي نعم من فاعل ظاهر أو مضمر، فوجب كونها تامّة، فكذا «ما» التعجبيّة. .(٢٢) وردّ ابن مالك على الأخفش هنا يسلك فيه مسلك الاحتجاج العقلي «النظري» ويحاكمه، بمنطق لغوي ليفنّد مذهبه في كون «ما» موصولة وخبرها محذوف، وهو ما لا يؤيده فحوى جملة التعجب التي ليست هي جملة خبرية بأيّ حال، وهو أيضاً لا يستقيم مع رأي سيبويه بأنها نكرة تامة بمعنى شيء، بل الراجح أنها استفهامية أصلاً خرجت مخرج التعجب في مرحلة تالية من مراحل التطور اللغوي كما خرج فعل الدعاء من صيغة الماضي الى صيغة المستقبل في قولنا: (رحمه الله) أو (رضي الله عنه). وهو ما يذهب إليه جماعة من النحويين(٢٣).

٦ ـ قرّر ابن مالك في باب التصغير أنّ الجمع الذي يأتي على مثال من أمثلة الكثرة لا يُصغر، لأنّ بنيته تدل على الكثرة وتصغيره يدلّ على القلّة فتنافيا قال: وأجاز الكوفيون تصغير ما له نظير من أمثلة الآحاد، فأجازوا أن يقال في رُغفان رُغيفان، كما يقال في عثمان عُثيمان، وجعلوا من ذلك (أُصيلان) زعموا أنه تصغير أصلان، جمع أصيل.

وردّ ابن مالك على الكوفيين مذهبهم في هذه المفردة قائلاً وما زعموا مردود من وجهين:

أحدهما: أنه لو كان تصغير أصلان لقيل أُصيلين، لأنّ تصغير الجمع جمعٌ في المعنى.

الثاني: أنه لو كان تصغير أصلان لقيل أُصيلين، لأنّ فُعلان وفِعلان اذا كُسّرا قيل فيهما «فَعالين» كـ «مُصران ومَصارين وحُشّان وحَشاشين وغربان وغرابين وكلّ ما كُسّر على (فَعالين) يُصغّر على (فُعَيلين) فبطل كون (أُصيلان) تصغير (أصلان) جمع (أصيل). وإنما أصيلان من المصغرات التي جيء بها على غير بناء مكبّره، ونظيره قولهم في إنسان أُنيسيان وفي مَغرب مُغَيربان. ولا استبعاد في ورود المصغر على بنية مخالفة لبنية مكبّره كما وردت جموع مخالفة لأبنية آحادها. والحاصل أنّ من قصد تصغير جمع من جموع الكثرة ردّه الى واحده وصغّره ثم جمعه بالواو والنون إن كان لمذكر يعقل كقولك في غِلمان: غُلَيمون، وبالألف والتاء إن كان لمؤنث أو لمذكّر لا يعقل كقولك في جوار ودراهم جويريات ودريهمات(٢٤)

واحتجاج ابن مالك في ردّ مذهب الكوفيين أو مذهب بعضهم في إن أُصيلاناً تصغير أُصلان جمع أُصيل إنما يستند الى استقراء النظائر اللغوية ليقيس عليها ومن ثَمّ ينتهي الى إبطال مذهبهم، فمحاكمته لمذهبهم تنطلق من منظور لغوي ليقيس على النظائر ويستند إليها في تثبيت حكمه وابطال حكم مخالفه

٢ ـ في الأفعال

١ ـ قرّر ابن مالك أنّ الفعل المضارع المؤكد بنون التوكيد المباشرة مبني وأنّ المؤكد بنون التوكيد غير المباشرة معرب، واحتجّ لمذهبه قائلاً: وإنّما كان الأمر كذلك؛ لأنّ المؤكّد بالنون إما أن يكون بناؤه لتركيبه معها وتنزّله منها منزلة الصدر من العجز، وإما أن يكون من أجل أنّ النون من خصائص الفعل فضعُف بلحاقها شبهُ الاسم، اذ لا قائل بغير هذين القولين.

والثاني باطل، لأنّه مرتب على كون النون من خصائص الفعل. ولو كان ذلك مقتضياً للبناء لبني المجزوم (بلم) والمقرون بحرف التنفيس والمسند الى ياء المخاطبة، لأنها مساوية للمؤكّد في الاتصال بما يخصّ الفعل، بل ضَعفُ شبه هذه الثلاثة أشدّ من ضَعفِ شبه المؤكّد بالنون، لأنّ النون وإن لم يلق لفظها بالاسم فمعناها لائق، بخلاف «لم» وحرف التنفيس وياء المخاطبة فإنّها غير لائقة بالاسم لفظاً ومعنى. فلو كان موجب بناء المؤكّد بالنون كونها مختصّة بالفعل لكان ما اتّصل به أحد الثلاثة مبنياً، لأنّها أمكن في الاختصاص.

وفي عدم بناء ما اتّصلت به دلالة على أنّ موجب البناء التركيب إذ لا ثالث لهما. . وإذا ثبت أنّ موجب البناء هو التركيب، لم يكن له لما اتّصل به ألف اثنين أو واو جمع أو ياء مخاطبة نصيب، لأنّ ثلاثة أشياء لا تركّب(٢٥) وواضح أن استدلال ابن مالك هنا استدلال عقلي مبني على الاحتجاج بالأشباه والنظائر والقياس عليها، فتنظيره نون التوكيد في الاختصاص بالفعل بأدوات الجزم وسين الاستقبال وسوف وياء المخاطبة دليل استنباطي قياسي، فلما كانت هذه الأدوات لا تقتضي بناء الفعل مع أنها مختصّة به فانّ نون التوكيد لا تكون سبباً في بناء الفعل لأنها مختصّة به، بل لأنّه تركب معها تركيب المبني على فتح الجزئين، وهذا تعليل صوتي لغوي يستند الى ضرورات القانون الصوتي الفعّال وما كان

يمكن أن يبني الفعل على الضمّ لئلا يلتبس بالمسند الى الجماعة ولا على الكسر لئلا يلتبس بالمسند الى ياء المخاطبة، ولا على السكون لئلا يلتقي ساكنان، فلم يبق إلا البناء على الفتح، فهو حركة بناء لا حركة إعراب.

٣ ـ في الحروف

١ ـ يقرّر ابن مالك أن نون الرفع اذا اجتمعت مع نون الوقاية جاز حذفها وإبقاء نون الوقاية قال: وزعم قوم أنّ المحذوف في نحو: «تأمرونيّ»،[٢٩] هو الثاني (نون الوقاية) وليس كذلك، بل المحذوف هو الأول، نصّ على ذلك سيبويه[٣٠] قال: ويدلّ على صحّة قوله: أنّ نون الوقاية لا يجوز حذفها مفردة مع فعل غير ليس وأن الأول قد حذف دون ملاقاة مثل مع عدم الجازم والناصب، فحذفها عند ملاقاة مثل أولى. وأيضاً فلو حذف نون الوقاية وأبقى نون الرفع لتعرض بذلك الى حذف نون الرفع عند دخول الجازم والناصب، واذا حذف نون الرفع لم يعرض لنون الوقاية ما يقتضي حذفها، وحذف مالا يحوج إلى حذف أولى من حذف ما يحوج الى حذف قال: ومثال ذلك ـ أي حذف نون الرفع لغير نصب أو جزم ـ في النثر ما روي من قول النبيّ ـ عليه السلام: «والذي نفس محمد بيده لا تدخلوا الجنّة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابّوا»، الأصل: لا تدخلون ولا تؤمنون، لأنّ (لا) نافية، ولا النافية لا تعمل في الفعل شيئاً. ومثال ذلك في النظم قول الراجز:

أبيت أسري وتبيتي تدلكي ... وجهك بالعنبر والمسك الزكي

والأصل تبيتين وتدلكين، فحذف النونين دون جازم ولا ناصب[٣١].

واحتجاج ابن مالك بالدليل النقلي للحالات المشابهة إنّما هو استنباط قياسي كما أنّ احتجاجه بالدليل العقلي المستند الى أنّ حذف ما لايحوج الى حذف أولى من حذف ما يحوج الى حذف، يمثل النمط الغالب في محاكماته العقلية.

٢ ـ يقرّر ابن مالك أنّ الباء الزائدة تدخل على خبر «ما» التميميّة كما تدخل على خبر ما الحجازية، خلافاً لما قرّره أبو علي الفارسي والزمخشري قال: «زعم أبو علي أنّ دخول الباء الجارّة على الخبر مخصوص بلغة أهل الحجاز، وتبعه في ذلك الزمخشري، والأمر بخلاف ما زعماه لوجوه: أحدها: أنّ أشعار بني تميم تتضمّن دخول الباء على الخبر كثيراً، منه قول الفرزدق أنشده سيبويه:

لعمرك ما معنٌ بتارك حقّه ... ولا منسىءٌ معنٌ ولا متيسّرُ

ولو كان دخولها على الخبر مخصوصاً بلغة أهل الحجاز ما وجد في لغة غيرهم

الثاني: أن الباء إنّما دخلت على الخبر بعد (ما) لكونه منفياً، لا لكونه خبراً منصوباً يدلّ على ذلك دخولها في نحو: (لم أكن بقائم)، وامتناع دخولها في نحو: (كنت قائماً). واذا ثبت كون المسوّغ لدخولها النفي فلا فرق بين منفيّ منصوب المحل ومنفي مرفوع المحلّ.

الثالث: أن الباء المذكورة قد ثبت دخولها بعد بطلان العمل بـ «إن» كقول الشاعر

لعمرك ما إن أبو مالك ... بواهٍ ولا بضعيف قواه

فكما دخلت على الخبر المرفوع بعد «إن» لكونه منفياً كذلك تدخل على الخبر المرفوع دون وجود (إن)، وهو ما أردناه

وقد دخلت أيضاً على الخبر المرفوع بعد هل كقوله:

تقول اذا اقلولى عليها واقردت ... ألا هل أخو عيشٍ لذيذ بدائم

واذا دخلت على الخبر بعد «هل» لكون «هل» تشبه النافي فلأن تدخل على الخبر بعد النافي نفسه أحقّ وأولى.[٣٢]

واستدلال ابن مالك هنا وقع بالأدلة النقلية السماعية مرّة وبالأدلة الاستنباطية مرّة ثانية. وقد أثبت أن لا علاقة بين العمل ودخول الباء، بل الباء مقترنة بالنفي بدليل دخولها على خبر الأفعال الناقصة المنفية (لم أكن) وبعد (هل) الاستفهامية التي تعطي معنى الاستفهام الذي يوضع بإزاء النفي أحياناً في باب تعليق أفعال القلوب وفي باب نصب الفعل بأن مضمرة في جواب النفي والاستفهام والتمني والطلب.

٣ ـ في باب «لا» النافية للجنس يقرّر ابن مالك أنّ العلم قد يتأول بنكرة فيركّب مع «لا» النافية إن كان مفرداً فيبنى على الفتح مثل:

لا هيثمَ الليلةَ للمطيّ

وينصب إن كان مضافاً كقولهم: (قضيّةٌ ولا أبا حسن لها)[٣٣]

قال: وللنحويين في تأويل العلم المستعمل هذا الاستعمال قولان:

أحدهما: أنه على تقدير إضافة «مثل» الى العلم ثم حُذِف

« مثل » فخلفه المضاف إليه في الاعراب والتنكير.
والثاني: أنّه على تقدير: لا واحدَ من مسمّيات هذا الاسم. وكلا القولين غير مرضي.
أما الأول فيدلّ على فساده أمران:
أحدهما: التزام العرب تجرد المستعمل ذلك الاستعمال من الألف واللام ولوكانت إضافة « مثل » منويّة لم يُحتج الى ذلك. .
الثاني: إخبار العرب عن المستعمل ذلك الاستعمال بـ « مثل » كقول الشاعر:

تبكّي على زيدٍ ولا زيدَ مثلُه   بريءٌ من الحُمّى سليمُ الجوانح

فلوكانت إضافة « مثل » منويّة لكان التقدير: ولا مثل زيد مثله، وذلك فاسد وأما القول الثاني فضعفهُ بيّن، لأنّه يستلزم ألّا يُستعمل هذا الاستعمال إلا علم مشترك فيه كـ « زيد » وليس ذلك لازماً لقولهم: لا بصرةَ لكم،[٣١] ولا قريشَ بعد اليوم، ولقول النبي عليه السلام: اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده.[٣٢]
وإنّما الوجه في هذا الاستعمال أن يكون على قصد: لا شيء يصدُقُ عليه هذا الاسم كصدقه على المشهور به، فضُمّن العلم هذا المعنى وجرّد لفظه مما ينافي ذلك[٣٦]
واستدلال ابن مالك هنا نظري مبني على تحليل النصوص واختبارها لمعرفة ما اذا كانت تحتمل تأويلات النحويين أولا. ولما كانت هذه النصوص لا تحتمل هذه التأويلات صارت عنده وسيلة لرد رأي النحويين الذين تابعوا سيبويه فيما ذهب إليه. .
٤ ـ في باب عطف النسق قرّر ابن مالك أنّ « إمّا » المسبوقة بمثلها عاطفة عند أكثر النحويين. قال: ومذهب ابن كيسان وأبي علي أنّ العاطف إنّما هو الواو التي قبلها، وهي جائية لمعنى من المعاني المفادة بـ « أو »، وبقولهما أقول في ذلك تخلصاً من دخول عاطف على عاطف، ولأنّ وقوعها بعد الواو مسبوقة بمثلها شبيه بوقوع « لا » بعد الواو مسبوقة بمثلها في مثل « لا زيدٌ ولا عمرو فيها » و « لا » هذه غير عاطفة بإجماع، فلتكن « إمّا » مثلها، إلحاقاً للنظير بالنظير وعملاً بمقتضى الأولوية.
وذلك أنّ « لا » قبل مقارنة الواو صالحة للعطفية باجماع، ومع ذلك حكم بعدم عطفيتها عند مقارنتها، فلأن يحكم بعدم عطفيّة « إمّا » عند مقارنة الواو أحقّ وأولى ».[٣٧]
واستدلال ابن مالك هنا لاختياره ذو وجهين، الأول « نظري » عقلي يقوم على تجنّب دخول عاطف على عاطف، اذ هو مما لا يقع في الاستعمال اللغوي عادة والثاني قياسي، إذ يشبهها بـ « لا » النافية التي تقع بعد الواو العاطفة ولا حظّ لها في العطف. فالدليل هنا مقيس على النظير المنقول عن العرب فكأنّه جمع في استدلاله بين الدليل القياسي النقلي والدليل العقلي الاستنباطي
٥ ـ قرّر ابن مالك في باب النداء أنّ حذف تنوين «عُزير» في قراءة السبعة غير عاصم والكسائي: «وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله» (التوبة ٣٠) أحسن من حذف تنوين أحد في قراءة عبد الوارث: «قل هو اللّهُ أحدُ اللّهُ الصمدُ»[٣٨] (الإخلاص ١، ٢) واستدلّ لرأيه بثلاثة أوجه:
أحدها: أنّ اتصال عُزَير بـ «ابن» لأنّهما جزءا جملة واحدة ألزمُ من اتّصال «أحد» بـ «الله» لأنّهما من جملتين
الثاني: أنّ حذف تنوين «عُزير» في الإخبار عنه بـ «ابن» شبيه بحذفه في النعت به. . . بخلاف حذف تنوين أحد.
الثالث: أنّ حذف تنوين «عُزير» يخلّص من ثقل لا يلزم مثله من ثبوت تنوين «أحد» وذلك أنّ تنوين «عُزير» إذا لم يحذف تحرّك لالتقاء الساكنين، فيلزم من تحريكه وقوع كسرة بين ضمّتين اولاهما في حرف تكرار قبله ياء ساكنه، ولايلزم ذلك ولا قريب منه إذا لم يحذف تنوين «أحد»، فكان حذف تنوين «عزير» أحسن وأولى»[٣٩].
واذا كان استدلال ابن مالك هنا لترجيحه تنويناً على تنوين يتخذ مظهراً تعليلياً فإنّ تعليله ينطلق من مبرّرات صوتية لغوية، لا من حجج عقلية بحت، وهذه سمة واضحة في منهج ابن مالك في المحاكمة والاستدلال، إذ يستعين بالرجوع الى غرور النقلي من نصوص اللغة في استخدامه المنوّع لينتهي الى تقصّي قوانينها وسننها، يتوسل بها الى ترجيح استخدام على استخدام أو تصويب رأي على رأي.
٦ ـ يقرّر ابن مالك أن تنوين «جوار» و «يُعَيل» تنوين عوض لا تنوين صرف في مذهب سيبويه والمبرد، لكن سيبويه جعله عوضاً من الياء والمبرد جعله عوضاً من ضمّة الياء وكسرتها.
قال: والصحيح مذهب سيبويه[٤٠]
واحتج ابن مالك لتصحيح مذهب سيبويه بما يلي:
١ ـ لو كان التنوين عوضاً من الحركة لكان ذو الألف أولى به من ذي الياء لأن حركة ذي الياء غير متعذّرة، فهي لذلك في حكم المنطوق بها، بخلاف حركة ذي الألف فإنّها متعذّرة، وحاجة المتعذّر الى التعويض أشدّ من حاجة غير المتعذّر.
٢ ـ لو كان التنوين المشار إليه عوضاً من الحركة لأُلحق مع الألف واللام كما أُلحق معها تنوين الترنّم في قوله:
أقلّي اللوم عاذلَ والعتاباً

قال: فإن قيل: لِمَ حذفت الياء أولاً؟ قلنا: لما كانت ياء المنقوص المنصرف قد تحذف تخفيفاً ويكتفي بالكسرة التي قبلها، وكان المنقوص الذي لا ينصرف أثقل التزموا فيه من الحذف ما كان جائزاً في الأدنى ليكون لزيادة الثقل زيادة أثر، إذ ليس بعد الجواز إلّا اللزوم، ثم جيء بعد الحذف بالعوض كما فعل في «إذ» حين حذف ما تضاف إليه [11].

واستدلال ابن مالك هنا لغوي مبني على القياس على الاشباه والنظائر اللغوية، وترجيحه يستند الى منطق لغوي صوتي واضح لا الى جدل نظري صرف

٧ - في مبحث زيادة همزة الوصل وتمييزها عن همزة القطع يقرّر ابن مالك أن الكوفيين يزعمون أنّ همزة الوصل في «ايمن» المستخدمة في القسم همزة قطع، وأنّه جمع (يمين).. قال: وما ذهبوا إليه غير صحيح لثلاثة أوجه:

أحدها: لو كان جمعاً لم تكسر همزته، وقد كسرت، ولا يعرف جمع على إفعُل.

والثاني: أنه لو كان جمعاً لم تحذف همزته، لأنّ ذلك أيضاً في الجموع غير معروف. وقد حذفت همزة أيمن في السعة في قول عروة بن الزبير رضي الله عن أبيه وعنه: لَيُمُنْكَ لئن ابتليت لقد عافيت.

الثالث: أنّه لو كان جمعاً لم يُتصرّف فيه بحذف بعضه، لأن ذلك في الجموع غير معروف. [14]

وحجج ابن مالك هنا جميعها حجج لغوية تستند الى أدلة نقلية يقيس عليها وينظّر بها، وهذا أيضاً مظهر من مظاهر الثراء اللغوي الذي اتسعت له حافظته واستوعبته بديهته..

وبعد، فقد كان اعتمادنا في استقراء هذه المواقف على كتاب شرح الكافية الشافية، لأنّه أوسع كتبه النحوية المنشورة واكثرها تفصيلاً وشمولاً، لا سيّما أنّ كتابه المفصل «شرح التسهيل» لا يزال مخطوطاً ونسخته الخطية الوحيدة موجودة في دار الكتب بالقاهرة، ونشر جزءاً يسيراً منها الدكتور عبدالرحمن السيد منذ سنين عدّة، وهو لا يكاد يفي باحتياجات الباحث في هذا السبيل فضلاً عن أن كتابه «شرح عمدة الحافظ» يكاد يخلو من الاحتجاج الذي عرضنا له في هذا المبحث، وكذلك كتابه شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح[8] ولعلنا نكون قد وفقنا الى بعض ما كنا نبتغيه في هذه المحاولة المتواضعة التي حاولت تناول جانب من جوانب الفكر النحوي عند ابن مالك.

الهوامش

(١) ينظر على سبيل المثال: الأنصاف في مسائل الخلاف لابي البركات الانباري ط ٣، القاهرة ١٩٥٥ م: مسألة ١٦ ، ٢٣ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٠، ٧٠ ، ٩٧

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ت ا ابو الفضل ابراهيم القاهرة ١٩٧٣ م ص ٢٥، وإنباه الرواة للقفطي ت ابو الفضل ابراهيم - دار الكتب العربية ٢ / ١٠٥ وطبقات الشعراء لابن سلام ط مصورة عن طبعة اوربا، بيروت، ص ٦

(٣) الخصائص لابن جني ت محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ١٩٥٢ م، ٢ / ٨٨

(٤) طبقات ابن سلام ٧ ، الموشح للمرزباني، المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٣ هـ ١٠٠ لعبد القادر البغدادي ط بولاق ١٢٩٩ هـ (مصورة) ٢ / ٣٤٧

(٥) معجم الادباء لياقوت الحموي ط ٢ ، مطبعة هندية - القاهرة ١٩٢٨ ٥ / ٢٨١

(٦) الأنصاف: مسألة ٢٨ والايضاح في علل النحو للزجّاجي ت مازن المبارك - مكتبة العروبة - القاهرة ١٣٧٨ هـ ، ٥٦

(٧) نفح الطيب للمقري، القاهرة ١٣٠٢ هـ ٧ / ٢٧٠ ، الوافي بالوفيات للصفدي ط المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٥٣ ٣ / ٣٥٩

(٨) شرح الكافية الشافية لابن مالك ت: عبد المنعم هريدي، دار المأمون للتراث ١٩٨٢، ١ / ٢٣٢ وانظر شرح كافية ابن الحاجب للرضي الاستراباذي، دار الكتب العلمية بيروت ط مصورة ٢ / ١٨ وشواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك ت د. طه محسن بغداد ١٩٨٥ م، : ٧٧

(٩) شرح عمدة الحافظ لابن مالك ت عدنان الدوري - بغداد: ٥٩٨

(١٠) الانصاف: مسألة ٣٩ وشرح اللمع لابن برهان الاسدي ت . د فائز فارس - الكويت ١٩٨٤ م، ١٥٤

(١١) شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ت صاحب ابو جناح بغداد ١٩٨٠ ٢ / ٢٥٩ ومذهب ابن هشام انها تستعمل ظرفاً غالباً وكفير قليلاً، وهو مذهب الرماني والعكبري: التوضيح ١٩

(١٢) الموطأ للإمام ابن مالك ت عبد الوهاب عبد اللطيف، المجلس الاعلى، القاهرة ١٣٨٧ هـ «باب القرآن» ٣٥ ومسند أحمد بن حنبل ط المكتب الاسلامي بيروت ١٩٦٩ مصورة، ٤ / ١٢٣

(١٣) مسند أحمد ١ / ٣٨٦ وفيه: في الشرك والبخاري «الأنبياء ١٥٠» وفيه: في الناس، ولا شاهدَ فيها

(١٤) شرح الكافية الشافية ٢ / ٧١٦

(١٥) الكتاب لسيبويه ط بولاق ١ / ٣٧٧

(١٦) وهذا ما ذهب إليه ابن فارس في معنى سوى وغير، جعلهما بمعنى بدل. الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ت: مصطفى الشويمي بيروت ١٩٦٤ م ١٥٤، ومذهب الزجاجي انها اسم ملازم للاضافة: البسيط ٢ / ٨٨٢

(١٧) المقتضب للمبردات محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، ط مصورة، بيروت ٤ / ٣٤٩

(١٨) الكتاب ١ / ٢٠٢

(١٩) المقتضب ٤ / ٣٥٠

(١٧) سر صناعة الاعراب لابن جني ت: د حسن هنداوي، دار القلم - دمشق ١٩٨٥ ١ / ٢٩٦، شرح الرضي ٢ / ٣١٩

(١٨) معاني القرآن للفراء ت محمد علي النجار واحمد نجاتي، القاهرة ١٩٥٥ م ١ / ٦٨ والمحتسب لابن جني ت علي النجدي ٢ / ٢٥٦ والنجار وشلبي القاهرة ١٣٨٦ هـ والخزانة ١ / ٣٦٤

(١٩) شرح الكافية الشافية ٢ / ٧٤٤ وانظر شرح اللمع لابن برهان ١ / ١٣٧ والبحر المتوسط لابن حيان ط مصوره عن طبعة القاهرة ١٣٢٨ هـ ٧ / ٢٨١ والكشاف للزمخشري مطبعة البابي الحلبي ١٩٦٦ م القاهرة ٣ / ٢٩٠ والكتاب ١ / ٢٧٧ وابن يعيش ٢ / ٥٩

(٢٠) شرح الكافية الشافية ٢ / ٧٤٥

(٢١) شرح الرضي على الكافية ١ / ٢٠٧

(٢٢) المرتجل في شرح جمل عبد القاهر لابن الخشاب ت علي حيدر دمشق ١٩٧٢ م شرح المفصل لابن يعيش ادارة الطباعة المنيرية - القاهرة ٣ / ٣٢

(٢٣) شرح الكافية الشافية ٢ / ١٠٠١

(٢٤) شرح الكافية الشافية ٢ / ١٠٨١

(٢٥) نفسه ٢ / ١٠٨٢ وانظر أيضا شرح الجمل لابن عصفور ١ / ٥٨٢

(٢٦) شرح الرضي ٢ / ٣١٠، وابن يعيش ٦ / ١٤٦

(٢٧) شرح الكافية الشافية ٤ / ١٩١٦

(٢٨) شرح الكافية الشافية ٣ / ١٤١٦

(٢٩) قرأنا نافع «قل أفغيرَ الله تأمروني أعبدُ أيّها الجاهلون» الزمر ٦٤ وقرأ باقي السبعة بالتشديد في النون، وقرأ ابن عامر بفك الادغام في النون. السبعة في القراءات لابن مجاهد ت د. شوقي ضيف دار المعارف القاهرة ١٩٧٢ م ص ٢٦١، والعنوان في القراءات السبع لابي طاهر اسماعيل بن خلف الانصاري ت د. زهير غازي و د. خليل العطية، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٥ ص ١٦٦، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الاربعة عشر للدمياطي القاهرة ١٣٥٩ هـ، ص ٣٧٦. واعراب القرآن للنحاس ت د. زهير غازي زاهد بغداد ١٩٧٧، ١ / ٥٦٠ وقد نقل تلحين ابي عمرو بن العلاء لمثل هذه القراءة.

(٣٠) الكتاب ٢ / ١٥٤، ومن ذهب الى ان المحذوف نون الوقاية، الجزولي كما نقل الرضي ٢

(٣١) شرح الكافية الشافية ١ / ٢٠٨ وانظر الخصائص ١ / ٣٨٨

(٣٢) شرح الكافية الشافية ١ / ٤٣٦، وانظر الكتاب ١ / ٣٠ وابن يعيش ٢ / ١١٦

(٣٣) الكتاب ١ / ٣٥٥ والمقتضب ٤ / ٣٦٣

(٣٤) الكتاب ١ / ٣٥٥

(٣٥) صحيح البخاري ادارة المطبعة المنيرية، القاهرة، بلا تاريخ: باب الايمان ٨، ٩ ومسند ابن حنبل ٢ / ٢٣٣

(٣٦) شرح الكافية الشافية ١ / ٥٣٠

(٣٧) شرح الكافية الشافية ٣ / ١٢٢٦

(٣٨) مختصر شواذ القرآن ابن خالويه ت برجستراسر القاهرة ١٩٦٨ م ١٨٢ والعنوان ١٠٢

(٣٩) شرح الكافية الشافية ٣ / ١٣٠١

(٤٠)، (٤١) شرح الكافية الشافية ٣ / ١٤٢٣ وانظر الكتاب ٢ / ٩٥ والمقتضب ١ / ١٤٣

(٤٢) شرح الكافية ٤ / ٢٠٧٣

(٤٣) وردت في شواهد التوضيح والتصحيح بعض مواقف احتجاجية حول مجيء «يا» قبل ليت للتنبيه لا للنداء ووقوع الشرط مضارعاً والجواب ماضياً وجواز العطف على الضمير المجرور من غير (عادة الجار، ص ٥٩، ٦٧، ١٠٧)

• • •

صدر عن دار الشؤون الثقافية



مع الثعالبي وكتابه
الذي وسم بـ (لطائف اللطف)

دراسة

د . خليل أبو رحمة

جامعة اليرموك - إربد - الأردن

يبدو ان ماوصل الينا من اخبار عن حياة أبي منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي قليل إذا ماقيس بشهرته المستفيضة في زمانه ؛ فأكثر المؤرخين الذين عاصروه وعرفوه كالعتبي وأبي الفضل البيهقي يسكتون عن ذكره . ولعل أبا اسحاق ابراهيم بن علي الحصري (ت ٤٥٣ هـ) أول من ذكر الثعالبي فقال : « وأبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا ، وهو فريد دهره ، وقريع عصره ، ونسيج وحده ، وله مصنفات في العلم والأدب ، تشهد له بأعلى الرتب ، وقد فرقت مااخترته منها في هذا الكتاب »(١) . وينقل الحصري في خلال كتابه « زهر الآداب » ماقاله الثعالبي في صدر كتابه « سحر البلاغة » ، وبعد أن يذكر جملة من أخرج الثعالبي معظم كتابه من نثرهم ونظمهم يقول : « فكل مامر أو يمر من ذكر ألفاظ أهل العصر فمن كتابه نقلت وعليه عوّلت »(٢) .

كما يذكر الحصري في كتابه المذكور بعض أشعار الثعالبي ورسائله المتبادلة بينه وبين أبي الفضل الميكالي(٣) . أما تلميذ الثعالبي وربيبه ، علي بن الحسن الباخرزي (ت ٤٦٧ هـ) صاحب « دمية القصر » فيقول فيه : « جاحظ نيسابور ، وزبدة الأحقاب والدهور ، لم تر العيون مثله ، ولاأنكرت الأعيان فضله ، وكيف ينكر وهو المزن يحمد بكل لسان ، أو يستر وهو الشمس لاتخفى بكل مكان . وكنت وأنا بعد فرخ أزغب ، في الاستضاءة بنوره أرغب ، وكان هو ووالدي بنيسابور لصيقي دار ، وقريبي جوار ، فكم جملة كتب كانت تدور بينهما في الاخوانيات ، وقصائد يتقارضان بها في المجاوبات ، ومازال بي رؤوفاً وعلي حانيا ، حتى ظننته أباً ثانياً ، رحمةُ الله عليه كل صباح تخفق رايات أنواره ، ومساء تتلاطم أمواج قارِه »(٤) . ويذكر الباخرزي بعض شعر أستاذه مقدماً له بقوله : « ووقعت إلي بعد وفاته مجلدة من أشعاره ، وفيها ثمار بيانه ، وعليها آثار بنانه ، فالتقطت منها مايصلح لكتابي هذا من أوساط عقودها وأناسي عيونها »(٥) .

وينقل ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) عن ابن بسام (ت ٥٤٢ هـ) صاحب كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » قوله عن الثعالبي : « كان في وقته راعي تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم ، رأس المؤلفين في زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الإبل ، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب طلوع النجم في الغياهب ، وتواليفه أشهر مواضع ، وأبهر مطالع ، وأكثر راو لها وجامع من أن يستوفيها حد أو وصف ، أو يوفيها حقوقها نظم أو رصف »(٦) .

ومن مؤلفي القرن الثامن الهجري الذين ذكروا الثعالبي وأشادوا بفضله وعلمه أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ) الذي يقول فيه : « كان إمام وقته »(٧) ، وابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ) الذي يقول فيه : « الأديب الشاعر ، صاحب التصانيف الأدبية . . وكان يلقب بجاحظ زمانه ، وتصانيفه الأدبية كثيرة »(٨) ، كما يذكر ابن شاكر أن الثعالبي كان ، في صباه ، مؤدب صبيان في مكتب(٩) .

ولا يضيف مؤلفو القرون التالية شيئاً يذكر عن الثعالبي ،

فابن قاضي شهبة (ت ٨٥١ هـ) ينقل ماقاله ابن شاكر في الثعالبي[١٠] ، أما ابن العماد الحنبلي[١١] (ت ١٠٨٩) فينقل عن ابن بسام وابن خلكان . وقد يصح القول : إن ماوصل إلينا من كتب الثعالبي لايسعف في تكوين صورة دقيقة عن مراحل حياته المختلفة ، فنحن لانجد فيها إلا بعض الاشارات التي لاتروى الظمأ ، ومن ذلك أنه كان له مؤدب علمه الشعر والعربية[١٢] .

وقد يكون من المفيد الاعتماد على مقدمات بعض كتبه لما فيها من إشارات إلى من أهديت إليهم ، الأمر الذي ينفع في الكشف عن علاقة الثعالبي ببعض رجالات عصره . كما قد يكون من المفيد التوطئة لذلك بحديث عن بعض ملامح البيئة التي أنجبت الثعالبي .

يذكر أن الثعالبي ولد بنيسابور ، أشهر مدن خراسان آنذاك ، سنة ٣٥٠ هـ وتوفي بها سنة ٤٢٩ هـ أو سنة ٤٣٠ هـ[١٣] . وكانت خراسان حتى سنة ٣٨٤ بيد السامانيين الذين اتخذوا بخارى عاصمة لهم . وفي الوقت الذي ولد فيه الثعالبي كانت بخارى أهم مركز ثقافي في شرق الدولة الاسلامية . وكان من الأمراء والشخصيات المهمة آنذاك من يشجع الكتاب والشعراء على استعمال الفارسية لغة أدبية[١٤] .

ويبدو أن الثعالبي لم يكن مهتماً باستعمال الفارسية في كتاباته ، آية ذلك أننا لانعرف له كتاباً بالفارسية ، كما ان ماوصل الينا من كتبه يخلو من الفارسية باستثناء أبيات شعرية قليلة وترجمة عربية لبعض الشعر الفارسي في بعض كتبه ومنها « يتيمة الدهر » و « تتمة اليتيمة » .

أما مدينة نيسابور ، مسقط رأس الثعالبي ، فكانت إحدى أكثر مدن الشرق الإسلامي ازدهاراً من الناحيتين : الاقتصادية والثقافية في القرنين الرابع والخامس الهجريين[١٥] . ويشهد ابن حوقل ، شهادة صدق بالعدل والمنعة اللذين بهما تصلح حياة الرعية فيقول « ليس بأرض المشرق ملك أمنع جانباً ، ولاأوفر عدّة ، ولاأكمل عدّة ، ولاأنظم أسباباً ، ولاأكثر عطية ، ولاأدر أطماعاً من السامانيين ، مع قلة جباياتهم وتزور اخرجتهم ، وتَفُّهِ الأموال في خزائنهم . . . »[١٦] .

غير ان ملك السامانيين أخذ يتضعضع في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري بفعل الثورات الداخلية في خراسان ، ونتيجة للضغط الخارجي المتمثل في هجمات القرخانيين ، حكام الترك بين فرغانة وحدود الصين . وقد استعان الأمير نوح بن منصور في سنة ٣٨٤ هـ بسبكتكين ، حاكم غزنة للسامانيين ، الذي استطاع هو وابنه محمود أن يخمدا الثورات الداخلية ، وفي سنة ٣٨٧ هـ توفي نوح فاضطربت الأمور ، واشتد الصراع بين ابنيه : منصور وعبدالملك ، فرجحت كفة الأخير ، غير أن إيلك خان ، حاكم الترك القرخانيين ، أغار على بخارى وأخذ عبدالملك أسيراً ، فخلا الجو لمحمود الغزنوي الذي ضم خراسان إلى ممتلكاته سنة ٣٨٩ وبذلك انتهت الدولة السامانية[١٧] .

ويشتهر محمود الغزنوي بكثرة حروبه في الهند وتمكينه للإسلام هناك ، وفيه يقول الفردوسي مصوراً عظمته واستئثاره بقلوب شعبه : « عندما يُفطم الصبي ويتوقف جريان لبن أمه على شفتيه يكون أول ماينطق به ويجري على الشفتين لفظ محمود . إنه كالفيل بجسده ومثل جبريل بروحه ، أما كفه فمزن هاطل ، وأما قلبه فنهر النيل بخيراته . إنه السلطان والملك الكبير الشأن ، الذي جعل الشاة تنهل مع الذئب من حوض واحد في أمان »[١٨] .

أعقبت وفاة محمود سنة ٤٢١ هـ حروب على الملك بين ابنية : مسعود ومحمد كانت الغلبة فيها لمسعود الذي فتح جرجان وطبرستان وقضى على الدولة الزيارية ، غير ان المد السلجوقي كان قد بدأ ، ولم يستطع مسعود وقفه فهزم سنة ٤٢٩ هـ واستولى السلاجقة بقيادة طغرلبك على خراسان ، وقد حاول مسعود أن يسترجعها إلا أنه هزم غير مرة في السنتين التاليتين ، وصفت خراسان للسلاجقة .

وهكذا شهد الثعالبي غير قليل عن الاضطرابات السياسية وخصوصاً في النصف الثاني من حياته . ويُفهم من كتب الثعالبي التي وصلت إلينا أنه كان أثيراً عند السلاطين والأمراء الذين تولوا أمر خراسان أو بعض البلدان المجاورة كخوارزم التي نعمت بازدهار أدبي وخصوصاً في زمن الشاه أبي العباس مأمون بن

مأمون (٣٩٠ ـ ٤٠٧ هـ) . ويذكر عباس إقبال ، محقق « تتمة اليتيمة » أن هناك فقرة زيادة في إحدى مخطوطات يتيمة الدهر تقول : إن عوائق مختلفة منعت الثعالبي من أن يتم مابعد نهاية القسم الثالث من يتيمة الدهر حتى وفد على أبي العباس مأمون الذي وضعه مسؤولاً عن مكتبته وشجعه على كتابة القسم الرابع[١٩] (الأخير) . وقد اعتمد بوزورث (C.E.Bosworth) هذا القول من غير أن يناقشه على الرغم من أنه يشير في الهامش الى ان جميع طبعات « يتيمة الدهر » تخلو من هذه الفقرة[٢٠] . ثم تنبه الدكتور قاسم السامرائي[٢١] على نص يرد في « تتمة اليتيمة » من شانه أن يلقي ظلالاً كثيفة من الشك على مضمون الفقرة الزيادة التي رآها عباس إقبال . ولايبعد أن تكون هذه الفقرة من وضع متأخر . أما النص الذي تنبه عليه السامرائي فهو من حديث الثعالبي عن الشيخ أبي المحاسن سعد بن محمد بن منصور رئيس جرجان ومنه : « اجمع أهل زماننا أجمع على أن أبا المحاسن أجمع الرؤساء لما يكفى به وأجمعهم بين العلوم والآداب . . . وكانت النائبة رحب بي إلى جرجان سنة ثلاث وأربعمئة ، فأنزلني أبوه الرئيس أبو سعد محمد بن منصور ، رضي الله تعالى عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه ! منزله . . فكنا نجتمع في جماعة من الفضلاء والأدباء والشعراء كل يوم وليلة على المدارسة والمذاكرة والمناشدة ، فيلذنا أبو المحاسن بحسن محاضراته ومبادهته . ويعجبنا من بلاغته وبراعته على حدوث ميلاده وقرب إسناده . وكتب لي جزءاً من شعره بخطه هو حتى الآن عندي . وألممت كتاب اليتيمة بحضرته ، فانتقض هذرته وتحفظ أكثره ، ولم يفرق بيننا إلا الجائي داعي الأمير أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزمشاه ، فنهضت من جرجان إلى الجرجانية . . »[٢٢] .

والثعالبي يذكر أنه بدأ تأليف كتاب اليتيمة لأول مرة سنة ٣٨٤ هـ ، وعمره في إقباله ، وشبابه بمائه ؛ فكتبه في مدة تقصر عن إعطاء الكتاب حقه ، ولاتتسع لِتَوْفِيَةِ شرطه . . ثم جعل يَبنيه ويَنقضه ، ويزيده ويُنقصه وربما انتسخه من غير أن يختمه ، وانتصفه فلم يُتِمَّه إلى أن أدرك عصر السن والحنكة فغير ترتيبه ، وجدد تبويبه ، وأعاد ترصيفه ، وأحكم تأليفه[٢٣] . وكان الفراغ من ذلك كله سنة ٤٠٣ هـ ، بحضرة أبي المحاسن كما ذكر .

يذكر الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » بعض مؤلفاته ككتاب سحر البلاغة ، وكتاب الاقتباس ، وكتاب أحسن ماسمعت[٢٤] . وقد ألف الكتاب الأول لصديقه أبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي (ت ٤٣٦ هـ) ، أحد أفراد آل ميكال أكثر أسر نيسابور نفوذاً ، وكان أبو الفضل شاعراً أديباً . وكان الثعالبي قد أخرج الكتاب المذكور في نسختين متقاربتي الكيفية والكمية ، متشاكلتي الصنعة والصيغة ، وأهدى إحداهما إلى الشيخ الرئيس أبي سهل أحمد بن الحسن الحمدوي ، والأخرى إلى صاحب الجيش أبي عمران موسى بن هارون الكردي ، ثم أخرج نسخة ثالثة « تجمع بينهما وتأخذ بأطرافهما وأوساطهما ، وتزيد بأبكار طرائف وبواكير لطائف عليهما ، وتستفيد فضل تنقيح وتهذيب وتذنيب » فأهداها إلى أبي الفضل[٢٥] . ومن كتب الثعالبي التي ألفها لأبي الفضل كتاب « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب »[٢٦] كما يذكر الثعالبي أنه ألف كتابه « فقه اللغة » تلبية لرغبة أبي الفضل الميكالي ، وكان الثعالبي قد أقام في بلدة أبي الفضل ، فيروز آباد ، مدة أربعة أشهر ، وخلال ذلك أطلق أبو الفضل يده في استعمال مكتبته الخاصة[٢٧] .

ويخصص الثعالبي الباب الثامن من الجزء الرابع من كتابه « يتيمة الدهر » لذكر أبي الفضل الميكالي وإيراد بعض أخباره وبعض محاسن من نثره ونظمه . ونجد بعضاً من شعر أبي الفضل ونثره في أكثر كتب الثعالبي التي وصلت الينا ، كما ينقل الثعالبي في غير كتاب من كتبه بعض ماجاء في بعض كتب أبي الفضل الميكالي ، ومن هذه الكتب كتاب نزهة اللواحظ ، وكتاب المخزون[٢٨] وغيرهما . وكثيراً مايشيد الثعالبي في ثنايا كتبه بصديقه أبي الفضل .

ويشير الثعالبي في مقدمة كتابه « الكناية والتعريض » إلى أنه ألف الكتاب المذكور بنيسابور في سنة ٤٠٠ هـ ، ثم أنشأه نشأة أخرى ، وسبكه ثانية وتأنق في تهذيبه وتذهيبه ، وأنفذ نسخة منه الى خزانة أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه ، مولى أمير المؤمنين[٢٩] . ومن كتب الثعالبي التي ألفها لأبي العباس مأمون بن مأمون كتاب « اللطائف والظرائف » وكتاب « أدب الملوك الخوارزمشاهيه »[٣٠] ، وكتاب « نثر النظم وحل العقد »

الذي يذكر الثعالبي أنه ألفه بالجرجانية ، قصبة خوارزم وذلك قوله : « كتبت أطال الله بقاء مولاي من الحضرة بالجرجانية »[١] . وهو في الكتاب المذكور يعرض نفسه على خدمة أبي العباس مأمون بن مأمون ويتحدث عن نفسه من حيث جمعه آلات الخدمة الملوكية ، وحيازته أدوات الأعمال السلطانية ، فيأتي على ذكر معارفه المتعددة الجوانب وطول باعه فيها ، فيده في الكتابة كالبرق ، وقلمه فَلَكِيُّ الجَرْي ، وخطه كالروض غب المزن ، وبلاغته يقرب جناها ويمد مداها ، وله من الحساب حظ أطبق به مفصل الصواب ، ويحل في النحو دقائق الأشكال .. ولاينسى الثعالبي أن يذكر بعض صفاته الخَلْقِيَّة والخُلُقِيَّة فيقول : « ولي خِلقه سويّة ، وصورة مقبولة ، وسجايا معسولة ، وشمايل خفيفة ، وهي في ميزان الفضل ثقيلة ، ولست بالنحيف القضيف المحتقر ولابالضخم الفخم المشتهر ، ولست بالطويل المربي على الطوال ، ولابالقصير الخارج من حد الاعتدال ، ولست بالناسك البارد ، ولاالفاتك المارد ، ولابالمتعفف المتقشف ، ولابالخليع المتكشف ، فأنا أشوب الحصافة باللطافة ، والتوقر بالتوقد .. وأجمع بين جد العلماء والحكماء .. »[٢] وفي ذلك ماقد يدل على أن كتاب « نثر النظم وحل العقد » من أول كتب الثعالبي التي ألفها لأبي العباس مأمون إن لم يكن أولها . وقد مر بنا أنه أتم كتاب « يتيمة الدهر » في شكله الأخير المعدل الذي وصل إلينا سنة ٤٠٣ هـ . ويلاحظ أن الثعالبي خصص الباب الرابع من الجزء الرابع من كتاب « يتيمة الدهر » لذكر غرر فضلاء خوارزم غير أنه لم يورد اسم أبي العباس في الفصل المذكور ، مما يدل على أنه لما يكن قد اتصل به بعد . وقد رأينا أنه في سنة ٤٠٣ كان في جرجان في منزل الرئيس أبي سعد محمد بن منصور ، وأنه نهض من جرجان إلى الجرجانية استجابة لدعوة الأمير أبي العباس مأمون . ولعل في كل ذلك ماقد يثبت أن المدة الزمنية التي ألف فيها الثعالبي بعض كتبه لأبي العباس مأمون تقع بين سنتي ٤٠٣ هـ و٤٠٧ هـ وهي السنة التي قتل فيها أبو العباس مأمون الذي كان هو ووزيره أبو الحسين أحمد بن محمد السهيلي أديبين يشجعان الأدباء والكتاب ، ويرعيان العلماء .

وفي سنة ٤٠٨ هـ غزا جيش محمود الغزنوي إمارة خوارزم وضمها إلى سلطانه الذي كان يشمل خراسان وأفغانستان وشمال الهند . ويبدو أن الثعالبي كان معجباً بالغزنويين الذين استغلوا أموال فتوحهم الطائلة في عمارة غزنة وغيرها من المدن ، وفي بناء المساجد الفخمة ، وفي إحداث نهضة علمية وأدبية . ويذكر دولتشاه سمرقندي أن الخليفة ببغداد أنعم على السلطان محمود الغزنوي لقب « وَلِيّ أمير المؤمنين » ، فأرسل السلطان محمود الغزنوي الثعالبيَّ إلى الخليفة ببغداد ليعمل على تغيير اللقب ليصبح « والي أمير المؤمنين »[٣] . ويرفض بوزورث هذه الرواية لأنها لم تذكر في المصادر المعاصرة آنذاك[٤] . ومهما يكن ، فقد ألف الثعالبي بعض كتبه لأخ السلطان محمود الغزنوي ، الأمير أبي المظفر نصر بن سبكتكين . ونعرف من هذه الكتب كتاب غرر السير ، وكتاب المتشابه ، وكتاب الاقتباس من القرآن . ويبدو أن علاقة الثعالبي بالأمير أبي المظفر نصر كانت حميمة آية ذلك أنه يذكر بعض أقواله في أكثر كتبه التي ألفها بين سنتي ٣٩٠ و ٤٢٩ هـ ومنها ثمار القلوب ، وخاص الخاص ، والإعجاز والإيجاز[٥] . وفوق ذلك ، فقد ألف الثعالبي كتاب « لطائف المعارف » للوزير أحمد بن حسن ميمندي الملقب بشمس الكفاة[٦] . وكان قد وزر للسلطان محمود الغزنوي من سنة ٤٠٤ هـ حتى سنة ٤١٥ هـ حين عزله وسجنه . ولما تولى مسعود ، ابن السلطان محمود الغزنوي ، الأمر سنة ٤٢١ ، أخرجه من السجن ، ثم أعاده الى الوزارة فلم يطل مكثه فيها لأنه توفي سنة ٤٢٤ هـ[٧] . ويذكر الثعالبي في كتابه « اللطائف والظرائف » ـ الذي ألفه لأبي العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه بالجرجانية التي أقام بها من سنة ٤٠٣ هـ حتى سنة ٤٠٧ هـ كما ذكر ـ أنه ألف كتاب « لطائف المعارف » في مكتبة الملك المؤيد[٨] ، أي في مكتبة أبي العباس مأمون . وفي ذلك مايدل على أن الثعالبي ألف كتاب « لطائف المعارف » في المدة الواقعة بين سنتي ٤٠٤ هـ وهي السنة التي تولى فيها أحمد بن حسن ميمندي الوزارة للمرة الأولى وسنة ٤٠٧ هـ وهي السنة التي قتل فيها أبو العباس مأمون .

ومن كبراء دولة الغزنويين الذين اتصل بهم الثعالبي وألف

لهم بعض كتبه الشيخ العميد أبو سهل أحمد بن الحسين الحمدوي الذي وزر للسلطان محمد بن محمود الغزنوي الذي تولى الأمر عقب وفاة والده سنة ٤٢١ هـ ، ولم يدم سلطانه طويلاً فقد عزله أخوه مسعود في السنة نفسها . وفي سنة ٤٢٤ هـ عين مسعود الغزنوي العميد أبا سهل الحمدوي والياً على الري وسائر بلاد الجبال[٣٩] . ويذكر الثعالبي أنه أهدى إحدى نسخ كتابه « سحر البلاغة وسر البراعة » إلى الشيخ الرئيس أبي سهل الحمدوي[٤٠] . ومر بنا أن الثعالبي يذكر هذا الكتاب وينقل عنه في كتابه « يتيمة الدهر » الذي فرغ من إعادة تأليفه سنة ٤٠٣ هـ كما ذكر . ومعنى ذلك أن كتاب « سحر البلاغة وسر البراعة » ألف قبل هذا التاريخ وقبل أن يتولى أبو سهل الحمدوي الوزارة بزمن غير قصير . ويُذكر أن أبا سهل الحمدوي كان يعمل ، قبل توليه الوزارة ، عارضاً للجيش . ويقول الثعالبي في مقدمة كتابه « لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء » : « قد ألفت هذه الكلمات في هذا الكتاب للشيخ العميد أبي سهل الحمدوي »[٤١] . ولقب « الشيخ العميد » الوارد في هذا القول قد يدل على أن الكتاب ألف بين سنتي ٤٢٤ و٤٢٨ حين كان أبو سهل الحمدوي والياً على الري وبلاد الجبال .

ويذكر الثعالبي أنه ألف كتاب « تتمة اليتيمة » للشيخ أبي الحسن محمد بن عيسى الكرجي الذي اتخذه السلطان محمود الغزنوي « مصباح مجلسه ومفتاح أنسه ، ومستودع سره ، وأخص بطانته »[٤٢] . ويورد الثعالبي في الكتاب المذكور قطعة لأبي علي الحسن بن محمد الدامغاني في رثاء الوزير أبي القاسم أحمد بن الحسن الميمندي[٤٣] الذي توفي سنة ٤٢٤ هـ . كما يقول الثعالبي في معرض حديثه عن الشيخ العميد أبي سهل الحمدوي : « ومن خصائص فضله وبدائع مجده أنه والي الري وسائر بلاد الجبال »[٤٤] ، مما يدل على أن كتاب « تتمة اليتيمة » أُلف بين سنتي ٤٢٤ هـ و٤٢٨ هـ . وهكذا يمكن الافتراض أن كتابي « لطائف الظرفاء » و « تتمة اليتيمة » هما آخر كتابين ألفهما الثعالبي إذ لم أجد أية إشارة إلى ان الثعالبي ألف شيئاً بعد الكتابين المذكورين .

وقد جمعت بعض مواد كتاب « لطائف الظرفاء » ونشرت لأول مرة سنة ١٨٣٥ م بعناية ب . كول (P.Cool) ضمن كتاب (Selecta ex Thaalebii libro facetiarum) إعداد ت . روردا (T.Roorda) لتعليم النحو العربي . وفي سنة ١٩٨٠ م صدر هذا الكتاب عن دار المسيرة ببيروت موسوماً بـ « لطائف اللطف » بعناية الدكتور عمر الأسعد وتحقيقه . ويذكر الدكتور الأسعد أنه في زيارته للولايات المتحدة الأمريكية صيف عام ١٩٧٨ أتيح له الاطلاع على فرائد المخطوطات العربية في مكتبة جامعة برنستون الشهيرة بولاية نيوجرزي . ومن جملة هذه المخطوطات مجموع يضم عدداً من الرسائل الصغيرة من بينها مخطوطة لأبي منصور الثعالبي موسومة بـ « لطائف اللطف »[٤٥] . ولم يعتمد الدكتور الأسعد في تحقيقه على غير النسخة المذكورة ، كما لم يذكر عنوانات الرسائل الصغيرة التي ضمها المجموع . وكان الدكتور قاسم السامرائي قد نشر عن مؤسسة بريل بلايدن سنة ١٩٧٨ نسخة طبق الأصل (Facsimile) عن مخطوطة للكتاب عثر عليها ضمن مجموعة مخطوطات عربية في مكتبة جامعة ليدن رقمها : (Codex Orientalis 1042) ويذكر الدكتور السامرائي في المقدمة القصيرة التي كتبها بالانجليزية أن المجموعة ، في الأصل ، تضم ثلاثة كتب ذُكرت أسماؤها في ثبت المحتوى المذكور على صفحة العنوان . وهذه الكتب هي :

١ ـ كتاب لطائف الصحابة للثعالبي .

٢ ـ كتاب أحاسن كلام النبي للثعالبي .

٣ ـ كتاب الأجوبة المسكتة لابراهيم بن أبي عون الكاتب (ت ٣٢٢ هـ) وهذا الكتاب فقد من مخطوطة ليدن . ومنه نسخة في مكتبة العثمانية باستنبول ، ونسخة ثانية في المكتبة الوطنية بفينا[٤٦] . وقد رفض الدكتور قاسم أن يكون عنوان كتاب الثعالبي الأول « لطائف الصحابة » ، ونشر صورة المخطوطة بعنوان كتاب « لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء » . وهكذا نشر الكتاب موسوماً بعنوانين مختلفين فأيهما الصحيح ؟ .

خصص الدكتور الأسعد بعض حديثه في المقدمة لعنوان

المخطوطة فقال :

وأما عنوان المخطوطة فقد كتب في نهاية وجه الورقة ٩٣ وصورته « نجزت الرسالة الموصوفة المنظومة بلوعة الشاكي ودمعة الباكي . . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم عدد ذكر الذاكرين وسهو الغافلين ، تمت ويتلوه لطائف اللطف للشيخ (أبي) منصور عبدالملك الثعالبي النيسابوري ، عفا الله عنه »[١٧] . ومما يأخذه الدكتور الأسعد على ناسخ المخطوطة أنه « جانب الضبط والدقة مجانبة واضحة : فإذا التبست عليه كلمة كتبها بصورة مبهمة غير مقروءة ، وإذا سها كرر اللفظة فشطبها أو تركها مكررة ، أو أسقط سطراً أو أكثر من النص دون ان يفطن له أو يشير اليه »[١٨] . ويتابع الدكتور الأسعد حديثه عن الناسخ فيقول : « أما ماحفلت به المخطوطة من التصحيف والتحريف فيؤكد ان الناسخ لم يكن على علم تام بما يكتب ، فلقد اعتور نصوص المخطوطة وجلة أخبارها التصحيف والتحريف والخلط والإسقاط ، ولم يكد يخلو من ذلك خبر أو فقرة »[١٩] . وإذا كان هذا شأن الناسخ (لم يكن على علم تام بما يكتب) فينبغي للمحقق ان لايكون عَجِلاً أعجل في الاطمئنان إلى مانسخ هذا الناسخ ، وعليه ان يكون حذراً أشد الحذر في قبول ماينشيء هذا الناسخ . ولعل الخطوة الأولى في سبيل ذلك تتمثل في الجد في البحث عن نسخة ثانية للمخطوطة ، وما كان أيسر ذلك بالنظر إلى عمل الدكتور الأسعد لأن الدكتور السامرائي كان قد نشر صورة طبق الأصل عن مخطوطة ثانية للكتاب قبل سنتين من ظهور عمل الدكتور الأسعد . ولاأدرى لم غض الدكتور الأسعد الطرف عن قول الثعالبي ـ حسبما جاء في عمله ـ : « وقد قضيت (كذا) عن (كذا) كتاب البراعة ، في التكلم من الصناعة ، بهذا الكتاب الخفيف الحجم ، الثقيل الوزن . . في لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء »[٢٠] . فهنا إشارة تكاد تكون صريحة جداً إلى عنوان الكتاب وخصوصاً أن الصفدي يذكر من بين كتب الثعالبي كتاباً موسوماً بـ « لطائف الظرفاء »[٢١] . ولم أجد أحداً من القدماء يذكر ان للثعالبي كتاباً موسوماً بـ « لطائف اللطف » . ومن يقرأ الكتاب يجد أنه قسم إلى اثني عشر باباً يضم كل باب منها مجموعة من الأقوال أو الحكايات أو الأخبار مرتبة ـ في الغالب ـ حسب طبقات أصحابها بالنظر الى مراكزهم . كما يجد أن أكثر الشخصيات المذكورة في الكتاب تنتمي إلى المعدودين في زمانهم من حيث مراتبهم في جهاز الدولة أو في فن الكتابة شعراً أو نثراً أو في كليهما . ولذا فالعنوان « لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء » منسجم تمام الانسجام مع مادة الكتاب . وقد أحسن الدكتور السامرائي صنعاً حين رفض العنوان الذي وضعه ناسخ المخطوطة التي صورها وهو « لطائف الصحابة » ، وتنبه على أن هذا العنوان هو عنوان الباب الأول من الكتاب ، كما تنبه على أن الصفدي ـ (أول من حاول أن يستقصي مؤلفات الثعالبي فذكر ستا وثمانين منها) ـ لم يذكر في قائمة كتب الثعالبي كتاباً عنوانه « لطائف الصحابة »[٢٢] .

ومهما يكن ، فان اعتماد الدكتور الأسعد على نسخة واحدة من المخطوطة أساء إلى عمله من غير جانب على الرغم مما أفرغ من العمل المذكور من جهد . وبالمقابلة بين ماجاء في عمل الدكتور الأسعد وماجاء في مصورة مخطوطة ليدن ـ التي يقول الدكتور قاسم السامرائي عن ناسخها ماترجمته : « لم يكتب ناسخ مخطوطتنا بخط فاخر فحسب ، بل حاول جاداً أن يقدم نصاً صحيحاً معتمداً . وهذا يبدو من تصويباته في الهوامش التي غالباً ماتتبع إما بكلمة (صح) أو بحرف (ظ) أي فيها نظر . وفوق ذلك ، فإن من الواضح أنه قابل النسخة التي اعتمدها على نسخة أخرى وكلما وجد اختلافاً في النسخة الثانية أشار اليه بحرف (خ) أي هكذا يقرأ في النسخة الثانية . وبالتأكيد فان هذه النسخة الثانية دون النسخة الأم المعتمدة ، ففي سبعة من تسعة أمثلة من الاختلاف نجد قراءتها خاطئة . وقد أشار الناسخ إلى المقابلة في الهامش بقوله : بلغ مقابلة . فإذا تركنا ذلك ، فإننا نجد في هامش المخطوطة إشارات تفيد أن الناسخ اعتمد أعمالاً أخرى كيتيمة الدهر للثعالبي ، وصحاح اللغة للجوهري »[٢٣] ـ نجد أن المخطوطة التي اعتمدها الدكتور الأسعد لم تنج من شائبة النقص الكثير ، وأنا مستدرك بعض ذلك ، علماً بأن الدكتور الأسعد جعل لمواد الكتاب أرقاماً فجاء الكتاب في مئتين وتسع وسبعين مادة .

سقط من نهاية المادة (٣) مايلي وهو في المصورة (٦ب) :

« وقال له (أي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه) رجل : الصمت مفتاح السلامة ، قال : نعم ولكنه قفل الفهم » .

وجاء قول عثمان ، رضي الله عنه ، في المادة (٤) من عمل الدكتور الأسعد كما يلي : « مامسست فرجي بيميني مذ بايعت النبي (ﷺ) » . وهو في المصورة (٦ ب) كما يلي : « والله ماتمنيت ، ولاتغنيت ولاشربت الخمر في الجاهلية ولا في الإسلام ولامسست فرجي بيميني منذ بايعت بها رسول الله (ﷺ) » .

وسقط من نهاية المادة (٦) مايلي وهو في المصورة (٧ أ) « وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يقول : لو طلبتم مابين جابلق وجابلق رجلا جده نبي لم تجدوه غيري . وكان علي بن الحسين بن علي زين العابدين يقول : في الإحسان ابتداء تحبر على الإحسان انتهاء ، لأن ترك الإحسان في الانتهاء هدم للإحسان في الابتداء » .

وسقط صدر البيت الأول من بيتي الوليد بن يزيد الواردين في نهاية المادة (٢٨) ، وبذا يصبح البيت كما جاء في المصورة (١٠ أ) :

أشتهي الخمر وأهوى كل مضفور الذؤابة

وسقط من المادة (٢٩) وهو في المصورة (١٠ ب) : « وكتب إليه (أي إلى مروان بن محمد) الضحاك الخارجي الشيباني : لأبعثن إليه المرد على الجرد فأجابه توقيعاً له : لأبعثن الكهول على الفحول » .

وجاءت المادة (٤٨) في عمل الدكتور الأسعد كما يلي : « المعتز بالله لما حرضته أمه على طلب الثأر من الأتراك الذين قتلوا أباه فأبرزت إليه قميصه وشكت وبكت ، فقال لها : ارفعيه والإصار القميص قميصين . فما عادت لعادتها بعد ذلك » . وجاء هذا الخبر في المصورة (١٥ أ ـ ١٥ ب) كما يلي : « المعتز بالله ، لما حرضته أمه تبيحة على قتل الأتراك لثأر أبيه وأبرزت إليه قميصه الملطخ بدمه فرأته يتغافل عنها ولم يزد على السكوت ، فجاءته يوماً بالقميص وشكت وبكت ، فقال لها : ارفعيه وإلا صار القميص قميصين . فسكتت وماعادت لعادتها بعد ذلك » .

وجاء في نهاية المادة (٦١) من قول عبدالله بن نوح عن الملوك والسادة « وليس لهم غير الحفي النيسابوري والملحم المروزي » . وجاء القول في المصورة (١٧ ب) كما يلي : « وليس لهم غير الحفي النيسابوري ، والوذاري السمرقندي ، والملحم المرزوي والعتابي » . والخبر منسوب إلى عبدالملك بن نوح . وهو لعبدالملك بن نوح في كتاب « خاص الخاص » ص ٥٢ .

وجاءت المادة (٧٨) في عمل الدكتور الأسعد كما يلي : « رأى الرشيد ، رحمه الله تعالى ، يوماً رجلاً في داره وبيده حزمة خيزران فقال : ماهذه ؟ فقال : عروق القنا ، لموافقته اسم أم الرشيد » . ويشير الدكتور الأسعد في الهامش أن الخبر في « أخبار الأذكياء ص ٥٠ » يخاطب فيه الرشيد وزيره الفضل بن الربيع . وجاء الخبر في المصورة (٢٠ ب) كما يلي : « الفضل بن الربيع ، رأى الرشيد يوما في داره رجلاً بيده حزمة خيزران فقال للفضل : ماتلك قال : عروق الرماح ياأمير المؤمنين . ولم يرد ان يقول الخيزران لموافقته اسم أم أمير المؤمنين الرشيد » .

وجاء في المادة (٨٥) من عمل الدكتور الأسعد مايلي : « أحمد بن أبي دؤاد كان يقول : الخبز ليومه والطبيخ لساعته والنبيذ لسنته » . ويذكر الدكتور الأسعد في الهامش أن « القول في خاص الخاص ، ص ٥٦ منسوب إلى ابراهيم بن العباس وفي الأصل والبطيخ لساعته » . وهذا القول منسوب في مصورة ليدن أيضاً الى ابراهيم بن العباس الصولي ، اما قول أحمد بن أبي دؤاد فقد سقط من المخطوطة التي اعتمدها الدكتور الأسعد . والخبر في المصورة (٢٢ أ) يسير على النحو التالي : « أحمد بن أبي دؤاد يقول : ماكلمت المعتصم والواثق قط بين يدي ابن الزيات في حاجة خوفاً من أن يتعلم مني لطائف التأتي لطلب الحاجات من الملوك » .

وجاء في المادة (٨٨) من عمل الدكتور الأسعد مايلي : « عيسى بن فرخان شاه من ظريف كلامه وتشبيهه : القلم

الرديء كالولد العاق » . وبعد هذا القول في المصورة (٢٢ ب) مايلي : « وكان الصاحب يقول : كالأخ المشاق » .

وجاء في نهاية المادة (١٢٩) وهي عن أبي الحسن المنجم مايلي : « وقوله : والشرب على غير الدسم سم ، وعلى غير النغم غم » . وقد سقط ماقدم به الثعالبي لهذا القول وهو في المصورة (٣٠ ب) « وله هذه اللفظة البديعة في التجنيس ، ولم أسمع مثلها في حسن الصنعة وظرف الصيغة قوله . . . » .

وجاء في المادة (١٣٦) وهي عن أبي الفضل البديع الهمذاني « وله في جواب رقعة . . » وماجاء في المصورة (٣١ ب) هو : « وله من جواب رقعة إلى من كتب إليه يعاتبه على ترك عطاياه » .

وجاء في نهاية المادة نفسها من عمل الدكتور الأسعد : « وكتب إلى صديق له : قد حضرت دارك وقبلت جدارك ، ومابيّ حب الحيطان ، ولكن شغف القطان » . وفي المصورة (٣٢ أ) يذكر البيت التالي بعد هذا الكلام :

وماحب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وجاء في المادة (١٣٧) من عمل الدكتور الأسعد مايلي : « وسأل الرشيدُ الأوزاعيَّ عن اسم امرأة إبليس فقال : تلك وليمة لم أحضرها » . وتبدو إجابة الأوزاعي هذه غريبة جداً وخصوصاً أن المادة التي تأتي قبل ذلك مباشرة مخصصة لأبي يوسف القاضي الذي تحاكم إليه الرشيد وزبيدة في الفالوذج واللوزينج أيها أفضل . . غير أن الاجابة لاتبدو غريبة في المصورة لأن الذي سُئِلَ عن اسم امرأة إبليس فأجاب هو أبو يوسف وليس الأوزاعي . أي أن المادتين من حقهما أن تُدمجا في مادة واحدة في عمل الدكتور الأسعد . وقد سقط من العمل المذكور خبر كامل يشترك فيه الرشيد والأوزاعي وأبو يوسف ؛ وهو في المصورة (٣٣ أ) : كما يلي : « وسأل الرشيد الأوزاعي بحضرة أبي يوسف عن السواد فقال : ياأمير المؤمنين ، لايصلي فيه محرم ، ولاتجلى فيه عروس ، ولايكفن فيه ميت . فكره الرشيد قوله وَزَوى مابين عينيه ، ونظر إلى أبي يوسف كالمستفتح كلامه فقال : ياأمير المؤمنين ، النور في السواد ، يعني أن الانسان يبصر الدنيا بسواد العين ، فهلل ورحب الرشيد بكلامه ، فقال أبو يوسف وخصلة أخرى في السواد يا أمير المؤمنين ، فقال وماهي ؟ قال : لم يكتب كتاب الله إلا به ، فقال : أحسنت وأمر له بالصلة » .

وفي المادة (١٤١) في عمل الدكتور الأسعد استبدل أبو العباس بن شريح بأبي القاسم الزجاجي وسقط قول الأول وهو في المصورة (٣٤ ب) : « أبو العباس بن شريح كان يقول : غبار العمل خير من زعفران العطلة » .

وجاءت المادة (١٤٨) في عمل الدكتور الأسعد مكونة من قول واحد لأبي سليمان الخطابي . وفي المصورة (٣٥ ب ـ ٣٦ أ) قولان للخطابي المذكور . القول الأول لم يرد في عمل الدكتور الأسعد وهو : « لتكن من إخوانك قريباً ولاتكن عليهم رقيباً » .

وجاءت المادة (١٥٨) في عمل الدكتور الأسعد كما يلي : « يحيى بن ماسويه سئل عن الشر لأخيه معه فقال : نكاح العجوز » . وفي الخبر في المصورة (٣٧ أ ـ ٣٧ ب) كالتالي : « يحيى بن ماسويه سئل عن الخير الذي لاشر معه فقال : شرب القليل الصافي . ثم سئل عن الشر الذي لاخير معه فقال : نكاح العجوز » .

وجاءت المادة (١٩٤) في عمل الدكتور الأسعد على النحو التالي : « حضر طرخان المغني مجلس أنس فغناهم ساعة ثم سقوه ولم يطعموه فغنى :

خليلي دوايتمـا ظاهـرا فمن ذا يداوي جوى باطنا »

والخبر في المصورة (٤٢ ب) أتم وهو يجري على النحو التالي : « حضر ابن طرخان المغني مجلس أنس قد أكل أهله فغناهم ولايشرب ، ثم سقوه وهوجائع فأنشأ يغني هذا البيت :

خليلـي داويتمـا ظاهـرا فمن ذا يداوي جوى باطنا

ففطن صاحب البيت لجوعه وأطعمه » .

والمادة (١٩٨) في عمل الدكتور الأسعد سقط منها خبر عن أبي شراعة وهو في المصورة (٤٤ أ) : « سئل عن أطيب الطعام

فقال : الحبيب » .

وسقط من المادة (١٩٩) في عمل الدكتور الأسعد خبر عن ابن عائشة القرشي وهو في المصورة (٤٤ أ) كما يلي : « وقيل له : إن فلاناً قد تاب من النبيذ . فقال : قد طلق الدنيا ثلاثاً » .

وجاءت المادة (٢٠٣) في عمل الدكتور الأسعد كما يلي : « يحيى بن زياد الحارثي قال : قال مطيع بن إياس : إن في النبيذ لمعنى من الجنة ، لأن الله تعالى حكى عنهم بالحمد لله الذي أذهب عنا الحزن والنبيذ يذهب الحزن » ، وجاءت المادة في المصورة (٤٥ أ) كما يلي : « يحيى بن زياد الحارثي قال لأحد : أنت كالمسك إن أمسك عبق ، وإن بيع نفق . فقال له : وأنت كالقطر إن وقع على البرّ أنبت البُرّ ، وإن وقع على البحر أنبت الدُّر . وقال لمطيع بن إياس إن في النبيذ معنى من الجنة ، لأن الله تعالى حكى عنهم (وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) والنبيذ يذهب بالحزن » .

والمادة (٢٠٦) في عمل الدكتور الأسعد عن مزبد المدني وسقط من آخرها مايلي وهو في المصورة (٤٥ ب) : « وطلب جار له من داره ملعقة فقال : ليت لنا ماناكله بالأصابع » .

ويعد بيت بشار :

أنا والله اشتهي سحر عينيه وأخشى مصارع العشاق

المذكور في المادة (٢٣٣) في عمل الدكتور الأسعد جاء في المصورة (٥٠ ب) : « وزعم هارون بن علي بن يحيى المنجم أنه أغزل بيت في شعر المحدثين » .

وفي المادة (٢٤٢) أربعة أبيات : اثنان لكشاجم واثنان لغيره . أما في المصورة (٥٢ ب) فهي خمسة أبيات : اثنان لكشاجم وثلاثة لغيره ، والبيت الثالث هو :

ولم ندر بعد ذهاب الرقاد ماصنع الدمع بالناظر

وجاء بعد ذلك في المصورة (٥٢ ب) بيتان لاسحق الموصلي لم يردا في عمل الدكتور الأسعد وهما :

هل إلى نظرة إليك سبيل
فيروى الصدى ويشفى الغليل
إن ماقل منك يكثر عندي
وكثير من الحبيب قليل

أما المادة (٢٤٩) في عمل الدكتور الأسعد فهي عن العطوي وأظرف شعره وهي في المصورة من قسمين . جاء القسم الثاني منها في عمل الدكتور الأسعد ، أما القسم الأول فهو خمسة أبيات للعطوي في الاستزارة ؛ وهي تجري في المصورة (٥٣ ب) على النحو التالي :

كنت المُعزّى بفقدي
وعشت ماعشت بعدي
اهدى إليّ أخ لي
سليل مسك وورد
أرق من لفظ صَبّ
يشكو حرارة وجد
كأنه إذ يجينا
بلا انتظار ووعد
فاخلع عليّ سرورا
بكونك اليوم عندي

وتتكون المادة (٢٥١) في عمل الدكتور الأسعد من أبيات مختارة لابن المعتز . وأولها بيتان في الهلال . وقد قدم لها في المصورة (٥٤ أ) بالقول : « كان يقال : إذا قال ابن المعتز بحرف التشبيه فقد سحر وبهر وظرف ولطف كقوله في الهلال » . ولم تذكر هذه التقدمة في عمل الدكتور الأسعد . أما قول ابن المعتز في الربيع فهو في ثلاثة أبيات في عمل الدكتور الأسعد ، غير أنه في أربعة أبيات في المصورة (٥٤ ب) والبيت الساقط ترتيبه الثالث وهو :

وغناء الطيور كل صباح وغناء الأنوار في الأشجار

ومما جاء في المادة (٢٥٣) في عمل الدكتور اسعد وهي اختيارات مما ظرف من شعر ابن طباطبا العلوي : « وله في عمل الوسمي وقد هدم جانبا من سور أصفهان » . والقول في المصورة (٥٥ ب) كما يلي : « ومن عجيب ظرفه قوله لأبي علي الرستمي وقد هدم جانباً من سور أصفهان ليزيله في داره » . وسقط من المادة نفسها قول ابن طباطبا في الغزل :

ووجنة كجنة لحسنها عشقي فيها قد خلد

كما سقط قوله في وصف السماء ليلاً :

تحت سقيف من الزبرجد قد   رصع حسنا بالدر والياقوت

وجاء في المادة (٢٥٦) في عمل الدكتور الأسعد : « ابن بسام من لطائف ثلاثته » . والقول في المصورة (٥٦ أ) كما يلي : « علي بن محمد [ابن بسام] ، من ثمار ظرفه ووسائط ثلاثته قوله لأبي جعفر » .

وفي المادة (٢٦١) بيتان للمتنبي . أما في المصورة (٥٧ أ) فالأبيات ثلاثة والبيت الذي لم يذكر هو :

فإن تَفُقِ الأنام وأنت منهم
فإن المسك بعض دم الغزال

وسقطت أربعة أبيات للصابي وتأتي بعد المادة (٢٦٩) وهي تسير في المصورة (٥٨ ب) على النحو التالي :

لما وضعت صحيفتي   في بطن كف رسولها
قبلتها لتمسها يمناك عند وصولها
وتود عيني أنها اتصلت ببعض فصولها
حتى ترى من وجهك الميمون غاية سولها

وسقط قول البستي في غلام نحوي وترتيبه بعد المادة (٢٧٣) ، وهو في المصورة (٥٩ ب) :

أفدى الغزال الذي في النحو كلمني
مناظراً فاجتنيتُ الشهد من شفته
ثم اتفقنا على حال رضيت به
والنصب من صفتي والخفض من صفته

وجاء في المادة (٢٧٦) بيتان لأبي سعيد بن دوست . أما في المصورة (٥٩ ب ـ ٦٠ أ) فالأبيات ثلاثة ، والبيت الذي لم يذكر هو :

إن سعيداً قد لسن   وماء عينيه أسن

وسقط بعد المادة نفسها بيتان لأبي الوفاء محمد بن يحيى الكاتب وهما :

سقى الله الصبا صوب الدموع
وأيام الحمى غيث الربيع
سنين طويتها شهراً فشهراً
فلم أعرف جمادى من ربيع

وسقط من المادة الأخيرة ورقمها (٢٧٩) وهي مخصصة للشيخ العميد أبي سهل الحمدوي بيتان وهما في المصورة (٦٠ ب) :

لاتنتزع عن عادة عُوِّدتها
أحدا فذاك من الفطام أشدّ
واصبر عليها ماحييت ولاتزل
عنها فذاك من اللطام أشدّ

والبيتان للحمدوي في « تتمة اليتيمة » ج ٢ ص ٦١ ، وعجز البيت الثاني هناك : « عنها فذاك من الجفاء يُعَدّ » .

أما قول الحمدوي في الحكمة والموعظة الحسنة الوارد في المادة نفسها فهو في متن عمل الدكتور الأسعد من خمسة أبيات . وهو في المصورة في أربعة عشر بيتاً . وقد أثبت الدكتور الأسعد بقية الأبيات في الهامش معتمداً على كتاب « خاص الخاص » للثعالبي .

أما ماجاء في عمل الدكتور الأسعد من تحريف وتصحيف فكثير جداً لاتكاد تبرأ منه صفحة من صفحات الكتاب . وأنا ذاكر بعض ذلك .

جاء في المادة الأولى في معرض حديث المؤلف عن أبي سهل الحمدوي الذي ألف الثعالبي الكتاب له : « وإن كانت هيبته تقتضي عن أكثر مرادي » ، ولامعنى لذلك والصحيح « وإن كانت هيبته تقبضني عن أكثر مرادي » . وجاء في المادة نفسها « وقد قضيت عن كتاب البراعة ، في التكلم من الصناعة بهذا الكتاب الخفيف الحجم ، الثقيل الوزن ، الصغير الغنم » . والجملة في أولها غامضة وفي آخرها مضطربة متناقضة . والصحيح ماجاء في المصورة (٤ أ) « وقد قَفَّيْتُ على أثر كتاب البراعة في التكلم من الصناعة بهذا الكتاب الخفيف الحجم ، الثقيل الوزن ، الصغير الجرم ، الكبير الغنم » . ويحسن هنا أن أشير إلى أن الثعالبي استعمل بعض هذا التعبير أو مايشبهه في غير مقدمة مما وصل الينا من كتبه . فقد جاء في مقدمة كتابه « الكناية والتعريض » مايلي : « ثم إن هذا الكتاب خفيف الحجم ، ثقيل الوزن ، صغير

الجرم ، كبير الغنم » . كما جاء في مقدمة كتابه « سر الأدب في مجاري كلام العرب » مايلي : « وقد طال ماأنفقت عمري على التقاط درر وانتخاب غرر من أسرار اللغة العربية وخصائصها . . وحين حصلت منها على الجوامع اخترت منها ماأودعته هذا الكتاب الصغير الحجم ، العظيم الغنم » . وجاء في المادة الأولى نفسها في معرض حديث المؤلف عن كتابه : « فالألفاظ بين البلاغة والإيجاز ، وخفة الأرواح مع الاعجاز » . وهو تصحيف صحيحه ماجاء في المصورة (٤ أ) « وخفة الأرواح مع الاعجاز » . وجاء في آخر المادة نفسها : « قرّب الله السعود بعونه ومشيئته » وهو تصحيف صحيحه في المصورة (٦ أ) « قرن الله السعود به بعونه ومشيئته » .

وجاء في المادة (٩) : « وخطب معاوية بن سعيد امرأة . . » وفي المصورة (٧ ب) : « وخطب المغيرة بن شعبة امرأة » .

وجاء في المادة (١٠) : « وقيل للشعبي رحمه الله : إن فلاناً يشرب النبيذ . فقال : دعوه يقتله القول » . وفي النص تحريف وتصحيف ، والصحيح ماجاء في المصورة (٧ ب) : « وقيل للشعبي : إن فلاناً لايشرب النبيذ فقال : دعوه حتى يقتله القولنج » .

وجاء في المادة (١٢) : « وقيل للحسن البصري : إن فلاناً يأكل الفالوذج ويعمر » . ولامعنى لذلك والصحيح ماجاء في المصورة (٨ أ) : « وقيل للحسن البصري إن فلاناً لايأكل الفالوذج ويعيبه » .

وجاء في المادة (٢٦) : « سليمان بن عبدالملك ، تكلم عنده قوم فأساؤوا وتكلم رجل منهم فأحسن . فلما انصرفوا وصفهم سليمان فقال : ماأشبه كلامهم (وكلامه) إلا بمطر تلبدت عجاجته » . والصحيح ماجاء في المصورة (٩ ب) : « سليمان بن عبدالملك تكلم عنده قوم في مسألة فأساؤوا ، ثم تكلم منهم رجل فأحسن . فلما انصرفوا وصفه سليمان فقال : ماأشبه كلامه بعد كلامهم إلا بمطر تلبدت عجاجته » .

وجاء في المادة (٢٩) من كتاب مروان بن محمد للضحاك الخارجي : « إني وإياك كالحجر والزجاج إن وقع عليها رضها . . » والصحيح ماجاء في المصورة (١٠ ب) : « إني وإياك كالحجر والزجاجة . . » .

وجاء في المادة (٣١) : « الليث بن نصر بن سيار دفع إليه وكيله أربعين درهماً في جلاء مرآة » . وفي النص تحريف يفسد المعنى والصحيح « رفع اليه » .

وجاء في المادة (٣٢) قول أبي العباس السفاح : « التغافل عن ذنوب الناس وعيوبهم من أخلاق الكرام ، والتهاون بمفاضحتهم من أخلاق اللئام » . وفي الجزء الثاني من هذا القول تحريف يخل بالمعنى والصحيح ماجاء في المصورة (١١ أ) : « والتهاون عن مصالحهم ومناجحهم من أخلاق اللئام » .

وجاء في المادة (٣٩) وفيها بعض طريف كلام المأمون ، « وقال للبريدي » وهو تصحيف صوابه : « وقال لليزيدي » . وجاء في المادة نفسها من قول المأمون لليزيدي : « وإذا احتشمنا من شيء أسررناك » . ولامعنى لذلك في السياق ، والصحيح ماجاء في المصورة (١٣ ب) : « وإذا احتشمناك في شيء أسررناه عنك » .

وجاء في المادة (٤٠) في رقعة ابراهيم بن المهدي إلى إسحاق بن ابراهيم حين طهر بعض أولاده : « لولا أن البضاعة قصرت عن الهمة لبعثت المدى إليك . وقد كرهت أن تطوى صحيفة البر وليس فيها ذكر ، فبعثت المبدأ به لوليمته والمختتم به لنظافته : جراب ملح وجراب أشنان » . والخبر على هذا الوجه مضطرب فيه تحريف وتصحيف والصحيح ماجاء في المصورة (١٣ ب - ١٤ أ) : « لولا ان البضاعة قصرت عن الهمة لاتَّبعتُ المُهدين . وقد كرهت أن تُطوى صحيفة البر وليس لنا فيه ذكر ، فبعثت إليك المبتدأ به لِيُمْنِه ، والمختتَم به لنظافته : جراب ملح وجراب شنان » .

وجاء في المادة (٤١) : « عبيد الله بن عبدالظاهر كان يقول : سمن الكيس ونيل الذكر لايجتمعان » . وأشار الدكتور الأسعد إلى أن القول في الإعجاز والإيجاز ص ٨٢ وهو لعبدالله بن طاهر . والمادة في المصورة (٤ أ) كما يلي « عبيدالله بن

عبدالله بن طاهر كان يقول : سمن الكيس ونبل الذكر لايجتمعان » .

ومما جاء في المادة (٤٥) بيتان للفتح بن خاقان بعث بهما الى المتوكل حين احتجبت عن ندمائه لرمد عرض له . وصدر البيت الأول في عمل الدكتور الأسعد « عيناك أجمل من عيني بالرمد » . ويذكر الدكتور الأسعد في الهامش مايلي : « في الأصل عيناي أجمل من عينيك ، وبه يختل المعنى » . غير أن الصحيح لاهذا ولاذاك ، بل ماجاء في المصورة (١٥ أ) وهو : « عيناي أحمل من عينيك للرمد » .

وجاء في المادة (٤٩) : « عبدالله بن طاهر نادمه المعتز » والصحيح « عبيدالله بن عبدالله بن طاهر نادمه ابن المعتز » .

وجاء في المادة (٥٣) مايلي : « عبدالله بن المعتز قال : الخطاب من شهود الزور » . وجاء في المادة (٥٤) مايلي : « وأظرف ماقيل : النساء مهر الجنة . ومن بخل بالدنيا جادت به » . ومن حق هاتين المادتين أن تدعجا في مادة واحدة . فالقولان في المادة (٥٤) مجهولا القائل . وهما في المصورة منسوبان الى عبدالله بن المعتز . وفي القولين الأولين من التحريف والتصحيف مايخل بهما والصحيح ماجاء في المصورة (١٦ أ) وهو يسير على النحو التالي : « عبدالله بن المعتز بالله قال : الخضاب من شهود الزور . وأظرف ماقال في الزهد : طلاق الدنيا مهر الجنة ، ومن بخل بالدنيا جادت به » .

ومما جاء في المادة (٥٦) قول الناصر الأطروش : « أشغل الناس من شغل مشغولاً » . والصحيح ماجاء في المصورة (١٦ ب) : « أثقل الناس من شغل مشغولاً » . والقول كذلك في التمثيل والمحاضرة ص ٤٥٥ .

ومما جاء في المادة (٥٧) وهي عن نصر بن أحمد : « وكان أبو غسان التميمي من المغتبطين بحضرته ، وكان من الأدباء الذين يسيئون آدابهم . . » ويذكر الدكتور الأسعد في الهامش أن عبارة الأصل محرّفة وهي : « الذين يسومون آدابهم بالأدب » . والصحيح ماجاء في المصورة (١٧ أ) : « وكان أبو غسان التميمي من المرتبطين بحضرته ، وكان من الأدباء الذين يسيئون آدابهم بالأدب » .

وجاء في المادة (٦١) : « عبدالله بن نوح كان يقول : « لايحسن بالملوك والسادة الأحرار لبس المصبغات . . وليس لهم غير الحفي النيسابوري . . . » وفي النص تحريف وتصحيف ، والصحيح ماجاء في المصورة (١٧ ب) : « عبدالملك بن نوح كان يقول : لايحسن بالملوك والسادة والأحرار لبس المصبغات . . وليس لهم غير الحفي النيسابوري . . . » والقول في خاص الخاص ، ص ٥٢ .

وجاء في المادة (٦٩) : « عبدالرحمن صاحب أندلس ، كتب إليه بسبة فوقع أما بعد فإنك عرفتنا فسببتنا ولو عرفناك أجبناك » . ويذكر الدكتور الأسعد في الهامش أن الأصل فيه « بسهة » بدلاً من « بسبة » و « فنسبتنا » بدلاً من « فسببتنا » . وفي النص تحريف وتصحيف والصحيح ماجاء في المصورة (١٩ أ) : « عبدالرحمن صاحب الأندلس ، كتب إليه نزار بن معد يسبه فوقع في كتابه : عرفتنا فنسبتنا ولو عرفناك لأجبناك والسلام » .

وجاء في المادة (٧٠) وهي عن بعض ظرف أبي القاسم محمود السلطان الغازي : « وقعد يوماً يعرض عسكره فقرىء ذكر فتى بقل وجهه ، وكان موصوفاً بالجمال فقال : اكتبوا بطلب وجهه » . والصحيح ماجاء في المصورة (١٩ أ) : « وقعد يوماً لعرض العسكر فقرىء عليه اسم فتى بقل وجهه وكان موصوفاً بالجمال ، فقال : اكتبوا بطل وجهه » .

وجاء في المادة (٧١) : « عبيدالله بن يحيى وزير مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية ، كان يقول : البلاغة مارضيته الخاصة وفهمته العامة » . والصحيح ان وزير مروان بن محمد هو عبدالحميد بن يحيى . والنص منسوب إليه في المصورة (١٩ أ) غير أن النص منسوب في « التمثيل والمحاضرة » ص ١٥٨ لأبي عبيدالله وزير المهدي .

وجاء في المادة (٧٤) : « الصديق إما ينفع أو يستنفع » . وفي النص تصحيف وهو في المصورة (١٩ ب) : « الصديق إما أن ينفع أو يشفع » . والقول في خاص الخاص ، ص ٤ .

وجاء في المادة (٨٢) قول الفضل بن مروان : « الشرب في ليالي الجمع من المروءة » . والصحيح ماجاء في المصورة (٢٢ أ) : « ترك الشرب في ليالي الجمع من المروة » . والقول في « مرآة المروءات » ، ص٢٤ .

وجاء في المادة (٩١) من ظريف كلام سليمان بن وهب : « ظرف الصداقة أملح من ظرف الصيانة » . وفي القول تصحيف ، والصحيح ماجاء في المصورة (٢٣ أ) : « ظرف الصداقة أملح من ظرف الصبابة » . والقول ، مع بعض الاختلاف ، في التمثيل والمحاضرة ، ص ٤٦٢ .

وجاء في المادة (٩٧) من قول للحسن بن الفرات : « والله مارأيت أحداً على ثان وليس لي إليه إحسان مني إلا استحييت منه وصرفت همتي إلى إزالة فاقته وتحصيل مراده » . وفي القول تصحيف أخل بالمعنى ، والصحيح ماجاء في المصورة (٢٤ أ) : « والله مارأيت أحداً على بابي . . . » .

وجاء في المادة (١٠٦) مما كتب الصاحب ابن عباد في الاستزارة : « غابت شمس السماء عنا فلابد أن تؤثر شمس الأرض منا » . وهو تحريف يفسد المعنى ويخل به والصحيح ماجاء في المصورة (٢٥ ب) « تدنو » بدل « تؤثر » .

وجاء في المادة (١١٦) : « أبو الفضل أحمد بن عبدالله الميكالي » ، والصحيح أنه أبو الفضل عبيدالله بن أحمد الميكالي . وهو الذي ألف له الثعالبي غير كتاب من كتبه كما مر بنا .

ومما جاء في المادة (١١٧) بيتان مجهولا القائل ، أولهما :

إن العيون رمتك من باجاتها
وعليك من شَهْرِ اللباس لباس

وجاء البيت في المصورة (٢٨ أ) على النحو التالي :

إن العيون رمتك من فَجّاتها
وعليك من شُهَرِ اللباس لباس

والبيت في كتاب « أدب الدنيا والدين » للماوردي ، ص ٣٢٥ ، وهو هناك :

إن العيون رمتك إذ فاجأتها
وعليك من شُهَرِ اللباس لباس

وجاء في المادة (١١٨) قول لأبي زيد الأنصاري منه : « دنياي من أربعة دراهم . . » وفي المصورة (٢٨ أ) « مافي الدنيا أرفق من أربعة دراهم . . » .

وجاء في المادة (١٢٥) قول للجاحظ في وصف الدفتر ومنه : « من لك ببستان يحمل في كم ، وروضة نقلت في حجر » . وهو تصحيف صوابه ماجاء في المصورة (٢٩ أ ـ ٢٩ ب) : « وروضة تقلب في حجر » .

وجاء في المادة (١٢٩) قول لأبي الحسن المنجم في ثقيل هجم عليه فكدر ماصفا من عيشه ، ومنه : « لامرحبا بقذى العين وسيء الخلق . . وبخطة الثوب » . وفي القول تصحيف وتحريف ، والصحيح في المصورة (٣٠ أ ـ ٣٠ ب) : « لامرحبا بقذى العين وشجى الحلق . . ولطخة الثوب » .

وجاء في المادة (١٣٠) المخصصة لبعض أقوال أبي بكر الخوارزمي : « ووصف رجلا بالنسوان والغلمان فقال : قلم براسين . . وقبض في ديوانين ، وصيد لطائرين » . وفي القول تحريف وتصحيف يخل به ، والصحيح ماجاء في المصورة (٣٠ ب ـ ٣١ أ) : « ووصف رجلاً يقول بالنسوان والغلمان فقال : فلان قلم براسين . . يقبض ديوانين ويصيد طائرين » . والقول في « النهاية في التعريض والكناية » للثعالبي ص ٢٢ وفي « المنتخب من كنايات الأدب » للجرجاني ، ص ٢٩ .

وجاء في المادة (١٣٢) مايلي : « القاضي أبو محمد منصورابن الأزدي كتب في قصته : أيد الله الشيخ ، وقدر لقاه فرج ، ولكن (ليس على الأعمى حرج) لاسيما والمجلس وطيء ، والمركب بطيء ، ووهج الصيف يثير الرهج » . ويذكر الدكتور الأسعد أن اسم القاضي في « الإعجاز والإيجاز » أبو أحمد منصور بن محمد ، وفيه « لقاء الشيخ فرج » ، وأن في الأصل : « ووهج الضيف يثير الوهج » . ويبدو من ذلك أن النص في المخطوطة التي اعتمدها الدكتور الأسعد فيه تحريف وتصحيف غير أن الدكتور الأسعد لم يتنبه على كل ماأخل بالنص . وهو صحيح تام في المصورة (٣٢ أ) ويسير على النحو التالي : « القاضي أبو أحمد منصور بن محمد الأزدي كتب :

بي ـ أيد الله الشيخ ـ رمد ، ولقاؤه فرج ، ولكن ليس على الأعمى حرج ، لاسيما والمجلس وطيء والمركب بطيء ، ووهج الصيف يثير الرهج ، ويذيب المهج ». والنص في « تتمة اليتيمة » ، ج ٢ ص ٤٧ .

وجاء في المادة (١٣٤) : « أبو عبدالله الثغري من أظرف قوله : وصل كتابك بألفاظ يكيف عندها الحصواء . . » ويذكر الدكتور الأسعد في الهامش أن في الأصل : « البعري » غير أنه لايذكر لِمَ فَضَّل « الثغري » على « البعري » . كما يذكر أن الصواب لعله « تلين عندها » بدل « يكيف عندها » . والصحيح أن في النص تصحيفاً وتحريفاً ، وهو مبرأ من ذلك في المصورة (٣٢ أ ـ ٣٢ ب) وفيها : « أبو عبدالله البغوي من أظرف قوله : « وصل كتابك بألفاظ يكثف عندها الهواء . . » . وقد ترجم الثعالبي للبغوي وأورد قوله هذا في كتابه « تتمة اليتيمة » ج ٢ ص ٥٧ .

وجاء في المادة (١٤٠) : « ابن قريعة ، ذكره الصاحب في (كتاب له) إلى ابن العميد . . » . ويذكر الدكتور الأسعد في الهامش أن في النص تحريفاً في الأصل فهو هناك : « ذكره الصاحب في الرؤيا محبة الى ابن العميد » . وقد جاء النص في المصورة (٣٤ أ ـ ٣٤ ب) : « ابن قريعة ، ذكر الصاحب في الروزنامج الى ابن العميد . . » . ويورد الثعالبي بعض فصول كتاب « الروزنامجة » في « يتيمة الدهر » ج ٢ ص ٢٢٧ ـ ٢٣١ .

ومما جاء في المادة (١٤٤) : « أبو الحسن علي بن عبدالعزيز القاضي كتب في صباه إلى بعض أصدقائه الرؤساء : هذا الفتى حضر المراد . . ولي في هذه الدولة آمال استبطىء أوقاتها ولاأخشى فواتها » . ويذكر الدكتور الأسعد في الهامش أن في « الإعجاز والإيجاز » ص ١٢٠ : « هذا الغناء خصب المراد » . والصحيح ماجاء في المصورة (٣٥ أ) : « هذا الفناء خضر المراد . . ولي في هذه الدولة آمال لست استبطىء أوقاتها إذ لا أخشى فواتها » . وفي « المتشابه » للثعالبي ص ٢٦ : « هذا الفناء خضر المراد » .

وجاء في المادة (١٤٥) قول القاضي أبي القاسم الداودي حين ذكر أمير المدينة : « غصن من شجرة رسول الله (ﷺ) له جد ، وسراك من أديمة قد » . والصحيح ماجاء في المصورة (٣٥ أ) « غصن من شجر رسول الله (ﷺ) جد ، وشراك من أديمه قد » . والشراك : الطريقة من الكلأ الأخضر تكون منقطعة عن غيرها .

وجاء في المادة (١٤٦) حكاية عن أبي محمد السرخسي . والحكاية في المصورة (٣٥ أ) منسوبة إلى أبي محمد الشيرجي . وهي في « خاص الخاص » ص ٦١ منسوبة إلى أبي محمد السرجي . ووجدت ترجمة في « تتمة اليتيمة » ص ٨٩ لمحمد بن أحمد الشيرجي ، والله أعلم .

وجاء في المادة (١٤٩) قول أبي نصر المقدسي : « الموت أربعة : الفراق والشماتة والعزل ثم الموت » . ويذكر الدكتور الأسعد في الهامش أن القول في « خاص الخاص » ص ٥٥ بألفاظ مشابهة . ويبدو لي أن كلمة « الموت » الثانية قلقة في موضعها ، وأن السياق قد لايحتملها . والقول في المصورة (٣٦ أ) وفي « خاص الخاص » على النحو التالي : « الموت أربعة : الفراق ثم الشماتة ثم العزل ثم الخروج من الدنيا » . وجاء في المادة نفسها من دعاء أبي نصر « لبستُ النعمة ، وافترشتُ الأمن ، وتغذيتُ السرور ، وركبتُ السعادة » والصحيح ماجاء في المصورة (٣٦ أ) : « لبستَ النعمة ، وافترشتَ الأمن ، وتغذيتَ السرور ، وركبتَ السعادة » بتاء الخطاب المبنية على الفتح لاتاء المتكلم لأن الجملة في الدعاء .

وجاء في المادة (١٧٢) مايلي : « رأى بعض الفقراء امرأة حسنة الوجه سفرة في الطريق فقرأ (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) فقالت : يابغيض تحشمني بالقرآن ؟ تلك طوائف أخر غير مستحيات » . وفي المادة تصحيف وتحريف كما أن آخرها مضطرب في موضعه لايحتمله السياق . والمادة في المصورة (٣٩ ـ أ ـ ٣٩ ب) تسير على النحو التالي : « رأى بعض القراء امرأة حسنة الوجه سفرة في الطريق فأراد أن يمازجها فقال (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) . فقالت : يابغيض تحشمني

بالقرآن ». أما « تلك طرائف اخرى غير مستحيات » فتحريف والصحيح: « طرائف آخر غير مسميات ». وهو عنوان فصل جديد وليس جزءاً من المادة السابقة. وبعد هذا العنوان نقرأ ثلاث طرائف متتالية من غير أن تذكر فيها أسماء أصحابها، وهذا معنى قوله « غير مسميات ».

وجاء في المادة (١٧٤): « وكتب آخر الى اخرى: طال العهد واشتد الوجد، فاستدركي رمقي بلسان تمضغينه وتجعلينه بين دينارين وتغذينه لاستشفي به ». وفي النص تحريف وتصحيف يخلان به ويفسدانه. والصحيح ماجاء في المصورة (٣٩ ب): « بعلك » بدل « بلسان » و « وتنفذينه » بدل « وتغذينه ».

وجاء في المادة (١٨٣): «قال الباهلي» وفي المصورة (٤١ أ) « قال الماهاني ». وقد ذكر الثعالبي « الماهاني » في كتابه « ثمار القلوب » ص ٢١١.

وجاء في المادة (١٩٣) قول زرقان المتكلم ومنه: « قد اختلف الناس في السماع فأباجه قوم وحلره الأخرون... ». والصحيح ماجاء في المصورة (٤٢ ب) « وحظره » بدل « وحلره ». والقول في « خاص الخاص » ص ٦٣ منسوب لبعض فقراء المتكلمين.

وجاء في المادة (١٩٥): « قال صاحب الكتاب: قال لي الأمير أبو المظفر ناصر الدين... » وهو في المصورة (٤٣ أ): الأمير أبو المظفر ناصر بن ناصر الدين. والصحيح أنه « أبو المظفر نصر بن ناصر الدين »[٢٤] وهو الذي ألف له الثعالبي بعض كتبه كما ذكرنا. وجاء في المادة نفسها في معرض حديث الأمير أبي المظفر عن المطرب: « ثم يحمل على الأذقان، ويجله بتساوى النعم يوم وغد، ويقع تحت قول الأول... ». ويذكر الدكتور الأسعد أن في الأصل « ثم يصل » بدل « ثم يحمل » و « يقعد تحت قول الأولي » بدل « ويقع تحت قول الأول ». والصحيح ماجاء في المصورة (٤٣ أ-٤٣ ب) « ثم يتصل على الأوقات الرغدة، ويتساوى في النعيم يومه وغده، ويقعد تحت قول علي بن الجهم... ».

وجاء في المادة (٢٠٤) قول أبي الحارث جميز: « لو كان النبي كنزاً ماورد في القرآن موضع سجده ». والصحيح ماجاء في المصورة (٤٥ أ): « لو كان الزماورد في القرآن لكان موضع سجدة ». والزماورد طعام من اللحم والبيض.

وجاء في المادة (٢٠٧): « الحسن بن جميل عزله ابن مدبر عن مصر، فأشير عليه بمدحه، فقال: إنه لم يطعمني في عرس مصر (ف.) يطعمني في طلاقها ». ويذكر الدكتور الأسعد في الهامش أن في الأصل « عزل » بدل « عزله ». ولاادري لم رفض كلمة « عزل ». وقد جاء النص في المصورة (٤٦ أ) على النحو التالي: « الحسن الجميل المصري، عُزل بن المدبر عن مصر فأشير عليه بمدحه فقال: إنه لم يطعمني في عرس مصر، أيطعمني في طلاقها ؟! ». والثعالبي يذكر الاسم مرتين في كتابه « ثمار القلوب » ص ٤٤، ٦٨٨. وهو هناك « الحسن الجمل ».

وجاء في المادة (٢٠٩) قول أبي عمر غلام ثعلب ومنه: « لم يكمل المرء حتى يقرأ صرف أبي عمرو.. » والصحيح ماجاء في المصورة (٤٦ أ): « لايكمل ظرف الظريف حتى يقرأ بحرف أبي عمرو.. ». والقول في « برد الأكباد في الأعداد » ص ١١٩ منسوب للمبرد.

ومما جاء في المادة (٢١٤): « محمد بن أبي السيار وصف دعوة صديق له فقال: أتانا بأرغفة كالبدور متقطعة كالنجوم.. ونقل أهش من خضرة الشارب على المرد الملاح، وحمل له من الفضة جسم ومن الذهب بشر، وقلية أحضى من صنيع الذل في بلد الغربة، وأرزة ملبونة وفي السكر مدفونة.. وجاءنا غلام بشراب أحسن منه ذكره، وألطف منه وجهه، وأصفى منه وده وأرق منه لطفه، وأذكى منه عرفه، وأعذب منه خلقه، وأطيب منه قربه ». وفي هذا النص من التحريف والتصحيف مايخل به ويفسده. وهو في المصورة: (٤٦ ب-٤٧ أ) « أبو محمد بن أبي الثياب وصف دعوة صديق له فقال: أتانا برغف كالبدور المنقطة بالنجوم.. وبقل أهش من خضرة الشارب على المرد الملاح، وحمل له من الفضة جسم ومن الذهب قشر، وقلية

أحمض من صفع الذل في بلد الغربة ، وأرزة مدقوقة في السكر مدفونة .. ثم جاءنا غلام بشراب أحسن من ذكره ، وألطف من روحه ، وأصفى من وده ، وأرق من لفظه ، وأذكى من عرفه ، وأعلب من خلقه ، وأطيب من قربه » . وبعض هذا القول في كتاب « خاص الخاص » ص ٥٦ - ٥٧ . وهو فيه منسوب لأبي محمد بن أبي الثياب .

ومما جاء في المادة (٢٢٠) أن أبا نواس كان يقول : « تزودوا من لذة توجد في الجنة ، يعني إتيان المحظي لان أهل الجنة جرد مرد » . وفي القول تحريف ، والصحيح ماجاء في المصورة (٤٨ أ) : « تزودوا من الدنيا من لذة لاتوجد في الجنة ، يعني إتيان المختطين ، لأن أهل الجنة جرد مرد مافيهم مختط ولاملتح » . والقول في « النهاية في التعريض والكناية » للثعالبي ص ٢٣ ، وفي « المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء » لأبي العباس الثقفي الجرجاني ، ص ٢٣ .

ومما جاء في المادة نفسها عن أبي نواس : « وسأل يوماً عن غلامه مر به فاستشرفه ... » . ويذكر الدكتور الأسعد في الهامش أن في الأصل « فاستشرطه وهو تحريف » . ولاأدري من أين أتى التحريف ، فاستشرط معناها : جعل له علامة . والنص في المصورة (٤٨ أ - ٤٨ ب) وفيها « فاستشرطه » . وفي كتاب « تتمة اليتيمة » ج ١ ص ٦٩ : « وسأل عن غلام استشرطه » . غير ان صاحب الخبر هناك هو أبو الحرث جمين .

ومما جاء في المادة (٢٢١) وهي مخصصة لقولين لعبدالصمد بن المعذل مايلي : « ووصف السحاب المدلج فقال : لبست السماء حبابها وتنفست الصعداء » . وفي النص تصحيف وتحريف والصحيح ماجاء في المصورة (٤٨ ب) : « ووصف السحاب والريح فقال : لبست السماء جلبابها وتنفست الصعداء » .

ومما جاء في المادة (٢٢٧) قول البحتري : « الشكر يديم النعم » . ويذكر الدكتور الأسعد في الهامش أن في القول تحريفاً في الأصل ففيه هناك : « نسيم النعم » بدل « يديم النعم » . ولاأدري لم عد الدكتور الأسعد هذا تحريفاً . وقد ورد القول في المصورة (٤٩ أ) : « الشكر نسيم النعم » . وهو كذلك في ثمار القلوب ص ٥٩٨ وفي « التمثيل والمحاضرة » ص ١٨٦ .

وجاء بين المادة (٢٣٠) والمادة (٢٣١) مايلي : « فصل في نهاية الظرف أختم به هذا الكتاب » . والصحيح ماجاء في المصورة (٤٩ ب) : « فصل في نهاية الظرف عن الصاحب أختم به هذا الباب » . ورب معترض يقول : من القدماء من سمى الباب كتاباً . فأقول : هذا صحيح غير أن الثعالبي قسم كتابه الى أبواب ومنهجه مطرد ؛ فلم يسم الباب كتاباً في أي منها . والمادة (٢٣١) مخصصة لقول للصاحب . وهي آخر مادة في الباب الحادي عشر .

ومما جاء في المادة (٢٤٩) : « المعطوي في اختيار التنديم ... » . والصحيح ماجاء في المصورة (٥٤ أ) : « واظرف قوله (المعطوي) في اختيار النديم ... » . ومعنى بيتي المعطوي اللذين يردان بعد ذلك يؤيد أنهما في اختيار النديم .

ومما جاء في المادة (٢٥٣) المخصصة لذكر بعض شعر ابن طباطبا مايلي : « وله أيضاً :

طال اشتياقي وأنت عندي
في سورة قد نعمت بالا
ملت لما أطلت مكثي
وسمت غلمانك الملالا
فقال لي خادم شريف
أتيته الآن ؟ قلت : لالا
دعني فإني أنام أيضا
لعلنا نلتقي حلالاً

وفي هذه الأبيات من التحريف والتصحيف مايخل بها وبمضمونها . والصحيح ماجاء في المصورة (٥٥ ب) : « وكتب الى صديق له زاره ، فقيل إنه نائم ، فقال :

طال اشتياقي وأنت مني
في بيتةٍ قد نعمت بالا
ملت لما أطلت مكثي
وسمت غلمانك الملالا

فقال لي خادم ظريف
أتنبهه الآن؟ قلت لالا
دعني فإني أنام أيضا
لعلنا نلتقي خيالاً

وبما جاء في المادة (٢٥٦) المخصصة لذكر بعض شعر ابن بسام : « وله في زائر خلع عليه » . والصحيح ماجاء في المصورة (٥٦ ب) : « وله في وزير خلع عليه » . وجاء في « خاص الخاص » ص ١٣٧ « وقوله في وزير خلع عليه » .

وبما جاء في المادة الأخيرة ورقمها (٢٧٩) وهي مخصصة للشيخ العميد أبي سهل الحمدوي الذي ألف الثعالبي الكتاب له ، مايلي : « أخرت ذكره على الرسم في تقديم القواد والجند في المواكل . . . » . وجاء في المصورة (٦٠ ب) : « أخرت ذكره على الرسم في تقدم الملوك في المواكب . . . » وهو الصحيح .

ذكرت بعض مواد الكتاب التي لم تبرأ من التحريف أو التصحيف أو من كليهما ، وغضضت الطرف عن البقية خشية الإطالة . والحق أن أكثر مواد الكتاب لم تنج من ذلك على الرغم من قول الدكتور الأسعد في المقدمة : « قومت مناد النصوص وأبرأتها من التصحيف والتحريف » . ويقول في موضع آخر : « أثبت رواية النص المصحف أو المحرف في الحواشي ، ليقف القارىء على المخطوطة في صورتها الأصلية ، وأشرت إلى بعض التصحيف والتحريف في الحواشي صراحة ، وسكت عن الإشارة إلى بعضه الآخر لوضوحه . وكانت المراجع العمدة في تقويم بعض الأخبار والروايات » . وهذا القول يمس منهج التحقيق كما يمس مراجعه . والحق أن منهج الدكتور الأسعد في تحقيق الكتاب غير مطرد . فهو أحياناً يصوب الم... ويشير الى التصحيف أو التحريف في الحاشية ، وأحياناً يترك ...تن من غير تصويب ويشير الى ذلك في الهامش بقوله « كذا في الاصل » أو ماشابهه ثم يذكر ماجاء في مرجع آخر من غير ترجيح ، وأحياناً يذكر المتن مصحفاً ويذكر الصحيح في الهامش ومرجعه في ذلك .

وقد يغفل الدكتور الأسعد عما ينبغي له ألا يغفله فيأتي الخبر محالاً ، فمما جاء في المادة (٤٩) مثلاً أن عبدالله بن طاهر نادمه المعتز فاستنشده هذين البيتين :

سقتني في ليل شبيه بشعرها
شبيهة خديها بغير رقيب
فأمسيت في ليلين بالشعر والدجى
وصبحين من كأس ووجه حبيب

ويشير الدكتور الأسعد في الهامش إلى ان البيتين في « العقد الفريد » ج ٦ ص ٦٣ من غير أن يذكر أنهما هناك منسوبان لابن المعتز . كما يشير إلى انهما في « خاص الخواص » ص ١٣٢ من غير ان يذكر أنهما في الطبعة التي اعتمدها الكتاب المذكور منسوبان لعبدالله بن عبدالله بن طاهر . وهو تحريف صوابه « عُبيدالله بن عبدالله بن طاهر » . ففي بابه « فهرست الأعلام » من كتاب « خاص الخاص » يُذكر الاسم هكذا « عبدالله بن عبيدالله بن طاهر » ويُحال على الصفحتين ٦٣ و ١٣٢ ، غير أننا نجد الاسم في ص ٦٣ هكذا : « عبيدالله بن عبدالله بن طاهر » ، وهو الصحيح . ونجده في ص ٦٣ التي فيها البيتان المذكوران هكذا : « عبدالله بن عبدالله بن طاهر » ، وهو تحريف فلم يذكر أحد من القدماء ابناً لعبدالله بن طاهر بهذا الاسم . وهكذا فالبيتان في « العقد الفريد » وفي « خاص خاص » ليسا لعبدالله بن طاهر ، وهما له في عمل الدكتور الأسعد وهذا من المحال ، لأن عبدالله بن طاهر توفي سنة ٢٣٠ هـ ، والمعتز ولد سنة ٢٣٢ هـ ، فكيف يلتقي المعتز وعبدالله بن طاهر ويتنادمان ؟!

اما عن مصادر التحقيق ومراجعه ـ وقد أثبتها الدكتور الأسعد في بابة « المراجع والمصادر » ـ فإن من يقرأها يعجب أشد العجب من إهمال كثير من الكتب التي لابد من الرجوع إليها في تحقيق الكتاب . ومعروف أن الثعالبي كاتب مكثر وأن في بعض كتبه أطراف من علوم شتى فهي تعد من الكتب الموسوعية ولكن بصورة ضيقة . ولاعجب ، فلماذا استثنينا محبر بن حبيب ، ومعارف بن قتيبة وبعض كتب الجاحظ فإننا نقول إن المصر

العباسي الثالث شهد بداية ظهور دوائر المعارف ففيه كتب الخوارزمي ، محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٣٨٧ هـ) « مفتاح العلوم » ، وفيه عاش الثعالبي كل سني حياته . وقد استقر هذا الضرب من التأليف في العصر العباسي الرابع . وفوق ذلك ، كثيراً مايتكرر الخبر الواحد في غير كتاب من كتب الثعالبي حتى أن أبا نصر أحمد بن عبدالرزاق المقدسي جمع كتابين للثعالبي في كتاب واحد وقال في المقدمة : « هذا كتاب كان في نسختين متناسبتي الجمع متناسختي الوضع سمى الشيخ أبو منصور الثعالبي ، رحمه الله تعالى ، أحدهما كتاب « الظرائف واللطائف » والآخر كتاب « اليواقيت في بعض المواقيت » وأفرد لكل منهما صدراً أورد فيه لمن عمله باسمه ذكراً ، فجمعت بينهما في قرن ، وعطفت عنانيهما إلى سنن ؛ اختصاراً للطريق الى فوائدهما وضماً لشمل فرائدهما » . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن تحقيق بعض كتب الثعالبي يقتضي ضرورة الاعتماد على كثير من كتبه الأخرى . ولم أجد للثعالبي في مصادر الدكتور الأسعد غير خمسة كتب هي : الإعجاز والإيجاز ، وثمار القلوب ، وخاص الخاص ، ولطائف المعارف ، ويتيمة الدهر مع أنه طُبع للثعالبي نحو خمسة وعشرين كتاباً قبل سنة ١٩٨٠ وهي السنة التي ظهر فيها عمل الدكتور الأسعد ؛ ومن هذه الكتب : تتمة اليتيمة ، وسحر البلاغة وسر البراعة ، ونثر النظم وحل العقد ، ومرآة المروءات ، والتمثيل والمحاضرة ، والمتشابه ، وبرد الأكباد في الأعداد ، والجواهر الحسان في تفسير القرآن وغيرها . ولو أفاد الدكتور الأسعد من هذه الكتب أو من بعضها لأضاف مقابلات قومت كثيراً مما تُرِكَ غامضاً ، وصَوَّبت كثيراً مما جاء فاسداً ، وأضافت تعريفاً لكثير من الأسماء التي تركت على لبس وإبهام . ولولا خشية الإطالة لتناولت هذه الكتب واحداً واحداً وبينت مايمكن أن يضيفه كل واحد منها إلى التحقيق . غير أني أكتفي بإيراد مثلين لهما علاقة بكتاب « تتمة اليتيمة » الذي لم يعتمده الدكتور الأسعد . فقد جاء في المادة (١٣٤) مايلي : « أبو عبدالله الثغري من أظرف قوله : وصل كتابك بألفاظ يكيِّف عندها الحصواء . . » . ويذكر الدكتور الأسعد في الهامش أن في الأصل : « البحري » بدل « الثغري » ، وعن « يكيف عندها الحصواء » يقول : « كذا في الأصل ولعلها تلين عندها » . ولم يترجم للقائل في الهامش . ولو اعتمد الدكتور الأسعد « تتمة اليتيمة » الذي ظهر لأول مرة في جزأين بعناية عباس إقبال سنة ١٣٥٣ هـ ، لاستبدل بأبي عبدالله الثغري أبا عبدالله البغوي ، ولاستبدل بيكيف عندها الحصواء « يكثف عندها الهواء » وهو صحيح ، ولاستطاع أن يترجم للبغوي . ومما جاء في المادة (٢٧٨) مايلي : « النظام الخزرجي :

سألتك أيها الأستاذ حاجة ... ولا شططا أروم ولا لجاجة
فقمت ببعضها وتركت بعضا ... ومن حق المقصر . . . .

ويقول الدكتور الأسعد في الهامش « كذا في الأصل ، ولم أجد الاسم ولا الشعر في مرجع » . ولو اعتمد الدكتور الأسعد « تتمة اليتيمة » لأزال شائبة التصحيف من الاسم فهو هناك « النظّام الخزرجي » ، ولاستطاع ان يكمل الشطر الثاني من البيت الثاني فهو هناك : « ومن حق المقصر أن يواجه » .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن كثيراً من النصوص التي لم يستطع الدكتور الأسعد تخريجها مثبتة في بعض كتب الثعالبي التي رجع إليها ، فالمادة ذات الرقم (٦١) موجودة في « خاص الخاص » ص ٥٢ ، وفيه ص ٤٤ قول أبي الفضل الميكالي الوارد في المادة (١١٦) ، وفيه ص ٥٥ المادة (١٤٠) . والمادة (١٦٦) موجودة في « لطائف المعارف » ص ٤٦ وغير ذلك كثير .

وفوق ذلك ، كان ينبغي للدكتور الأسعد أن يعتمد كثيراً من الكتب التي لم يعتمدها ومنها مستظرف الا بشيهي ، وزهر الآداب للحصري ، والمستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي ، وأدب الدنيا والدين للماوردي ، ونشوار المحاضرة للتنوخي وغيرها من الكتب التي لها علاقة بموضوع الكتاب . بل إن الدكتور الأسعد لم يوف الكتب التي اعتمدها حقها من التنقير فيها بحثاً عن مادة الكتاب المحقق ؛ فقول عمر بن الخطاب الذي

جاء في المادة (٧) مثلاً ينسب إلى ابن عمر في المصورة (٧ أ) وهو في « أخبار الحمقى » لابن الجوزي ص ١١ منسوب لابن عباس .

ويذكر الدكتور الأسعد في المقدمة أنه صنف الأعلام التي وردت في النصوص في أقسام ثلاثة هي :

أ ـ قسم مشهور معروف لم يترجم له أو يعرف به كالأنبياء المرسلين .

ب ـ قسم مشهور معروف لاحاجة إلى التعريف به كالخلفاء وأعلام الأدب ، فهؤلاء اكتفى من ذكرهم بذكر اسم المترجم له وتاريخ مولده ووفاته دون ذكر مراجعه لكثرتها وتنوعها .

جـ ـ من لايندرج تحت أحد القسمين السابقين من الأعلام قدم لكل منهم بترجمة مختصرة ، وذكر مراجع الترجمات . وتبقى أسماء قليلة لم يعرف بها أو يترجم لها لأنه ـ حسبما يقول ـ لم يقف عليها فيما بين يديه من المراجع .

ولاأدري ماالمراجع التي كانت بين يدي الدكتور عمر الأسعد وهو يحقق الكتاب ، غير أنني أعرف أن على المحقق أن يبذل أقصى مايستطيع من جهد من أجل إخراج عمله تاماً أو قريباً من ذلك ، وإلا استحالت العملية إلى مجرد نسخ . ويبدو لمن يقرأ الكتاب أن الدكتور الأسعد أهمل الترجمة لكثير ممن كان ينبغي أن يترجم لهم وهؤلاء ممن يندرجون في القسم الثالث ومنهم مثلاً العميد أبو سهل الحمدوي الذي أُلف الكتاب له . فالثعالبي يذكره ويشيد بفضله من غير أن يسعف في التعرف على بعض جوانب حياته المهمة . وقد أفرد له الثعالبي بعض الحديث في كتابه « تتمة اليتيمة » الذي لم يعتمد عليه الدكتور الأسعد ، غير أنه اعتمد على كتاب « الكامل في التاريخ » لابن الأثير ، وقد كشف الكتاب المذكور عن بعض جوانب حياة الحمدوي . .

أرجو ان يكون في كل ماقدمت مايدعو الى إعادة النظر في هذا الكتاب . ويحضرني قول المحقق الكبير العلامة محمود محمد شاكر حين أصدر كتاب « طبقات فحول الشعراء » لابن سلام الجمحي في طبعته الثانية سنة ١٩٧٤ : « فأنا لاأُحل لأحد من أهل العلم ، أن يعتمد بعد اليوم على الطبعة الأولى مخافة أن يقع بي في زلل لا أرضاه له ، وأضرع إلى كل من نقل عن هذه الطبعة شيئاً في كتاب ، أن يراجعه على هذه الطبعة الجديدة من الطبقات ، لينفي عن نفسه وعمله العيب الذي احتملت أنا وزره » . ولايفيض هذا القول وأمثاله إلا عن تواضع جم . والله الموفق .

الهوامش

١ ـ زهر الآداب / ١٢٧ . ٢ ـ زهر الآداب / ١٢٨ .
٣ ـ زهر الآداب / ١٣١ ، ١٣٧ ، ٣١٢ ، ٥٠١ .
٤ ـ دمية القصر ٢ / ٩٦٦ ـ ٩٦٧ .
٥ ـ انظر دمية القصر ٢ / ٩٦٧ ومابعدها .
٦ ـ وفيات الأعيان ٣ /١٧٨ ، وانظر القول في الذخيرة ، قسم ٤ مجلد ٢ / ٥٦٠ .
٧ ـ المختصر في أخبار البشر ٢ / ١٦٢ .
٨ ـ التمثيل والمحاضرة ، مقدمة المحقق / ٨ وهو يحيل على جزء مخطوط من كتاب « عيون التواريخ » .
٩ ـ التمثيل والمحاضرة ، مقدمة المحقق / ٨ .
١٠ ـ التمثيل والمحاضرة ، مقدمة المحقق / ٩ وهو يحيل على كتاب ابن قاضي شهبة « طبقات النحاة واللغويين » المخطوط ، وانظر ثمار القلوب ، مقدمة المحقق / ٤ .
١١ ـ شذرات الذهب ٣ / ٢٤٦ ـ ٢٤٧ . ١٢ـ اللطائف والظرائف / ٢٩ .
١٣ ـ انظر وفيات الأعيان ٣ / ١٨٠ ، المختصر في تاريخ البشر ٢ / ١٦٢ ، معاهد التنصيص ٣ / ٢٧١ ، شذرات الذهب ٣ / ٢٤٧ .
١٤ ـ The Encyclopaedia of Islam (new edition) art. (Iran), Vol. IV.P.60.
١٥ ـ انظر مقدمة الترجمة الانكليزية لكتاب لطائف المعارف / ٢ ، وانظر :
Some Biographical notes on al — Tha'alibi, in Bibliotheca Orientalis, vol. XXXII, 1975, pp.175—176.
١٦ ـ صورة الأرض / ٤٦٨ ـ ٤٦٩ .
١٧ ـ الكامل في التاريخ ٩ / ١٠٢ ـ ١٠٣ ، ١٢٩ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، وانظر :
Turkistan down to the Mongol Invasion, 288f.

١٨ ـ نقلاً عن عصر الدول والامارات / ٤٩٠ .
١٩ ـ تتمة اليتيمة مقدمة المحقق (بالفارسية) ٤ ـ ٥ .
٢٠ ـ مقدمة الترجمة الانكليزية لكتاب لطائف المعارف / ٤ ـ ٥ .
٢١ ـ Some biographical notes on al — Tha'alibi, 178.
٢٢ ـ انظر تتمة اليتيمة ١ / ١٤٤ ـ ١٤٥ .
٢٣ ـ تتمة اليتيمة ١ / ١٧ ـ ١٩ .
٢٤ ـ انظر يتيمة الدهر ٢ / ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٣ / ٢٦٩ على التوالي .
٢٥ ـ سحر البلاغة وسر البراعة / ٤ .
٢٦ ـ انظر صفحة ٣ من الكتاب المذكور .
٢٧ ـ انظر فقه اللغة / ٢٦ ـ ٢٩ .
٢٨ ـ انظر على سبيل المثال ، يتيمة الدهر ٤ / ٣٥٦ ، ثمار القلوب / ٢٠٦ ، ٤٦٣ .
٢٩ ـ الكناية والتعريض / ٢ .
٣٠ ـ انظر مقدمة الترجمة الانكليزية لكتاب لطائف المعارف / ٥ .
٣١ ـ نثر النظم وحل العقد / ١٤٦ .
٣٢ ـ انظر نثر النظم وحل العقد / ٢٣ ومابعدها .
٣٣ ـ تذكرة الشعراء (بالفارسية) / ٤٠ .
٣٤ ـ انظر : The titulature of the early Ghaznavids, in ORIENS, vol.XV, 1962, p.218.
٣٥ ـ انظر : Some biographical notes on al —Tha'alibi, 182
٣٦ ـ انظر في بيان ذلك مقدمة الترجمة الانكليزية لكتاب لطائف المعارف / ٦ ، ١٨ .
٣٧ ـ انظر : — The Ghaznavids, pp.71 — 72; Some biographical notes on al — Tha'alibi, 180.
٣٨ ـ اللطائف والظرائف / ٦٨ .
٣٩ ـ عن أبي سهل الحمدوي انظر تتمة اليتيمة ٢ / ٦٠ ، الكامل في التاريخ ٩ / ٣٧٩ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٦ ، ٤٤٦ .
٤٠ ـ سحر البلاغة وسر البراعة / ٤ .
٤١ ـ لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء ، نسخة طبق الأصل مصورة عن مخطوطة ليدن / ٣ ب وسأشير الى هذه النسخة بلفظة « المصورة » .
٤٢ ـ انظر تتمة اليتيمة ١ / ١ ، ٢ / ٦٧ .
٤٣ ـ تتمة اليتيمة ١ / ١٥٥ .
٤٤ ـ تتمة اليتيمة ٢ / ٦٠ .
٤٥ ـ لطائف اللطف / ٥ .
٤٦ ـ المصورة ، مقدمة الناشر / ٧ .
٤٧ ـ لطائف اللطف / ٨ .
٤٨ ـ لطائف اللطف / ٩ .
٤٩ ـ لطائف اللطف / ٩ .
٥٠ ـ لطائف اللطف / ٢٣ ـ ٢٤ .
٥١ ـ انظر لطائف المعارف ، مقدمة التحقيق / ١٨ .
٥٢ ـ المصورة ، مقدمة الناشر / ٩ .
٥٣ ـ المصورة ، مقدمة الناشر / ٨ ـ ٩ .
٥٤ ـ انظر معجم الأنساب والأسرات الحاكمة / ٨٠ .

المصادر والمراجع

١ ـ أخبار الأذكياء ، لأبي الفرج بن الجوزي ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، مصر ١٩٧٠ .
٢ ـ أخبار الحمقى والمغفلين ، لابن الجوزي ، تحقيق عثمان خليل ، طبع القاهرة ١٩٤٨ .
٣ ـ أدب الدنيا والدين ، لعلي بن محمد الماوردي ، الطبعة السادسة عشرة ، بيروت ١٩٧٩ .
٤ ـ الإيجاز والإعجاز ، لأبي منصور الثعالبي ، شرحه اسكندر آصاف ، مصر ١٨٩٧ .
٥ ـ برد الأكباد في الأعداد ، لأبي منصور الثعالبي ، استانبول ١٣٠١ هـ .
٦ ـ تتمة اليتيمة ، لأبي منصور الثعالبي ، تحقيق عباس إقبال ، مطبعة فردين بطهران ١٣٥٣ هـ .
٧ ـ تذكرة الشعراء ، لدولتشاه سمرقندي ، تحقيق محمد عباسي ، طبع طهران .
٨ ـ التمثيل والمحاضرة ، لأبي منصور الثعالبي ، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٦١ .
٩ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، لأبي منصور الثعالبي ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة المدني ١٩٦٥ .
١٠ ـ خاص الخاص ، لأبي منصور الثعالبي ، نشر دار مكتبة الحياة ١٩٦٦ .
١١ ـ دمية القصر وعصرة أهل العصر ، لعلي بن الحسن الباخرزي ، تحقيق محمد التونجي ، ١٩٧١ .
١٢ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لعلي بن بسام الشنتريني ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٩ .
١٣ ـ زهر الآداب وثمر الألباب ، لابراهيم بن علي الحصري ، تحقيق محمد البجاوي ، الطبعة الثانية ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٧٠ .
١٤ ـ سحر البلاغة وسر البراعة ، لأبي منصور الثعالبي ، تحقيق عبدالسلام

الحوفي ، دار الكتب العربية بيروت ١٩٨٤ .

١٥ ـ سر الأدب في مجاري كلام العرب ، لأبي منصور الثعالبي ، مصور عن مخطوطة نسخت سنة ١٢٧٢ هـ .

١٦ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي ، مطابع دار السراج بيروت .

١٧ ـ صورة الأرض ، لابن حوقل ، الطبعة الثانية ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٦٧ .

١٨ ـ عصر الدول والإمارات ، لشوقي ضيف ، طبع دار المعارف ١٩٨٠ .

١٩ ـ العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الأبياري ، نشر دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٢ .

٢٠ ـ فقه اللغة وسر العربية ، لأبي منصور الثعالبي ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي ، ١٩٧٢ .

٢١ ـ الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ، دار صادر بيروت ١٩٧٩ .

٢٢ ـ الكناية والتعريض ، لأبي منصور الثعالبي ، تصحيح السيد محمد بدر الدين النعساني ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٨ .

٢٣ ـ لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء ، لأبي منصور الثعالبي ، صورة طبق الأصل عن مخطوطة بليدن ، نشر قاسم السامرائي ، ليدن ١٩٧٨ .

وصدر هذا الكتاب سنة ١٩٨٠ عن دار المسيرة بيروت بعنوان « لطائف اللطف » تحقيق عمر الأسعد .

٢٤ ـ لطائف المعارف ، لأبي منصور الثعالبي ، تحقيق ابراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٠ .

وصدر هذا الكتاب مترجماً الى الانجليزية عن مطبعة جامعة أدنبره سنة ١٩٦٨ ، ترجمه وقدم له كلفورد إدموند بوزورث .

٢٥ ـ اللطائف والظرائف ، لأبي منصور الثعالبي ، طبع القاهرة ١٩٠٦ .

٢٦ ـ المتشابه ، لأبي منصور الثعالبي ، تحقيق ابراهيم السامرائي ، مستلة من مجلة الآداب ، العدد العاشر ، ١٩٦٧ .

٢٧ ـ المختصر في أخبار البشر ، لعماد الدين اسماعيل أبي الفداء ، المطبعة الحسينية المصرية ، ١٣٢٥ هـ .

٢٨ ـ مرآة المروءات ، لأبي منصور الثعالبي ، القاهرة ١٨٦٨ .

٢٩ ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، لعبدالرحيم العباسي ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٤٧ .

٣٠ ـ المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء ، لأحمد بن محمد الجرجاني ، تصحيح السيد محمد بدر الدين النعساني ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٨ .

٣١ ـ نثر النظم وحل العقد ، لأبي منصور الثعالبي ، دار الرائد العربي بيروت ١٩٨٣ .

Barthold, W. Turkestan down to the Mongol Invasion, London, 1928.

Bosworth, C.A., The Ghazanevids, 2nd edition, Beirut, 1973.

Bosworth, C.A., The Titulature of the Early Ghaznavids, in ORIENS, Vol. XV, 1962.

De Bruijn, J.T., Iran in The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition.

Samarrai, Q., Some Biographical Notes on al — Tha'alibi, in Bibliotheca Orientalis, Vol. XXXII, 1975.

• • •

تذوق ابن طباطبا العلوي لفن الشعر

دراسة

د. منير عبد القادر سلطان

كلية البنات مصر / جامعة عين شمس

أولاً: «ابن طباطبا» و «عيار الشعر»

ابن طباطبا: هو محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي الإصبهاني (ت ٣٢٢ هـ)، وُجد في عصر بدأت فيه الدولة العباسية مرحلة من مراحل انحلالها على أيدي جماعات القواد والأتراك والخدم، في زمن المعتمد بن المتوكل (٢٥٦ / ٢٧٩ هـ)، والمعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ)، والمكتفي (٢٧٩ - ٢٩٥ هـ)، والمقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)، والقاهر (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ).

وكانت الدولة الاسلامية نهبا للثائرين والخارجين والمتآمرين من أمراء الأطراف ورجال الجيش، وخدم القصر والقرامطة وغيرهم ممن أغراهم ضعف الخلافة، ودفعتهم الأطماع الى استحواذ ما يمكن من البلاد، واكتساب ما تصل إليه أيديهم من الأسلاب(1)، وتقع إصبهان في إقليم خوزستان بفارس، على نهر زندة الذي يصب في نهر دجلة جنوب شرقي العراق(2)

وقد قطعت إصبهان شوطا بعيداً في مضمار العلوم والفنون، وخرج منها ما لا يحصى من العلماء والأئمة في كل فن، ما لم يخرج من مدينة من المدن مثله، يقول مِسْعَر بن مهلهل: وإصبهان صحيحة الهواء، نفيسة الجو، خالية من جميع الهوام... أما الحجاج فقال لمن ولاه إصبهان: قد وليتك بلدة حجرها الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران..(3)

وولد أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن طباطبا بإصبهان، ويرجع نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهو من العلويين الأشراف، أخذ العلم عن أئمة إصبهان، وكان مشهوراً بالذكاء والفطنة، وصفاء القريحة، وصحة الذهن، وجودة المقاصد، شاعر ناقد ذواقة، ظل طوال حياته مشتاقاً الى الأمير عبد الله بن المعتز متمنياً ان يلقاه، أو يروي شعره(4)

وكتاب «عيار الشعر» في الأصل رسالة، يقول ابن طباطبا في خطبتها.... فهمت - حاطك الله - ما سألتَ أن أصفه لك من علم الشعر، والسبب الذي يُتَوَصَّلُ به الى نظمه، وتقريب ذلك على فهمك، والتأتي لتيسير ما عَسُرَ منه عليك، وأنا مبين ما سألت عنه، وفاتح ما يستغلق عليك منه، إن شاء الله،وبدأ رسالته بتعريف الشعر وأدواته، ثم انتقل الى صناعته، والمعاني والألفاظ وشعر المولَّدين، ثم تعرَّض الى طريقة العرب في التشبيه، والمُثل الأخلاقية عند العرب، وبناء المدح والهجاء عليها، ثم يفتح بابا في «علة حُسْن الشعر» ويتكلم عن أن عيار ذلك بأن يُورَدَ على الفهم الثاقب، فما قبله واصطفاه فهو واف، وما مَجّه ونفاه فهو ناقص» ثم ينتقل الى ضروب التشبيهات، وبعد الانتهاء منها يُقَدِّم عرضاً جديداً للموضوعات التي سيعالجها قائلاً: ونذكر الآن أمثلة للأشعار

المحكمة الرصف، المستوفاة المعاني، السَّلِسَةِ الألفاظ، الحسنة الديباجة، وأمثلة لأضدادها، وتنبه على الخلل الواقع فيها، ونذكر التي قد زادت قريحة قائليها فيها على عقولهم، والأبيات التي اغرق قائلوها فيما ضمنوها من المعاني، والأبيات التي قَصُروا فيها عن الغايات التي جُروا إليها في الفنون التي وصفوها، والقوافي القلقة في مواضعها، والقوافي المتمكنة في مواقعها، والألفاظ المستكرهة النافرة، والشائنة للمعاني التي اشتملت عليها، والمعاني المسترذلة الشائنة للألفاظ المشغولة بها، والأبيات الرائقة سماعاً، الواهية تحصيلا، والأبيات القبيحة نسجاً وعبارة، العجيبة معنى وحكمة وإصابة » وبعد ان ينتهي من عرض هذه الموضوعات، يعود ثانية إلى الشعر وضروبه وصناعته ويبدأ الحديث فيه، وكأني بالرسالة قد وُضِعَت على فترات متباعدة، فَفَترت معها قوة السَّبْك، ومتانة الربط، ثم يُرْدِف حديثه هذا بحديث عن مفتتح الشعر، أو ما يسمى بـ « ببراعة الاستهلال »، ثم يعود إلى تأليف الشعر، وأن الشاعر ينبغي له أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حُسْن تجاورها أو قبحه فيلائم بينها، لتنتظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها. . . ، وكأنه يعرض لما سُمّي بَعْدُ بـ « المشاكلة الفنية »، وأخيراً يتوقف عند القوافي، ويبدأ حديثه فيها قائلاً « وسألْتَ، أسعدك الله ـ عن حدود القوافي، وعلى كم وجه تنصرف، وقوافي الشعر كلها تنقسم على سبعة أقسام. . . ، وبعد عرض هذه الأقسام، يقول « فهذه حدود القوافي التي لم يذكرها أحد مما تقدم، فأدِرْهآ على جميع الحروف، واختر من بينها أعذبها، واشكلها للمعنى، الذي تروم بناء الشعر عليه، إن شاء الله، نَفَعك الله بِفَهْمك، ومَتَّعك بعلمك، وأسعدك في الدارين، بِمَنّه ورأفته. . . ـ تَمَّ كتاب « عيار الشعر » بحمد الله وعونه وتوفيقه.

هذا « ابن طباطبا »، وهذا « عيار الشعر » فماذا عن تذوق ابن طباطبا للشعر من خلال عياره هذا الذي ترك لنا(٢)؟

ثانياً: مَفْهُوم التَّذَوُّق عند ابن طَبَاطبا واحتِكَامُه إليْهِ.

أ ـ المفهوم.

احتفى ابن طباطبا بالتذوق، واعتمده في تقديره لشعر الشعراء. فمنذ بداية الشعر وأدواته، يعلن أنه « من صَحّ طبعه وذوقه، لم يَحْتَجْ الى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق، لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به. . . . » (ص ٤١) ويُسمّى الذوق « القَبُول » يقول « والمحنة على شعراء زماننا في اشعارهم أشد منها على من كان قبلهم، لأنهم قد سُبقوا الى كل معنىً بديع، ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة. . . ، فإن اتوا بما يَقْصُر عن معاني أولئك. ولا يُرْبي عليها، لم يُتَلَقّ بالقبول، وكان كالمطّرح المملول. . . (ص ٤٦) ويقول « فإذا اتفق لك في أشعار العرب التي يحتج بها تشبيه لا تتلقاه بالقبول، أو حكاية تستغربها، فابحث عنه، ونَقّر عن معناه. . . » (ص ٤٩)

وليس « القبول » شيئاً غامضاً عند ابن طباطبا إنما هو متصل بطبيعته وكل حاسة تتقبل ما لا تتقبله الأخرى. . فالعين تألف المرأى الحسن، وتقذى بالمرأى القبيح الكريه، والأنف يقبل المشم الطيب، ويتأذى بالمنتن الخبيث، والفم يلتذ بالمذاق الحلو، ويمج البشع المر، والأذن تتشوق للصوت الخفيض الساكن، وتتأذى بالجهير الهائل، واليد تنعم بالملمس اللين الناعم، وتتأذى بالخشن المؤذى. . . » (ص ٥٢)

وهذا « القَبُول » مسبوق بمرحلة « الفَهْم » يقول « وللأشعار الحسنة على اختلافها مواقع لطيفة عند الفهم لا تُحَدُّ كيفيتها، كمواقع الطعوم المركبة الخفية التركيب اللذيذة المذاق، وكالأرايج الفائحة المختلفة الطِّيب والنسيم، وكالنقوش الملونة التقاسيم والأصباغ المختلفة التأليف، وكالملامس اللذيذة الشهية الحس، فهي تلائمه اذا وردت عليه، أعني الاشعار الحسنة ـ للفهم فيلتذها، ويقبلها، ويرتشفها، كارتشاف الصّديان للبارد الزُلال » (ص ٥٣)

والفهم نفسه له معيار يحتكم إليه ابن طباطبا، ومعياره « الاعتدال » « وعلة كل حُسْنٍ مقبول الاعتدال، كما أن علة كل قبيح مَنْفِيّ الاضطراب » (ص ٥٣) وذلك لأن النفس « تسكن الى كل ما وافق هواها، وتقلق مما يخالفه. . . ». (ص ٥٣)

فالنفس تتفهم المعتدل، والذوق يقبله، ويرضى عنه، وعدم الفهم قد يقف عقبة دون التذوق، فعلى المتذوق أن يبحث وينقّر ولا يستسلم، يقول ابن طباطبا « فإذا اتفق لك في أشعار العرب التي يُحْتَجُ بها، تشبيه لا تتلقاه بالقبول، او حكاية تستغربها، فابحث عنه، ونقّر عن معناه، فانك لا تعدم أن تجد تحته خبيئة، إذا آثرتها عرفت فضل القوم بها، وعلمت أنهم أدق طبعا من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته » (ص ٤٩)

لذا آل على نفسه أن يزيل بعض الغموض المتصل بِسُنَن العرب وتقاليدها (ص ٨٠) إذ بدون هذا الإيضاح يكون ما أورده الشاعر « من أبرد الكلام وأغثه » (ص ٨٠)

هذا عن مفهوم التذوق وأهميته القصوى عند ابن طباطبا،

فماذا صنع به مع الشعر والشعراء؟

ب: الاحتكام إلى التذوق عند ابن طباطبا.

من المتوقع ان يحتكم ابن طباطبا للتذوق، وأن يستثيره فيما يقبل من شعر، وفيما يرفض، والناقد الشاعر أقدر على تذوق الشعر ومعرفة مضايقه من الناقد غير الشاعر.

ويتجلى الاحتكام الى التذوق عند ابن طباطبا في حديثه عن «براعة الاستهلال» يقول «وينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره، ومفتتح أقواله، مما يُتَطَيَّرُ به، أو يُسْتَجْفَى من الكلام والمخاطبات، كذكر البكاء، ووصف إقفار الديار، وتشتت الألاف، ونعي الشباب، وذم الزمان، لا سيما في القصائد التي تتضمن المدائح أو التهاني، وتستعمل هذه المعاني في المراثي، ووصف الخطوب الحادثة، فان الكلام اذا كان مؤسساً على هذا المثال تُطُيِّرَ منه سامعه، وان كان يُعْلَم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه، دون الممدوح، فَيَجْتَنِبُ مثل ابتداء الأعشى

ما بكاء الكبير بالأطلال
وسؤالي وهل ترد سؤالي

دمنة «قفرة» تعاورها الصيف(م)
بريحين من صباً وشمال(٦)

وهو حين يرضى عن صنيع الشاعر، ويتقبله ذوقه قبولا حسناً، يكيل له الثناء بلا حدود، انظر إليه حين عَرَضَ للقصة في قصيدة الأعشى، فيما اقْتَصَّهُ من خبر السموأل. قائلاً:

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به — في جحفل كزهاء الليل جرار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله — حصن حصين وجار غير غدار

يقول ابن طباطبا «فانظر الى استواء هذا الكلام، وسهولة مخرجه، وتمام معانيه، وصدق الحكاية فيه، ووقوع كل كلمة موقعها الذي أريدت له، من غير حشو مجتلب، ولا خلل شاذ، وتأمل لطف الأعشى فيما حكاه واختصره في قوله: «اقتل أبنك صبراً أو تجيء بها» فاضمر ضمير الماء، في قوله «واختار ادراعه أن لا يُسَبَّ بها، فتلافى في ذلك الخلل بهذا الشرح، فاستغنى سامع هذه الأبيات عن استماع القصة فيها، لاشتمالها على اخبر كله، بأوجز كلام، وأبلغ حكاية، وأحسن تأليف، وألطف إيماءة» (٨٤ و ٨٥)

وإذا كان ذوق ابن طباطبا قد قبل قصيدة الأعشى هنا كلها، فإنه أحيانا يقبل الشعر لوشيه دون معناه، ولرونقه دون مغزاه، يقول ومن الأبيات الحسنة الألفاظ المستغربة الرائقة سماعاً، الواهية تحصيلاً ومعنى، وانما يُسْتَحْسَن منها اتفاق الحالات التي وضعت فيها، وتذكر اللذات بمعانيها، والعبارة عما كان في الضمير منها، وحكايات ما جرى من حقائقها. . .، وذلك كقول جرير:

إن الذين غدوا بلبك غادروا — وشلاً بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لي — ماذا لقيت من الهوى ولقينا(٧)

ونلحظ هنا أنه يعلل لقبوله. فكلام الاعشى مستوٍ تام المعنى صادق الحكاية ليس فيه خلل، وكلام جرير صياغته حلوة، ويثير في النفس الحالات المتفقة مع حال الشاعر، ولكن المتأمل له لا يخرج منه بشيء، أو هكذا رأى تذوق ابن طباطبا. (٨)

ومثلما يكون الكلام حسنا مقبولا، والمعنى مرذولاً عند ابن طباطبا، يكون الكلام مبتذلاً، والمعنى صحيحاً، يقول ومن الحكم العجيبة، والمعاني الصحيحة، الرثة الكسوة، التي لم يُتَنَوَّق في معرضها الذي أبرزت فيه، قول القائل:

نراع إذا الجنائز قابلتنا — ونسكن حين تمضي ذاهبات
كروعة ثلة لمغار ذئب — فلما غاب عادت راتعات (ص ١٢٤)

أما هذه الأبيات التي رثى بها مسلم بن الوليد الأنصاري صاحبه إسماعيل، ومنها قوله:

وإني وإسماعيل بعد فراقه — لكالغمد يوم الروع زايله النصل
فإن أغش قوما بعده أو أزورهم — فكالوحش يدنيها من الأنس المحل

فهذه في تذوق ابن طباطبا من «المعنى الصحيح البارع الحسن، الذي أبرز في أحسن معرض، وأبهى كسوة، وأرق لفظ (ص ١٢٥) وهي كذلك.

وذوق ابن طباطبا يَنْفِرُ من التشبيهات البعيدة التي لم يلطف أصحابها فيها، ولم يخرج كلامهم في العبارة عنها سلساً سهلاً. كقول النابغة

تَحِيدُ بهم أُدْم كأن رحالها ... عَلَق أريق على متون صُوَّار[8]

فالرِّحال الموضوعة على ظهور الإبل حمراء كالدم المراق على نصب المذبح.

وهذا الذوق ينفر كذلك من التكلف والخلل، مثلما فعله الأعشى في مديحه لقيس بن معد يكرب الكندي، يقول له:

فإن يتبعوا أمره يَرْشُدوا ... وإن يسألوا ماله لا يَضِن
وما إن على قلبه غمرةٌ ... وما إن بعظم له من وَهَن

يقول ابن طباطبا: « فمثل هذا الشعر، وما شاكله يُصْدِىء الفهم، ويورث الغم » (ص ١١١)

وحينما يفشل الشاعر في أن يوائم بين مقاله والمقام التي سيلقى فيه، لا يجد من ابن طباطبا متذوقا جيداً، بل يجده نافراً مستوفزاً، يقول « ومن الأبيات التي زادت قريحة قائليها على عقولهم، قول كثير يخاطب عبد الملك:

وما زالت رُقَاك تَسُلُّ ضِغْنِي ... وتخرج من مكامنها ضِبَابي
ويرقيني لك الحاوون حتى ... أجابت حية تحت الحجاب[9]

وأقصى ما يبلغ النفور من ذوق ابن طباطبا، حينما يكون الشعر، رديء النسج والمعنى، يقول: « ومن الأبيات المستكرهةُ الألفاظِ، القلقةُ القوافي، الرديئةُ النسج، فليست تسلم من عيب يلحقها في حشوها، أو قوافيها، أو ألفاظها، أو معانيها، قول أبي العيال الهذلي

ذكرت أبي فعاودني ... صداع الرأس والوصب

فذكر الرأس مع الصداع، فَضْل.

وكقول أوس بن حجر

وَهُمْ لمقل المال اولاد عَلَّة ... وان كان مَحْضاً في العمومة مُخْوِلاً[10]

فقوله: المال مع مُقِل فَضْل... الخ (ص ١٤٠)

هذاما يقبله ذوق ابن طباطبا المدرب، ولا مشاحة في الذوق، والذي لا يعنينا دلالة الرفض إن رفض، والقبول إن قَبِل.

والمتتبع لرحلة التذوق الفني، يهمه رصد ظواهره، أو كشف تطوره، وفهم جوهره، فالتذوق في بنائه كيان متكامل، تتبادل أعضاؤه القيام بمهام بعضها بعضا، وتتغير زواياه، وتتعددأحجامه، وتتبدل أضواؤه، لكن مضمونه واحد، لأنه مرتبط بتراث واحد، وحضارة واحدة، وبيئة عربية واحدة، مهما اختلفت أسماؤها، وتنافرت أهدافها، فلا ينبىء عن حقيقة جوهر الأدب العربي قدر طبيعة التذوق الفني له، لأنه الانطباع المباشر، والخيط المتصل بين الأثر الفني والمتلقى، وبالرغم من ذلك فلكل ناقد ذوقه الخاص، وذاتيته التي ينفرد بها، حتى لو اختلفنا معه، مثلما فعل ابن طباطبا، فقدرفض ابيات الأعشى التي وصفها بأنها تصدىءالفهم، وتورث الغم، تلك التي يقول فيها الاعشى

فإن يتبعوا أمرة يرشدوا

ثم فَضَّل عليها أبياتٍ لاحمد بن أبي طاهر، ووصفها بأنها « تجلو الغَمَّ، وتَشْحَذُ الفهم »

يقول ابن أبي طاهر:

إذا أبو احمد جادت له يده ... لم يُحْمد الأجردان البحر والمطر
وإن أضاء لنا نور بغرته ... تضاءل الأنوران الشمس والقمر
وإن مضى رأيه أوْحَدُّ عزمته ... تأخر الماضيان السيف والقدر
من لم يكن حذراً من حد سطوته ... لم يدر المزعجان الخوف والحذر

ويعلق ابن طباطبا « فهذا الشعر من الصفو الذي لا كدر فيه » (ص ١١١) بالرغم من أنه « من الكدر الذي لا صفو فيه ».

لقد رفض أبيات الأعشى لأن ذوق الأقدمين كان مختلفاً فيه[11] بينما كان ابن أبي طاهر (ت ٢٨٠ هـ) معاصراً له، فهل للمعاصرة نصيب في هذه العصبية؟!

ثالثا:

التقليد والذاتية في تذوق ابن طباطبا لفن الشعر.

أدبنا العربي من الآداب التي تميزت بقلة الانتفاضات، وهدوء الثورات، فمنذ امرىء القيس الى ما قبل العصر

الحديث، نستطيع أن نشير إلى قمم محدودة ظهرت في الشعر والنقد والبلاغة، تُعَدُّ على أصابع اليد، وأقصد بالقمم تلك العبقريات التي غيرت من مسار النهر العظيم للأدب العربي، والتي خرجت عن صفوف جيوش التابعين لتقول: «لا» ما هكذا تورد يا سعد الأبل، فلْنفكر فيما نردد. . . ، وحتى هذه القمم لم تستطع أن تثور، أن تقتلع الجذور، وتعيد البناء، ولكنها نجحت في أن تضيف، أن تزيل الركام عن بعض الأفكار والأساليب، وأن تعلن انتهاء دور أفكار وأساليب قديمة. وأن تقدم البديل.

فالأدب العربي تقليد في رمته، مُوَطَّد الأركان، لم يحدث له ما حدث لآداب الغرب من مذاهب تَـظْمس، وتَظْمِس معها وجوهاً، وآراء تبيد ويبيد معها أصحابها وكتبها، لا، ذلك لأن الأدب العربي مرتبط بالقرآن الكريم في لغته، وبنظام السلطة المهيمنة عليه الممثلة في البيت الحاكم، وفي سيطرة علماء اللغة والرواة والنقاد على الأذواق الأدبية، وهم لا يفصلون كثيراً بين لغة الأدب ولغة القرآن، ودور الأدب ودور القرآن، ومهمة الشاعر ومهمة الحكيم، لذا كان القديم أرسخ من الجديد، وكان الجديد دائراً في رحاب القديم، يُعلن الجديد انتهاء سيطرة فكرة، أو مولد فكرة، أو ما شابه، لكنه لم يقل «فليعبّر الأدب عن عصره، بعيداً عن العصر الجاهلي الذي انتهى دوره بتعبيره عن عصره» أو «فلتكفل للشاعر حرية الرأي بعيداً عن الالتزام الصارم، لأنه قائد وليس مداحاً للملوك، هجاءً للأعداء الذين كانوا أصدقاء الأمس، بعيداً عن المساس بفوت يومه» لم يحدث هذا، لأن حفظة الأدب كانوا في معظمهم من حفظة الدين أو من حفظة الحكم للحاكم، فأختلط عليهم الأمر، أو أرادوا هُمْ أن يختلط.

ومع ابن طباطبا سنجد القديم راسخاً بكل قُدْرته وعظمته وجبروته، لا يَبْعدُ ذوق ابن طباطبا عنه، لانه نشأ في رحابه، وسنجد التذوق الفني الذاتي الذي حاول به ابن طباطبا أن يجدد.

يعلن ابن طباطبا أن «المحنة على شعراء زماننا في اشعارهم أشَدُّ منها على من كان قبلهم، لأنهم قد سُبِقُوا إلى كل معنى بديع، ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة، وخلابة ساحرة، فإن أتَوْا بما يقصر عن معاني اولئك، ولا يُرْبِي عليها، لم يُتَلَقَّ بالقبول، وكان كالمطْرح المملول» (ص ٤٦)

هذه هي القضية، فشعراء عصر ابن طباطبا في محنة لأن امرأ القيس ومن جاء بعده قد استهلكوا المعاني التي تستحق الذكر، فما على الشعراء إلاّ ان يهجروا مدينة الشعر، أو ان يفعلوا ما اكتشفه لهم ابن طباطبا، يقول «وسنعثر في أشعار المولَّدين بعجائب. إستفادوها ممن تقدمهم، ولطفوا في تناول أصولها منهم، ولَبَّسُوها على من بَعْدَهم، وتكثروا بإبداعها، فسلمت عند ادعائها، للطيف سحرهم فيها، وزخرفتهم لمعانيها» (ص ٤٦)

ويبرر الاتباع والتقليد من خلال الروح التعليمية التي كانت تتلبس ابن طباطبا بين الحين والحين، حين ينسى أنه يتذوق وينقد، ويتذكر أنه يعلم ويقعِّد، يقول «وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه، وتكلف نظمه. . . (ص ٤١) و «فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مَخَضَ المعنى. . . » (ص ٤٣) و «ينبغي للشاعر في عصرنا أن لا يُظْهِر شعره إلاّ بعد ثقته بجودته وحُسْنه. . . » (ص ٤٧) وغير ذلك (ص ٥١)

وفي درس ابن طباطبا للتشبيه يقدم خلاصة رأي العلماء السابقين في العلاقة بين المشبه والمشبه به، والنظر الى هذه التشبيهات على أنها وسائل لنقل الواقع المعيش، لا اعادة خلقه، لأن مهمة التشبيه لديهم هي ربط الأغمض بالأظهر، لينجاب الغموض، وكأن التشبيهات هنا «وسائل ايضاح»، وتتمثل البراعة في اختيار الأظهر، وفي درجة ظهوره، ويكون امرؤ القيس قد شبه الشيء بالشيء صورة وهيئة حين قال:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا ... لدى وكرها العُنَّابُ والحشف البالي

(ص ٥٦)

ويكون ذو الرمة، قد شبه الشيء بالشيء، صورة ولونا وحركة وهيئة، حين قال:

ما بال عَيْنك منها الماء ينسكب ... كأنه من كُلَى مفرية سَرِبُ
وَفْراء غرفية أثأى خوارزها ... في مشلشل ضيعته بينها الكُتَبُ(١١)

ويكون تشبيه الجواد الكثير العطاء بالبحر والحيا تشبيها للشيء معنىً وصورة. . . إلى آخر ما قال ص (٦٠ ـ ٦٨) وبعد هذا الدرس الثقيل يقدم ابن طباطبا للشعراء المبتدئين نصيحة غالية «فالشاعر الحاذق يمزج بين هذه المعاني في التشبيهات، لتكثر شواهدها، ويتأكد حسنها، ويَتَوَقَّى الاقتصار على ذكر المعاني التي يُغير عليها، دون الإبداع فيها، والتلطيف لها لئلا

يكون كالشيء المعاد المملول (ص ٦٢) ومعنى هذا ببساطة تعلّم كيف ترقص وقدماك مكبلتان ».

وابن طباطبا يقدم سلسلة من أحكام القدماء على الشعر، ويعرض ذوقهم على العصر، ويلزم شباب عصره من الشعراء بها، ناصحاً بهم بأن يكونوا مطيعين، فما رفضه القدماء لا حيلة في قبوله على رشاقته، وما قبلوه لا حيلة في رفضه على سخافته، يقول ونذكر الآن أمثلة للاشعار المحكمة الرصف، المستوفاة المعاني، السلسة الألفاظ، الحسنة الديباجة، وأمثلة لأضدادها، وننبه على الخلل الواقع فيها، ونذكر التي زادت قريحة قائليها[٣] على عقولهم[٤]، والأبيات التي أغرق قائلوها فيما ضمنوها من المعاني، والأبيات التي قصّروا فيها عن الغايات التي جروا إليها في الفنون التي وصفوها، والقوافي القلقة في مواضعها، والقوافي المتمكنة في مواقعها، والألفاظ المستكرهة النافرة، الشائنة للمعاني التي اشتملت عليها، والمعاني المسترذلة الشائنة للألفاظ المشغولة بها، والأبيات الرائقة سماعاً، الواهية تحصيلا، القبيحة نسجاً وعبارة، العجيبة معنى وحكمة وإصابة. . . » (ص ٧٣)

وكل هذه نظرات جزئية، تقوم على تفتيت العمل الفني، بنزعة من بيئته أولاً، ثم بتشقيقه إلى ألفاظ ومعانٍ، وأوزان وقوافٍ، والانطلاق دون الحِمَى، والمروق عبر الحمى، رحى القواعد والضوابط والتخديرات.

ومن المشكلات التي أرّقت النقاد القدماء، مشكلة السرقات الشعرية فأبو نواس حين قال:

وإن جرت الألفاظ منّا بمدحة   لغيرك إنساناً فأنت الذي نَعْني

قد أخذه من الأحوص القائل:

(ص ١١٢)

متى ما أقل في آخر الدهر مِدْحَةً   فما هي إلاّ لابن ليلى المكرّم

فالشعراء قد كتب عليهم أن يكونوا لصوصاً، لأنهم حُبِسُوا في قلعة واحدة، دون الفرار منها ضياع العمر، وكما كُتب عليهم ألاّ يخرجوا منها، وألاّ يغيروا من هندسة البناء، كُتب عليهم ألاّ يتخلصوا من بالي الفِراش، أو متداعي الأثاث، فليس غريباً وهم يتناولون طعاماً واحداً، من إناء واحد، أن تظهر عليهم أعراض امراض واحدة، لان العدوى داء منتشر بينهم، فما أن يَتَفنَّن واحد منهم في ارتداء ملابسه بطريقة مبتكرة حتى تتسرب طريقته إلى الآخرين، تَسَرُّبَ المرض، من جَرّاء العدوى، ثم يحتدم الصراع، وتتفاقم المأساة، فيتقدم النقاد بالعلاج والنصائح، والتخديرات. . . ، لم يتخلف واحد عن علاج مرض السرقة عند الشعراء، من ابن سلام الجمحي إلى ابن طباطبا العلوي إلى عبدالقاهر الجرجاني إلى غيرهم وغيرهم[٥]

ومع ابن طباطبا نجد الدواء الناجع، لهذا المكبّل القدمين، حبيس قلعة الشعر، الذي أصيب بعدوى تقليد زميل حاضر، او آخر غابر من الشعراء، فأتى ببيت كشفت أعين النقاد الخبيرة عن سرقته، فيقول ابن طباطبا « واذا تناول الشاعر المعاني التي قد سبق إليها، فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها، لم يُعَبْ، بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه. . . ، ويحتاج من سلك هذا السبيل إلى إلطاف الحيلة، وتدقيق النظر في تناول المعاني، واستعارتها، وتلبيسها حتى تخفى على نقادها، والبصراء بها، وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها، فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه، فإذا وجد معنى لطيفاً في تشبيب أو غزل استعمله في المديح، وإن وجده في المديح استعمله في الهجاء، وإن وجده في وصف إنسان استعمله في وصف بهيمة، فإن عكس المعاني على اختلاف وجوهها غير متعذر على مَنْ أحْسَنَ عَكْسَها، واستعمالها في الأبواب التي يحتاج إليها فيها. . . (ص ١١٣) أرايت!!

ولو فهم القدماء أن السرقة لا تكون إلاّ بالاستيلاء على الشيء نفسه، بلفظه ومعناه وتركيبه، مع ادعاء امتلاكه، لهان عليهم الأمر، فالذي يسرق قميصا، ويرتديه، ويدعى انه له، لا ينفعه ادعاؤه، لأن القميص قيس على طول صاحبه وعرضه وشكله ولونه ورغبته في المعنى المقصود من وراء ارتدائه لقميصه هذا. ولا يكون لهذا كله معنى إلاّ اذا عاد القميص لصاحبه، أما إذا سُرق فيتحول الى قطعه من القماش، وُضعت في غير مكانها، لهدف غير هدفها، وطبيعة غير طبيعتها، وحياة غير حياتها، أما القماش نفسه، فهو مِلْك للجميع، ومصانع الملابس تخرج الآلاف من الأثواب ذات اللون الواحد، ثم يأخذ كُلٌ منا قطعة ويصنع منها شيئاً له، فيه ذوقه وطبعه وثقافته وحضارته، والمضمون الذي يريد أن ينقله للناس عن ذات نفسه، هذا، فآلاف الأثواب هنا هي الألفاظ والصيغ والتراكيب، وما تؤديه من معانٍ، والقمصان المختارة من هذه الأثواب هي القصائد، وهي الأبيات، فمن ادعى لنفسه بيتاً برمته قاله آخر يكون سارقا، ممتلكا ما لا حق له في امتلاكه، وتكون سرقة، ومن صاغ فكرةً صيغت من قبل وعرضها من خلال ذاته هو، وبطريقته في العرض، وذوقه في النسج، وظله في التصوير، فما سرق، وما هو

بسارق. فالأفكار مِلْكٌ للجميع، كالماء والكلأ، أما المعالجة الشخصية، والذوق الشخصي، و « الصنعة » الشخصية، والنكهة، والطبع، فهذا خاص الخاص، لا يملكه الاّ صاحبه، فكلنا نعيش في بيوت مكونة من عناصر واحدة، ولكن دار زيد غير دار عمرو، وحجرة مكتب زيد غيرها لدى عمرو، و « الديكور » الذي يستريح له هذا غير الذي يستريح له ذاك.

فلو تنبه القدماء - وبعضهم قد فعل - لقضية السرقات من هذه الزاوية، لما اسالوا حِبْراً غزيراً على الورق، ولما أضاعوا من أعمارهم السنين يبحثون عن مصدر قول دعبل مثلاً حين قال:

أحبُّ الشيب لـمّا قيل ضيف ... كحبي للضيوف النازلينا

ثم يكتشفون منتصرين - أنه أخذه من الأحوص حين قال (ص ١١٢)

فبان منى شبابي بعد لذة ... كأنما كان ضيفا نازلاً رَحَلا

هذا دعبل وذاك الأحوص، شاعران مختلفان، وحياتان مختلفتان، وذوقان مختلفان ومذهبان في الحياة مختلفان، ثم يلتقيان في بيت، فيكون أحدهما سارقا والآخر مسروقاً.

ويبرز التزام ابن طباطبا بالقديم، وبخاصة ما أخذه من ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » حينما يعرض لقول كثير عزة.

ولمّا قضينا من مِنىً كُلَّ حاجة ... ومَسَّحَ بالأركان من هو ماسح
وشُدَّت على حدب المهارى رحالنا ... ولا ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

ويقول فيه « هذا الشعر هو استشعار قائله لفرحة قفوله إلى بلده، وسروره بالحاجة التي وصفها من قضاء حجِّه وأُنسه برفقائه، ومحادثتهم، ووصفه سيل الأباطح بأعناق المطى، كما تسيل المياه، فهو معنى مُسْتَوفى، على قدر مراد الشاعر » (ص ١٢٠) وما قاله يعتبر ترجمة للأبيات وليس إحساساً بها، ولا تذوقا فنياً لها، فكثيرٌ هنا يرسم لوحة فنية جميلة لعاشق ذهب يحج وأكمل ما عليه من فرض، وعاد إلى أحبابه مُوَفَّقاً، وكأنه كان حريصا على أن يعود موفقاً لتزداد سعادته بنفسه، وسعادة أحبابه به، وتكتمل أطراف السعادة، وقد حرص كثير على إبراز جانب « الحركة » في صورته، فهي تقوم أساساً على الحركة، حركة الانتقال إلى مواطن الحج، وحركة التنقل في ربوع مكة والمدينة، وحركة الرجوع الى حيث اتوْا، هذه حركة، وحركة التقرب الى الله تعالى، وحركة الرضى عن النفس، وحركة الشوق الى العودة، ثم حركة الاستعداد للعودة، وحركة الأحاديث، وحركة سيل الأباطح بأعناق المطي، ثم أخيراً بل أولاً، حركة القلب المشتاق، كل هذا لم يلتفت إليه القديم، وانشغل بالمعنى فشغله المعنى، وضاع الفن

ويبرز هذا القديم بوجهه الصارم، حين يقترح النقاد على الشعراء أن يغيروا تجربتهم الشعرية، وتدفقهم الحسي، وانطلاقهم التخيلي، وينطلقون الى ارتداء أثواب التعبيرات الجاهزة، فما قاله كثير عزة في صاحبته لو قاله في وصف الحرب لكان أشعر الناس، وما قاله القطامي في وصف النوق لو قاله في وصف النساء، دون النوق لكان احسن، وكثير لا يسعى الى ان يكون أشعر الناس، فيكفيه ان يكون أصدق الناس فناً، وأدقهم حِسّاً، وأرشقهم لفظاً، والطفهم معنى، وأسبكهم نظماً، ماذا لو قال كثير لصاحبته:

اسيئي بنا او أحسنى لا ملومة ... إلينا ولا مقلية إن تَقَلَّبَ(١)

إنه يرضيه ان يكون على علاقة بعزة، وأن يكون الود موصولاً، سواء أكان إساءة كُلُّه، أو إحساناً كُلُّه، يكفيه ان يكون ثَمّ شيء من عزته كان مُوَجّه إليه حيث كان، أليس في قصدها إليه باساءة او إحسان، يعنى أنها قد علمت بمكانه، وفكرت في شانه، ودبرت له امراً، فهو في دائرة اهتمامها، وفي هذا كفاية، أو ما يربو على الكفاية، أما أساطين القديم، وسدنة التقليد فيقولون: ينبغي لهذا القول ان يكون في الدنيا، ليكون كُثَيِّر أشعر الناس، سبحان الله، كيف يكون هذا؟ واذا أراد كُثَيِّر أن يخاطب الدنيا لخاطبها بغير هذه الألفاظ، لغير هذه المعاني، وإذا كانت هذه الالفاظ في الدنيا لكانت من أسَفِّهَا، وأتفهها، وأقربها الى الشعر الصوفي الركيك، والركيك منه كثير.

وفي موضوع «الشعر البعيد الغَلِق»(ص ١٥٨)، تصدر الأوامر بأنه ينبغي كذا ولا ينبغي كذا، يقول ابن طباطبا: وينبغي للشاعر ان يجتنب الاشارات البعيدة، والحكايات الغلقة، والايماء المشكل، ويتعمد ما خالف ذلك، ويستعمل من المجاز ما يقارب الحقيقة، ولا يبعد عنها، ومن الاستعارات ما يليق بالمعاني التي يأتي بها، فمن الحكايات الغلقة والاشارات البعيدة قول المثقب في وصف ناقته:

تقول وقد دَرَأْتُ لها وضيني ... أهذا دينُه أبداً وديني
أكل الدهر حِلٌّ وارتحال ... أما يُبْقي عَلَيَّ ولا يقيني

فهذه الحكاية كُلُّها عن ناقته من المجاز المباعد للحقيقة، وانما أراد الشاعر أن الناقة لو تكلمت لأعربت عن شكواها بمثل هذا القول، والذي يقارب الحقيقة، قول عنترة في وصف فرسه :

فازْوَرَّ من وَقْعِ القنا بِلَبَانِهِ ... وشكا إليَّ بعبرة وتَحَمْحُمِ(١٨)

الى آخر ما قال ابن طباطبا . . . . ص (١٥٨)

وما يقوله القديم ويردده ابن طباطبا بإخلاص، يُعَدُّ مصادرةً مرفوضة، إنهم يصادرون حرية الشاعر في أن يعبر بالطريقة التي يختار، والأسلوب الذي يفضل، ويقولون: إن الحقيقة لا تساندك فيما تدعيه، وأنت كاذب لأنك يجب أن تكون صحفيا دقيقاً، تنقل لنا ما شاهدته نقلا أمينا غير منقوص، أو تكون مراسلاً حربياً يدون التقارير الحربية ليجعل من لم يشاهد كأنه شاهد، والبعيد كأنه قريب، ومن لم يشارك كأنه في قلب المعركة، وطالما أن الناقة لا تتكلم انما تستطيع ان تبكي أو تحمحم، فالمثقب العبدي كاذب، والقارىء لم يفهم عنه، وبهذه البساطة، وهذه القسوة، يموت العمل الفني في المتذوق، ويذوى جمال الصورة، وتبهت الألوان، وتضيع الإيقاعات، وتموه الحركة، وتتحول الحلاوة إلى مرارة، والابتكار الى سخف، لأن الشاعر مطالب دائما بأن ينقل الحقيقة إلى الناس، وأن يكون راوية، آلة تصوير، وقصاص آثار،وان يعكس روحه ووجدانه وخياله وإبداعه.

انظروا معي إلى التعنت الذي يقضي على أجمل لحظة لقاء بين الشاعر وصاحبته التي لم تحج إلاّ لتراه - استغفر الله - ولم يسع هو إلاّ إليها، وحين التقت الوجوه، وتصافحت العيون، أشارت إليه بكفها ما يترجم ما أَقْدَمَتْ عليه، منذ ان رحلت من بيتها قاصدة مكة المكرمة، إلى أن التقت عيناهما معا، إنها لم تسافر إلى مكة ممتطية جناح طائرة، إنما صارعت طريقا موحشا، وعذابا اغبر، وشقاءً لا يحتمله إلاّ من صدق في حبه، إنها تقول له « أنت السبب »، فقال الشاعر :

اومت بكفها من الهودج ... لولاك هذا العام لم أحجج
أنت إلى مكة أخرجتني ... خَبِباً، ولولا أنت لم أخرج(١٩)

كل المعاني الحلوة جاءت في « أومت بكفها من الهودج »، انها عاشت أياماً طوالاً، تفكر في هذا اللقاء، لتقوم بهذه الإشارة، أما ما حدث له حين رآها في الهودج، وحين رأى كفها، وحين فُهِمَ عنها، وحين انفرد بنفسه، وحين ساح خياله في القفار والوديان، يصل ما بين بلدة حبيبته ومكة، وما بين مكة وبلده هو، وبين كل هذا وما يشعر به، وتشعر هي به، فحديث يطول، ودعنا من أسلوب القصر في « لولاك لم أحجج »، والتقديم والتأخير في « إلى مكة أخرجتني »، وكل ما في ضمير « أنت » من طاقات، ولفظة « خبياً » التي تصور كيف لحقت بالركب الذي كاد أن يفوتها، وتعود إلى « أنت »، وتردد « أحجج » « أخرجتني » « أخرج »، وخروجها ليس سهلاً ميسوراً، إنما هو قضية تحتاج إلى روايات محبوكة، وإخراج ذكي، أترك كُلَّ هذا، والتفت التفاتة الأسيان إلى قول ابن طباطبا، وما فعل به إخلاصه للتقليد في التذوق، يقول « ومن الإيماء المشكل الذي لا يُفْهَم، وقد أفرط قائله في حكايته، قول الآخر: « أومت بكفها. . . » فهذا الكلام ليس مما يدل على إيماء، ولا تُعَبِّرُ عنه إشارة (ص ١٥٨) سبحان الله!

وبالرغم من ذلك، فليس القديم كُلُّه خطأً، ولا كل جديد صواب فالشعر هو الشعر، والمقاييس هي التي تختلف.

إن هذه الأحكام التي صدرت عن القديم، كانت نتيجة لفهمهم للشعر ووظيفته، وللشاعر وحريته، وقد فَهِم معظم القدماء الشعرعلى انه تصوير للواقع المعيش، فكانوا يبحثون عن هذا الواقع في الشعر، بينما للشاعر واقعٌ خاصٌ به، وحقيقةٌ خاصة به.

ومهما اختلفنا مع أذواق القديم، فلا نستطيع أن نختلف مع من رفض قول الطِرِمّاح :

لو كان يخفي على الرحمن خافية ... من خلقه، خفيت عنه بنو أسد
قوم أقام بدار الذل أوّلُهم ... كما أقامت عليه جذمة الوتد(٢٠)

اراد أن يبالغ فسقط في الغلو.

ونتفق مع القديم في حكمه على قول مسلم بن الوليد الأنصاري « وإني وإسماعيل بعد فراقه »

لأن هذه الأبيات حوت المعنى الصحيح البارع الحسن، الذي قد أُبرز في أحسن معرض، وأبهى كُسْوة، وأرق لفظ (ص ١٢٥)

كما نتفق مع القديم في رفضه الفشل الذريع الذي مُنِيَ به هذا الشاعر، وبخفوت مصباح ذكائه حين مدح زبيدة أم الخليفة العباسي محمد الأمين بقوله :

أزبيدة ابنة جعفر   طوبى لسائلك المُثاب
تعطين من رجليك ما   تعطى الأكف من الرِّغابِ

لقد خاب سعيه، وتحولت أم الخليفة بحسن نيته إلى بنت من بنات الهوى.

وأيضا ما سقط فيه الأعشى حين يمدح الملك بأنه يجود بالماعون، وهو يقصد أنه يجود بأي شيء، فإن لم يجد ما يجود به، جاد بالماعون، وليس بهذا يمدح الملوك (ص ١٢٤)

فالقديم كنز مدفون في الهضاب، وبطون الوديان، يحتاج إلى الصبر في التنقيب، والتعاطف والاحترام الشديد مع الاحتفاظ بالرأي الخاص، والنظرة الشخصية، والذوق الفني المتجدد.

واذا كان ابن طباطبا قد ساير القديم لاحترامه لقدمه، ولشعوره بسلطانه، ولتلمذه على أقطابه، فإنه لم يستنفذ طاقاته في الاحتفاء به فكان مجدداً.

فابن طباطبا قد تعرض لعملية الخلق الفني، يشرحها بالتفصيل، لانه شاعر، ولأنه يريد أن يضيء الطريق أمام الناشئة من صغار الشعراء، فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة... (ص ٤٣)

وهو الذي تكلم في الوَحْدَة الأسلوبية، فالشاعر «إذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي الفصيح، لم يخلط به الحضري المولَّد، وإذا أتى بلفظة غريبة أتبعها أخواتها، وكذلك إذا سهّل ألفاظه... (ص ٤٤)

وتكلم في الوحدة الفنية، ووحدة التجربة الشعورية، ووحدة الموضوع، بحيث لا يبدو متنافراً، وهو الذي وصف الشعر بأنه يجب ان يكون «كالسبيكة المُفْرَغة (ص ٤٢)، وأن للشعر فصولاً كفصول الرسائل، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة، فيتخلص من الغزل إلى المديح، ومن المديح إلى الشكوى...، بألطف تخلص، وأحسن حكاية، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله، بل يكون متصلاً به، وممتزجاً معه، فإذا استقصى المعنى وأحاط بالمراد الذي إليه يسوق القول بأيسر وصف، وأخف لفظ، لم يحتج إلى تطويله وتكريره (ص ٤٤)، وهو القائل «وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره، على ما ينسقه قائله، فإن قدّم بيتاً على بيت دَخَلَهُ الخلل... حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغاً، لا تناقض في معانيها، ولا وَهْيَ في مبانيها، ولا تكلف في نسجها، تقتضي كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقا بها، مفتقراً اليها» (ص ١٦٧)

وابن طباطبا هو الذي تعرض للشعر القصصي، يُفَصِّل للشعراء قواعده حتى يشجعهم على ممارسته بوعي، يقول «وعلى الشاعر إذا اضْطُرَّ إلى اقتصاص خبر في شعر دَبَّرَهُ تدبيراً يسلس له معه القول، ويطرد فيه المعنى، فبنى شعره على وزن يحتمل أن يُحْشَى بما يحتاج إلى اقتصاصه، بزيادة من الكلام يخلط به، او نقص يحذف منه وتكون الزيادة والنقصان يَسِيرَيْن، غير مُخْدَجَيْن «أي غير مُخِلَّيْن بالغرض» لما يستعان فيه بهما، وتكون الالفاظ المزيده غير خارجه من جنس ما يقتضيه، بل تكون مؤيده له، وزائدة في رونقه وحُسْنه، كقول الأعشى فيما اقتصه من خبر السموأل.. (ص ٨٤)

وابن طباطبا من النقاد القلائل الذين حرصوا على تقديم الصورة الفنية متكاملة، أو شبه متكاملة، لا يعتمد فيها على البيت او البيتين، إلّا ما اشْتُهِرَ منها، ففي الشعر القصصي أتى بستة عشر بيتاً من قصيدة الأعشى، (ص ٨٤) وفي الاشعار المحكمة أتى بقطعة من عشرة أبيات من مطولة زهير، (ص ٨٩) وبثمانية أبيات أخرى (ص ٩١) وبسبعة عشر بيتاً لأبي قيس ابن الأسلت (ص ٩٠)، وهكذا يستمر طويلا في تقديم الأبيات الستة والتسعة والاثنى عشر، إلى أكثر من ذلك، بهدف عدم تمزيق الصورة التي يدرسها، حتى إذا وصل مطولة الأعشى.

بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا   واحتلت الغمر فالجُدّين فالفرع

أتى على ستة وسبعين بيتاً، لكي يثبت أن «التكلف فيها ظاهر، بيّن، إلّا في ستة أبيات، هي...» (ص ١٠٥ ـ ١١٠)

وابن طباطبا الذي تحدث طويلا عن «الإطار» الذي يضفي جمالاً على الجميل، ويساعده في أن يبرز كل مكنونات جماله، والذي سماه «المَعْرِض» يقول «وللمعاني ألفاظ تشاكلها، فتَحْسُن فيها وتَقْبُح في غيرها، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حُسْناً في بعض المعارض دون بعض...» (ص ٤٦)

وهو الذي أدرك أن الظروف قد تغيرت بالشاعر المادح، فكان في الجاهلية يُتَذَوَّق مديحه على أساس العلاقة الاجتماعية القائمة بينه وبين الممدوح، وعلى أساس من الصدق الخُلُقي الذي كان يقاس به الصدق الفني، أما شاعر الدولة العباسية فليس مطلوبا منه ان يكون صديقا حميا، وناصحاً أميناً، بقدر ما يُطْلب منه أن يكون صادقا في فنه، «فالشعراء في عصرنا ـ يقول ابن طباطبا ـ إنما يثابون على ما يُسْتَحْسَن من لطيف ما يوردونه من

أشعارهم، وبديع ما يُغْرِبُونه من معانيهم، وبليغ ما ينظمونه من ألفاظهم، ومُضْحِكِ ما يروونه من نوادرهم، وأنيق ما ينسجونه من وشي قولهم، دون حقائق ما يشتمل عليه المدح . . . » (ص ٤٧)

هذا ابن طباطبا الذّواقه، ما كان بمقدوره أن يخرج من قيود الذوق القديم، ولكنه نجح في أن يفرض ذوقه الجديد، الذي به انتفعنا أكثر انتفاع.

الهوامش

١ ـ تاريخ الاسلام ـ د. حسن ابراهيم حسن ١١٣ ـ ٢١ الطبعة الحادية عشرة، مكتبة النهضة المصرية.

٢ ـ انظر مادة « إصبهان » ـ دائرة المعارف ص ٤٧٠ ط الشعب ـ القاهرة.

٣ ـ انظر في ذلك ـ معجم البلدان لياقوت الحموى ٢٠٩/١، المجلد الأول ط دار بيروت، ويتيمة الدهر للثعالبي ٢٩٥/٣ ـ ٢٣٨ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط بيروت.

٤ ـ انظر الأعلام للزركلي ٣٠٨/٥ وما بها من مصادر، ط دار العلم للملايين، سنة ١٩٨٠ م

٥ ـ رجعت في بحثي هذا إلى الطبعة المحققة، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام، ط منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٨٥ م وتقع في مئة وتسع وعشرين صفحة، والكتاب كله مئة وسبع وتسعون صفحة.

٦ ـ الدمنة: الأطلال والجمع دِمَن، وزُهاء: زهاء الشيء شخصه، والجحفل: الجيش العظيم، وزهاء الليل ظلمته الحالكة، انظر ص ١٦٢ من عيار الشعر.

٧ ـ الوشل: الماء المتساقط من أعراض الجبل، وانظر ص ١١٩ من عيار الشعر.

٨ ـ تخدي: تُسْرِع، الأدم: الإبل العتاق، العلق: الدم، وصوار: بقر، او لعلها نُصُبْ المذبح أمام الصخر، انظر هامش ١٢٦ من عيار الشعر.

٩ ـ عيار الشعر ـ ١٢٨، وضبابي جمع ضب، حيوان من جنس الزاحف من رتبة العظاة، غليظ الجسم، خشنه، وله ذنب عريض، يكثر في صحارى الأقطار العربية، وهو هنا استعارة تصريحية للحقد الكامن في الصدر.

١٠ ـ أولاد العَلَّة: أولاد الأب الواحد من أمهات متعددات، وبينها ما بينها من تشاحن.

١١ ـ انظر في ذلك، ابن سلام الجمحي في الطبقات ص ٥٦ الجزء الاول، تحقيق الشيخ شاكر ط ١٩٧٤ م، وانظر الموشح ص ٧٣ تحقيق البجاوى ط نهضة مصر.

١٢ ـ الكل جمع كلية، وهي رقعة في المزادة التي تحمل الماء، والمفرية: المقطوعة للاصلاح، أو مثقوبة بالمخراز لخياطتها، وأثاى: ثقب الخرز، والخوارز: مكان الخرز أي الثقوب، مشلشل: متصل القطر، نعت لـ « سرب »، والكِتَبُ: جمع كُتْبَة: وهي الخرزة.

١٣ ـ قريحة قائليها: خيالهم او ابتكارهم.

١٤ ـ عقولهم: الضوابط التي وضعت لهم.

١٥ ـ مشكلة السرقات في النقد العربي ـ د. محمد مصطفى هدارة، الانجلو ١٩٥٨ م بالقاهرة.

١٦ ـ عيار الشعر ـ ١٢١، وقلى فلان فلانا: أبغضه وهجره، وفي التنزيل « ما ودعك ربك وما قلى » (الضحى ـ ٣)

١٧ ـ دراً: أغذً، والوضين: حزام عريض منسوج بعضه على بعض من سيور أو شعر، يُشَد به الرحل على البعير، ودرأت وضيني: أي أعددت الحزام العريض لأشد به متاعي على ظهر الناقة كناية عن الاستعداد للرحلة. وديني: عادتي.

١٨ ـ اللبان: الصدر.

١٩ ـ خبباً: مسرعة.

٢٠ ـ عيار الشعر ـ ٨٦ ـ الجذمة القطعة تقطع من الشيء ويبقى أصله، وجذمه الوتد: بقيته القوية التي استقرت في الأرض لقوة لصوقها، والتشبيه هنا كناية عن تمكن الذل من هؤلاء.

• • •

ريف بغداد
بين مصادر الجغرافية
ومؤلفات التراجم والسير
نظرة تاريخية تحليلية

دراسة

د . ناجية عبدالله ابراهيم
كلية التربية للبنات ـ جامعة بغداد

توطئــة :

الذي يتتبع الدراسات التي تُعنىٰ بتاريخ العراق خاصة ، والعرب عامة ، في العصور الاسلامية الوسيطة ، يرىٰ اهمالاً واضحاً لدراسة المناطق الريفية التي تقع خارج المدن . في الوقت الذي يرىٰ عناية واضحة بدراسة تاريخ المدن وأحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية ، ويشكل يُثير الانتباه . ولعل الصعوبة في هذا الأمر تكمن في انعدام المصادر التي تُعنى بالريف عامة من جهة ، وتناثر المعلومات ـ ان وجدت ـ في ثنايا المصادر المعاصرة منها والمتأخرة ، المختلفة والمتنوعة ، الى حدّ يتطلب الكشف عن الحقيقة من خلالها ، جهداً كبيراً ، ووقتاً غير قليل ، من جهة أخرىٰ . الأمر الذي حال دون إمكانية الغوص في الدراسات التاريخية التي تتناول الريف . وجعل غالبيتها تنصب على العناية بدراسة المدن ، ومجالات حياتها المختلفة بما في ذلك السلطة السياسية الحاكمة فيها .

بيد ان الاعتقاد بدور الفلاحين ـ وهم سكان القرىٰ والأرياف ـ الكبير في ديمومة الحياة المستمرة للمدن والمساهمة في تطورها الحضاري عبر التاريخ لكونهم يُشكلون الغالبية العظمىٰ من سكان المجتمع ، في أي حقبة تاريخية ، خصوصاً في العراق ، وأهمية الاعتماد عليهم في المسيرة النضالية التي خاضتها الجماهير الكادحة عبر تاريخها الطويل ، ضد القوىٰ الأجنبية المحتلة للعراق ، والتصدي لأطماعها التوسعية .. إضافة الى الرغبة الذاتية ـ كمواطنة بغدادية المولد والنشأة ـ في التعرف علىٰ واقع الريف البغدادي خلال العصر العباسي الأخير ، ومدىٰ تأثره بأحداثها التاريخية الهامة ، وتأثيره فيها ، خصوصاً وقد شهد ذلك العصر منعطفاً تاريخياً كبيراً تمثل بمواجهة حازمة لظروف فترتين من الاحتلال الأجنبي للعراق . أوله النفوذ السلجوقي ، وآخره الاحتلال التتاري المغولي الذي أودىٰ بحياة الخلافة العباسية وأنهىٰ وجودها سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، وكان

نصيب الريف من أحداثها الجسيمة ، وآثارها العميقة ، مؤلماً وكبيراً .

كل هذا وغيره كان حافزاً كبيراً لاختيار ريف بغداد ، والتركيز على دراسة تنظيماته الادارية وأحواله الاقتصادية خلال الفترة ٥٧٥ هـ - ٦٥٦ هـ موضوعاً لدراسة علمية أكاديمية نلت فيها مرتبة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي من جامعة بغداد الموقرة عام ١٩٨١ .

ولست الآن بصدد التعرض الى حيثيات الدراسة ومجالاتها الواسعة[١] . وانما سأقتصر في هذا المقام على دراسة ريف بغداد في إطار مراجع ومصادر محددة اعتمدت عليها في اعداد الدراسة ، ومن خلال رؤية تاريخية علمية تحليلية تأخذ بعين الاعتبار نماذج من تلك المصادر المعتمدة وتنحصر في باب الجغرافية والتراجم والسير ، بهدف الكشف عن جانب مهم علّه يُعين الباحثين والمعنيين بالدراسات التاريخية ، في أهمية الاعتماد على المصادر والمراجع الجغرافية ومؤلفات التراجم والسير لتكوين صورة واضحة عن حقيقة الريف وأوضاعه الادارية والاقتصادية والاجتماعية ، ودوره في حياة المدن بشكل خاص وأوضاع المدن الداخلية بشكل عام ، من خلال التقاط الاشارات الواردة في تلك المصادر واستقرائها واخضاعها للتمحيص والتحليل والدراسة .

تحديد مفهوم الريف وموقعه الجغرافي في بغداد :

قُبيل البدء بالموضوع نرى من الأهمية بمكان تحديد مفهوم الريف وموقعه الجغرافي في بغداد .

كان العراق الذي افتتحه المسلمون على عهد عمر بن الخطاب (رض) يُسمى السّواد ، لسواد أراضيه بالزروع والأشجار . أي لخضرتها . والخضرة اذا مااشتدت وتكاثفت بانت سواداً . والعرب كانوا يخلطون في التسمية بين الخضرة والسّواد ، فسمّوا خضرة العراق سواداً لتأثرهم بلونها الأخضر أو الشديد الخضرة . مثلما تأثروا ببقية الألوان الأخرى وأطلقوا عليها تسميات مماثلة . كالصفرة التي استعملوها للصحراء ، والزرقة وقد استعملوها للأنهار[٢] .

على ان استقرار العرب المسلمين في الأمصار الاسلامية ، وبناء المدن العربية واتساعها ، وتطورها العمراني ، كان سبيلاً لتطور مفهوم السّواد واتساع مدلولاته . وصار السواد يُلحق بالمدن التي يُحيط بها داخل الاقاليم الاسلامية ، ويسمى باسمها ايضاً . فكان في العراق مثلاً « سواد البصرة » و « سواد الكوفة » و « سواد بغداد » . وكان في شبه الجزيرة العربية « سواد مكة » مثلما كان « سواد طرابلس » في بلاد الشام و « سواد اشبيلية » في بلاد الأندلس . وصار السّواد يُراد به القرى والمزارع المحيطة بالمدينة . قال ابن منظور : « والسواد : ماحوالي الكوفة من القرى والرساتيق »[٣] . وقال أيضاً : « وسواد الكوفة والبصرة : قراهما »[٤] .

فالقرى هنا هي السّواد ، وأهل السّواد أو السوادية ، في العراق خاصة ، هم سكان القرى في الريف .

ولما كانت القرية هي الوحدة الاجتماعية لمجتمع ريف المدينة ، وهي جزء منه كذلك ، ولكون السّواد الذي يُحيط بالمدينة ، يعني الأرض الزراعية المحيطة بها ، ويعني القرى أيضاً . لذلك فان مجموع قرى المدينة الواقعة في سوادها يُمثل ريف المدينة نفسها ، وان مجموع ريف المدن داخل الاقليم الواحد ، يُمثل ريف الاقليم كله أو أرياف الاقليم[٥] .

وعلى ذلك فان ريف بغداد موضوع الدراسة هنا ، يُمثل مجموع قرى بغداد الواقعة في سوادها والمرتبطة بالكور والنواحي والبليدات التي تدخل في عملها الاداري وتقع في أطراف بغداد ونواحيها في كلا جانبي نهر دجلة . وشبكات الأنهار المحيطة ببغداد وقنواتها الفرعية كانت مراكز رئيسة لانتشار القرى وازدهار الزراعة فيها - كنشاط اقتصادي يُميز السكان هناك - اذ جعلت من الأراضي الممتدة على ضفافها حقولاً خصبة غنية ببساتين النخيل وأشجار الفواكه والكروم مما لامثيل له في انحاء العراق الأخرى .

ومن الطبيعي ان لكل حقبة تاريخية خصائص وظروف معينة . وهي ظروف واقعية بلاشك . تتبلور بفعل الظروف

والأوضاع السابقة السائدة في المجتمع . لذلك فان تتبع ظروف المرحلة التاريخية التي مر بها ريف بغداد خلال العصر العباسي الأخير ، وتحديداً خلال الفترة الممتدة بين سنة ٥٧٥ هـ وحتى سنة ٦٥٦ هـ[٦] يتطلب كما نعتقد الاحاطة الشاملة بظروف وواقع وأحوال الريف البغدادي في الفترة السابقة لعام ٥٧٥ هـ واللاحقة لعام ٦٥٦ هـ للوصول الى حقيقة الأوضاع الادارية والاقتصادية وحتى الاجتماعية منها والثقافية لريف بغداد خلال الفترة المشار اليها ، وخصوصاً عندما تنعدم المعلومات في أحد الجوانب الأساسية لحياة الريف .

من هنا كانت الكتابة في تأريخ ريف بغداد صعبة جداً ، وقلما أخذت بعين الاعتبار ، في دراسة تاريخ العراق ، أو التاريخ العربي عموماً ، لأن دراسة تاريخ الريف البغدادي لاتعتمد على المراجع والمصادر التاريخية وحدها ، رغم أهميتها ، بل ينبغي الى جانب ذلك دراسة المصادر المتنوعة الأخرى ، الجغرافية منها أو التراجم والسير أو غيرها كثير في الفقه والأدب ومالى ذلك . .

ريف بغداد في المصادر الجغرافية :

فبالنسبة للمصادر الجغرافية تعد المادة الأساسية لدراسة واقع التنظيمات الادارية المكونة لريف بغداد لاحتوائها على تفاصيل طوبوغرافية وإدارية مهمة . ومع ان بعض تلك المصادر يستقي معلوماته من مصادر عديدة فُقد بعضها ، أو ضاع ، الا ان الجانب الأخر منها يعتمد على ملاحظات شخصية ومشاهدات حية للمؤلفين أنفسهم ، كل حسب العصر الذي عاش فيه . لذلك كان التطور التأريخي للمجتمع ، سبيلاً لكشف التباين الموجود في مناهج المؤلفين أنفسهم ، ورؤيتهم الفلسفية لأحداث العصر وظروفه الموضوعية ، من جهة ، وطبيعة التطور الاداري والاجتماعي للمجتمع العراقي ومعطيات تكوينه في عهد الخلافة العباسية عبر مراحلها المتعاقبة ، من جهة أخرى .

وفي ضوء هذا كان لزاماً علي أن أعتمد المصادر المعاصرة أكثر من غيرها ، لأنها أقرب ماتكون للواقع . وفي حالة انعدام المعلومات تكون المقارنة بين طبيعة الأوضاع السائدة في الريف البغدادي في مصادر الفترة السابقة ومصادر الفترة اللاحقة أمراً مهماً للاستنتاج بما يحتمل أن يكون واقعاً خلال الفترة موضوع البحث والدراسة .

ففي دراسة التنظيمات الادارية لريف بغداد ، بعد تأسيسها في زمن الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور ، سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م يحتل كل من كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة (ت ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م) و « الخراج وصنعة الكتابة » لقدامة بن جعفر الكاتب (ت ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م) أهمية خاصة لأنهما يعدان أوسع من تناول تقسيمات العراق « السواد » الادارية وبضمنها سواد بغداد منذ الاحتلال الفارسي للعراق وحتى أواخر القرن ٣ هـ / ٩م وأوائل القرن ٤ هـ / ١٠ م . ولابن خرداذبة أهمية خاصة ـ رغم التشابه الموجود بينه وبين قدامة ـ لأنه استقى معلوماته من أرشيفات الدولة العباسية عند اعداده الكتاب[٧] . فهو اذن قريب الصلة بأوضاع المجتمع ، وكتابه يُعد من المؤلفات المبكرة جداً في حقل الجغرافية العربية الوصفية[٨] .

وعندما يخضع التنظيم الاداري لأعمال ريف بغداد للتطور في أواخر القرن ٤ هـ / ١٠ م يكون المقدسي البشاري (ت ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م) في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » على رأس قائمة المصادر والمراجع الجغرافية . حيث ينقل لنا صورة حية واقعية لطبيعة الأوضاع السائدة في زمانه وماجرى عليها من تحولات كبيرة تلائم العصر الذي عاش فيه .

يقول المقدسي بهذا الصدد : « إعلم انا جعلنا الأمصار كالملوك ، والقصبات كالحُجاب ، والمدن كالجند ، والقرى كالرجالة »[٩] ثم يقول بصدد الوضع الاداري الجديد للعراق[١٠] في زمانه : « وكانت الكور في القديم غير هذه الآ حلوان ، ولكنا أبداً نجري الأمر على ماعليه الناس ، وأدخلنا الكور القديمة والقصبات في الأجناد ، واسم هذه الكور والقصبات واحد »[١١] .

كما يأتي المقدسي بمعلومات مهمة عن التجارة والمذاهب والعادات والتقاليد الاجتماعية . فأهميته اذن كبيرة لكونه يعتبر من أكثر الجغرافيين العرب اصالة، وكتابه من أعلى المصنفات الجغرافية في الأدب العربي قيمة[١٢]

وعندما ننتقل الى أواسط القرن ٦ هـ / ١٢ م يبرز عالم آخر جغرافي هو الأدريسي (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م) وكتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وهو يُمثل تطوراً آخر في دراسة أعمال ريف بغداد وخاصة سماتها الادارية في أواسط القرن ٦ هـ / ١٢ م[١٣].

أما كتابه الآخر «روض الفرج وأنس المهج» فهو اقتباس للمصادر المتقدمة خاصة فيما يتعلق بالجزيرة والعراق. فهو ينقل عن ابن حوقل (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) والمقدسي (ت ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م) والعزيزي ولهذا فهو لايضيف شيئاً جديداً في دراسة ريف بغداد.

بعد هذه الفترة وحتى أواسط القرن ٧ هـ / ١٣ م يحتل ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) في كتابه الكبير «معجم البلدان» مكان الصدارة من حيث الأهمية والسعة والشمول. فهو يُغطي ثلثي الفترة موضوع الدراسة من حيث البعد الزمني لها. ويُعطي حقائق تاريخية مثيرة لمشاهداته الشخصية الحية لكثير من المواقع الريفية بنواحي بغداد. فضلاً عن اهميته البالغة فيما ذكره لحجم الأعمال الادارية المكونة لريف بغداد خلال الفترة (٥٧٥ - ٦٥٦ هـ)[١٤] ولامتداد القرون الستة بشكل عام من خلال حفظه المعلومات التي استقاها من المصادر المتعددة كل حسب اهتمامها[١٥]. ولهذا اعتبر كتابه بمثابة القول الفصل والخاتمة الحسنة في ميدان المعاجم الجغرافية، لما حواه من معلومات[١٦]، يمكن الاستفادة منها خصوصاً في دراسة أعمال ريف بغداد من حيث الموقع الجغرافي والانتماء الاداري للوحدات الادارية الكبيرة المكونة للريف، والآثار العمرانية، ومراكز الزراعة والتجمعات الصناعية الموجودة فيها، اضافة الى اشارات كثيرة عن العلماء الذين خرجوا منها أو عاشوا فيها. مثال ذلك ماورد في «بُرسف» فهي قرية تقع في كورة طريق خراسان، معدودة من سواد بغداد في الجانب الشرقي[١٧]. في حين كانت «الحُميلية» قرية من اعمال كورة نهر الملك من سواد بغداد[١٨] ومن نواحيها. ونهر الملك هذه قال فيها الحموي، كورة واسعة ذات قرى ودخل كثير تقع في الجانب الغربي لبغداد[١٩].

وفي «بعقوبا» قال الحموي أيضاً: قرية مشهورة كبيرة كالمدينة.. كثيرة الأنهار.. فيها عدة حمامات ومساجد»[٢٠].

وأما «باقدارى» - وهي من قرى بغداد، من نواحيها -، تقع بالقرب من أوانا المعدودة بكورة الدجيل، فقد كانت على حد قوله «تصنع فيها ثياب من القطن الغلاظ الصفاق وكان انتاجها من الجودة والجمال لدرجة يضرب أهل بغداد المثل بها»[٢١].

في حين قال في قرية «الحَظيرة» وهي بكورة الدجيل من أعمال ريف بغداد: «انها كانت مركزاً لنسج الثياب الكرباس الصفيق»[٢٢].

أما كتاب الحموي الآخر الموسوم بـ «المشترك وضعاً والمفترق صقعاً» فهو مُستقى من معجمه الكبير مع اضافات صغيرة غير موجودة فيه»[٢٣]. لكن أهميته في دراسة ريف بغداد تبرز في ايضاح العديد من أسماء الوحدات الادارية المكونة لريف بغداد مِن تتفق أسماءها وتتباين مراقعها. مثال ذلك ماورد في «النَّسْكرة»[٢٤] وهي ظاهرة طبيعية فطن اليها العلماء منذ القديم، وكانت موضع اهتمامهم، وقد أفردوا لها أبواباً خاصة في كتبهم، ومنهم من وضع كتابه لهذا الغرض حتى لايشكل امرها على الناس والمنسوبين اليها[٢٥].

وهناك مؤلفان آخران يأتيان من حيث الأهمية استكمالاً لعصر الحموي. أحدهما زكريا بن محمد القزويني (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) في كتابيه «آثار البلاد وأخبار العباد» و «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» وتبرز أهمية هذا المؤلف كونه تولى قضاء واسط والحلة في زمن المستعصم بالله واحتلت بغداد من قبل المغول المحتلين في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وهو في ذلك المنصب[٢٦]. فهو من المعاصرين للخلافة العباسية في عهدها الأخير. وقد انفرد ببعض الاشارات. مثال ذلك ماذكره عن قرية «الكَرْخ» - وهي احدى قرى بغداد - من أنها كانت مركزاً لصناعة الثياب الأبريسمية[٢٧].

إضافة الى ذلك فان أهمية كتب القزويني تكمن أيضاً في حفظ وتوثيق ماذكره الحموي في أخبار الوحدات الادارية المكونة

لريف بغداد . ومؤلفه « آثار البلاد وأخبار العباد » كمعجم ياقوت يُمثل الأوج في نمطه الخاص به الذي يتنحى به ناحية العجائب[٢٨] .

أما كتاب « مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع » ومؤلفه من القرن ٨ هـ / ١٤ م فهو يُعد مختصراً لمعجم ياقوت الحموي . لكن ماورد فيه من إضافات وتصويبات لها أهميتها في تدوين أحداث القرنين ٧ و ٨ هـ / ١٣ و ١٤ م وتوضيح الاحتلال الذي ورد عن بعض المواقع الجغرافية بريف بغداد . وقد توخىٰ صاحبه الدقة في ضبط أخبارها سواء في تحديد الموقع الجغرافي أو الانتماء الاداري أو غير ذلك .

ولتوضيح ذلك نذكر على سبيل المثال لا الحصر ماورد في بعض قرى بغداد ، وهي قرية « القادسية » حيث ذكرها الحموي « قرية كبيرة من نواحي دجيل بين حربىٰ وسامراء »[٢٩] . وقد نقل صاحب مراصد الاطلاع ذلك نصاً دون الاشارة الى الحموي ، لكنه أضاف عليه قائلاً : « قلت : هذه ليست من دجيل ، انما هي في الجانب الشرقي من دجله ، من قرى سامراء »[٣٠] ، محدداً الانتماء الإداري الصائب لهذه القرية .

أما كتاب « نزهة القلوب »[٣١] لحمد الله المستوفي (بلا سنة) الذي ألف سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م فله أهمية خاصة في دراسة ريف بغداد لبيان التغير الكبير الذي حصل في أعمالها الادارية خلال فترة الاحتلال المغولي للعراق . وجاءت إشاراته الدقيقة على أصناف المنتجات الزراعية لكل عمل منها[٣٢] ، في غاية الأهمية . من ذلك اشارته حول وجود صنف من الأعناب ببغداد كان يعرف باسم « العنب المُوَرّقي » وكان على حدّ قوله من الجودة بحيث لم يكن بأي مكان آخر مثله[٣٣] .

وبلاشك فان المعلومات الواردة في كتاب المستوفي هذا تُفيد في المقارنة مع الفترة السابقة لموضوع الدراسة للاستنتاج بما يُحتمل أن يكون واقعاً خلال الفترة موضوع الدراسة ، وبما يؤكد التواصل الزمني لها .

أما كتب الرحلات فلها أهميتها الكبيرة في هذا الباب ، في استكمال جوانب أساسية من دراسة ريف بغداد كونها تُمثل في غالبها ملاحظات شخصية للمؤلف ذاته وتُسلط الضوء على الحياة اليومية للمجتمع الريفي والمعالم الحضارية بشيء من التفصيل .

وتأتي في المقدمة منها من حيث البعد الزمني رحلة بنيامين التطيلي (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) حيث زار بغداد في العقد السادس من القرن ٦ هـ / ١٢ م وهي يومئذ على حدّ قوله : « لم تكن منفصلة عن نواحيها الخارجية ـ ويقصد بذلك امتدادها الريفي ـ وانما كانت الرياض والحقول وبساتين النخيل والأشجار تمتد حولها وبشكل لامثيل له في جميع العراق »[٣٤] . وتعد اشاراته حول مساحة بغداد خلال تلك الفترة ، وعدد اليهود الساكنين ببعض القرى اشارات فريدة[٣٥] .

على ان رحلة ابن جبير الأندلسي (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) لها أهمية بالغة جداً . لأن زيارته لبغداد كانت في حدود سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م وفي عهد الخليفة الناصر لدين الله . وكان المدخل اليها على حدّ قوله « على بساتين وبسائط يقصر الوصف عنها »[٣٦] . مما يدل على ان القرى كانت تمتد على مقربة من مركز بغداد . وقد ورد أن « المَالِكيّة » كانت قرية تقع على باب بغداد[٣٧] . وان خانقين كانت تُمثل آخر أعمال بغداد من جهة الشرق[٣٨] . ولذلك فان ملاحظات ابن جبير تعتبر وصفاً حياً لحياة ذلك العصر . وخاصة بغداد . بل وتُعد من أروع ماوصل الينا ، سيما وصفه للقرى الكائنة بين نهري دجلة والفرات في طريق الحلة ـ بغداد ، وقرى طريق بغداد ـ الموصل ، من خلال مروره بها ، ونزوله فيها ، ومشاهداته الشخصية لخططها العمرانية وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية .

ومن المناسب ان نقتبس هنا قوله في صفة طريق الحلة ببغداد ونصه : « والطريق من الحلة الى بغداد أحسن طريق وأجملها في بسائط من الأرض وعمائر تتصل بها القرى يميناً وشمالاً ويشق أغصان من ماء الفرات تتسرب بها وتسقيها ، فمحرثها لاحدّ لاتساعه وانفساحه فللعين في هذه الطريق مسرح انشراح ، وللنفس مزاد انبساط وانفساح »[٣٩] . واختصر كلامه هذا في موضع آخر فقال : « وقرى هذه الطريقة من الحلة الى بغداد من

الحسن والاتساع »(١٠) .

وفي معرض كلامه على قرية « زريران »(١١) وصفها قائلاً : « وهذه القرية من أحسن قرى الأرض ، وأجلها منظراً ، وأفسحها ساحة ، وأوسعها اختطاطاً ، وأكثرها بساتين ورياحين وحدائق نخيل . وكان بها سوق تقصر عنه أسواق المدن ، وحسبك من شرف موضوعها ان دجلة تسقي شرقيها والفرات يسقي غربيها ، وهي كالعروس بينهما ، والبسائط والقرى والمزارع متصلة بين هذين النهرين . . »(١٢) .

أما ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٤ م) في كتبه الثلاثة : « الجغرافيا » و « مختصره » و « بسط الأرض » فهي في أغلبها تكاد تكون كتاباً واحداً وجاءت معلوماته عن بغداد متشابهة ، وليس فيها مايُشير الى اختلاف بعضها عن البعض الآخر ، الا مانذر . ولكن أهميتها تأتي من خلال زيارته لبغداد قبيل احتلال المغول لها ، بما يُقارب الأربع سنوات . فجاءت معلوماته عن شهرة بغداد وحركتها العلمية وبضائعها الصناعية والزراعية ، المنتجة فيها والمستوردة مما ينفرد به . قال في معرض كلامه عن الأسعار ببغداد « وأرخص مافيها التمر الذي يُجلب من البصرة »(١٣) .

على ان ماتجدر الاشارة اليه في هذا المقام ان هذه المراجع الجغرافية وغيرها مما لم يُذكر هنا ، رغم أهميتها الكبيرة في رسم الصورة الواضحة لحقيقة التنظيمات الادارية لريف بغداد وتطورها خلال العصر العباسي ، فان أهميتها في دراسة الجانب الاقتصادي لحياة الريف ، وهو الجانب الأخر من موضوع الدراسة كانت كبيرة ومهمة جداً .

ريف بغداد في مؤلفات التراجم والسير :

أما كتب التراجم والسير التي تبحث في أخبار الرجال ، وأحياناً النساء ، وسيرهم فأهميتها في دراسة ريف بغداد تأتي من جانبين : أحدهما توثيق أخبار المواقع الجغرافية لأعمال ريف بغداد ، وانتمائها الاداري للوحدات الادارية الكبيرة المكونة لريف بغداد ، أو للريف مباشرة ، وآثارها العمرانية . وذلك من خلال الكلام على أخبار وسير العلماء والأدباء الذين عاشوا فيها أو خرجوا منها ، أو توفوا فيها ، أو نسبوا اليها . سيما تلك الأخبار والسير المعاصرة للفترة موضوع البحث والدراسة أو قريباً منها ، أو بعيداً عنها بقليل .

أما الجانب الأخر فهو الاشارات الغنية لدراسة الوظائف الادارية المتنوعة في ريف بغداد ، بحيث جاءت استكمالاً للمصادر الجغرافية . وكان جُلّ اعتمادي عليها . ومن بين أبرز تلك الكتب ، كتاب « الأنساب » لأبي سعد السمعاني (ت ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م) . وقد كانت ملاحظاته الشخصية عن الكثير من قرى بغداد التي زارها والتقى بعلمائها بمثابة يوميات شاهد عيان لنشاط سكانها في الحركة الاجتماعية والعلمية بشكل خاص . ومن ذلك ماورد في « الدَّسْكرة » وهي قرية كبيرة بنواحي بغداد من أعمالها ، تقع في طريق خراسان ، بينها وبين جلولاء ٦ فراسخ ـ ٣٦ كلم ـ نزلها السمعاني وبات بها ليلتين في توجهه وانصرافه أثناء رحلته للعراق . وكان قد كتب بها شيئاً يسيراً عن شيخها الصالح أبي الخطاب هبة الله بن محمد بن عبدالعزيز الدسكري المتوفى سنة ٥٣٥ هـ »(١٤) .

ثم كتاب « ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد » لمحمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) وهو من أنفس الكتب التي تناولت التاريخ الثقافي لبغداد في النصف الثاني من القرن ٦ هـ / ١٢ م ومطلع القرن(١٥) ٧ هـ / ١٣ م . وقد اختصر الذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) هذا الكتاب في كتاب سماه « المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي » وقد احتوى على معلومات مفيدة جداً في هذا المجال .

ولايفوتنا ان ننوه هنا بكتاب « معجم الأدباء » لياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) لكونه أحد الكتب التراجمية التي تم الاستعانة بها .

أما كتاب « التاريخ المجدد لمدينة السلام » لابن النجار (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) فهو ذيل لتاريخ ابن الدبيثي المشار اليه تواً ، وله أهمية خاصة في توضيح النشاط التجاري لبغداد(١٦) ، بوصفها المركز الرئيس ، ففيها الأسواق الكثيرة والمتخصصة ، وأعظمها جمعاً كان سوق الثلاثاء الذي يحتوي على سوق البزّ الأعظم . وقد انفرد ابن النجار بذكر عدد من

أصحاب الدكاكين في هذه السوق منهم أبو محمد عبدالواحد بن الحسين بن عبدالواحد البارزي البزاز المتوفى سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م(٤٧) .

ثم كتاب « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » لسبط بن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) وكتاب « التكملة لوفيات النقلة » لزكي الدين المنذري (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) وقد احتوى على معلومات مفيدة في حقل العمل الزراعي . ويُوازيه في الأهمية كتاب « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » لابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .

الا ان كتاب « عقود الجمان في شعر أهل الزمان » لأبي البركات ابن الشعار (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) له أهمية خاصة في دراسة ريف بغداد لأنه يتناول في تراجمه الشعراء . وهو ينفرد بذكر حقائق دامغة تتعلق بصُلب الوظائف الريفية ومهامها العملية . وهي وظيفة الناظر والمشرف . وهي وظائف في صميم العمل الزراعي والمالي في الريف . بل ان وظيفة الناظر على وجه الخصوص ، تقترب في واجباتها من واجبات ومسؤوليات الناظر التعاوني في وقتنا الحاضر . وكانت تضمن تفقد المناطق الريفية المناطة بمسؤوليته وتصفح أحوالها ، وحفر السواقي الرئيسة في الأراضي الزراعية والاهتمام باصلاح صدورها . والاهتمام أيضاً بتحسين البذور وتنويعها وحفظها ، وحراسة الغلات الزراعية ، والحفاظ عليها من القطع والرعي ، والتهيؤ لموسم الحصاد وقطف الثمار ، وغير ذلك من الأمور المهمة الأخرى(٤٨) .

أما وظيفة المشرف فتعني الاشراف على ضبط الحسابات والصادرات والواردات والموازنة بينها(٤٩) . ولم نجد الاشارة الى هذه الوظائف في غيره من المصادر التي اطلعنا عليها ، بحيث نستطيع القول أنه كان يُمثل القول الفصل في هذا الجانب .

ويُشكل كتاب « تلخيص مجمع الأداب في معجم الألقاب » لابن الفوطي (ت ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م) امتداداً مهماً للمراجع السابقة في إغناء الجانب الاداري والاقتصادي لريف بغداد . كونه من المؤرخين البارعين . وقد حفظ لنا في كتابه هذا فوائد كثيرة ينفرد بذكر كثير منها .

بيد ان كتاب « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة » المنسوب خطأ اليه كانت أهميته العلمية كبيرة كونه يجمع بين الحوادث التأريخية والتراجم والسير . وقد حفظ معلومات تناولت العهد الأخير للخلافة العباسية ، قلما ذكرتها المصادر الأخرى . سيما في دراسة الجانب الاقتصادي لريف بغداد سواء في نشاط التجارة ، أو الضرائب . أو حركة الأسواق والأسعار ، أو مشاريع الري ، أو غير ذلك(٥٠) .

وهناك مصادر تاريخية أخرى من هذا النمط ، تعتمد في منهجها نظام الحوليات وقد كانت فائدتها عميقة في إغناء دراسة ريف بغداد وتوضيح مفردات عديدة منه . منها كتاب « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) وخاصة الجزء العاشر منه لأنه يحوي معلومات تنتهي بأحداث سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م . ويوازيه في الأهمية كتاب « الكامل في التاريخ » لابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) لكنه يمثل امتداداً له من حيث البعد الزمني . اما الجزء التاسع من كتاب « الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير » لابن الساعي (ت ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م) فقد حوى أخبار إسنة من عمر الخلافة العباسية بين سنة ٥٩٥ - ٦٠٦ هـ / ١١٩٨ - ١٢٠٩ م وكانت معلوماتها هامة جداً . ويُماثله كتاب « مضمار الحقائق وسر الخلائق » لمحمد بن عمر الأيوبي (ت ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م) في قلة السنوات التي يدون أخبارها . الا ان اشاراته عن عهد الخليفة الناصر لدين الله وسياسته الضرائبية وطرق جبايتها . وعلاقة أرباب الأملاك بالفلاحين ، لها أهمية كبيرة ، وهو ينفرد بذكرها(٥١) . بل ان وصفه لكورة الدجيل ، وهي أحدى اعمال ريف بغداد الواقعة في الجانب الغربي لنهر دجلة ، وغناها لم يوازه أحد فيه . وبذلك فكلاهما يُترجمان لأحداث حقبة تاريخية تُعد من صميم الفترة موضوع البحث والدراسة .

أما الذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) في مؤلفاته « دول الاسلام » و « العبر في خبر من غبر » و « تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام » و « مختصره » فله أهمية واضحة . الا ان

المختصر بالذات له شأن كبير في دراسة ريف بغداد لأنه ينفرد فيه بذكر حقائق مثيرة ، على الأخص فيما يتعلق بأوقاف المدرسة المستنصرية ، من القرى والنواحي التابعة لريف بغداد ، وحجم مواردها المالية[٦٠] .

وإذا ما أراد الباحث ان يستكمل جوانب أخرى في دراسة تاريخ ريف بغداد ، ويتعرف على شؤون الزراعة فيه ، ومواسمها المختلفة ، وأنواع التربة والأسمدة التي يستخدمها الفلاحون في عملهم الزراعي هناك ، ومزايا تلك الأسمدة ، وأنواع المحاصيل التي يتنجونها ومايلائمها من تلك الخصائص ، إضافة الى رغبته في التعرف على أساليب الزراعة ومعالجات مايصيب المنتوجات الزراعية من الحشرات الضارة فعليه بكتاب « الفلاحة النبطية » لابن وحشية (ت ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م) وهو كتاب ألفه في سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م ويُعد مصدراً مهماً لايمكن الاستغناء عنه . وهو رغم قدمه واحتوائه على أمور خيالية كثيرة ، فانه يحتوي على معارف المتدمة الزراعية وتقاليدها لدى سكان العراق منذ المدة التي سبقت الفتح العربي الاسلامي وحتى عصره[٦١] .

وعين الشيء يُقال في كتب الفقه وفائدتها لمثل هذه الدراسة . اذ تبرز أهميتها في توضيح الأحكام الشرعية « الجانب النظري » لسياسة الدولة الاقتصادية وعلى الأخص المالية منها . ويُعد كتاب « الخراج » لأبي يوسف (ت ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م) من أوسع الكتب اهتماماً في هذا الجانب ، على الأخص فيما يتعلق بأحوال الفلاحين في الريف ومشاكل الأرض ، وأحكام السقي ، وجباية الضرائب .

ولكن يجب ان لايفوت القارىء أو الباحث المختص أن كتابه هذا يمثل العصر العباسي الأول مع مافيه من فصول واقعية ومعلومات تأريخية تُعد ذات شأن خطير . ولكن أهميته هنا تبرز في مدى ثبات تلك الأحكام واستقرارها أو في تغيرها جراء الظروف الجديدة للدولة العباسية في عصرها الأخير .

أما كتاب « الأحكام السلطانية والولايات الدينية » للماوردي (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) فيمكن الاستفادة منه في معرفة أنواع الأراضي وعلى الأخص في أنواع الاقطاع ، وفي الضرائب وأسلوب جبايتها ، إضافة الى الافادة منه في بعض الوظائف الادارية لريف بغداد .

وفي كتاب « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » لمحمد بن بسام المحتسب ومثله لعبدالرحمن الشيزري نجد أهميتها كبيرة في دراسة وظيفة المحتسب ببغداد وأحكام عمله وشؤونه وصلتها بالريف على وجه الخصوص .

الخلاصـــة :

في ضوء ماتقدم نخلص الى القول ان المصادر الجغرافية ، والمؤلفات التي تُعنى بالتراجم والسير تُشكل - الى جانب المصادر التاريخية والأدبية - بما تحتويه من معلومات ، مادة أساسية لايمكن الاستغناء عنها ، ليس في دراسة تأريخ ريف بغداد ، حسب ، وانما في دراسة تأريخ ريف مدن العراق الأخرى ، ومدن وعواصم الأقاليم الاسلامية أيضاً . وعلى الرغم من الصعوبة التي يواجهها الباحث في انتقاء المعلومات الواردة فيها . لكنها في النهاية تعطي صورة شاملة وغالباً ماتكون متكاملة عن واقع الريف وأحواله الادارية وقدراته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية عموماً .

على ان هذه المصادر التي اكتفينا بذكرها في الدراسة هنا ! في هذه العجالة ، على الرغم من أهميتها الكبيرة في دراسة ريف بغداد في العصر الأخير من عهد الدولة العباسية ، فان استغفال ذكر المصادر الأخرى ، القديمة منها والحديثة ، الخطية والمطبوعة ، لايعني عدم أهميتها ، بل نتفق مع الباحث المختص في أهميتها البالغة . ورُبّ إشارة واحدة اقتبست منها أعطت حقيقة دامغة وضعت حدّاً فاصلاً لمجريات التاريخ وأحواله الاقتصادية .

نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر ماورد عن المحاصيل الزراعية بريف بغداد وعلى الأخص فواكه « النارنج والأترج » . ففي اشارة واحدة في كتاب « النبات »[٦٢] لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) ذكر فيها ان زراعة هذه الفواكه كانت معروفة في الريف العربي وهي كثيرة عندهم . وقد جاءت هذه الاشارة ردّاً حاسماً على ادعاء المسعودي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) في كتابه « مروج الذهب ومعادن

الجوهر »[٣٥] كونها لم تكن معروفة . وقد دخلت زراعتها من الهند الى البلاد العربية عن طريق عُمان والبصرة . ويأتي ترجيح الأستاذ طه باقر في مقالته الموسومة بـ « دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية »[٣٦] من ان زراعة هذه الفواكه ، كانت معروفة بالعراق منذ العهد البابلي ، مناسباً لدعم ماذهبنا إليه في أهمية المصادر الأخرى في موضوع الدراسة .

الهوامش

١ - الدراسة نشرت بكتاب من قبل وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٨.

٢ - انظر للمؤلفة : المفهوم اللغوي والاصطلاحي للريف والسواد عند العرب ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، م ٣٤ جـ٢ / ١٩٨٣ ص٢١٧ - ٢١٨ .

٣ - ابن منظور : لسان العرب جـ٣/٢٢٥ والرساتيق : مفردها رستاق وقيل رزداق : معرب ، معناه القرى والمزارع .

٤ - ابن منظور : لسان العرب ، جـ٣ / ٢٢٥ .

٥ - انظر للمؤلفة : المفهوم اللغوي والاصطلاحي للريف والسواد عند العرب ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، م ٣٤ جـ٢ / ٢٣١ .

٦ - اعتمدنا في هذه الدراسة اختيار نفس الفترة التاريخية موضوع رسالة الدكتوراه آنفة الذكر .

٧ - Lassner, J. Notes on the Topography of Baghdad : Systematic Descriptions of the City and the Khatib Al Baghdadi, JAOS, 83.no.4. (1963) p.459.

٨ - خصباك : في الجغرافية العربية ، ص ٣٦٦ .

٩ - المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٤٧ .

١٠ - أصبح العراق في أواخر القرن ٤ هـ / ١٠ م يتكون من ٦ كور وهي الكوفة والبصرة وواسط وبغداد وسامراء وحلوان . وناحية واحدة هي (البطائح) بينما كان قبل ذلك يشتمل على ١٢ كورة و ٦٠ طسوجاً . ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٥ - ٨ ، المقدسي : احسن التقاسيم ، ص٥٣ ، ١١٤ - ١١٥ .

١١ - المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص٤٧ .

١٢ - كراتشكوفسكي : تأريخ الأدب الجغرافي العربي ، ق ١ / ٢٠٨ ، خصباك : في الجغرافية العربية ، ص ٣٧٦ . وقد تناول السيد هدي مخلص المقدسي بالبحث والدراسة في أطروحته الموسومة بـ « المقدسي البشاري : حياته ومنهجه » وقد طبعت الأطروحة لأول مرة في كتاب في مطبعة النجف الأشرف سنة ١٩٧٣ .

١٣ - انظر للمؤلفة : ريف بغداد الفصل الثاني : الأعمال الادارية التي اشتمل عليها ريف بغداد وتوزيعها الجغرافي ،ص ٦٥ - ١٥١ .

١٤ - اشتملت أعمال ريف بغداد خلال الفترة المذكورة على ثمانية كور ، خمس منها في الجانب الشرقي لنهر دجلة هي « بين النهرين » ، وراذان ، والخالص ، وطريق خراسان ، والنهروان » وثلاثة في الجانب الغربي لنهر دجلة هي « كورة الدجيل ، ونهر عيسى ، ونهر الملك » . وكان يرتبط بهذه الكور عدد من النواحي والبلدات والبليدات اضافة الى عدد كبير من القرى بلغ تعدادها (٢٢٨) قرية . انظر : للمؤلفة : ريف بغداد الفصل الثاني : الأعمال التي اشتمل عليها ريف بغداد وتوزيعها الجغرافي ، ص ٦٥ - ١٥١ .

١٥ - ناجية مراني : معجم البلدان لياقوت الحموي ، تحليل وتقييم ، مجلة المورد ، وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٨ ، م ٧ ع ٣ / ١١١ - ١١٣ .

١٦ - كراتشكوفسكي : تأريخ الأدب الجغرافي العربي ، ق ١ / ٣٥١ .

١٧ - معجم البلدان ، م ١ / ٥٦٦ . ١٨ - ن . م ، م٢ / ٣٤٢ .

١٩ - ن . م ، م ٤ / ٨٤٩ . ٢٠ - ن . م ، م١ / ٦٧١ .

٢١ - الحموي : معجم البلدان ، م١ / ٤٧٥ .

٢٢ - ن . م : م٢ / ٢٩٢ .

٢٣ - كراتشكوفسكي : تأريخ الأدب الجغرافي العربي ، ق ١ / ٣٥١ .

٢٤ - سُميت بهذا الاسم قرى عديدة منها : قرية كبيرة ذات منبر وسوق تقع بنواحي نهر الملك في غربي بغداد . والأخرى تقع في كورة طريق خراسان قريبة من شهرابان معدودة من نواحي بغداد أيضاً ، وتسمى بعسكرة الملك . والثالثة تقع مقابل جبّل - القرية القريبة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي - والعسكرة أيضاً قرية بخوزستان « عربستان الحالية » . انظر : الحموي ، معجم البلدان ، م٢ / ٥٧٥ والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، ص ١٨٠ ، مراصد الاطلاع ، جـ ١ / ٤٠٢ .

٢٥ - المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٤ .

٢٦ - آثار البلاد : ص ٣ ، خصباك : في الجغرافية العربية ، ص ٣٨٩ - ٣٩٠ .

٢٧ - آثار البلاد : ص ٤٤٤ .

٢٨ - كراتشكوفسكي : تأريخ الأدب الجغرافي العربي ، ق ١ / ٣٥١ ، خصباك : في الجغرافية العربية ، ص ٣٩٠ .

٢٩ - الحموي : معجم البلدان ، م٤ / ٩ .
٣٠ - مراصد الاطلاع ، جـ ٢ / ٣٧٦ .
٣١ - افادني الدكتور حسين محفوظ مشكوراً بان الكتاب عبارة عن موسوعة وقد خصّ جزء منه بجغرافية العراق وخصوصاً بغداد .
٣٢ - حمد الله المستوفي : نزهة القلوب ، ص ٣٥ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٩ - ٥٠ ولمزيد من التفاصيل انظر للمؤلفة : ريف بغداد الباب الثاني ، الأحوال الاقتصادية لريف بغداد ، الفصل الثاني ، المحاصيل الزراعية وتوزيعها الجغرافي ص ٢٥٩ - ٢٧١ .
٣٣ - حمد الله المستوفي : نزهة القلوب ، ص ٣٥ .
٣٤ - رحلة بنيامين : ص ١٣٩ .
٣٥ - يرى مترجماً كتاب (بغداد) لريجاردكوك ان معلومات كتاب رحلة بنيامين لم تكن معلومات سياحة وتدقيق نتيجة زيارته لبغداد أو العراق . وانما كانت معلومات مجموعة ومسموعة . انظر كوك : بغداد ، ترجمة فؤاد جميل ود . مصطفى جواد ، جـ ١ / هامش ص ١٧٢ - ١٧٣ .
٣٦ - رحلة ابن جبير ، ص ٢١٧ .
٣٧ - معجم البلدان ، م ٤ / ٣٩٧ .
٣٨ - ن . م م٢ / ٢٩٣ وللمؤلفة : ريف بغداد ص ٣٢ ، ١٠٦ .
٣٩ - الرحلة : ص ٢١٣ - ٢١٤ . ٤٠ - الرحلة ، ص ٢١٥ .
٤١ - قرية من أعمال نهر الملك من سواد بغداد في الجانب الغربي منها . موقعها تحت المدائن يسير بينها وبين بغداد ٧ فراسخ - ٤٢ كلم - وقيل مسيرة يومين . على جادة الحاج إذا أرادوا الكوفة من بغداد . انظر : للمؤلفة : ريف بغداد ، ص ١٣٨ .
٤٢ - الرحلة ، ص ٢١٥ - ٢١٦ . ٤٣ - مختصر كتاب الجغرافية ، ق(٧٤ ب) .
٤٤ - الأنساب : جـ ٥ / ٣٤٨ - ٣٤٩ .
٤٥ - د . بشار عواد : ابن الدبيثي : دراسة تحليلية في مصادر سيرته وموجز في تاريخ حياته ، المجلة التأريخية ، بغداد ، ١٩٧٤ ، ع٣ / ١١ ، ١٣ - ١٤ ولمزيد من التفاصيل حول سيرة ابن الدبيثي ومنهجه في كتابه انظر : د . مصطفى جواد : تأريخ ابن الدبيثي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، جـ ١ ، ١٩٥٠ ، ص ٣٣٠ - ٣٣٦ .
٤٦ - انظر للمؤلفة : ريف بغداد الفصل ٤ التجارة والتجار والتبادل التجاري ص ٣١١ - ٣٢٢ .
٤٧ - التاريخ المجدد لمدينة السلام ، ق ١ ، ق ٤٠ ب .
٤٨ - لمزيد من التفاصيل انظر : ابن الشعار : عقود الجمان (خ) جـ٤ / ق بلا ، وللمؤلفة : ريف بغداد ، الباب الأول ، الفصل الثالث : الوظائف الادارية في ريف بغداد ، النظار ص ١٦٣ - ١٧٤ .
٤٩ - المؤلفة : ن . م : المشرفون ، ص ١٧٥ - ١٧٨ .
٥٠ - انظر للمؤلفة : ريف بغداد ، الباب الثاني : الأحوال الاقتصادية لريف بغداد ، ص ٣١٧ - ٣٢٧ و ٣٤١ و ٢٨٠ - ٢٩٣ .
٥١ - مضمار الحقائق : ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .
٥٢ - الذهبي : مختصر تاريخ الاسلام (خ) ، ق ٢ / ق (١٨٤م) .
٥٣ - يعقوب (المترجم) : التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط ، ص ١٤ .
٥٤ - الدينوري : النبات ، جـ٣ / ٢١٧ - ٢١٨ .
٥٥ - المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ١ / ٣٧٨ .
٥٦ - طه باقر : دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية ، مجلة سومر ، بغداد ، ١٩٥٢ ، م ٨ جـ١ / ٢٦ - ٢٧ ولمزيد من التفاصيل انظر للمؤلفة : ريف بغداد ، هامش ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

قائمة المصادر

ابن الاثير : عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالكريم الجزري (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) .
الكامل في التاريخ ، م١١ ، ١٢ ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٦ .
ابن بسام : محمد بن أحمد بن بسام المحتسب (بلا سنة) .
نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، حققه وعلق عليه حسام الدين السامرائي ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٦٨ .
ابن جبير : أبو الحسن محمد بن احمد الكناني الأندلسي (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) .
رحلة ابن جبير ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٤ .
ابن الجوزي : ابو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) .
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، المجلد العاشر ، ط ١ ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٩٣٩ .
ابن خرداذبة : ابو القاسم عبيدالله بن عبدالله (ت ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م) .
المسالك والممالك ، ليدن ، بريل ، ١٨٨٩ .
ابن خلكان : شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ٦ أجزاء ، ط ١ ، مطبعة السعادة ، مصر ١٩٤٨ - ١٩٤٩ .
ابن الدبيثي : أبو عبدالله محمد بن سعيد الواسطي (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) .

ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد ، نسخة مصورة بالفوتستات عن مخطوطة دار الكتب الوطنية بباريس ، مخطوطة بمكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب ، جامعة بغداد ، جـ٢ برقم ١٢٤٠ ومجلد ٢ ق ١ برقم ١٢٣٨ ومجلد ٢ ق ٢ برقم ١٢٤١ .

ابن الساعي : أبو طالب علي بن أنجب (ت ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م) .

الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ، الجزء ٩ ، عني بنسخه ونشره واصلاح تصحيفه وتعليق حواشيه وعمل فهارسه د . مصطفى جواد ، بغداد ، المطبعة السريانية الكاثوليكية ، ١٩٣٤ .

ابن سعيد : أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٤ م) .

- الجغرافيا . تحقيق اسماعيل العربي ، ط ١ بيروت ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٧٠ .

- بسط الأرض في الطول والعرض ، تحقيق د . خوان قرنيط خينيس ، المغرب ، تطوان ، مطبعة كريمادس ، ١٩٥٨ .

- مختصر من كتاب الجغرافيا في الأقاليم السبعة ، ميكروفيلم مصور عن مخطوطة باريس المرقمة (٢٢٣٤) محفوظ بالمكتبة المركزية لجامعة بغداد تحت رقم (٢٢١) .

ابن الشعار : أبو البركات المبارك بن أبي بكر حمدان (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) .

عقود الجمان في شعر أهل الزمان ، نسخة مصورة عن مكتبة أسعد أفندي باستنبول ، محفوظة لدى الدكتور بشار عواد معروف وهي تقع في (٦) مجلدات (٣) منها ميكروفيلم والأخرى مصورة بالفوتستات .

ابن الفوطي : كمال الدين أبو الفضل عبدالرزاق بن أحمد (ت ٧٢٣ هـ / ١٣٢٢ م) .

- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ، الجزء الرابع في ٤ أقسام تحقيق د . مصطفى جواد ، ق (١ - ٢) المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٩٦٢ - ١٩٦٣ وق (٣ - ٤) مطابع وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٧ .

- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تصحيح وتعليق د . مصطفى جواد ، مطبعة الفرات ، بغداد ، ١٩٣٢ .

ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن كرم (ت ٧٤١ هـ / ١٣١١م) .

لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٥٥ - ١٩٥٦ .

ابن النجار : ابو عبدالله محمد بن محمود بن الحسن (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) .

ذيل التاريخ لمدينة السلام وأخبار فضلائها الاعلام ومن وردها من علماء الأنام . وهو المعروف بالتاريخ المجدد لمدينة السلام . نسخة مصورة بالفوتستات محفوظة بالمجمع العلمي العراقي تحت رقم ٦٣٣ - ٦٣٤ - ٦٣٥ - ٦٣٦ .

ابن وحشية : أبو بكر احمد بن علي بن قيس (ت ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م) .

الفلاحة النبطية ، نسخة مصورة من مكتبة بودليان باكسفورد محفوظة بمكتبة المجمع العلمي العراقي ، رقم ٦٧٢ - ٦٧٥ .

أبو يوسف : يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الأنصاري (ت ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م) .

الخراج ، ط ٣ ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٦٢ .

الأدريسي : أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م) .

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشر جمعية الاستشراق الايطالية ، ليدن ، بريل ١٩٧١ .

- تحقيق الجزيرة والعراق من روض الفرج وأنس المهج ، نشره د . ابراهيم شوكت ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، م ٢٣ ، بغداد ١٩٧٣ .

الأيوبي : محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م) .

مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق د . حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٨ .

بنيامين : بنيامين بن يونة التطيلي الأندلسي (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) .

رحلة بنيامين ، ترجمة وتعليق : عزرا حداد ، ط ١ ، المطبعة الشرقية ١٩٤٥ .

الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الرومي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٣٨ م) .

- معجم البلدان ، ٦ مجلدات ، ط طهران ١٩٦٥ .

- معجم الأدباء ، ٢٠ جزء في ١٠ مجلدات ، ط القاهرة ، دار المأمون ، ١٩٣٦ .

- المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، ط كوتنكن ، ١٨٤٦ م .

خصباك : شاكر حسين .

في الجغرافية العربية ، بغداد ، مطبعة دار السلام ، ١٩٧٥ .

الدينوري : أبو حنيفة احمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) .

النبات الجزء ٣ حققه وشرحه وقدم له : برنهارد لفين ، لبنان ، بيروت ، دار القلم ١٩٧٤ .

الذهبي : شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) .

- دول الاسلام ، جزءان ، ط ٢ ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، ١٩٤٥ .

- العبر في خبر من غبر (٥) أجزاء ، جـ ١ ، ٤ ، ٥ تحقيق د .

صلاح الدين المنجد ، جـ ٢ ـ ٣ تحقيق فؤاد سيد ، الكويت مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦ .
ـ تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام ، المطبوع منه المجلد ١٨ ق ١ تحقيق وتعليق د . بشار عواد ، ط ١ القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٧٧ .
ـ مختصر تأريخ الاسلام ، ٤ أجزاء ، نسخة مصورة بالفوتستات عن مخطوطة معهد احياء المخطوطات العربية ، محفوظة بمكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب ، جامعة بغداد ، رقم (١٦٥٩ ـ ١٦٦١) .

سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) .
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، الجزء ٨ في قسمين ، ط ١ ، الهند ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ .
السمعاني : أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن المنصور التيمي (ت ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م) .
الأنساب ، المطبوع منه ٨ أجزاء ، جـ ١ ـ ٦ تصحيح وتعليق عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، الهند ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ١٩٦١ ـ ١٩٦٦ وجـ ٧ ـ ٨ باشراف : شرف الدين أحمد مدير دائرة المعارف العثمانية ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ .
الشيزري : عبدالرحمن بن نصر بن عبدالله بن محمد (بلا سنة) .
نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، نشره الباز العريني ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٦ .
طه باقر : دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية ، مجلة سومر ، بغداد ، مديرية الآثار القديمة العامة ، م ٨ جـ ١ ، ١٩٥٢ ص ٣ ـ ٣٦ .
د . عواد : بشار عواد معروف .
ابن الدبيثي : دراسة تحليلية في مصادر سيرته وموجز في تاريخ حياته ، المجلة التاريخية ، الجمعية العراقية للتاريخ والآثار ، بغداد ، ع ٣ ١٩٧٤ ، ص ١١ ـ ٢٥ .
قدامة ابن جعفر : أبو الفرج قدامه بن جعفر الكاتب (ت ٣٣٧ هـ / ٩٤٨م) .
نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، مطبوع مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ، ليدن ، بريل ١٨٨٩ .
القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) .
ـ آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٠ .
ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، نشره : فرديناند وستنفيلد ، ١٨٤٨ .
كراتشكوفسكي : اغناطيوس يوليانوفتش .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، قسمان ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥ .
كوك : ريجارد .
بغداد مدينة السلام ، جزءان ، جـ ١ ترجمة وتعليق فؤاد جميل ود . مصطفى جواد ، ط ١ بغداد ، مطبعة شفيق ، ١٩٦٢ .
مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ، (٦) أجزاء ، تحقيق ت . ك . جوينبول ، ليدن ، بريل ١٨٥٢ ـ ١٨٦٤ .
المستوفي : حمد الله بن أبي بكر بن محمد القزويني (بلا سنة) .
نزهة القلوب تحقيق محمد بير سياقي ، طهران ، مطبعة حيدري ١٩٥٨ .
المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) .
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزءان في مجلد واحد ، ط ٣ ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، مصر ، مطبعة السعادة ، ١٩٥٨ .
د . مصطفى جواد : تاريخ ابن الدبيثي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، الجزء الأول ، ١٩٥٠ ص ٣٣٠ ـ ٣٣٦ .
المقدسي : شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م) .
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط ٢ ليدن ، بريل ١٩٠٩ .
المنذري : زكي الدين أبو محمد عبدالعظيم بن عبدالقوي (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) .
التكملة لوفيات النقلة ، حققه وعلق عليه بشار عواد معروف ، م ١ ـ ٤ مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ١٩٦٨ ـ ١٩٧١ ، م ٥ ـ ٦ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ط ١ ، مصر ١٩٧٦ .
د . ناجيه عبدالله : ريف بغداد ، دراسة تأريخية لتنظيماته الادارية وأحواله الاقتصادية للفترة مابين ٥٧٥ ـ ٦٥٦ هـ منشورات دار الشؤون الثقافية ، وزارة الاعلام والثقافة ، ١٩٨٨ .
ـ المفهوم اللغوي والاصطلاحي للريف والسواد عند العرب ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٨٣ ، م ٣٤ ، جـ ٢ .
ناجيه مراني : معجم البلدان لياقوت الحموي ، تحليل وتقييم ، مجلة المورد ، بغداد ، مجلد ٧ ع ٣ ، ١٩٧٨ ص ١٠٩ ـ ١١٥ .
يعقوب ، عادل ابراهيم .
التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط ، الموسوعة الصغيرة ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٨٠ .
Le Saner, J: Notes on the Topography of Baghdad : Systematic Descriptions of the City an and the Knatib al Baghdadi, JAOS, 83 no.4, 1963, P.459.

موادالبيان
لعلي بن خلف الكاتب
المتوفى بعد سنة ٤٣٧ هـ
القسم الخامس

تحقيق

د . حاتم صالح الضامن

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

الباب الرابع
في صناعة البديع وأبوابها

إنّما سُمّيَ البديعُ بديعاً لأنّ الكلمة تأتي في الكناية والاستعارة والتشبيه والإرداف والإشارة لشيء لم يوضع له في أصل اللغة، فكأنّها ابتدعتْ لذلك الموضع، لا لأنّ المُحْدثين، كما ظنّ قومٌ، ابتدعوه وفازوا بالسبق اليه واخترعوه.

ويدلُّ على ما ذهبنا إليه (١٩١) أنّ جميع أقسامه موجودة في كتابِ الله تعالى وكلامِ رسولِهِ صلى اللهعليه وسلّم، وكلامِ الأولين من البلغاء والخطباء والشعراء.

وإنّما صار أخصّ بالمُحْدثين لتنبيهِهم عليه وعنايتهم به واستكثارهم منه واستنباطهم للنعوت التي نعتوا بها أقسامَهُ واضرابِ مَنْ تقدّم عن رَوْجِهِ بكَدِّ القرائح والتماسِهِ بعَسْفِ الخواطر، لأنّهم إنّما كانوا يقصدون من الكلام ما انقادَ طبعاً لا تطبُّعاً، وأتى غريزةً لا تصنعا، ولذلك كان يأتي ما وقع في كلامهم من انواعه مرتبطاً بالمعاني أحلى ارتباط، ملائماً لها أتمّ ملاءمة، حالاً من الكلام محلّ الترصيع من الحليّ.

وسنأتي في أبوابه من التمثيل بآيات التنزيل ومنثور ومنظوم البلغاء من القدماء ما يشهد لما قلناه بالصحة.

وينبغي لمن أحبّ تزيين كلامه بالبديع أنْ يذهب في استعماله مذهب مَنْ لا يتكلّفه ولا يتعسّف في طلبه، فإنّ القريحة إذا جاءت به عفواً كسب المعنى جوهراً ناصعاً وكسا اللفظ نوراً لامعاً، وأفاده من حُسن التقابُل والتقسيم ما يفيده الترصيع للشيء المرصّع، وإذا قصد باستكراه القريحة وكدِّها قاد الى ايقاع الألفاظ في غير مواقعها، وإحالة المعاني عن وجوهها، وعكسَ الواجبَ في الابتداء بتحصيل ما يشتمل على الصنعة من الألفاظ قبل تحصيل المعاني التي الألفاظ خادمة لها وانتشار المعاني على أن تظهر من المباني فيما ينافرها.

وقد كان لي في زمان الحداثة صديق من أهل الأدب، رحمه الله، مغرماً باستعمال (١٩٢) هذه الصنعة في كلامه، مفرطاً في تكلّفها، وكان لذلك يضطر الى ما ذكرناه من إحالة الألفاظ والمعاني وترتيبها في غير رتبتها وتحمُّل الاستكراه والوخامة فيها، وكان مع شغفه بهذه الصنعة لهجاً باستعارة آيات القرآن وحشو كلامه بها، وكان أيضاً يُحرِّفها ويُغيِّر كثيراً من تأليفها ويعدل بها عن واضعها. فلمّا نشأتُ وقرأتُ كلامَ الناس ودلّني الذوقُ والتأمُّلُ والطبعُ على الفرقان بين الكلام السليم والسقيم وضحَ لي خطؤه في ارتكابه ما ركب وزلله في ذهابه الى ما ذهب، عاتبتُهُ وأعلمتُهُ أنّ ما يتكلّفه من هذه الصنعة مُفسدٌ لأصحابه مُحيل لمعانيه قائدٌ له الى تحريف كلام الله تعالى عن مواضعه سائقٌ إليه هُزءَ مَنْ نظر في تأليفه ومَجاجته فلم ينجع عذلي فيه ومرَّ في طلقه تابعاً لعشقه. وله خطبٌ ورسائلُ كثيرة لا تمرّ بأحد إلّا ضحك منها وهزأ بها، وقد أتيتُ بفصول ممّا كاتبني به دليلاً على ما حكيناه، فمن ذلك صَدْرُ رسالةٍ: (كلّ وقت يظهر من بلاغة الحَضْرَةِ الأجلية أعلى الله شرفَ حظِّها وبخنها الى حيث تكون كواكبُ السماء من تحتها، من تثقيفها الكِلَم ونحتها ما يُعْجِزُ المتقدّمين لزمنها فكيف بالمتأخرين لوقتها؟ وتبعث ما تبعث من الحكم واثقة منهم بشِدَّةِ مَقْتِها وآمنة من شنانها ومقتِها، «وما نريهم من آيةٍ إلّا هي أكبرُ من أختها»[1] فهم يجدون في تحف رسائلها ما وجده موسى الكليم في عصاه من مآرب ومسارب (١٩٣) ومقامع ومنافع لمَنْ عصاه، بل كلّهم راكبُ خُطة غرر وسالك حفلة خطر، إن لزموا الاقتصار وتجنّبوا الإكثار، للإعظام لها والإكبار، لم يأمنوا ناقدَ تأمّلها أنْ يقف علمهم بين يدي تأمّلها موقف اعتذار، فيرجعوا بالخجل وهم يتلون: «ولو ترى إذْ وُقِفُوا على النار»[2].

وفي هذه الرسالة: (وإنِ اعتمدوا بعض ما يعتمدُهُ في المكاتبات من شريف الكلام وبديع النثر والنظام، حرّكوا من غرائب ألفاظها ساكناً، وأثاروا من رغائب معانيها كامناً، ومَرَوا من ضروع فصاحتها ما لا ينفد لبانُهُ، وخاشنوا من أصلاد مُلَحِها ما لا يساعدهم ليانُهُ، وجهزّت إليهم من كُماةِ ألفاظها وآدابها، كتائب ومقانب جيوش لا قِبَلَ لهم بها، فيموتون موتَ عِيٍّ، ومَن سلِمَ منهم من الأثخان وشدِّ الوثاق، تلتْ فضائلها على مَنْ طمع منهم لها باللحاق، ما عندهم ينفدُ وما عند فلان باقٍ).

وصدرُ رسالة اخرى: (أطالَ الله بقاء حضرة مولاي ما ظهر بحنين عكن غضون، واكتسى من الورق ثياباً خضراً جسد غصون، ممتعاً ممتعاً من الضرّ والآلام).

ومنها: (فهذا الذي إذا سمع السامعون ذكره، عظّموا شانَهُ وأكثروا شكرَهُ، الذي يؤلم عدوَّه ويطيل نكره[3]).

ومنها: (ورفع بدرَه الى سماء كلّ سموّ وكفّ عنه كفَّ عدوّ كلّ عدوّ).

وجميع كلام الرجل كما ترى من ظهور الكلفة واستحالة اللفظ والمعنى، ووضع الآيات المستعارة (١٩٤) في غير مواضعها، وهذا لا يحتاج الى التنبيه عليه والأشارة إليه.

وقد اختلفت مذاهب العلماء في بعض البديع ونعوت بعضه واتفقوا على الأكثر. ووُجِدَ عند قوم ما ليس عند الآخرين.

فأمّا أبو الفرج قدامة فإنّه قسم البديع الى ثلاثة أقسام بحسب انقسام البلاغة في الأصل: فقسمٌ يخصُّ الألفاظَ وقسمٌ يخص المعاني، وقسمٌ يخصّ ما تركّب منها، ولم يسمّه بديعاً وإنّما قال: نعوت الألفاظ، نعوت المعاني، نعوت المركّب منها.

وأمّا غيرُه فلم يراعِ ذلك ولا ميّزه، وأتى بالأبواب مختلطةً.

ولا بُدَّ أن نلوحَ في كلّ باب من الأبواب بما عرفناه من وفاق العلماء واختلافهم ونلغي القولَ على ما ورد من هذه الأبواب في أقسام البلاغة الفرعية كالاستعارة والتشبيه والسجع والتطبيق والمجانسة والمزاوجة وغير ذلك ممّا تقدّمَ القول عليه إذ لا حاجة الى تكريره.

والذي وقع الينا من البديع بعدما انتظمته الأبواب السالفة اثنان وأربعون باباً، وهي: أحسنُ ما ابتدأ به الكاتب والخطيب والشاعر. الخروج الحسن. الترصيع. المقابلة. التقسيم. التبيين. الالتفات. الاعتراض. التفسير. التتميم. التكميل. المبالغة. التكافؤ. الإشارة. الإرداف. التمثيل. الكناية. التعريض. التسهيم. التوشيح. الإعتاب. (١٩٥) الايغال. التركيب. الإلمام. الاستفهام. التفريع. التبديل. التصريع. الاستدراك. الحشو المقيَّد. الرجع. التوشيع. الترديد. التصدير. التسميط. التضمين. توكيد المدح بما يشبه الذم. الاستطراد. المماثلة. هزل يُراد به الجد. الاستثناء. التفويف.

ونحن نورد هذه الأبواب على تواليها، وأقوالَ العلماء فيها، إنْ شاء الله تعالى:

ذكر أحسن ما ابتدأ به الكاتب والخطيب والشاعر (*)

الكلام المؤلف وينقسم، كما قلنا فيما سلف، الى ثلاثة أقسام، وهي: الرسائل والخطب والاشعار.

وكلّ قسم منها يحتاج الى تقديم مقدّمة تكون فرشاً وبساطاً لما يتلوها.

وقد شرحنا ما جرت العادة بأنْ يُفتتحَ به كلّ فنّ من هذه الفنون، وأوضحنا الطريق الى ترتيب هذه المقدّمات عند القول على كيفية المركّب من الألفاظ والمعاني وعند القول على ترتيب الكلام.

والتعيين على ما يكون مثالاً لهذه المقدّمات من الكلام المنثور على كثرة أنواعه واختلاف بداياته لاختلاف معانيه غير ممكن، وإنّما يرجعُ في ذلك الى معرفة الكاتب واستقلاله بوضع كلّ شيء (١٩٦) في موضعه.

فأمّا المنظومُ فلأنّ أكثر بداياته في التغزل والنسيب، يمكنُ التمثيل فيه.

ومن أحسن ما ابتُدِيء به قول امرىء القيس[٤]:

قِفانبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ببِقْطِ اللِّوى بين الدَّخول فحَوْمَلِ

فإنّ هذا البيت قد تضمّن مُلحاً من وقوفه واستيقافه وبُكائه واستبكائه وذكر الأحبة والمنازل.

وقال الحاتميّ[٥]: الابتداءات البارعة خمسة:

قول النابغة[٦]:

كِليني لِهَمّ يا أُمَيْمَةُ ناصِبِ وليلٍ أُقاسيهِ بطيءِ الكواكِبِ
وصدرٍ أراحَ الليلُ عازِبَ همِّهِ تضاعفَ فيه الحزْنُ من كلِّ جانبِ

وقوله[٧]:

يا دارَ ميّةَ بالعلياءِ فالسَّنَدِ أقْوَتْ وطالَ عليها سالِفُ الأمَدِ

وقول علقمة بن عبدة[٨]:

طَحَا بكَ قلبٌ في الحِسانِ طَروبُ بُعَيْدَ الشبابِ عصرَ حانَ مشيبُ

وقوله[٩]:

هل ما عَلِمْتَ وما استودعتَ مكتومُ
أمْ حبلُها إذْ نأتكَ اليومَ مصرومُ

وقول امرىء القيس[١٠]:

الا انعمْ أيُّها الطللُ البالي وهلْ يَنْعِمَنْ مَنْ كانَ في العُصُرِ الخالي

ومن الابتداءات في أشعار المُحدثين قولُ أبي تمام[١١]: (١٩٧)

أَجَلْ أيُّها الرَّبْعُ الذي خفّ أهلُهُ لقدْ بَلَغَتْ فيك النوى ما تُحاوِلُه

وقوله[١٢]:

يا رَبْعُ لو رَبَعُوا على ابنِ هُمُومِ مُسْتَسْلِمٍ لجَوَى الفراقِ سَقِيمِ

وقوله[١٣]:

يا بُعْدَ غايةِ دَمْعِ العينِ [إنْ بَعُدوا]
هي المُصابةُ طولَ الذِّكرِ والسَّهَدُ

وينبغي للشاعر والمترسل أنْ يتجنّبا افتتاحَ الكلام بما يتطيرُ منه ويثقلُ على سامعه، ويتحفّظا مما يستخفي، كنَعْي الشباب وتفرُّق الأحباب وذمّ الزمان وما جارى ذلك، إذا كانَ مُفْضِياً الى مدح الرؤساء ومخاطبة العظماء.

على أنّ أكثرَ ما يقعُ هذا في النظم دون النثر. وإنّما جمعنا الشاعر والكاتب في الخطاب لاشتراكهما في استعمال المعاني. فقد عِيبَ على الأعشى[11] قوله:

مـا بـكـاءُ الـكـبـيرِ في الأطـلالِ   وسـؤالي ومـا يَـرُدُّ سـؤالي

وأُنكِرَ على ذي الرُّمّة[12] قوله:

مـا بـالُ عَيْنِـك منهـا المـاءُ ينسكِبُ   كـأنّـه مِـن كُـلىً مَـفـريّـةٍ سَـرِبُ

وأنشد النابغة[13] بعض الملوك قصيدته التي أوّلها:

لَبِـسْـتُ أنـاسـاً فـأفـنَـيـتُـهُـم   وأفـنَـيـتُ بـعـد أُنـاسٍ أنـاسـا

فقال: ذاك لفرطِ شؤمِك.

وأنكرَ الفضلُ بنُ يحيى[17] على أبي نُواس[18] امتداحَهُ إيّاه بقوله: (١٩٨)

أرَبْـعَ الـبـلى إنّ الخـشـوعَ لـبـادي   عـلـيكَ وإنّي لم أخـنْـكَ ودادي

فلما انتهى الى قوله:

سـلامٌ عـلى الـدنيـا إذا مـا فُقِدْتُمُ   بني بَـرْمَـكٍ مِن رائـحـين وغـادي

استحكم تَطَيُّرُهُ. ويقالُ: إنّ الاسبوعَ لم يخرج عنهم حتى نُكِبوا.[19]

وانشد البحتري[20] يوسفَ بن محمد الثغريّ قصيدته التي أوّلها:

لكَ الوَيْلُ من ليلٍ تطاوَلَ آخِرُه

فقال: الويلُ والحربُ لك.

وأنْ يكونَ افتتاحُ الكلام من أحسن ما يمكنُ وأعلقه بالقلوب والأسماع.

وينبغي للشاعر أنْ يتجنّبَ التعيين في تشبيبِه على اسمٍ من أسماء النساء فإنّه رُبّما وافقَ بعض مَنْ يكرهُ الممدوحُ ذِكْرَهُ ويحسنُ التأني لهذا وما يُجاريه.

ذِكر الخروج الحَسن (*)

حُكْمُ المقدّمة والتشبيب الواقعين في المنثور والمنظوم أنْ يكونا متصلين بما بعدهما وغير منفصلين عنه.

فأمّا مقدمةُ المنثور فبأنْ يكونَ اتصالُها بما بعدَها من طريق المعنى، وهو اشتمالُها بالقولِ المُجْمَلِ على معاني ما جعلت مقدمة له، واشتمال ما بعدها على تفصيل ما أجمل فيها.

وامّا التشبيبُ فبأنْ يكونَ مرتبطاً بما يليه من أغراض الشعر (١٩٩) ارتباطاً يحسنُ معه التخلص الى الغرض فقد مثّلوا أبيات القصيدة في اتصال بعضها ببعض وتناسبها باتصال أعضاء الانسان، وقالوا: إنّه متى تباينت وتنافت في التركيب غادرها ما يُغادرُ الانسانَ بيانُ أعضائه من العاهات وتخون المحاسن.

والنصّ على أمثلةٍ للتطرّقِ من مقدّمة المنثور الى غرضه فلا يُحتاج اليه لاتّساع ما يقعُ في هذا الباب، أعني المنثور.

فأمّا تمثيل التطرق من تشبيب الشعر الى غرضه فغير متعذّر لقِلّةِ ما يقعُ في الشعر من المعاني.

ومن مستحسن الخروج قولُ مسلم بن الوليد[١]:

أجِدّكِ هل تدرين أنْ رُبَّ ليلةٍ ... كأنّ دُجاها من قُرونِكِ يُنْشَرُ

نَصَبْتُ لها حتى تجلّتْ بغُرّةٍ ... كغُرّةِ يحيى حينَ يُذكَرُ جعفرُ

وقول محمد بن وُهَيْب[٢]:

مازالَ يُلثِمُني مراشفَهُ ... ويعلُّني الأبريقُ والقدَحُ

حتى استردَّ الليلُ خِلْعتَهُ ... وبدا خلالَ سوادِهِ وَضَحُ

وبدا الصباحُ كأنَّ غُرّتَهُ ... وَجْهُ الخليفةِ حينَ يُمتدَحُ

وقول البحتري[٣]:

قد قُلْتُ للغَيْثِ الرُّكامِ ولجَّ في ... ابراقِهِ وألَحَّ في إرْعادِهِ

(٢٠٠) لا تعرضنَّ لجعفرٍ مُتَشبِّهاً ... بندى يدَيْهِ فلستَ من أندادِهِ

وقوله[٤]:

اقسمتُ لا أُجْمِلُ الإعدامَ حادِثَةٍ ... تَخْشى وعيسى بنُ ابراهيمَ لي سَنَدُ

وأكثرُ ما يقعُ هذا الخروج المُستَحسنُ في أشعار المُحدثين، فأمّا الجاهليةُ فلم يكونوا يعنون بإيصال التشبيب بما بعدَهُ، لأنّهم يعدّونَ التشبيبَ كلمةً مُفردةً ويرَوْنَ المديحَ قصيدةً على حِدَةٍ، ومذهب المُحدثين أحسنُ وأبرعُ.

ذِكْرُ الترصيع (*)

هذا النعت مشتقٌ من ترصيع الحليِّ بالجواهر، لأنّهم وضعوا اللفظ في موضع الحليِّ، ورصّعوا الصَّنْعَةَ الواقعة في هذا الباب، وهي تماثل الألفاظ في الخطِّ والسَّمْعِ، وتقابلها مقام ما يرصَّعُ الحليّ من الدُّرّ وغيره. وهو نَعْتٌ[٥] واقعٌ في موقعه، لما بين تقابل الألفاظ المتماثلة في السمع والخط وبين تقابل الجواهر المتماثلة الأجسام في الترصيع من المناسبة في المعنى، وهو أنّ كلَّ واحدٍ يفعل فيما رصّع به الرتبة والتقسيم مثل فعل الآخر.

ولم أجدْ لأحدٍ من العلماء بصناعة البديع فيه كلاماً إلّا لأبي علي الفارسيّ فإنّه ذكره وقَسّمه الى ثلاثة أنواع: ترصيع حَذْوٍ وترصيع لغوٍ وترصيع موازنةٍ.

(٢٠١) فأمّا ترصيعُ الحذو فهو أنْ تأتي الكلمتان على صورة واحدة ورَوِيٍّ واحد، ولا يفترقان إلّا في الشَّكْلِ والإعجام، أو في الإعجام حسب، أو في الشكل حسب.

فمّما يفترقُ في الشكل والإعجام قولُ النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم:

(عليكم بالأبكارِ فإنّهنّ أشدُّ حُبّاً وأقلُّ خِبّاً)[٦]، وقول ابن الروميّ[٧]:

لا أسْرِقُ الشعرَ وغيري قالَهُ ... يكفيني انتحالَهُ انتحالُهُ

وممّا يفترقُ في الإعجام حَسْبُ قولُ الله تعالى: «لا يجدون وليّاً ولا نصيراً»[٨]، وقولُ النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم: (المرءُ يسعى بجدِّهِ والسيفُ يقطعُ بحدِّهِ)[٩].

وممّا يفترقُ في الشَّكْل حسب قولُكَ: العِزّ والعَزّ، القُرُّ والقَرُّ.

وأمّا ترصيعُ اللغو فهو أنْ تكون الكلمتان على صورة واحدة والرويّ مختلف، مثل قولك: (فلان نيله سابغ ونبله سابع)، ومثل قوله تعالى: «وهم يحسبون أنّهم يحسنون صُنْعاً»[30]، ومثل قول أبي عبادة[31]:

ولم يكنِ المُغْتَرُّ بالله إذْ سَرَى ... ليُعْجِزَ والمُعْتَزُّ بالله طالِبُه

وهذا النوع إنّما يُراعى فيه اتفاق صوره في الخطّ واختلاف رَوِيّه، وسواء بعد ذلك اتفاق حروف تأليفه في السمع واختلافها، ألا ترى اتفاق صُورتي المغترّ والمعتزّ في الخطّ واختلاف رويّها، وكذلك سابغ وسابع، واتفاق صورتي يحسبون ويحسنون وحروفها واختلاف رويّها.

وأمّا ترصيعُ الموازنة (٢٠٢) فهو أنْ يكون البيت أو الفصل مقسوماً كلمتين كلمتين من غير زيادة عليهما، وأنْ تكون الثانية من كلّ قسم على وزن الثانية من القسم الذي بعدها. ومثالُهُ في المنثور قول بعضهم: (دامتْ نِعَمُكَ وحمد كرمُكَ وشفي المُلك)، ومثل قولك: (دامتْ أيامُكَ ونصرت أعلامُكَ ونفذتْ أحكامُكَ). ومثالُهُ في المنظوم قولُ الشاعر:

الحربُ نُزْهَتُهُ والناسُ هِمَّتُهُ ... والسيفُ عَزْمَتُهُ والله ناصِرُهُ

وقول امرىء القيس[32] يصف الفرس:

رَقاقُها ضَرِمٌ وجَرْيُها خَذِمٌ ... ولحمُها زِيَمٌ والبطنُ مقبوبُ
والعينُ قادِحَةٌ واليَدُ سابِحَةٌ ... والرِّجلُ ضارِحَةٌ واللونُ غِرْبيبُ
والماءُ منهمِرٌ والشدُّ منحدِرٌ ... والبطنُ مضطمِرٌ والمتنُ ملحوبُ

وقد سمّى آخرون هذا تسميطاً، قالوا: وهو تصيير الأجزاء في البيت على حُكم السجع أو ما شابهه مما يكونُ جنسُهُ واحداً في التصريف والتمثيل، ومثّلوه بقولِ امرىء القيس[33]:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ

وبقول زُهير[34]:

كَبْداءُ مُقْبِلَةً وَرْكاءُ مُدْبِرَةً

والقصدُ توازن الأجزاء وإنْ لم تكن مسجوعةً.

وقد كنتُ وقفتُ على كتاب لطيف لأبي منصور الثعالبي[35] سمّاه: (أجناس التجنيس)[36] ذكر فيه أنّها ثلاثة، وأورد من (٢٠٣) فقر البلغاء في كلّ قسم أمثلةً من المنظوم والمنثور:

فأوّلها: المتشابه الذي يشبه التصحيف ولم يراع اتفاق رَوِيّه ولا اختلافه ولا تباين حروفه إذا اتفقتْ صوره في الخطّ.

ومثّلهُ بقول النبي، صلى الله عليه وسلّم: (عليك باليأس من الناس)[37].

وبقول الحسن البصري: (ما أعطى الله أحداً الدنيا اختياراً إلّا زواها عنه اختباراً)[38].

وبقول الآخر[39] في الفرّوج: (يخرجُ كاسِباً كاسياً).

وبقوله[40] في الحيوان: (سبحانَ مَنْ جعلَ بعضَهُ لك غاذياً وبعضَهُ عليك عادياً).

وبقول بعضهم[41]: (ليسَ في المظلم مُخٌ ولا في البيض مُحٌ).

وهذا الجنسُ يجمعُ ترصيعي الحذو واللغو.

وثانيها: المتشابه من التجنيس الصحيح، وهو أنْ تتفقَ صورتا الكلمتين وحروفها معاً فلا يفرق بينها إلّا الشَّكْلُ، وهذا أحدُ

أنواع ترصيع الحذو.

ومثله بقول معاذ بن جبل[٣٢]: (الدَّيْنُ هَدْمُ الدِّين).

وبقول بعض[٣٣] البلغاء: (مَنْ كانَ كَلَّهُ لك كانَ كَلّه عليك).

وبقول آخر: (ذِكْرُ المِنَّةِ من ضعفِ المُنَّة).[٣٤]

وبقول آخر: (مولاي يوليني العفوَ من عَفْوِهِ ويوليني صفحةَ صَفْحِهِ).[٣٥]

وبقول آخر: (راحةُ الجِنان ورائحة الجنان).[٣٦]

[وبقول آخر: (كلامه] غذاءُ الرُّوح ومَلَذَّةُ الرَّوْح)[٣٧].

وبقول شاعر[٣٨]:

وليلة نجمها كَلِفُ ... صَبٌّ وفي وَجْهِ بَدْرِها كَلَفُ

وبقول ابن بابك[٣٩]: (٢٠٤)

فصَوْتُ لسانِهِ تَنَغَمْ ... وصَوْبُ يمينِهِ يَنْغَمْ

والمثال في البيت: (تَنَغم ويَنغم) لا (صوت وصوب)، لأنّها من ترصيع اللغو.

وبقول محمد بن العباس[٤٠]:

طُولٌ بلا طَوْلٍ ولا طائِلٍ ... سَيْفٌ كَهامٌ وغمامٌ جَهام

وثالثها: ما يتشابه لفظاً وخطاً ويختلف معنىً، ولا يدلُّ عليه إلاّ قرائنه من الألفاظ دون الشكل والاعجام إذْ لا يختلفان وهذا الجنس يشبه[٤١] أنْ يكون قسماً رابعاً من ترصيع الحذو.

ومثّلهُ بقول الصاحب[٤٢]: (ليدٌ عنده بليدٌ، وعَبيدٌ واقرانُهُ له عَبيدٌ).

وبقوله أيضاً: (يضايق في حرف ويمتد المودّة على حرف)[٤٣].

وبقوله: (ما انتصفَ النهارُ حتى انتصفَ الله للحقِّ من الباطل)[٤٤].

وبقول البُستي[٤٥]: (وَجيهٌ غير وَجيه، وقَريحةٌ غير قَريحة).

وبقول ابن الرومي[٤٦]:

كم بينَ وَسْواسِ الحِليِّ وبينَ وَسْواسِ الهموم

وبقول القاضي التنوخيّ[٤٧]:

أسيرٌ وقلبي في ذراك أسيرٌ ... وحادي ركابي لَوْعَةٌ وزفيرُ

فترصيعُ الحَذْوِ على هذا ينقسم الى أربعة أقسام:

قسمٌ تتفقُ صُوَرُه وحروفُه واعجامه وشكله، مثله: (حرف وحرف) و (قريحة وقريحة).

وقسمٌ تتفقُ صوره (٢٠٥) وحروفه واعجامه ويختلف شكله، مثل: (دَين ودِين) و (كَلّ وكُلّ).

وقسمٌ تتفقُ صُوَرُه وشكله وتختلف حروفهُ واعجامهُ، مثل: (بصير ونصير) و (سفير وشفير).

وقسمٌ تتفقُ صوره وتختلف حروفه واعجامه وشكله، مثل: (جُبّ وخَبّ) و (غِبّ وعَبّ).

وأورد في أبواب الجنس الثاني باباً نسبه الى ما يتشابه لفظاً لاخطاً، ومثّله بقول البُستي[٤٨]:

وإنْ أَمَرّ على رِقٍّ أنامِلَهُ		أَقَرَّ بالرِقِّ كُتّابُ الأنامِ لَهُ

وهذا النوع سمّاهُ أبو علي الفارسيّ (التركيب). وله موضعٌ يُذكر فيه من هذا الباب بمشيئة الله تعالى.

وأمّا عبدُ الله بن المعتز وأبو عليّ الحاتمي فإنّهما يريان أنّ أحَدَ الأقسام التي أدخلناها في الترصيع أحد قسمي التجنيس، وهما لذلك أميلُ الى موافقة أبي منصور الثعالبي، وقد مرّ القول على هذا فيما تقدّم.

ذكر المقابلة (*)

أمّا عبد الله بن المعتز وأبو الحسن علي بن عيسى الرُّمّاني فإنّهما لم يذكرا المقابلة، وأحسبهما ألغياها لقُرب معناها من معنى المطابقة، وذاك أنّ المقابلة التوفيق بين المعاني من جهة الموافقة والمضادّة، والمطابقة ذكر الشيء وضدّه.

وأمّا أبو الفرج قدامة[9] فقال: إنّ المقابلة من نعوت المعاني، وهو أنْ يُؤتى بمعانٍ (٢٠٦) يُرادُ التوفيق بينها وبين معانٍ أُخر، أو المضادّة فيؤتى في الموافق بما يوافقه، وفي المُضادّ بما يضادّه، ومثّلهُ بقول بعضهم: (فإنّ أهلَ الرأي والنصح لا يساويهم ذوو الأفن والغش، وليس مَنْ جمع الى الكفاية الأمانة كَمَنْ أضاف الى العجز الخيانة).

قال: وإذا تأملت هذه المقابلات وُجدت في غاية المعادلة، لأنّه جعل بإزاءِ الرأي الأفن، وبإزاء النصح الغش، وقابَلَ الكفاية بالعجز، والخيانة بالأمانة، وبقول الشاعر[10]

فواعجبا كيفَ اتّفقْنا فناصِحٌ		وفيٌّ ومَطْويٌّ على الغِلِّ غادِرُ

فوفّى المقابلة إذْ جعل بإزاءِ ناصح مطوياً على الغلّ، وبإزاء وفيٍّ غادراً. وبقول الآخر[11]:

تقاصَرْنَ واحْلَوْلَيْنَ لي ثُمَّ إنّهُ		أتَتْ بَعْدُ أيامٌ طِوالٌ أَمَرَّتِ

فقابَلَ القصر والحلاوة بالطول والمرارة.

وأمّا الحاتميّ[12] فإنّه عبّر عنها بعبارة قريبة من عبارة أبي الفرج، فقال: (المقابلةُ وضعُ معانٍ يعتمد التوفيق بينَ بعضها وبعض، أو المخالفة فيؤتى في الموافق والمُخالف بأمثالها على الصحة، أو تُشرط شروط وتعدّد أحوال في أحد المعنيين فيؤتى في الموافق بالموافق وفي المخالف بمخالف، ومثّلهُ بقول النابغة[13]: (٢٠٧)

فتىً تمّ فيه ما يسُرُّ صديقَهُ		على أنّ فيه ما يسوءُ الأعاديا

وأمّا أبو عليّ الفارسيّ فقال: إنّ المقابلة تطبيقٌ لفظيٌّ، لأنّ الكلمة تقابلُ فيه اختها على ترتيب، وهو قول حسن، لأنّ المطابقة لا يُراعى فيها ترتيب اللفظ، وإنّما يُراعى الاتيان بالأضداد، ومثّلهُ بقول الشاعر، والمثالُ في البيْت الثاني:

وظَبْيةٍ من ظباءِ الأنس تُؤنِسُني		دُرّيّةِ الثغرِ كافوريّةِ النَّفَسِ
نبكي ونضحكُ إنْ صَدّتْ وإنْ وَصَلَتْ		فنحنُ في مأتمٍ منها وفي عُرسِ

فابتدأ بالبكاء وأتبعه الضحكَ، وقابل البكاء بالصَّدِّ والمأتم، والضحكَ بالوصلِ والعرسِ على ترتيب من غير تقديم ولا تأخير.

ذكر التقسيم (*)

من شأن القسمة المعتدلة أن تُحَسِّن الصورة، ولذلك سموا الحسن قساماً، والوجه قسيمة، وقالوا: وَجْهٌ مقسّم، أي: حَسَنٌ، كأنّ قسمة تخطيطه متعادلة، ورَجُلٌ مقسّم، إذا كان وضيئاً.

وكذلك تفعل القسمة المعتدلة أيضاً في المعاني الوهمية، لأنّها إذا صَحَّتْ قسمتها ظهرَ أمْرها وتميّز الحسنُ من القبيح فيها.

وصحّةُ القسمة تكون بسلامتها من الزيادة والنقصان والتداخل، وفسادُها يكون بدخول واحدة من هذه العلل عليها، والقسمة الزائدة هي الفاضلة عن المقسوم، والناقصة هي المقصّرة عن المقسوم، (٢٠٨) والمتداخلة هي التي يدخل فيها حقّ بعض الأقسام في بعض.

والتقسيم الواقع في هذا الباب على مذهب الجماعة أنْ يستقصي مؤلف الكلام تفصيل ما ابتدأ به ويستوفيه فلا يغادر قسماً يقتضيه المعنى إلاّ أورده.

وقال أبو الفرج قدامة(٦٤): التقسيم من أنواع المعاني، وهو أنْ يؤتى بالأقسام مستوفاة لم يُخَلّ بشيء منها، ومتخلّصة لم يدخل بعضها في بعض، ومثله بقول بعضهم: (فإنّك لم تخلُ فيما بدأتني به من مجدٍ ابتنيته أو شكرٍ تعجّلته أو أجرٍ أو منجزٍ أنجزته أو بين أنْ تكونَ قد جمعتَ ذلكَ كلّه).

قال: ولم يبق هذا القاسم في هذا الباب قسماً إلاّ أتى به مع خلوصها من التداخل، لأنّه ليس فيها قسمٌ مشاركٌ لغيره. ومثاله من المنظوم قول زهير(٦٥):

يطعَنُهم ما ارْتَمَوْا حتى إذا اطّعَنُوا ... ضارَبَ حتى إذا ما ضارَبُوا اعْتَنَقَا

وقولُ نُصَيْب(٦٦):

فقالَ فريقُ القومِ: لا وفريقُهم ... نَعَمْ وفريقٌ قالَ ويلكَ ما ندري

وليس في أقسام الإجابة عن الشيء المستخبر عنه إلاّ هذه الأقسام الثلاثة.

وقول الأسْعَر بن حُمْران الجُعْفِيّ(٦٧) يصف فرساً على هبّاته من جميع جهاته:

أمّا إذا استقبلتَهُ فكأنّه ... بازٌ يُكَفْكِفُ أنْ يطيرَ وقد رأى

(٢٠٩) أمّا إذا استعرضته متمطراً ... فتقولُ هذا مِثْلُ سِرحانِ الغضا

أمّا إذا استدبرتَهُ فتسوقُهُ ... ساقٌ قموصُ الدفعِ عاريةُ النّسا

وقول زُهَير(٦٨):

فإنَّ الحقَّ مقطعُهُ ثلاثٌ ... يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءُ

وقولُ طُرَيْح بن اسماعيل الثقفي(٦٩):

إنْ يعلموا الخيرَ يُخْفُوهُ وإنْ عَلِموا ... شراً أُذِيعَ وإنْ لم يعلموا كَذَبُوا

وقوله[٣٠]:

نَـنْ حـارَبُـوا وَضَـعُـوا أو سـألُـوا رَفَـعُـوا
أو عـاقـدُوا ضَـمِـنُـوا أو حَـدَّثُـوا صَـدَقُـوا

وقولُ ابن الرومي[٣١]:

ومُنَعَّم كـالمـاءِ يشـفي ذا الصَّـدَى | كشفـائِـهِ ويشقُّ مثـلَ شَفِيفِـهِ
مِمّن لـه حُسْنُ الـرحيقِ وطيبُـهُ | ومـزاحُ شـارِبِـهِ ومَشْيُ تَـرِيفِـهِ

وقولُ بشّار[٣٢]:

بِضَـرْبٍ يذوقُ الموتَ مَنْ ذاقَ طَعْمَهُ | وتُـدْرِكُ مَنْ نَجّى الفِـرارُ مثـالِبُـهْ
فـراحـوا فـريقٌ في الأسـارِ ومِثْلُهُ | قتيـلٌ ومِثْـلٌ لاذَ بـالبحرِ هـارِبُـه

فقد استوفى حال مَنْ يتوقع به الظَّفر.

وقولُ الشمّاخ[٣٣] يصفُ سنابكَ الحمارِ وشِدّةَ رَهْصِهِ الأرضَ: (٢١٠)

مَتَى مـا تَقَعْ أرسـاغُـهُ مـطمئِنَّـةً | عـلى حَجَرٍ يَـرْفَضَّ أو يتدحْـرَجِ

ذِكر التَّبيين (*)

هو أنْ يؤتى بمعنى من المعاني مجملاً ثمّ يُبيَّن، ومن ذلك قولُ الفرزدق[٣٤]:

لقـد جِئتَ قـومـاً لـو لجـأتَ إليهمُ | طَـريـدَ دمٍ أو حـامِـلاً ثِقْـلَ مَغْـرَمِ

ولّما كان هذا البيت محتاجاً الى بيانٍ قال:

لألفَيْتَ منهم مُعْـطِيـاً ومُـطاعِـنـاً | وراءَكَ شَـزْراً بـالـوَشيـجِ المُـقَوَّمِ

ألا ترى أنّه بيّنَ قوله: (حاملاً ثقل مغرم) بقوله: (لألفيت فيهم مُعْطياً)، وقوله: (طريد دمٍ) بقوله: (مطاعناً بالوشيج المقوّم).

وقول سهل بن هارون[٣٥]:

فـواحسـرتي حتى متى القلبُ مـوجَعٌ | بفَقْـدِ حبيـبٍ أو تَعَـذُّرِ إفـضـالِ

ثمّ بيّنَ ما اجمله في البيت الأوّل فقال:

فِـراقُ حـبيـبٍ مثلُهُ يُـورِثُ الأسى | وخَـلّةُ حُـرٍّ لا يـقـوم لهـا مـالي

وقول ابن الرومي[٣٦]:

كـأنّهم إنْ عضَّ إزمٌ بـعـازبٍ | وإنْ أُوقِـدَتْ نيـرانُ حـربٍ تَضَـرَّمُ
نجومُ الدجى منها شهابٌ على العِدى | ومنهـا سِـمـاكٌ لـلعفـاةِ ومِـرْزَمُ

وقولُهُ أيضاً[77]: (٢١١)

صاحِي الطباعِ إذا ساءلْتَ حاجَتَهُ ... وإنْ سالتْ يَدَيْهِ فهو نشوانُ

ثمّ بين ذلك بقوله:

يُصَحِّيهِ ذِهْنٌ ويأبى صَحْوَهُ كرمٌ ... مستحكمٌ فهو صاحٍ وهو سكرانُ

وقد أدخل قومٌ التَّبيين في باب التقسيم ولم يفرّقوا بينهما، وهما متقاربان ليس بينهما كبيرُ فرقان.

ذكر الالتفات (*)

قال عبد الله بن المعتز[78]: الالتفاتُ انصرافُ المتكلّم عن المخاطبةِ الى الاخبار، وعن الاخبار الى المخاطبة، وما أشبه ذلك من الالتفات عن معنى يكون فيه الى معنى آخر، ومثَّلَهُ بقوله تعالى:

« حتى إذا كُنتم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بهم بريحٍ طَيِّبَةٍ »[79].

وبقول جرير[80]:

أتَنسى يومَ تصقلُ عارِضَيْها ... بفرعِ بشامةٍ سُقِيَ البشامُ

فانصرف عن المعنى الذي كان فيه الى البشام فدعا له.

وبقول الطائي[81]:

وأُنْجِدْتُمُ من بعدِ إتهامِ دارِكم ... فيا دمعُ أَنجِدْني على ساكني نَجْدِ

فانصرفَ عن المخاطبة الى مناداةِ دمعِهِ.

وقال الحاتمي[82]: الالتفاتُ أنْ يوجد في معنى لم يعدلْ عنه الى غيره قبل تمامِ الأوّل ثمّ يُعادُ إليه، فيكون ما عدل إليه (٢١٢) مبالغةً في الأوّلِ وزيادةً.

وهذا سمّاه ابن المعتز[83]: الاعتراض. وسنذكره تِلْوَ هذا الكلام إنْ شاء الله.

ذكر الاعتراض (*)

قال ابن المعتز[84]: من محاسن الشعر اعتراضُ كلامٍ في كلامٍ لم يتمّ معناه، ثمّ يعودُ الشاعرُ فيُتمّه في بيت واحد. ومنه قول بعضهم[85]:

فظلّوا بيومٍ دَعْ أخاكَ بِمثلِهِ ... على مَنْزِعٍ يُروِي ولمّا يُصرِّدِ

فقوله: (دعْ أخاكَ بمثله) اعتراض كلام في الكلام الاول قبل تمامه.

ومنه قول كُثيِّر[86]:

لو أنّ الباخلينَ وأنتِ منهم ... رأوْكِ تعلّموا منكِ المِطالا

فقوله: (وأنتِ منهم) اعتراضٌ.

ومنه قولُ النابغة[87]:

الا زَعَمَتْ بنو عَبْسٍ بأنّي ... ألا كذبوا كبيرُ السِّنِّ فاني

فقوله: (ألا كذبوا) اعتراض.

ومنه قول الآخر[88]:

فلو كنتَ الأسيرَ ولا تَكُنْهُ ... إذاً علمتْ مَعَدٌّ ما أقولُ

فقوله: (لا تكنه) اعتراض.

وقول الآخر[89]:

فلو بكَ ما بي لا يَكُنْ بكَ لاغتدى إليكَ وراحَ البِرُّ والشُّغْرُبُ

فقوله: (لا يكن بك) اعتراض.

وقول الآخر[90]: (٢١٣)

فإنّي إنْ أفُتْكَ يَفُتْكَ منّي فلا تظفَرْ به عقدٌ نفيسُ

فقوله: (فلا تظفر به) اعتراض.

وقول عوف بن محلّم الخزاعي[91]:

إنّ الثمانينَ وبُلّغْتُها قد أحوَجَتْ سمعي الى تَرْجُمانْ

فقوله: (بُلغتُها) اعتراض.

وهذه الامثلة التي مثّلنا بها أبو علي الحاتمي في باب الالتفات.

ذكر التفسير (*)

قال قُدامة[92]: صحة التفسير من نعوت المعاني، والتفسيرُ قريبٌ من التقسيم، وهو أنْ تُوضَعَ معانٍ يُحتاجُ الى شرح أحوالها، فإذا شُرِحَتْ أتيَ بما تقتضيه تلكَ المعاني من غير زيادةٍ عليها ولا نقصان منها ولا عدول عنها، مِثْل ما قال بعضُ الكُتّاب في فصل: (وأنا أثِقُ من مُسالَمَتِكَ في حالٍ بمثلِ ما أعلمه من مشارستك في اخرى، لأنك إنْ عَطَفْتَ وُجِدْتَ لَدْناً أو غُمِزْتَ أُلفيتَ شثْناً).

ومثل قولِ بعضِ البلغاء: (وأينَ يذهبُ مع غزيرِ إنعامِكَ وسديدِ أحكامِك وأليم اسقامِك من أنْ تكونَ مشباعاً للضيف، مدفاعاً للحَيْفِ، مَنّاعاً منِ الخوف).

ولابن الروميّ فَصْلٌ من كتاب: (فإنّي وإيّكَ الذي لم تزلْ تنقادُ لك مودّتُه من غيرِ طمعٍ ولا جزعٍ، وإنْ كنتَ لدى الرغبةِ مَطْلَباً ولدى الرهبةِ مَهْرَباً).

وهذا البابُ ينتظمُ في باب التبيين لما بينهما من المناسبة.

(٢١٤) ذكر التتميم والتكميل (*)

قال قدامة[93]: التتميم[94] من نعوت المعاني، وهو أنْ يُؤخذَ في معنى فيُؤتى بجميع المعاني المتممة لصحته المكملة لجودته، من غير أنْ يخلّ ببعضها، ولا يغادر شيئاً منها، وهو كقولِ الله تعالى: (ويُطعمونَ الطعامَ على حُبِّهِ مسكيناً ويتيماً وأسيراً)[95] فتمّ المعنى بقوله سبحانه: (على حبه).

وكقول بعض الكُتّاب: (فحفلتْ[96] به أسباب الجلالة غير مستشعر فيها لنخوةٍ، وترامتْ به أحوال الصرامة غير مستعملٍ فيها لسطْوةٍ، هذا مع دماثةٍ في غير خَصَرٍ، ولينٍ من غير خَوَرٍ، فمن كمالِ الجلالةِ زوالُ النَّخْوةِ ومن تمام الصرامةِ صفاؤها من السَّطْوة، ومن خلوصِ الدّماثة ارتفاعُ الخَصَر ومن كمالِ لينِ الجانب فَقْدُ الخَوَر). فقد أتى بما تَمّمَ المعاني التي جاء بها من غير اخلالٍ بشيء.

وكقول طرفة[97]:

فسقى ديارَكِ غيرَ مُفْسِدِها صَوْبُ الربيعِ وديمةٌ تَهْمي

فقد تَمّمَ المعنى بقوله: (غير مفسدها).

وقول نافع بن خليفة الغَنَوِيّ[98]:

رِجالٌ إذا لم يُقْبَلِ الحقُّ منهمُ ويُعطوه لاذوا بالسيوفِ القواطعِ

فتمّتْ صحة المعنى بقوله : (ويعطوه).

وقول النَّمِر بن تولب[99]:

لقد أصبحَ البيضُ الغواني كأنّما يَرَيْنَ إذا ما كنتُ فيهنّ أجربا
وكنتُ إذا لاقيتُهنَّ ببلدةٍ يقلْنَ على النُّكراءِ أهلاً ومَرْحَبا

(٢١٥) فقوله: (على النكراء) تتميمٌ حَسَنٌ، لأنّه لو كانت بينه وبينهم معرفة ما كان عجباً أنْ يقلنَ له: أهلاً ومرحبا.

وقال آخرون: التتميم أنْ يأخذَ المتكلّم في معنى فيورده غير مشروح ثمّ يقع له أنّ السامع لا يتصوره بحقيقته فيعودُ راجعاً على ما قدّمه، فأمّا أنْ يؤكّده وإمّا أنْ يحلّ الشكّ فيه. فالوا: ومنه قولُ الهُذلي[100]:

تَبينُ صُلاةُ الحربِ مِنّا ومِنْهُمُ إذا ما التقينا والمُسالمُ بادِنُ

فقوله: (والمسالم بادن) دلالة على أنّ المحاربَ ضامر.

وقول طرفة[101]:

بغرارِ سيفِكَ أو لسانِكَ والـ ـكَلِمُ الأصيلُ كأرْغَبِ الكَلْمِ

فقوله: (الكلم الاصيل) تتميمٌ، كأنّه قدّر أنّ معترضاً يقول: كيفَ يكون مجرى السيفِ واللسانِ واحداً؟ فقال: والكَلْمُ الأصيلُ كأرغب الكَلْمِ.

وقول البحتري[102]:

أناةً أيُّها الفَلكُ المُدارُ أنَهْبٌ ما تَطَرَّفُ أمْ جُبارُ
سَتَفْنَى مثلما نفنى وتَبْلَى كما نَبلى فيُدْرَكُ منكَ ثارُ

ثم تمّمَ بقوله:

تَنابُ النائباتُ إذا تناهتْ ويَدْمُرُ في تَصَرُّفِها الدَّمارُ

وقوله أيضاً[103]:

أقَمْنا أكْلُنا أكْلُ استلابٍ هناكَ وشُرْبُنا شُرْبُ بِدارُ

ثمّ علم انّ المعنى لا يتم حتى يحلّ الشك فقال: (٢١٦)

ولم يكُ ذاكَ سُخْفاً غيرَ أنّي رأيتُ الشُّرْبَ سُخْفُهُمُ الوَقارُ

وقول ابن الرومي[104]:

آراؤكُمْ ووجوهكُمْ وسيوفكُمْ في الحادثاتِ إذا دَجَوْنَ نُجومُ
فيها معالِمُ للهدى ومصابحٌ تجلو الدُّجى والأخرياتُ رجومُ

قالوا: وما تقدّم تمثيله هو التكميلُ.

وقال أبو عليّ الفارسيّ: التتميم مأخوذ من التمام، وهو اتباع كلمة معتلّة بكلمة صحيحة،

تزيدُ الثانية على الأولى في الخطّ بحرف واحد، نحو: سارٍ وسارب، ودارٍ ودارف، وعارٍ وعارف، وضارٍ وضارب، وساعٍ وساعد.

قال: ومنه قول ابي تمام[107]:

يمدّونَ من أيدٍ عـواصٍ عواصِمٍ ... تصـولُ بأسيافٍ قـواضٍ قـواضبِ

وقول الآخر:

كـمـاةٌ لهم أيـدٍ ضـوارٍ ضـواربُ ... عليهنّ أسيـافٌ قـواضٍ قـواضبُ

وهذا نوعٌ طريفٌ ليس من النوعين المتقدمين في شيء.

ذكر المبالغة (*)

وقد سمّاها قوم: (الغلو)، وآخرون: (الاغراق)، وآخرون: (الافراط في الصّفة).

(٢١٧) قال أبو الفرج قدامة[106]: المبالغة من نعوت المعاني، وهي أنْ يذكرَ المؤلّف معنى ما لو اقتصر عليه كانَ كافياً، فلا يقتصر على ذلك المعنى حتى يؤكّده ويبالغ فيه وينتهي به الى أبعد غاياته.

وقال الحاتمي[107]: الاغراق هو المبالغة في استنباط المعاني التي توجبُ الفضيلة استنباطها والغلو فيها بما يخرج عن الوجود ويتظلمه العَدَم.

فمذهب الحاتميّ يجيز التزيد في المبالغة والوصول بالمعاني الى الغاية.

ومذهب أبي الفرج يقتضي الوقوف عند حدٍّ ما يُمكِنُ.

وقد ذهب قوم الى استقباح الغلوّ لمجانبته للحقّ وبعده من الصدق، وهذا التحرّر يجب أنْ يكونَ في الاعتقادات الشرعية لا في الأساليب الشعرية.

فيمّا مثّل به أبو الفرج قدامة قولُ بعضهم يصف قوماً: (لهم جودُ كرامٍ اتسعتْ أحوالُها، وبأس ليوثٍ تبعها أشبالُها، وهمم ملوكٍ انفسحت آمالُها).

فقد كان يكفي أنْ يقالَ: (لهم جود كرام) لكن ذاك مع اتساع الحال أبلغ، وأنْ يقولَ: (لهم بأس ليوث) إلّا أنّ ذلك مع محاماتها عن أشبالها أوكدُ، وأنْ يقولَ: (لهم همم ملوك) إلّا أنّ ذلك مع انفساح الآمال أوفى.

وقول عمرو بن الأيهم التغلبي[108]:

ونُكـرِمُ جـارَنـا مـا دامَ فـيـنـا ... ونتبعُـهُ الكـرامـةَ حيـثُ سـارا

ومثّلهُ الحاتميّ بقول الشاعر:

دجـا الـلـيـلُ فـاستَـنَّ استـنـانـاً رفـيـقُـهُ
كـمـا استَـنَّ في الـغـابِ الحريـقُ المُـشَـعْـشَـعُ

(٢١٨) وبقول الشمّاخ[109]:

لـلـيـل بـالعُـنَـيْـزَةِ ضـوء نـارٍ ... تـلـوحُ كـأنّها الشِّـعْـرَى الـعَـبُـورُ
إذا مـا قـلـتُ أخـمـدهـا زهـاهـا ... سـوادُ الليلِ والـريـحُ الـدّبـورُ

ويقول قيس بن الخطيم[110]:

طَعَنْتُ ابنَ عبدِ القيس طعنةَ كـافرٍ ... لهـا نَفَذٌ لـولا الشُّعاعُ أضـاءَهـا

ويقول النابغة[111] يصف السيف:

تقـدُّ السَّلُوقيّ المُضـاعفَ نسجُـهُ ... ويُـوقِـدْنَ بـالصُّفّـاحِ نـارَ الحُـباحِبِ

ذكر أنّها تقطعُ الدرعَ التي هذه صفتها والفارسَ وتبلغُ الأرضَ فتوري النارَ.
ومثله قول النَمِر بن تَوْلَب(١١٢) يصف سيفاً:

تَظَلُّ تَحْفِرُ عنه إنْ ضَرَبْتَ به بَعْدَ الذراعَيْنِ والساقَيْنِ والهادِي

يقول: رسب في الأرض بعدَ أنْ قطعَ ما ذكر فاحتاجَ صاحبُهُ أنْ يحفرَ عنه ليستخرجه من الأرض.
وقول أبي نواس(١١٣):

ملكٌ تراهُ إذا احتبى بنجادِهِ يعلو الجماجمَ والسماطُ قيامُ

وقول الخثعمي:(١١٤)
يُدلي يَدَيْهِ الى القليبِ فيستقي في سرجِهِ بدلَ الرِّشاءِ المُكْرَبِ

(٢١٩) وقول آخر يهجو أبخر(١١٥):
تبكي السمواتُ إذا ما دعا وتستغيثُ الأرضُ من سَجْدَتِهْ
إذا اشتهى يوماً لحومَ القطا صَرَّعَها في الجوِّ من نَكْهَتِهْ

وقول الآخر(١١٦):
الشمسُ طالعةٌ ليستْ بكاسِفَةٍ تبكي عليكَ نجومَ الليلِ والقَمَرا

والمعنى: والشمس طالعة تبكي عليك، وليست بكاسفة مع طلوعها القمر والنجوم لأنّها مُظلمة، وإنّما يكسفُ بضوئها فنجوم الليل بادية بالنهار.
ومثلُهُ قولُ النابغة(١١٧) وذكر يومَ حربٍ:

تبدو كواكِبُهُ والشمسُ طالعةٌ لا النورُ نورٌ ولا الاظلامُ إظلامُ

وقول الشاعر(١١٨) يصف مفازةً تنزو من مخافتها قلوبُ الأدِلّاءِ:

كأنّ قلوبَ أدِلّائها معلقةٌ بقرونِ الظباءِ

ومثلُ هذا قولُ امرىء القيس(١١٩):
ولا مثلَ يومٍ في قُدار ظَلِلْتُهُ كأنّي وأصحابي على قرنِ أعْفَرا

أي: كأنّنا من القلق على قرن ظبيٍ فنحن لا نستقرُّ ولا نسكنُ.
وقول قيس بن الخطيم(١٢٠) يصف القومَ في الحرب:

لو أنّكَ تُلقي حَنْظَلاً فوقَ بيضنا تَدَحْرَجَ عن ذي سامِهِ المُتقارِبِ

(٢٢٠) يقول : تراصَّ القومُ في القتال حتى لو أنَّ مُلقياً ألقى على بيضهم حنظلاً لجرى عليهم كما يجري على الأرض ولم يسقط لشِدَّةِ تراصهم. و (عن) في البيت بمعنى (على).

ذكر التكافؤ (*)

قال ابو الفرج قدامة[١٣١]: التكافؤ من نعوت المعاني، وهو أنْ يُوصفَ شيءٌ فيؤتى فيه بمعنيين متكافئين، إمّا من جهة التضاد أو السلب والايجاب أو غيرهما من أسباب المقابلة.

ومعنى قوله: (متكافئين) أي: متقاومين، حتى إذا قيلَ في معنى ما أنَّ شيئاً أسود أتى بآخر يُقال فيه: أبيض، وغير ذلك من وجوه التضاد. ومثَّلَهُ بقول بعضهم: (كَدَرُ الجماعةِ خيرٌ من صَفْوِ الفُرقة)[١٣٢] وقال: هذا من التكافؤ، لأنَّهُ كَدَرٌ وصفوٌ، وفُرقةٌ وجماعة.

وبقول الآخر: (لا أُعطَل من موهبةِ تحليك، ولا اظمأ من سجل يرويك).

وبقول أبي الشَّغْب[١٣٣]:

حلوُ الشمائلِ وهو مُرٌّ باسِلُ

وبقول طرفة[١٣٤]:

بطيءٍ عن الجُلّى سريعٍ الى الخَنا

وبقول زهير[١٣٥]:

حُلماءُ في النـادي إذا مـا جئتَهـم ... جُهـلاءُ يـومَ عجـاجـةٍ ولقـاءِ

وبقول بشّار[١٣٦]:

إذا أيـقـظتـكَ حـروبُ العِـدى ... فـنـبِّـهْ لهـا عُـمَـراً ثُـمَّ نَـمْ

(٢٢١) وهذا هو التطبيق بعينه، لأنَّ التطبيقَ باتفاق الجميع ذكرُ الشيءِ وضِدِّه.

وقال أبو علي الفارسي: التكافؤ تطبيق معنوي، ومثّله بقول النبيّ، صلى الله عليه وسلم: (إذا أتى أحدُكم شيئاً من هذه القاذورات فليستترْ بسترِ الله تعالى، فمن أبدى لنا صفحته أقمنا حدَّاً لله عليه)[١٣٧].

وبقول بعضهم: (إنْ هجرتَ صبرتُ أو احسنتَ شكرتُ أو أسكتَ عذرتُ).

وبقول الشاعر:

فإن تُحسنوا[١٣٨] نشكرْ وإن تهجروا نكنْ ... لكم بـإزاءِ الهجرِ من عـنـدنـا صَبْـرُ

والذي يلوحُ من هذا التمثيل أنْ يُكافىء ما يُبتدأ به ما يقتضيه معناه.

ذكر الاشارة (*)

وتُسمّى التلميح، وإنّما سُمّيَ تلميحاً لأنّها كاللمحة الدالّة على المعنى. وقال قدامة[١٣٩]: الاشارةُ من نعوت اشتراك اللفظ والمعنى، وهي اشتمال اللفظ القليل على المعنى الكثير باللمحة الدالّة.

وذكر أنّ أولى الأحوال باستعمالها الحال التي يُخاطب أو يُكاتَبُ فيها ذوو الشؤون الكبيرة والهمم المتقسّمة ومَنْ لا يجوز أنْ يشغل بمعنى بعينه، وكان عنده أنفقُ من الاطالة، والإشارةُ أوفق (٢٢٢) من تطويل المقالة. ومثّلها بقول امرىء القيس[١٤٠]:

على هَيْكَلٍ يُعطيكَ قبـلَ سؤالِـهِ ... أفـانـينَ جَـرْيٍ غـيرَ كَـزٍّ ولا وانِ

قال: فقد جمع بقوله: (أفانين) مالوعُدَّ لكان كثيراً، ثمّ نفى عنه الكزازة والوَنى، وهما من أقبح معايبِ الخيلِ.
وبقول زهير[131]:

فــإنّي لــو لــقِيــتُــكَ واتّجــهْــنــا لــكــانَ لكُــلِّ مُــنكَــرةٍ كِــفــاءُ

قال: وقوله: (كفاء) إشارة الى ما لو شَرَحه لكانَ كثيراً.
وقال غيرُه: الاشارةُ أنْ يريد معنى فلا يأتي باللفظ الدالّ عليه بل بلفظٍ غيره.
وهذا سمّاهُ قدامة الإرداف. ونحن نوردُ القولَ عليه تلو هذا الفصل إنْ شاء الله تعالى.

ذكر الارداف (*)

قال ابو الفرج قُدامة[132]: من نعوت اشتراك اللفظ والمعنى الارداف، وهو أنْ يريدَ معنى فلا يأتي باللفظ الخاصّ بذلك المعنى بل بلفظ هو ردفُهُ وتابعٌ له، فيكون في ذكر التابع دلالة على المتبوع.
وقد سمّاه قوم: (التّتبيع)[133].

وهذا المذهب يؤخذ كثيراً في المنظوم والمنثور.
ومنه قولُ أعرابية تصف رجلاً: (عمّار وما عمّار، طالب أوتار، لم تخمد له نار).
وإنّما أرادت بقولها: (لم تخمد له نار) كثرة إطعامِهِ الطعامَ، فلم تأتِ باللفظ الدالّ على ذلك بعينه، بل ذكرت إيقاذه النيران، لأنّ ذلك (٢٢٣) تابع لاتخاذ الطعام.
ومنه ما كتبَ به بعضُ الكُتّاب في صفةِ حَرْبٍ: (حتى إذا ثارَ النقع والتفَّ الجمعُ بالجمعِ، واحمرّتِ الأحداقُ وقامت الحرب على ساق).
وكل هذه إرداف يدلُّ على المعاني المقصودة بغير ألفاظها الخاصة.
ولهذا المذهب موقع من البلاغة حَسَنٌ، لأنّ الواصفَ لو قصدَ ما وصفه بألفاظه الخاصة به فقال: (نحاربُ القومَ أشدّ تحارب) لم يكن لذلك من الموقع ماللارداف من الحسن ومنه قولُ بعضهم، وهو عمر بن أبي ربيعة[134]:

بعيدةُ مهوى القُــرْطِ إمّا لنــوْفَــلٍ أبــوهــا وإمّــا عَبْــدُ شَــمْــسٍ وهــاشمُ

لأنّه إنما أرادَ وصفَها بطول العنق.
وقول امرىء القيس[135]:

ونُضحي فَتيتُ المِسْكِ فوقَ فِراشِهـا نَؤومُ الضُّحى لم تنتطِقْ عن تَفَضُّلِ

وإنما أراد أن يذكر ترفُّه هذه المرأة وتنعُّمها وأنّ لها ما يكفيها فاتى بوصفِ ما يتبع هذه الحال.
وأمّا غيرُ أبي الفرج فالذي يظهر من عبارتهم أنّهم لم يفرقوا بين الاشارة والارداف، على أنّهم قد نعتوا ما نعته أبو الفرج بالارداف بالتّتبيع، وعبّروا عنه بما عبّر عنه أبو الفرج عن الإرداف، ومثّلوه ومثّلوا الاشارة بما يدلّ على أنّها شيءٌ واحد، وأنّهم لم يُدركوا الفرق بينهما على ظهوره، إذ الاشارةُ اشتمالُ اللفظِ القليل على المعنى بتابعٍ من توابِعِهِ وردفٍ من أردافه لا بلفظه الخاصّ به.

(٢٢٤) ذكر التمثيل (*)

قال أبو الفرج قُدامة[136]: التمثيل من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى، وهو أنْ يريد الإشارة الى معنى آخر، وكلاهما مُنبئان عن الغرض.

وهذا الباب يُستعملُ كثيراً في النظم والرسائل والخطب فيقع أحسن موقع.

ومنه ما كتبَ به يَزيدُ بنُ الوليدِ[١٣٧] الى مروان بن محمد حين بلغه تلكُّؤه عن بَيْعَتِهِ: (أمّا بعدُ فإنّي أراكَ تُقدِّمُ رجلاً وتؤخِّرُ أخرى، [فإذا أتاكَ كتابي هذا] فاعتمد على أيّهما شئتَ والسّلام).

ولهذا من الموقع ما ليس للفظه الخاصّ إذا خوطب به مَنْ يحيط بمعناه ولا يحتاج الى سواه.

ومنه ما كتبَ به الحجّاجُ الى المهلّب بن أبي صفرة عند حَضِّهِ إياه على قتال الأزارقة: (فإنْ كنتَ فعلتَ وإلاّ شرعتُ إليكَ الرُّمْحَ).

وبهذه الصيغة أجابه المهلّبُ، فقال في جوابه: (فإنْ شَرَعَ إلي الأميرُ رُمْحَهُ قلبتُ له ظهرَ المِجَنّ).

وهذا المذهبُ شبيهٌ بالإرداف. ولولا أنّ في ذاك قُوّةَ الإسهابِ والبَسْطِ، وفي هذا قوّةَ الإيجاز والجمع لما اختلفا.

ومنه قولُ ابن ميّادة[١٣٨]:

أَلَمْ تَكُ في يُمنى يديكَ جَعَلْتَني فلا تَجْعَلَنِّي بعدَها في شمالكا

اراد: أنه كانَ عنده مقدّماً فلا يؤخره ومقرّباً فلا يبعده.

وقولُ يزيد بن مالك الغامديّ[١٣٩]:

فإنْ صَبَحُوا يوماً زَأَرْنا فلمْ يكُنْ شبيهاً بزأرِ الأُسْدِ ضَبْحُ الثعالِبِ

(٢٢٥) أشار الى قوّتهم وضعف أعدائهم إشارة مستحسنة مستغربة، لها من الموقع بالتمثيل ما لم يكن ذكرُ الشيء المشار إليه.

وقولُ المِنقريّ[١٤٠]:

رأى أمَّ نيرانٍ عواناً بكفّها بأعرافِها هوجُ الرياحِ الصوارِدِ

فقد أومأ[١٤١] بقوله: (أم نيران) إلى قدمها وكثرتها، وبقوله: (عواناً) الى اعتيادها لإيقادها إيماءً ظريفاً غريباً.

ذكر الكناية (*)

قال أبو علي الفارسي: الكناية أنْ يكنى عن اللفظ الخاص بالمعنى ويأتي بلفظ آخر كأنّه يدلُّ على غير المعنى وهو دالٌّ عليه.

ومثّله بقول الله سبحانه في الردّ على مَن ادّعى ربوبية المسيح، عليه السلام: «ما المسيحُ بنُ مريمَ إلاّ رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِّيقةٌ كانا يأكلان الطعام»[١٤٢]. فجاء سبحانه بلفظ ينظمه في سلك البشر الذين تتغيّر أحوالُهم ويعتورهم الفناء ولا تجوز عبادتهم، ولم ينفِ عنه الربوبية بلفظ النفي الخاص به.

وبقول الشاعر يهجو:

فهو كما قال إلهُ الورى في رأسِ عشرينَ من الكَهْفِ

يريدُ قوله سبحانه: «ولنْ تُفلحوا إذاً أبداً»[١٤٣].

وبقول الآخر يهجو أيضاً:

والى في النساء، حَرَّمَها الله   عليه من النساء زَواني

يريدُ النساء المُحرَّمات عليه اللواتي عَدَّدَهُنَّ الله في سورة النساء.

وأصل الكناية في لغة العرب (٢٢٦) أنّهم كانوا يُكنّون عن الشيء بغيره على وجه الاتساع.

ولها مواضع في كلامهم:

منها: أنّهم يكنّون عن الرجل بالأبوة للزيادة في الدلالة عليه إذا كاتبوه أو راسلوه، أو لقصْدِ تعظيمِهِ بالكُنْية لأنّها تدلُّ على الحنكة والاكتهال. وقد اعترض عليهم في ذلك بما انفصل منه العلماء.

ومنها: الكناية عن النفس بالثياب، ومن ذلك قولُهُ تعالى مخاطباً لرسوله، صلى الله عليه وسلم: «وثيابَكَ فَطَهِّرْ»[٤١٤]

اي: طَهِّرْ نفسَكَ من الذنوب فكنّى عن الجسم بالثياب لأنّها تشتملُ عليه.

وقول امرىء القيس[٤١٥]:

ثيابُ بني عَوْفٍ طَهارَى نَقِيَّةٌ   واوجهُهُم عند المَشاهِدِ غُرّانُ

يريد أنّهم بريئون من الأدناس والعيوب.

وقولُ ليلى[٤١٦] وذكرت إبلاً:

رَمَوْها بأثوابٍ خِفافٍ فلا ترى   لها شَبَهاً إلاّ النَّعامَ المُنَفَّرا

أي: ركبوها فرموها بأنفسهم.

وقولُ آخر[٤١٧]:

لاهُمَّ إنَّ عامِرَ بنَ جَهْمِ
أَوْذَمَ حَجّاً في ثيابٍ دُسْمِ

اي: وهو متدنّسٌ بالذنوب.

ومنه قولهم: (فلانٌ دنس الثوب)[٤١٨]، إذا كان غادراً فاجراً.

وقول عنترة[٤١٩]:

فشككتُ بالرُّمحِ الأَصَمِّ ثيابَهُ   ليسَ الكريمُ على القَنا بمُحَرَّمِ

ويقولون: (فِدىً لك ثوباي)[٤٢٠] اي: رحلاي، والمعنى: أنا أفديك.

ومنها (٢٢٧) قولهم: (قومٌ لِطافُ الأُزُر) اي: خماصُ البطون، لأنّ الإزار يُلاثُ عليها.

ومنها قولهم: (فِدىً [لك] إزاري)[٤٢١] اي: نفسي، قال الشاعر[٤٢٢]:

الا أبلغْ ابا حَفْصٍ رسولاً   فِدىً لك من أخي ثقةٍ إزاري

وقد يكون الإزارُ في هذا البيت الأهل.

ويقولون: (دَمُ فلانٍ في إزار فلانٍ)[٤٢٣] اي: هو صاحبه.

ومنها: كنايتهم عن العفاف بالإزار، لأن العفيف كأنّه استتر لمّا عفَّ. قال عَدِيُّ بنُ زيد

أَجْلَ أنّ الله [قد] فَضَّلكُم　　　فوقَ ما أحكي بصُلبٍ وإزارِ

فالصُّلْبُ: الحَسَبُ، وسمّاه صُلباً لأنّ الحَسَبَ العشيرة، والخلق من ماء الصّلْبِ، والإزارُ: العفافُ. ويجوز أنْ يكون سمّى العشيرة صُلْباً لأنّهم ظهرة الرجل، والصلب في الظهر.

ويقولون: (فلانٌ عفيفُ الإزارِ) و (طيِّبُ الحُجْزَةِ)[155] بمعنىً.

ومنها: كنايتهم عن الحَدَثِ بالغائط. والغائطُ: المطمئنُ من الأرض الواسع، وكانَ مَنْ أراد قضاءَ حاجته أتى الغائطَ ليتوارى به، فصارَ كناية عن ذكر ما يفعله الانسان. قالَ الله تعالى: «وإنْ كنتم مرضى [أو على سَفَرٍ] أو جاءَ أحدٌ منكم من الغائط»[156].

ومنها قولهم: (أخي وأخوك أيّنا أبطشُ). يريدون: أنا وأنت نصطرع فيُنظر أيّنا أشدّ. فكنى عن نفسه بأخيه وعن أخيه بنفسه. قال الله تعالى: «ولا تلمزوا أنفسَكُم»[157] أي: تعيبوا إخوانكم من المسلمين لأنّهم كأنفسكم، وقال: «لولا إذْ سَمِعْتُمُوهُ ظنَّ المؤمنون والمؤمناتُ بأنفُسِهِم خيراً»[158] أي: بأمثالهم عن المسلمين.

ومنها قولهم: (٢٢٨) (هو أوسعُ بني أبيه ثوباً)[159]. أي: أكثرهم معروفاً.

ومنها قولهم: (هو غَمْرُ الرِداءِ)[160]، إذا كان واسع الخلق. قالَ الشاعر[161]:

غَمْرُ الرداءِ إذا تَبَسَّمَ ضاحِكاً　　　غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقابُ المالِ

ومنها: (فلانٌ رفيعُ العمادِ) إذا كانَ منزله معلماً لزائريه.

ومنها قولهم: (هو واسِعُ الجيبِ) و (واسع جيبِ الكم) أي: واسع الصدر، كثير العطاء، قال الشاعر[162]:

فقد أرى واسعَ جيبِ الكُمِّ

والعرب تكنى عن القلب بالجيب، فيقولون: (فلانٌ طاهر الجيب) أي: طاهر القلب.

فهذا وأمثاله ما يستعملونه من الكناية للتوسّع في الكلام، ولا يقع في الرسائل منه إلّا أقلّه.

ذكر التعريض (*)

التعريض تستعمله العرب كثيراً في كلامها، فتبلغ إرادتها بوجه هو ألطفُ من الكشف والتصريح، وقد جعله الله تعالى في خِطْبَةِ النساء، وهُنّ في العدّة، جائزاً فقال: «ولا جُناحَ عليكم فيما عَرَّضْتُم بِهِ مِن خِطْبَةِ النِّساءِ أو أكْنَنْتُم في أنْفُسِكُم»[163] ولم يجز التصريح. والتعريضُ في الخطبة أنْ يقولَ الرجلُ للمرأة: إنّكِ لجميلةٌ، ولعلّ الله أنْ يرزُقَكِ بَعْلاً صالحاً وإنّ النساءَ لمن حاجتي. وما أشبه هذا الكلام.

وحُكِيَ أنّ قوماً من العرب خرجوا يمتارون، فلمّا صَدَرُوا خالفَ رجلٌ في بعض الليالي الى عِكْمِ صاحبه[164] فأخَذَ منه بُرّاً (٢٢٩) وجعله في عِكْمِهِ، فلمّا أرادوا الرحلةَ وقاما يتعاكمان رأى عِكْمَهُ خفيفاً وعِكْمَ صاحبه ثقيلاً، فأنشأ يقولُ:

عِكْمٌ تَغَشّى بعضَ أعكامِ القومْ
لم أرَ عِكْماً سارِقاً قبلَ اليومْ

فَخَوَّنَ صاحبه بوجه ألطف من التصريح.

ومن التعريض قولُ بعضهم[165]:

يا شاةَ ما قَنَصٍ لِمَنْ حلَّتْ لهُ　　　حَرُمَتْ عليّ ولَيْتَها لم تَحْرُمِ

والمعنى أنّه عَرّض بجاريةٍ، يقول: أيّ صيدٍ لِمَنْ حلّ له أنْ يصيدَكِ، فأمّا أنا فإنّ حُرْمَةَ الجوار قد حرمتك عليّ.

ومن التعريض في كتاب الله تعالى قوله فيما خَبَّرَ به من نبإ الخصم: «إنّ هذا أخي له تسعٌ وتسعونَ نعجةً ولي نعجةٌ واحدةٌ فقالَ اكْفِلْنِيها وعزّني في الخِطاب»[١٦٦]. إنّما هو مَثَلٌ ضربه الله تعالى له لِيُنَبِّهَهُ على خطيئته.

وورّى عن ذكر النساء بذكر النكاح كما كنّى الشاعرُ الذي مثّلنا بقوله وغيره من الشعراء عن النساء بالشاه والمطايا والقلاص.

وكان عُروةُ بنُ الزُّبَيْر[١٦٧] إذا أسرع اليه انسانٌ بقولِ سَيِّءٍ يقولُ: إنّي أتركُكَ رفعاً لنفسي عنك. فجرى بينه وبين عليّ بن عبد الله بن العباس[١٦٨] كلامٌ، فأسرع له عروة بسوءٍ، فقال له عليّ: إنّي أتركُكَ لِما تتركُ الناسَ له. فاشتدّ ذلكَ على عُروة.

ولو لم يكنْ في المعاريض من الفسحةِ في الكلام إلّا ما يجدُهُ الإنسانُ من المندوحة عن الكذب لكانَ كافياً.

وقيل: إنّ قولَ موسى، عليه السلام: «لا تؤاخِذْني بما نَسِيتُ»[١٦٩] من معاريض الكلام.

وقال ابن عباس: لم يقل: إنّي (٢٣٠) نَسيتُ، فيكون كاذِباً، ولكنّه قالَ: «لا تؤاخذني بما نسيت» فأوهمه النسيان تعريضاً، ولم ينسَ ولم يكذبْ.

ومنه قول ابراهيم: «إنّي سَقِيمٌ»[١٧٠]، أي: سأسقم، لأنّ مَنْ كُتِبَ عليه الموتُ فلا بُدَّ أنْ يسقمَ.

وأمثالُ هذا كثير في الكلام، وفيما أوردناه إقناعٌ.

ذكر التسهيم (*)

التسهيمُ لقبٌ مُحْدَثٌ لم تخلصْ له عبارةٌ مُهَذّبةٌ من طريق الاشتقاق. قالوا: ومعناه أنْ يُصاغَ الكلامُ صياغةً معتدلة الأقسام كاعتدالِ خطوطِ البُرْدِ المُسَهَّم التي لا تتفاوت ولا تختلف، إذا كانَ كذلكَ سبقَ السامعُ الى استخراج قوافي منظومِهِ وفواصِلِ منثورِهِ قبلَ أنْ ينتهي اليها مُورِدُهُ.

ومنه قولُ أختِ عمرو ذي الكلب[١٧١]:

فأقسمتُ ياعمرو لو نَبَّهاكَ ... إذاً نَبَّها منكَ داءً عُضالا
إذاً نَبَّها ليثَ عِرّيسةٍ ... مُفيتاً مفيداً نُفوساً ومالا
وخَرْقٍ تُجاوِبُ مجهولةٍ ... بوجناءَ حَرْفٍ تَشكّى الكَلالا
فكُنتَ النهارَ بها شمسَهُ ... وكنتَ دجى الليل فيها الهلالا

وهذا كلامٌ لا زيادة على حُسْنِهِ واتساقِهِ واعتدالِ أقسامِهِ، ألا ترى الى قولها: (مفيتاً مفيداً)، وتفسيرُها ذلك بقولها: (نفوساً ومالا) كما تقتضيه الإفاتةُ والإفادة، ووصفها إيّاه بالشمس في النهار والهلال بالليل.

وقول البُحتريّ[١٧٢]: (٢٣١)

سلبوا البيضَ بَزّها فأقاموا ... بظُباها التأويلَ والتنزيلا
فإذا حاربوا أذَلّوا عزيزاً

يقتضي أنْ يكون تمامه: ... وإذا سالموا أعَزّوا ذليلا

فهذا البيتُ يسبقُ السامع الى مقطع مصراعه الأول وقافيته معاً.

وقوله أيضاً[١٧٣]:

أحلّتْ دمي من غيرِ جُرْمٍ وحَرّمتْ ... بلا سببٍ يومَ اللقاءِ كلامي
فليسَ الذي حلّلتِهِ بمُحَلّلٍ

يقتضي أنْ يكون تمامه: وليسَ الـذي حَـرَّمْتِـهِ بحـرامِ

وهذا البيت أيضاً يسبق السامع الى مقطع مصراعه الاول وقافيته معاً.
وقول ابن الرومي[١٧٤]:

أرْضَى بصـورتِـهِ وضَنَّ فـأغْضَبـا ... فـغـدا المُحِبُّ مُنَعَّمـاً ومُعَـذَّبـا
ذو صـورةٍ تحـلو وتحسُـنُ منـظراً ... ومَرَاشِفٍ تصفـو وتعـذُبُ مَشْرَبـا

ذكر التوشيح (*)
التوشيح أنْ يحلفَ الشاعرُ أو يحلف غيره بأشياء تتعلق بغرضه المقصود. ويدخل في هذا الباب الذي هو فيه إرادة للإبداع بتوشيح الكلام، ثمّ يصرح ويكشف المعنى ويفصح عمّا في نفسه.
ومنه قول الأشتر النخعي[١٧٥]:

بَقَّيْتُ وَفْـري وانحرفتُ عن العـلى ... ولـقيتُ أضْـافي بـوجـه عَبُـوسِ
إنْ لم أشُنَّ عـلى ابنِ هِـنْـدٍ غـارةً ... لم تخْـلُ يـومـاً من نهابِ نفـوسِ

(٢٣٢) وقول أبي عليّ البصير[١٧٦]:
أكْـذَبْتُ أحْسَنَ مـا يـظنُّ مُـؤَمِّـلي ... وهَـدَمْتُ مـا شـادَتْـهُ لي أسْـلافي
وعـيـبْـتُ عـاداتي التي عُـوِّدْتُهـا ... قِـدمـاً من الإتـلافِ والإخـلافِ
وصَحِبْتُ أصحابي بعِرْضٍ مُعْرِضٍ ... مُـتَـحَـكِّـمٍ فـيـه ومـالٍ وافي
وغَضَضْتُ من ناري ليخفَى ضوؤها ... وقَـرَيْتُ عُـذْراً كـاذبـاً أضيـافي
إنْ لم أشُـنَّ عـلى عـليٍّ خَـلَّـةً ... تُضحي قَـذىً في أعْـيُنِ الأشرافِ

وقول العَطَويّ[١٧٧]:

لا وكتماني أسرارَ عَدُوِّي وصديقي
واتباعي بطريفِ المال آثارَ الحقوقِ
ما أطيقُ الصبرَ عن بَدْرٍ على غُصْنٍ أنيقِ

وقال النظّام[١٧٨]:

أما والحلقِ الأسودِ في سالفة الخِشْفِ
وحُسْنِ الغُصُنِ المهتزِّ بين النَّحْرِ والرِّدْفِ
لقد أشْفَقْتُ أنْ يجرحَ في وجنتِهِ طَرْفي

ذكر الإعنات (*)

الإعنات أنْ يلتزمَ الشاعرُ في القوافي، والناثر في الأسجاعِ مالا يلزَمُها (٢٣٣) توسّعاً واقتداراً، ويتكلّفان ما ليس عليهما تمكّناً وانفساحَ مجالٍ.

ومثالهُ في المنثور قول أبي علي البصير[١٧٩]: (حتى عاد تعريضُك تصريحاً، وتمريضُك تصحيحاً).
ومثالُهُ من المنظوم قولُ أبي العالية[١٨٠]:

إنّي امروٌ أصفي الخليلَ الخُلّه
أمنحُهُ وُدّي وارعي إِلَّه
وأبغضُ الزيارةَ المُمِلّه
وأقطعُ المهامِهَ المُضِلّه
على هِبلٍّ أو على هِبِلّه
ذاتِ هِبابٍ جَسْرةٍ شِمِلّه
ناجيةٍ في الخَرْقِ مُشْمَعِلّه
تَنْسَلُّ بعدَ العُقَبِ المُكِلّه
مثلَ انسلالِ العَضْبِ من ذي الخِلّه

والقصيدة طويلة التزم في أكثرها اللام المشدّدة اقتداراً. وقولُ الحُطيئة[١٨١]:

ألا مَنْ لـقـلـبٍ عـارمِ الـنـظراتِ ... يُقَـطِّعُ طـولَ الليـلِ بـالحَسَـراتِ
فـإنْ يصْـطَنِعْني الله لا اصـطَنِعْكُمْ ... ولا أُعْـطِكُمْ مـالي عـلى العَثَـراتِ

والقصيدة أيضاً طويلة لزم الراء قبل الردف في جميعها، وهو غير لازم.
وقولُ رافع بن هُرَيم اليربوعي[١٨٢]:

ألا تخـافـوني تُـصـبـكم بـعُـرَّةٍ ... مفـارقني أو تقبسوا من شَواريا
(٢٣٤) إذا صارَ لوني كلَّ لونٍ وُبدِّلَتْ ... نضـارةَ وجهي مُغضباً باصفراريا
فِـيـرُّي كـإعـلاني وتلك سَجيّتي ... وظُلمـةُ ليلي [مثـلُ] ضـوءِ نهاريـا
بني عـاصم مَنْ ترسلون من المـدى ... مع الخيلِ يجري مثل ما كنت جاريـا
لـه مثلُ طرفي سـابقاً عند غـايتي ... وطـولُ عنـاني وارتفـاعُ عِـذاريـا
وتخشى عُـرامي من وراءِ حمـايكم ... شيـاطينُ أرميهـا بشُهبانٍ نـاريـا

ذكر الإيغال (*)
هذا النعت على مذهب أبي الفرج قدامة[١٨٣]، فأمّا الحاتميّ[١٨٤] فإنّه نعته بـ (التبليغ)، ولا خلاف بينهما في معناه، وهو أنْ يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاماً قبل انتهائه الى القافية، ثم يأتي بها لحاجة الشعر في كونه شعراً إليها، فيزيد المعنى نصوعاً وبلوغاً الى الغاية القصوى.
ومنه قول امرىء القيس[١٨٥] يصف الفَرَس:

إذا ما جَرَى شأوَيْنِ وابتلَّ عِطْفُهُ ... تقولُ هزيزُ الريحِ مَرَّتْ بأثْأَبِ

فتمّم الوصف قبل القافية، فلمّا احتاجَ إليها أوْرَدَها فزادتِ المعنى نصاعةً، لأنّ الأثأبَ شجر يكون للريح في تضاعيفه حفيفٌ شديدٌ.
وقوله[١٨٦] أيضاً:

كأنَّ عيونَ الوَحْشِ حولَ خِبائِنا   وأرْحُلِنا الجزعُ الذي لم يُثَقَّبِ

فقد أتى[187] على التشبيه قبلَ القافية، لأنَّ عيون الوحش إذا ماتت وتغيّرت صفاتها (٢٣٥) شبيهة بالجزع إلاّ انّها بما لم يثقب منه أشبه، فبلغ بالمعنى الى الأمد الأقصى في تأكيد التشبيه.

وقول ذي الرمة[188]:

قِفِ العَنْسَ في أطلالِ مَيَّةَ فاسأَلِ   رسوماً كأخلاقِ الرِّداءِ المُسَلْسَلِ
أظنُّ الذي يُجْدي عليكَ سُؤالُها   دموعاً كتبذيرِ الجُمانِ المُفَصَّلِ

فتَمَّمَ الكلامَ في التبيينِ قبلَ القافية، فلمّا احتاجَ إليها جاءَ بها فزادت في المعنى ما جَوَّدَه وجَمَّله.
وقول زهير[189]:

كأنَّ فُتاتَ العِهْنِ في كلِّ منزلٍ   نَزَلْنَ بهِ حَبُّ الفَنا لم يُحَطَّمِ

فالعِهنُ: الصوف الأحمر، وحبُّ الفنا يشبهه، فقد أتى على الوصف قبلَ القافية، لكنّ حبَّ الفنا إذا كُسِر كان تكسُّره غير أحمر فاستظهر في القافية لمّا جاءَ بها، ووكَّد التشبيه بإيغاله في المعنى.
وقد يقعُ مثل هذا للمترسِّل إذا قصدَ السجعَ، لأنّه ربما انقضى معناه قبلَ الفاصلة، فإذا احتاج إليها أتى بها زائدة في المعنى ما هو من تمامه. وهو كثيرٌ في الكلام لا يحتاج الى تمثيل.

ذكر التركيب (*)

هذا الباب تُسَمِّيه العامةُ (التجنيس) وتُخطىء فيه، وإنّما سُمّي تركيباً لأنّه يُؤتى فيه بالكلمة الأولى متصلةً ثمّ يُؤتى بما يقابلها مركّباً من كلمتين، وقلّ ما يسلمُ من ظهور التكلّف، (٢٣٦) وعليه أكثرُ شعر البُستيّ، ومنه قوله[190]:

وإنْ أَمَرَّ على رِقٍّ أناملَهُ   أقرَّ بالرِّقِّ كُتّابُ الأنامِ لَهُ

وقوله[191]:

لا تعصِ يا شمسُ على قابُوسا   فمَنْ عصى قابوسَ لاقى بُوسا

وقوله[192]:

يا هلالاً في وَجْهِهِ جدريٌّ   ظلَّ يحكي كواكباً في هلالِ
لا تلمني إنْ نَمَّ بالسِّرِّ دمعي   فله الدمع خالصاً فيه لا لي

وقوله[193]:

الى حتفي سَعَى قدمي   أرى قدمي أراقَ دَمي

وقوله[194]:

عَضَّني الدهرُ بنابِهْ   ليتَ ما حلَّ بنا بِهْ

ذكر الإلمام (*)

الإلمامُ مأخوذٌ من قولهم: أَلَمَّ فُلانٌ بفُلانٍ، إذا زاره، وهو أنْ يُؤتى بكلمة في الفصل الأوّل، ثمّ يُؤتى بها في الفصل الثاني قد قُلبت حروفها، مثل: فرق وقرف، ونحم ومحن، وفرش وشرف، وفرس وسرف.

ومنه قولُ بعضهم:

خـافتْ فـاشفقَ أنْ يـقـولَ لمـا ... خـافَتْ فأهدى لها في السِّرِّ تُفَّاحَا
فـراسَـلَتْـهُ بـأتـرجٍ تـقـولُ لـه ... قـد حرتُ فاختصها سِرًّا وما بـاحَـا
ومـا أرادا بمعكوس اسمِ مـابَعَثـا ... إلّا لمـا أفْسَدَ الـواشـون إصْـلاحَـا

وقولُ الآخر: (٢٣٧)

إذا رأيـتَ الـوداعَ فـاصْـبِـرْ ... ولا يـهـمـنُـكَ
وانـتـظرِ الـعَـوْدَ مـن قـريـبٍ ... فـإنْ عـدّ

ذكر الاستفهام (*)

هذا النوع في الكتاب العزيز على وجوه:

منها: التقرير للعباد، لأنّه تعالى لا يسألهم عمّا هو أعلمُ به منهم، كقوله تعالى لعيسى المسيح، عليه السلام: «أأنتَ قُلتَ للناسِ اتّخذوني وأُمّيَ إلَهَيْنِ من دونِ الله»[195].

ومنها: التعجبُ، كقوله تعالى: «عَمَّ يتساءلونَ عن النَّبأ العظيم»[196]، كأنّه قالَ: عَمّ يتساءلون يا محمد، عن النبأ العظيم يتساءلون.

ومنها: التوبيخ، كقوله: «أتأتونَ الذُّكرانَ من العالمين»[197].

فأما إذا استعمله الناسُ فإنَّ بعض البديعيين سمّاه: استفهام التَّبالُه، وسمّاه بعضُهم: تجاهُل العارف، وشوب الشكّ باليقين[198] وهو كثير في الكلام، ومنه قولُ زُهير[199]:

ومـا أدري وسـوفَ إخـال أدري ... أقَـوْمٌ آلُ حِـصْـنٍ أمْ نِـسـاءُ
فـإنْ تـكُـنِ الـنِّـسـاءُ مُخَـبَّـآتٍ ... فـحُـقَّ لـكـلِّ مُحْـصَـنـةٍ هِـداءُ

وقولُ ابنِ أبي أمية:

فَـديْتُكَ لم تشبعْ ولم تَرْوَ من هجري ... أيُستَحْسَنُ الهجـرانُ أكثر من شهْـرِ
أراني سـأسلو عنك إنْ دامَ مـا أرى ... بـلا ثـقـةٍ لكنْ أظنُّ ومـا أدري

(٢٣٨) وقول الآخر[200]:

بـالله يـاظَبيـاتِ القـاعِ قُلْنَ لنـا ... لبـلايَ منكُنَّ أم لَيْـلى من البَشَـرِ

ذكر التفريع (*)

التفريعُ أنْ يأخذ الشاعرُ في وصفٍ من الأوصافِ فيقول: ما كذا وينعته نعتاً حسناً، ثمّ يقولُ: بأفْعَلَ من كذا.

ومنه قولُ الصِّمَّة بن عبد الله القُشَيْريّ[201]:

ومـا وَجْدُ اعـرابيـةٍ قـذَفَتْ بهـا ... صروف النَّوى من حيثُ لم تَكُ ظَنَّتِ
تمنَّتْ أحـاليبَ اللِّقـاحِ وبيـزتهـا ... بنجـدٍ فلم تقـدرْ عـلى مـا تمنَّتِ
إذا ذكـرتْ مـاءَ العِضـاه وطِيبَـهُ ... وبَـرْدَ الحصى من بَطْنِ خَبْتٍ أرَنَّتِ
بـأكـثَرَ مـني لـوعـةً غـير أنَّني ... أطـامِنُ أحشـائي عـلى مـا أجَنَّتِ

وقولُ الأعشى[٢٠٢]:

ما روضةٌ من رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ ... خضـراءُ جـادَ عليهـا وابلٌ هَـطِلُ
يُضاحِكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ ... مُؤَزَّرٌ بعَميمِ النَّبْتِ مُكتهِـلُ
يـومـاً بـأطْيَبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ... ولا بـأحْسَنَ منهـا إذْ دنـا الأصُـلُ

وهذا النوع كثيرٌ في الكلامِ منظومِهِ ومنثورِهِ.

ذكرُ التبديل (*)

(٢٣٩) التبديل أنْ يقدّمَ في الكلام جُزءاً ألفاظُهُ منظومةٌ نظاماً فيعقب هذا الجزء بجزء يجعل فيه ما كانَ في الجزء الاول مُقدَّماً مؤخَّراً، وما كانَ مؤخَّراً مُقدَّماً.

ومنه قول بعضهم[٢٠٣]: انعم على مَنْ شكَرَ لكَ، واشكر لِمَنْ أنْعَمَ عليك، وصِلْ مَنْ هَجَرَكَ ولا تَهْجُرْ مَنْ وَصَلَكَ.

وقولُ الحسن البصري للمغيرة بن مُخارِش التميمي[٢٠٤]:

(إنّ مَنْ خوَّفَكَ الى أنْ تلقى الأمنَ خيرٌ لكَ مِمَّنْ أمَّنَكَ الى أنْ تلقى الخوفَ).

وقولُهُ[٢٠٥]: (ما رأيْنا يقيناً لا شكَّ فيه أشْبَهَ بشكٍّ لا يقينَ فيه من الموتِ).

ولمّا قدم الهيثم بن الأسود بنِ العُريان[٢٠٦] على عبد الملك بن مروان قال: كيفَ تجدُكَ؟ قالَ: (أجِدُني قد ابيضَّ مني ما كنتُ احبُّ أنْ يَسْوَدَّ، واسْوَدَّ مني ما كنتُ احبُّ أنْ يَبْيَضَّ).

وقال عمرو بن عبيد في دعائه: (اللهُمَّ أغْنِني بالفقرِ إليكَ، ولا تُفْقِرْني بالاستغناء عنك)[٢٠٧].

ذكر التصريع (*)

التصريعُ تصْييرُ مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل القافية، فإنّه إذا كانَ كذلك دلَّ على الرَّوِيِّ؛ وإذا كانَ على خلافِهِ أوهم أنّ الرَّوِيَّ[٢٠٨] بحسب التصريع. وفيه أيضاً دلالةٌ على تمكين الشاعر واقتداره، ألا ترى الى قول أبي تمام[٢٠٩]:

وتقفـو الى الجَـدْوَى بجَـدْوَى وإنّمـا ... يروقُـكَ بيتُ الشعر حينَ يُصَـرَّعُ

ومِنَ الشعر المُصَرَّعِ قول حاتم الطائيّ[٢١٠] الدّالُ على الرَّوِيِّ: (٢٤٠)

أتَعْـرِفُ أطـلالاً ونُؤْيـاً مُـهَـدَّمـا ... كـخَـطِّكَ في رقٍّ كتـابـاً مُنَمْنَـمـا

وقول امرىء القيس[٢١١]، وهو أكثرُ مَنْ صَرَّعَ الشعرَ:

قِفـا نَبْكِ من ذكـرى حبيبٍ ومنـزلِ ... بسِقْطِ اللِّوى بينَ الدَّخُولِ فحَوْمَلِ

وفي هذه القصيدة أبياتٌ كثيرةٌ مُصَرَّعة.

ومن الشعر غير المُصَرَّعِ الذي تشكلُ قافيته[٢١٢]:

لِمَنْ منزلٌ عافٍ ورسمُ منازلِ   عفَتْ بعد عَهْدِ العاهدين رياضُها

لأن هذا البيت يوهمُ أنّ القافيةَ لاميّةٌ، فجاءتْ بخلافِ ذلك.

ذكر الاستدراك (*)

الاستدراكُ أنْ يكونَ الشاعرُ في معنى فينفي شيئاً، ثمّ يستدركه بما يؤكد النفي أو بما يثبت ما نفاه.

ومنه قولُ بشّار[٢١٣]:

نُبِّئْتُ ناكِحَ أُمِّهِ يغتابُني   عند الأميرِ وهل عليَّ أميرُ

وقولُ الآخر[٢١٤]:

وما بي انتصارٌ إنْ غدا الدهرُ ظالمي   عليه بل إنْ كانَ مِن عندكَ النُّصْرُ

وقولُ الآخر[٢١٥]:

أليسَ قليلاً نَظْرَةٌ إنْ نظرتُها   إليكِ وكلّا ليسَ منكِ قليلُ

(٢٤١) وقولُ أبي البَيْداء[٢١٦]:

كَفى حَزَناً أنْ لا يزالَ يزورني   على النأي طَيْفٌ من خيالِكِ يا نُعْمُ
وأنتِ مكانَ النَّجْمِ منّا وهل لنا   من النَّجْمِ إلّا أنْ يقابلَنا النَّجْمُ

ذكر الحشو المفيد (*)

قال أبو عليّ الحاتمي[٢١٧]: هو اللفظةُ يُسَدُّ بها البيتُ لتمام الوزن فيزيد المعنى نصاعةً وبراعةً.

ومنه قولُ عبد الله بن المُعْتَزّ[٢١٨]:

وخَيْلٍ طواها القَوْدُ حتى كأنّها   أنابيبُ سُمْرٍ من قَنا الخَطِّ ذُبَّلُ
صَبَبْنا عليها ظالمينَ سِياطَنا   فطارَتْ بها أَيْدٍ سِراعٌ وأَرْجُلُ

فقوله: (ظالمين)، نافٍ عنها هُجْنَةَ البطاء ودالٌّ على أنْ ضَرْبَها من غيرِ احواج.

وبقول ابنِ الروميّ[٢١٩]:

تُحِلُّ أياديكم بحقٍّ وإنّها   لديكم بلا حَقٍّ لَمُحْتَفَراتِ

ذكر الرَّجْع (*)

قال أبو علي الفارسيّ: إنّما سُمّي هذا النوع رَجْعاً، لأنّ حروف الكلمة الأولى ترجع في الأخرى.

وهو على ضربين: مجتمع ومفترق.

فالمجتمعُ: أنْ تكونَ الكلمتان على وزنٍ واحدٍ وحروفٍ واحدة لا يختلف منها إلّا الحرفان الأولان، كقوله تعالى: « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ

لُمَزَة»(***)، وقول بعضهم: (ما مَدْحُكَ وإنّما قَدْحُك).
والمُفترق: أنْ (٢٤٢) يبدأ بكلمةٍ ثمّ يعيدها لا يزيد في حروفها ولا ينقص، إلاّ أنّك تنقل الحرف الثاني من الأول فتوقعه في أوّل الأخرى، مثل: عماد ومعاد. ومنه قول الشاعر:

مراح رماح قابلتها بخوْمَةٍ فصاح صفاح في الجسوم وفي الهام

وقد أدّى بي الاستنباطُ الى أنّ هذا الباب ينقسمُ الى ستةِ أقسام:
قسم يزيد في احدى الكلمتين على الأخرى بحرفٍ في آخرها مع اتفاق سائر حروفها نحو: همو وهموع، وهمو وهمود، وسلو وسلوع، وسمو وسموق، وعتو وعتود.
وقسم تزيد فيه احدى الكلمتين على الاخرى بحرف في أولها، نحو: هيم وبهيم، وريف وشريف، ودين ومدين، وهيف ولهيف.
وقسمٌ يتساوى فيه عدد حروف الكلمتين ويتفق جميعها إلاّ الحرفان الأولان، نحو: هُمَزَة ولُمَزَة، وزيْف وسيْف، ووسيم وجسيم وقسيم ورسيم ونسيم.
وقسمٌ يتساوى فيه عدد حروف الكلمتين ويتفق جميعها إلاّ الحرفان الأخيران منها، نحو: مُرافق ومُرافد، ومساعِف ومساعِد، ومشاكل ومشاكه، ومصارم ومصارف، ومثل: استعارَ واستعادَ، واستطالَ واستطاب، وانحسام وانحسار.
وقسمٌ لا تختلف فيه حروف الكلمتين وإنّما يكون أوّل حرف في الكلمة الأولى، ثاني حرف في الثانية، وثاني حرف في الثانية أوّل حرف في الأولى، مثل: معاد وعماد، وعباد وبعاد، وشراد ورشاد.
وقسمٌ لا تختلف حروفه، وإنّما يكون الحرف الأخير في ﴿الأولى قبل الحرف الأخير في﴾ الثانية، مثل: شرع (٢٤٣) وشعر، وسرع وسعر، وشارع وشاعر، وشاتم وشامت، وريع ورعي.
وينبغي لِمَنْ وقع في كلامه قسم من هذه الأقسام أنْ يعرف موقعه من الحسن، وإنْ احبّ أنْ ينسبه الى هذا الباب ويعدّه قسماً من أقسامه فَعَلَ، وإنْ أحبّ أنْ ينعتَهُ بنعتٍ كان ذاك إليه.

ذكر التوشيع (*)

التوشيع مأخوذ من الوشيعة، وهي الزهرُ المختلف الألوان، ومن البُرْدِ الوشيع، وهو الكثير النقوش، ومعناه أنْ يأتي بكلمةٍ يجعلها أصلاً ثم يُفرّعها على معنيين، كقولك: (فلانٌ يرغبُ في ودادِكَ ويرغبُ عن بِعادِكَ).
وكقول الشاعر:

أوْ ما تنظرين بالله قلبي يشتكي شرقةُ إليكِ إليكِ
لو عرفت الهوى عذرت ولكن هان لمّا خفي عليكِ عليكِ
فارحمي قلبَ عاشقٍ مُستهامٍ هو رَهْنٌ بما لَدَيْكِ لَدَيكِ

فأصْلَ في كلِّ بيْتٍ كلمةً ثمّ فرّعها الى مقصد آخر.
وقال عبد الله بن المعتز(***): إنّ الجاحظ سمّى هذا النوع المذهب الكلامي، وأنّه فحصَ عنه في كتاب الله تعالى فلم يقع فيه نقل شيءٍ منه، وذلكَ لأنّ فيه تكلّفاً لا يحسُنُ أنْ يكونَ إلاّ من البشر، تعالى الله عن ذلك. ومثْله بقول عبد الله بن العباس لعمر بن الخطاب وقد قال له: مَنْ ترى أنْ نُولّيه حِمصَ قال: رجلاً صحيحاً لك صحيحاً منك. (٢٤٤) قال: فكُنْ أنتَ ذلك الرجل. قال: لا يُنتفع بي مع سوء ظني بك وسوء ظنّك بي.

وقول الفرزدق[٢٣٦]:

لكلِّ امرىءٍ نَفْسانِ نفسٌ كريمةٌ وأخرى يُعاصيها الفتى ويُطيعُها
ونفسُكَ من نَفْسَيْكَ تشفعُ للندى إذا قلَّ من أحرارِهنَّ شفيعُها

ومن هذا الباب قول اليزيديّ[٢٣٧] للمأمون يعتذرُ:

البِرُّ بي منكَ وطَّأَ العُذرَ عندكَ لي
فيما فعلتُ فلم تعذل ولم تَلُمِ
وقامَ علمُكَ بي فاحتجَّ عندكَ لي
مقامَ شاهدِ عدلٍ غيرِ مُتَّهَمِ

وقول أبي نواس[٢٣٨]:

إنَّ هذا يرى ولا رأيَ للـ ـأحمقِ أنّي أعدُّه إنسانا
ذاكَ في الظنِّ عنده وهو عندي كالذي لم يكن وإنْ [كان] كانا

وقول الطائيّ[٢٣٩]:

المَجدَ لا يرضى بأنْ ترضى [بأنْ يرضى] امرؤٌ يرجوكَ إلاّ بالرِّضا

وقول ابراهيم بن العباس[٢٤٠]:

وعلّمتني كيفَ الهوى وجهلتُه وعلّمكم صبري على ظُلمكم ظُلمي
واعلمُ ما لي عندكم فيميلُ بي هوايَ الى جهلي فأعرضُ عن علمي

وقول ابن المُعتزّ[٢٤١]: (٢٤٥)

أسرفتُ في كتماني وذاكَ منّي دهاني
كتمتُ حُبَّك حتى كتمتُهُ كِتماني
ولم يكنْ ليَ بُدٌّ من ذكرِهِ بلساني

ذكر التّرديد (*)

اختلف البديعيون في الترديد فقال عبد الله بن المعتز[٢٤٢]: ردّ أعجاز الكلام على صدوره ينقسم الى ثلاثة أقسام:
أحدها: أنْ يوافقَ آخرُ كلمةٍ في البيت آخرَ كلمة في نصفه، مثل قول الشاعر[٢٤٣]:

يُلفى إذا ما الأمرُ كانَ عَرَمْرَما في جيشِ رأيٍ لايُفَلُّ عَرَمْرَمِ

وثانيها: أنْ يوافقَ آخر كلمة في البيت أوّل كلمةٍ منه، كقول الشاعر[٢٤٤]:

سريعٌ الى ابنِ العمِّ يشتِمُ عِـرْضَـهُ ... وليسَ الى داعي النَّـدَى بسـريـعِ

وثالثهما: أنْ يوافقَ آخر كلمة منه بعض ما فيه، كقول الآخر[٣١]:

عـمـيـدُ بـني سُـلَيْـمٍ أقْـصَـدَتْـهُ ... سِـهـامُ الـموتِ وَهْـيَ لَـهُ سِـهـامُ

وقال ابو علي الحاتميّ[٣٢]: الترديدُ أنْ تُعَلِّقَ اللفظةَ في البيت بمعنىً ثمّ يردّها متعلّقةً بمعنىً آخر. قال: وهو مذهبُ المُحدثين، ومثّله بقول أبي حيّة النميريّ[٣٣]:

ألا حَيِّ من أجـلِ الحبيبِ المَغـانِيـا ... لبِسْنَ البِـلَى مِمّـا لبِسْنَ اللّيـالـيـا

(٢٤٦) إذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ ... تقـاضـاهُ شيءٌ لا يَمَـلُّ التقـاضِيـا

وبقول زُهير[٣٤]:

مَنْ يَلْقَ يوماً على عِلاّتِهِ هَرِماً ... يلقَ السماحةَ منه والنَّدَى خُلُقـا

وبقول الباهليّ:

لقـد مـلأتْ عيـني بغـرٌّ محـاسِنٍ ... مـلأْنَ فـؤادي لـوعـةً وهـمـومـا

والترديد عند أبي عليّ الفارسيّ ليس من هذا النوع في شيء، وإنّما هو أنْ يأتي بكلمتين حروفُ أحدِهما بعض حروف الأخرى، مثل: كتاب وتاب، وشباب وباب، وعذاب وذاب. وهذا دخل في أقسام الترجيع الستة التي تقدّمَ ذِكْرُها.

وردُّ أعجاز الكلام على صدوره يقع في فصول المنثور كما يقع في أبيات المنظوم.

ذكر التصدير (*)

قال بعض البديعيين: التصديرُ أنْ يأتي الشاعرُ بلفظةٍ في صدر البيت ثم يعيدها في عجزه أو نصفِهِ الأوّلِ، ثمّ يردّها في نصفه الآخر، وأنّ ذلك ليسهل الطريقَ الى المعرفة بقوافي الشعر قبلَ مرورِها على الأسماع.

وهذا شبيه بالترديد إلاّ أنّ الفرقَ بينهما أنّ الترديد تعود فيه اللفظة متعلّقة بغير المعنى الذي دلّت عليه أوّلاً، والتصدير تعود فيه اللفظة وهي متعلّقة بالمعنى بعينه (٢٤٧)، كقول الشاعر[٣٥]:

وكنت سنـامـاً في فـزارة تـامِكـاً ... وفي كـلِّ حـيٍّ ذِرْوَةٌ وسـنـامُ

وكقول جرير[٣٦]:

سَـقَـى الـرمـلَ جَـوْنٌ مُـسْـتَـهِـلٌّ رَبـابُـهُ
ومـا ذاكَ إلاّ حُـبُّ مَـنْ حَـلَّ بـالـرَّمْـلِ

على أنّ عبد الله بن المعتزّ[٣٧] قد انتظم النوعين فيما مثّل به في باب الترديد ولم يفرق بينهما.

ذكر التسميط (*)

التسميط أنْ يتوخّى تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على حُكْمِ السجع أو ما يشابهه، أو من جنسٍ واحدٍ في التصريف والتمثيل وهو كثير في الشعر القديم والمحْدَث.

وإنّما ذهبوا هذا المذهبَ لأنّ بنيةَ الشعر إنّما هي التسجيع والتقفية، فلمّا كانَ الشعر أكثرَ اشتمالاً عليهما كانَ أدخلَ في باب الشعر، إلاّ أنه لا ينبغي أنْ يستكثرَ منه، فإنّه إنّما يحسُنُ إذا وقع نادراً في البيت.

ومنه قول امرىء القيس[238]:

رَقَاقُها ضَرِمٌ وجَرْيُها خَذِمٌ ولحمُها زِيَمٌ والبَطْنُ مُقَبَّبُ

وقول الطائي[239]:

ومن فاحِمٍ جَعْدٍ ومن كَفَلٍ نَهْدٍ ومن قمرٍ سَعْدٍ ومن نائلٍ ثَمْدِ

وهذا البابُ هو ترصيع الموازنة على مذهب أبي عليّ الفارسيّ، وقد ذكرناه في (٢٤٨) باب الترصيع، وأنّما أعدناه ها هنا لأنّا وجدنا جماعة من البديعيين قد جعلوه باباً مفرداً قائماً بنفسه وأوقعوا عليه هذا النعت.

ذكر التضمين (*)

قد جرت عادةُ الشعراء تضمُّن أشعارهم الأبيات النادرة، والحكم في ذلك كالحكم في تضمينها الأبيات السائرة، وذلكَ لأنّ البيت الشرود إذا وضع في موضعِه ﴿ أصبح له ﴾ من الطلاوة ما ليس لبيت بصوغه الشاعر في معناه، ومن الدلالة على الغرض ما لا يقاربه غيره في وضوحه. وتنخّل ما يوضع من ذلك في مواضعه إنّما يفتقر الى جودة الاختيار والمعرفة بما يستحقّه كلّ معنى. وقد ضمَّنَ بعضهم البيتَ ونصفَهُ ورُبْعَهُ والكلمة منه، وذلك على حسب ما يقتضيه الموضع.

ومن مستحسن التضمين قولُ بعضهم[240]:

خُلِقْتُ على باب الأمير كأنّني قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

وقولُ ابن الروميّ[241]:

قالَ لي عُمْرُها وقد دارَسَتْني لا تُعَرِّجْ بدارجِ الأطلالِ

وقولُ الآخر[242]:

عَوَّذَ لمّا بِتُّ ضَيْفاً له أقراصَهُ بُخْلاً بياسينْ
فبِتُّ والأرضُ فراشي وقد غَنَّتْ قِفَا نبكِ مَصارِيني

(٢٤٩) وقولُ أبي نواس[243]:

ومُسْمِعَةٍ متى ما شئتُ غَنَّتْ متى كانَ الخِيامُ بذي طُلُوحِ

وقول الحِمّانيّ[244]:

وقائلةٍ والدمعُ سَكْبٌ مُبادرٌ وقد شرقتْ بالماءِ منها المحاجِرُ
وقد أبصرتْ حِمّان من بعدِ أُنسِها بِنا وهي منّا موحشاتٌ دوائِرُ
(كأنْ لم يكنْ بينَ الحجونِ الى الصَّفَا أنيسٌ ولم يسمُرْ بمكّةَ سامِرُ)

فقلتُ لها والقلبُ مني كأنّما ... تقلّبه بين الجنا حين طائرُ
(بل نحنُ كُنّا أهلَها فأبادَنا ... صروفُ الليالي والدهورُ الغوابِرُ)

ذكر توكيد المدح بما يشبه الذّمّ (*)

قال الحاتمي[215]: وأوّل مَنْ افترعه النابغة[216] فقال:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهم ... بِهِنّ فُلولٌ من قِراعِ الكتائب

وقال أيضاً[217]:

فتىً كَمُلَتْ أخلاقُهُ غيرَ أنّهُ ... جوادٌ فلا يُبقي من المالِ باقيا
فتىً تَمّ فيه ما يسُرُّ صديقَهُ ... على أنّ فيه ما يسوءُ الأعاديا

(٢٥٠) وقال حاتِم الطائيّ[218]:

وما تشتكيني جارتي غيرَ أنّني ... إذا غابَ عنها بَعْلُها لا أزورُها

وقال الآخر:

ولا عيبَ فيهم غيرَ شحِّ نسائِهم ... ومن السماحةِ أنْ يكُنّ شحاحا

ذكر الاستطراد (*)

الاستطرادُ: مأخوذ من طِرادِ الخيل، وهو خروجُها من مُنْقَلَبٍ الى مُنْقَلَبٍ من غير انفصال، لأنّها إذا انفصلتْ زالَ عنها اسم الطِّراد، لأنّ الشاعر يمرُّ في مدحٍ أو ذمٍّ، فَبَيْنا هو كذلك إذ استطرَدَ بغيره ممّا له تعلّق بالمعنى.

فمنه الخروجُ الى المدح، كقول زُهير[219]:

إنّ البخيلَ مَلُومٌ حيثُ كانَ ولـ ... ـكنّ الجوادَ على عِلّاتِهِ هَرِمُ

ومنه الخروج الى الهجو، كقول الآخر[220]:

إذا ما اتّقى اللهَ الفتى وأطاعَهُ ... فليسَ به بأسٌ وإنْ كانَ من جَرْمِ

وقول بشّار[221]:

خليليّ من سَعْدٍ أعينا أخاكُما ... على دهرِهِ إنّ الكريمَ مُعينُ
ولا تبخلا بُخْلَ ابنِ قَزْعَةَ إنّه ... مخافةَ أنْ يُرجى نداه حزينُ
(٢٥١) إذا جئتَهُ في حاجةٍ سَدَّ بابَهُ ... فلم تَلْقَهُ إلّا وأنتَ كمينُ

وقول أبي العتاهية[222]:

وأحببتُ من أجْلِها الباخِلِيـ ... ـنَ حتى وَمَقْتُ ابنَ سَلْمٍ سعيدا
إذا سِيلَ عُرْفاً كَسا وَجْهَهُ ... ثياباً من اللؤمِ صُفْراً وسُودا

وقول اسحاق الموصلي[٢٥٣]:

فـما ذَرَّ قَـرْنُ الشمسِ حتى رأيتنـا ... من الغيِّ نحكي أحمدَ بنَ هشام

وقول سعيد بن حُمَيْد[٢٥٤]:

يـا ذا الـذي يُـنكـرُ ودِّي لـه ... ويـدَّعـي غـدري وهـجراني
أَتجحدُ العهدَ الذي بيننـا ... واصحبُ النُّعمى بكُفرانِ
صَبَّحَني الله إذاً غاديـاً ... بوَجْهِ وَهْبِ بنِ سُليمانِ

وقول بعض الكُتّاب، وأوهم أنه يُعاتبُ جاريةً:

اسكُتي لا تَكَلَّمي يا فتوحيَّةَ الفَمِ.
ليسَ خلقٌ بمشتريك على ذا بدِرْهَمِ.
ظَهَرَتْ دولةُ اللُّواطِ بيحيى بنِ أكْثَمِ.

وقول أبي تمام[٢٥٥] يهجو عثمان بن إدريس الشامي: (٢٥٢))

وسابحٍ هَطِلِ التَّعْداءِ هتّانِ ... على الجراءِ أمينٍ غيرِ خَوّانِ
أظْمَى ولم تَظْمأ قوائِمُهُ ... فخَلِّ عَيْنَيْكَ في ظَمْآنَ رَيّانِ
فلو تراهُ مُشيحاً والحصى زِيَمٌ ... بينَ السَّنابِكِ من مَثْنى ووُحدانِ
أيقَنْتَ إنْ لم تثبَّت أنَّ حافِرَهُ ... من صَخْرِ تَدْمُرَ أو من وَجْهِ عثمانِ

وقول البُحتريّ[٢٥٦]:

وأغَرَّ في الزمنِ البهيمِ مُحَجَّلٍ ... قد رُحْتُ منه على أغَرَّ مُحَجَّلِ
كالهَيْكَلِ المبنيِّ إلّا أنّه ... في الحُسْنِ جاءَ كصُورةٍ في هَيْكَلِ
مَلَكَ العيونَ فإنْ بدا أعطَيْنَه ... نَظَرَ المُحِبِّ الى الحبيبِ المُقْبِلِ
ما إنْ يعافُ قَذىً ولو أوْرَدْتَه ... يوماً خلائِقَ حَمْدَوَيْهِ الأحْوَلِ

ذكر المماثلة (*)

قال عبد الله بن المعتز[٢٥٧]: المُماثلةُ أنْ يؤتى بحرفَيْنِ لفظُهما مختلفٌ ومعناهُما مُتّفِقٌ إرادةً للتوكيدِ، كما قال الحُطيئة[٢٥٨]:

ألَا حبّذا هِنْدٌ وأرضٌ بها هِنْدُ ... وهِنْدٌ أتَى من دونِها النَّأْيُ والبُعْدُ

فالنأيُ والبعدُ لفظُهما مختلفٌ ومعناهما متفقٌ. وهذا يدخل في باب ترديد الألفاظ المُترادفة على المعنى الواحد لتوكيده. وهو كثيرٌ في الكلام.

(٢٥٣)ذكر الهزْل المُراد به الجدّ (*)

قال عبد الله بن المعتز[٢٥٩]: وهو مثلُ قول ابي العتاهية[٢٦٠]:

أرْقيكَ أرْقيكَ بسم الله ارقيكا … من بُخلِ نفسٍ لعلَّ الله يشفيكا
ما سِلْمُ نفسِكَ إلّا مَنْ يتاركها … ولا عدوُّك إلّا مَنْ يُرجّيكا

وقول أبي نواس[illegible]:

إذا ما تميميٌّ أتاكَ مُفاخراً … فقُل عَدِّ عن ذا كيفَ أكْلُكَ للضَّب

وقولُه[illegible] للفضل بن الربيع:

ولي حُرَمٌ ولا تَتَغافلْ عنها … لتدفَعَ حَقَّها دَفْعَ الغَريمِ
تعامَلُ لي كأنَّكَ وابنُ طيٍّ … وبينَكَ بينَ زَمْزَمَ والحَطيمِ

ذكر الاستثناء (*)

قال عبد الله بن المعتز[illegible]: هو أنْ يقول المُتكلّمُ قولاً مُطلقاً ثمّ يستثني منه بعضَهُ، كقول أبي نواس[illegible] في الأمين:

يا خيرَ مَنْ كان ومَنْ يكونُ … إلّا النّبيُّ الطاهرُ الميمونُ
إمامُ عَدْلٍ ما لَهُ قرينُ … أستغفرُ الله بلى هرونُ

وقول الآخر[illegible]:

ألبَسُ قليلاً نظرةً إنْ نظرتُها … إليكَ وكلّا ليسَ منكَ قليلُ

(٢٥٤) ذكر التّفويف (*)

قال البديعيون: التفويفُ أنْ يكونَ الكلامُ حَسَنَ الرَّوِيِّ، طَيِّبَ القِرى، مُتحلِّياً برونقِ الفصاحةِ، عاطلاً من البشاعةِ، ظاهرَ المعنى، لا يحتاجُ الى تكلُّفٍ في استخراجه، مشتمل على كثيرٍ من الصنعتين البلاغية والبديعية اشتمالَ سهولةٍ من غير توعّرٍ وطبعٍ من غير تكلّف.

وهذه العبارةُ تدلُّ على انتظامِ هذا البابِ لجميعِ الكلامِ البَيِّنِ البليغِ الملائم، والاختصار منه على أمثلة مع استفاضتِهِ.

هذا آخر ما وقعَ إليّ من أنواعِ البديع الذي إذا استعملها مؤلِّفو الكلامِ فيما يؤلِّفونَهُ بغيرِ تكلُّفٍ ولا تعسُّفٍ رتبتْ معانيهم وزيّنتْ مبانيهم وقَضَتْ بتقبُّلِ الأسماعِ والقلوبِ لها.

وقد استوفينا القولَ عليها وعلى الخلافِ الواقعِ فيها، ونحنُ لذلك نتعدّى هذا البابَ الى ما يتلوه بمشيئةِ الله وعونِهِ.

الهوامش

(١) الزخرف ٤٨ .
(٢) الأنعام ٢٧ .
(٣) في الأصل: شكره.
(*) ينظر : البديع ٧٥، الايضاح ٤٢٨، المطول ٤٧٧ .
(٤) ديوانه ٨ .
(٥) حلية المحاضرة ١ / ٢٠٥ .
(٦) ديوانه ٥٤ .
(٧) ديوانه ٢ وفيه: سالف الأبد
(٨) ديوانه ٣٣ .
(٩) ديوانه ٥٠ .
(١٠) ديوانه ٢٧ .
(١١) ديوانه ٣ / ٢١ .
(١٢) ديوانه ٣ / ٢٦١ .
(١٣) ديوانه ٣ / ١٠ وفيه: هي الصبابة. والزيادة منه .
(١٤) ديوانه ٣ .
(١٥) ديوانه ٩ .
(١٦) الجمدي، شعره: ٧٧ .
(١٧) وزير الرشيد ، ت ١٩٣ هـ. (تاريخ بغداد ١٢ / ٣٣٤، وفيات الأعيان ٤ / ٢٧).
(١٨) ديوانه ١ / ١٥٢ ـ ١٥٥ . (فاغنر).
(١٩) الرواية في ديوانه (فاغنر) ١ / ١٥٦ ـ ١٥٧ .
(٢٠) ديوانه ٨٧٦ وعجزه: ووشكُ نَوَى حيٍّ تَزَمُّ أباعِرُه
(*) ينظر: البديع ٦٠ ، المنصف ٨٢، العمدة ١ / ٢٣٤، جوهر الكنز ١٥٧ .
(٢١) ديوانه ٣١٦، ورواية الثاني فيه: صبرت لها .
(٢٢) شعراء عباسيون ١ / ٦٢، ورواية الثاني فيه: ونشا علال. .
(٢٣) ديوانه ٧٠٣
(٢٤) ديوانه ٤٩٦
(*) ينظر: نقد الشعر ٤٠، الصناعتين ٣٩٠، البديع في نقد الشعر ١١٦، تحرير التحبير ٣٠٢ ، جوهر الكنز ٢٥٤ .
(٢٥) في الأصل: نصب. وهو تصحيف.
(٢٦) المتشابه ١٢ . وجاء برواية اخرى في سنن ابن ماجة ٥٩٨ والجامع الصغير ٢ / ٦٣ .
(٢٧) أخل به ديوانه .
(٢٨) الاحزاب ٦٥. ولعله أراد أيضاً الآية ٩ من الأحزاب وهي: « وكان الله بما تعملون بصيرا ». فيكون الفرق في الإعجام بين (نصيرا) و (بصيرا).
(٢٩) القول للإمام علي (رض) في المتشابه ١٣ وجنى الجناس ١٨١ .
(٣٠) الكهف ١٠٤ .
(٣١) ديوانه ٢١٥ .
(٣٢) ديوانه ٢٢٥ ، ومع خلاف في الرواية .
(٣٣) ديوانه ١٩ ، وتمامه : معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل
(٣٤) ديوانه ٢٣٧ ، وعجزه: قوداء ليها إذا استعرضتها خضع
(٣٥) عبد الملك بن محمد، ت ٤٢٩ هـ. (نزهة الالباء ٣٦٥؛ وفيات الأعيان ٣ / ١٧٨).
(٣٦) طبع ناقصاً ببغداد باسم (المتشابه)، وتنظر ص ١٢ منه .
(٣٧) المتشابه ١٢ ، وينظر: الجامع الصغير ٢ / ٦٢ وجنى الجناس ١٨٠ .
(٣٨) المتشابه ١٣ .
(٣٩) هو الجاحظ في الحيوان ٣ / ١٨٤ و ٤ / ٤١٠. والقول له في المتشابه ١٤ وخاص الخاص ٩ .
(٤٠) الجاحظ أيضاً في المتشابه ١٤ وخاص الخاص ٩ .
(٤١) المتشابه ١٥ .
(٤٢) صحابي، ت ١٨ هـ . (اسد الغابة ٥ / ١٩٤ ، الاصابة ٦ / ١٣٦) وقوله في الاعجاز والايجاز ٣٧ والمتشابه ٣٧ .
(٤٣) العباس بن الحسن العلوي في خاص الخاص ٩ .
(٤٤) المتشابه ٣٧ .
(٤٥) المتشابه ٣٨ .
(٤٦) المتشابه ٣٨ .
(٤٧) المتشابه ٣٨ . وفي الأصل: ورائحة الجنان وغذاء الروح. . .
(٤٨) ابن بليك في المتشابه ٤٠ .
(٤٩) المتشابه ٤١ .
(٥٠) المتشابه ٤١ .
(٥١) في الأصل: فيشبه.
(٥٢) اسماعيل بن عباد ، ت ٢٨ هـ. (يتيمة الدهر ٣ / ١٩٢ ، معجم الأدباء ٦ / ١٦٨). وقوله في المتشابه ٤٤ .
(٥٣) في جنى الجناس ٧٦: (قال الجاحظ: فلان يعاتب على حرف، ويعبد المودة على حرف). الأول: أحد حروف الهجاء، والثاني: الطرف.
(٥٤) المتشابه ٤٤ .
(٥٥) يتيمة الدهر ٤ ك ٣٠٦ والمتشابه ٤٤ . وفي الأصل: خيم غير وخيم.
(٥٦) ديوانه ٢١٢٠ .
(٥٧) يتيمة الدهر ٢ / ٢٤٤ .
(٥٨) شعره: ٢٩٨ .
(*) ينظر: نقد الشعر ١٣٣ ، حلية المحاضرة ١ / ١٥٣ ، الصناعتين ٣٤٦، كفاية الطالب ١٤٤ ، جوهر الكنز ٨٥.
٥٩) نقد الشعر ١٣٣
(٦٠) بلا عزو في نقد الشعر ١٣٣ وكفاية الطالب ١٤٥ .
(٦١) بلا عزو في نقد الشعر ١٣٣ .
(٦٢) حلية المحاضرة ١ / ١٥٣ .
(٦٣) الجمدي، شعره: ١٧٤ .
(*) ينظر: نقد الشعر ١٣١ ، الصناعتين ٣٥٠، البديع في نقد الشعر ٦١، كفاية

الطالب ١٤٧، تحرير التحبير ١٧٣، الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة ٢٧٧.

(٦٤) نقد الشعر ١٣١.

(٦٥) ديوانه ٥٤.

(٦٦) شعره: ٩٤.

(٦٧) نقد الشعر ١٣٢. وفيه: يصف فرساً على هيئته.

(٦٨) ديوانه ٧٥.

(٦٩) شعره: ٧٥.

(٧٠) شعره: ٦٨ وفيه إن حاربوا.

(٧١) ديوانه ١٥٨٧ ـ ١٥٨٨.

(٧٢) ديوانه ١ / ٣١٨، ٣٢٠.

(٧٣) ديوانه ٩٢. وفي الأصل: أرساغه، يتدحرجُ، بالرفع والصواب ما أثبتنا.

(•) الوافي ٢٨٨ وقانون البلاغة ١٢٤. وهو التفسير في نقد الشعر ١٣٥ والعمدة ٢ / ٣٥ وكفاية الطالب ١٨٢ والجامع الكبير ٢٢٣ وجوهر الكنز ١٤٨.

(٧٤) ديوانه ٧٤٩ وفيه: لقد خنت.

(٧٥) نقد الشعر ١٣٧ وزهر الآداب ٥٧٨.

(٧٦) أخلَّ بها ديوانه.

(٧٧) ديوانه ٢٤٣.

(•) ينظر: نقد الشعر ١٤٦، الصناعتين ٤٠٧، العمدة ٢ / ٤٥، قانون البلاغة ١١٠، كفاية الطالب ١٩٠، المثل السائر ٢ / ١٧٠، الطراز ٢ / ١٣١.

(٧٨) البديع ٥٨.

(٧٩) يونس ٢٢.

(٨٠) ديوانه ٢٧٩.

(٨١) ديوانه ٢ / ١١٠.

(٨٢) حلية المحاضرة ١ / ١٥٧.

(٨٣) البديع ٥٩.

(•) ينظر: الصناعتين ٤١٠، البديع في نقد الشعر ١٣٠، جوهر الكنز ١٢٨، الطراز ٢ / ١٦٧، خزانة الأدب ٣٦٦.

(٨٤) البديع ٥٩.

(٨٥) بلا عزو في البديع ٥٩ والصناعتين ٤١٠ وفيهما: على مشرع.

(٨٦) ديوانه ٥٠٧.

(٨٧) الجعدي، شعره: ١٦٢.

(٨٨) عدي بن زيد، ديوانه ٣٤ وفيه: ولم أكنه.

(٨٩) عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، شعره: ٥٤.

(٩٠) الأخطل في حلية المحاضرة ١ / ١٥٧ وليس في ديوانه. وبلا عزو في قانون البلاغة ١١١.

(٩١) الايضاح في علوم البلاغة ٢٠٦، معاهد التنصيص ١ / ٣٦٩.

(•) ينظر: الصناعتين ٣٥٥، العمدة ٢ / ٣٥، سر الفصاحة ٢٥٤، البديع في نقد الشعر ٧٢، بديع القرآن ٧٤، جوهر الكنز ١٢٨.

(٩٢) نقد الشعر ١٣٥ و ٢٠٣

(•) الصناعتين ٤٠٤. وينظر في التتميم: العمدة ٢ / ٥٠، قانون البلاغة ٣٧، جوهر الكنز ١٣٢، الفوائد المشوق ٩٠. وينظر في التكميل: قانون البلاغة ١٠٥، تحرير التحبير ٣٥٧، جوهر الكنز ٢٣٤، الطراز ٣ / ١٠٨.

(٩٣) نقد الشعر ١٣٧.

(٩٤) في الأصل: التتميم.

(٩٥) الانسان ٨.

(٩٦) في الأصل: فحلفت. وهو وهم.

(٩٧) ديوانه ٩٧، وفيه: بلادك.

(٩٨) نقد الشعر ١٣٧.

(٩٩) شعره: ٣٦.

(١٠٠) المعطل، ديوان الهذليين ٣ / ٤٧.

(١٠١) ديوانه ٩٦، وفيه: بحسام سيفك.

(١٠٢) ديوانه ٩٥٩.

(١٠٣) ديوانه ٩٦٠.

(١٠٤) أخلَّ بها ديوانه، وهما له في الوافي ٢٨٧.

(١٠٥) ديوانه ١ / ٢٠٦.

(•) ينظر: الصناعتين ٣٧٨، العمدة ٢ / ٥٣، قانون البلاغة ٩٦، البديع في نقد الشعر ٥٣، كفاية الطالب ١٩٧، المصباح ١٠٠.

(١٠٦) نقد الشعر ١٤١.

(١٠٧) حلية المحاضرة ١ / ١٩٥.

(١٠٨) نقد الشعر ١٤١ والصناعتين ٣٧٩ وفيهما: عمير بن الأيهم، والرواية: حيث مالا.

(١٠٩) ديوانه ١٥١ ـ ١٥٢، وفيه: لليل بالقَمْيْم.

(١١٠) ديوانه ٤٦، وفيه: طعنة ثائر.

(١١١) ديوانه ٦١، وفيه: تجدْ.

(١١٢) شعره: ٥٣.

(١١٣) ديوانه ١ / ١٢٣ (فاخر) وفيه: سبط البنان إذا احتبى... فَرَعْ.

(١١٤) البديع ٦٦.

(١١٥) بلا عزو في البديع ٦٦.

(١١٦) جرير، ديوانه ٧٣٦. وينظر في توجيه اعرابه: الزاهر ١ / ٣٨٦ والإفصاح ١٩٢.

(١١٧) ديوانه ٢٢ من قصيدة مُزورة، والرواية هنا على الإكواء.

(١١٨) المرار الفقعسي، شعراء امويون ٢ / ٤٣٤.

(١١٩) ديوانه ٧٠، وفيه: في قُداران ظِلّه...

(١٢٠) ديوانه ٨٦.

(•) ينظر: الصناعتين ٣١٦، قانون البلاغة ٣٨، تحرير التحبير ١١١، جوهر الكنز ٨٩.

(١٢١) نقد الشعر ١٤٣.

(١٢٢) البيان والتبيين ١ / ٢٦٠ وجواهر الألفاظ ٧.

(١٢٣) نقد الشعر ١٤٣، وعجزه: يحمي اللمار صبيحة الإخراق

(١٢٤) ديوانه ٤٦، وعجزه: قليل بأجاع الرجال مُلَهَّد

(١٢٥) ديوانه ٣٨١.

(١٢٦) ديوانه ٤ / ١٦٠.

(١٢٧) الموطأ ٥٩٣. مع خلاف في الرواية.

(١٢٨) في الأصل: تحسنوه

(•) ينظر: الصناعتين ٣٥٨، العمدة ١ / ٣٠٢، قانون البلاغة ٩٥، البديع في نقد الشعر ٥٠، تحرير التحبير ٢٠٠.

(١٢٩) نقد الشعر ١٥٢.

(١٣٠) ديوانه ٩١.

(١٣١) ديوانه ٨١.

(*) ينظر: الصناعتين ٣٦٠، قانون البلاغة ٩٣، تحرير التحبير ٢٠٧

(١٣٢) جواهر الألفاظ ٧ ونقد الشعر ١٥٥.

(١٣٣) العمدة ١ / ٣١٣، شرح مقامات الحريري ٣ / ١٤١.

(١٣٤) ديوانه ٢٠٨.

(١٣٥) ديوانه ١٧.

(*) ينظر: العمدة ١ / ٢٧٧، اسرار البلاغة ٩٦، تحرير التحبير ٢١٤، الطراز ٢ / ٢.

(١٣٦) نقد الشعر ١٥٨.

(١٣٧) جواهر الألفاظ ٧ والزيادة منه.

(١٣٨) شعره: ١٨٢.

(١٣٩) نقد الشعر ١٦٠. وفي الأصل: زيد بن مالك.

(١٤٠) اللعين المنقري في نقد الشعر ١٦١ وروايته: الطرائد.

(١٤١) في الأصل: أوصي.

(*) ينظر: حلية المحاضرة ٢ / ١١، الصناعتين ٣٨١، الأقصى القريب ٧٢، المصباح ٧٠

(١٤٢) المائدة ٧٥.

(١٤٣) الكهف ٢٠.

(١٤٤) المدثر ٤.

(١٤٥) ديوانه ٨٣.

(١٤٦) ديوانها ٧٠.

(١٤٧) بلا عزو في تهذيب اللغة ١٢ / ٣٧٧.

(١٤٨) حلية المحاضرة ٢ / ١١.

(١٤٩) ديوانه ٢١٠. وفي الأصل: بنانه.

(١٥٠) حلية المحاضرة ٢ / ١١.

(١٥١) حلية المحاضرة ٢ / ١١.

(١٥٢) أبو المنهال بقيلة الأكبر الاشجعي في المؤتلف والمختلف ٨٢.

(١٥٣) حلية المحاضرة ٢ / ١٢.

(١٥٤) ديوانه ٩٤ والزيادة منه، وفيه: فوق من أحكأ صُلباً بإزار.

(١٥٥) حلية المحاضرة ٢ / ١٢.

(١٥٦) النساء ٤٣ والمائدة ٦ والزيادة من المصحف الشريف.

(١٥٧) الحجرات ١١.

(١٥٨) النور ١٢.

(١٥٩) حلية المحاضرة ٢ / ١١.

(١٦٠) حلية المحاضرة ٢ / ١١.

(١٦١) كثير، ديوانه ٢٨٨.

(١٦٢) رؤبة، ديوانه ١٤٣.

(*) ينظر: البديع ٦٤، حلية المحاضرة ١ / ٣٦٩، الصناعتين ٣٨١، المثل السائر ٣ / ٥٦، الفوائد المشوق ١٣٣.

(١٦٣) البقرة ٢٣٥.

(١٦٤) في حاشية الأصل: أي عدله.

(١٦٥) عنترة، ديوانه ٢١٣.

(١٦٦) ص ٢٣.

(١٦٧) تابعي، ت ٩٤ هـ. (حلية الأولياء ٢ / ١٧٦، وفيات الأعيان ٣ / ٢٥٥).

(١٦٨) ت ١١٧ هـ. (حلية الأولياء ٣ / ٢٠٧، وفيات الأعيان ٣ / ٢٧٤).

(١٦٩) الكهف ٧٣.

(١٧٠) الصافات ٨٩.

(*) ينظر: حلية المحاضرة ١ / ١٥٢، العمدة ٢ / ٣١، قانون البلاغة ١٠١، تحرير التحبير ٢٦٣.

(١٧١) ديوان الهذليين ٣ / ١٢١ و ١٢٣ مع خلاف في الرواية.

(١٧٢) ديوانه ١٧٦٩.

(١٧٣) ديوانه ٢٠٠٠ - ٢٠٠١.

(١٧٤) ديوانه ٣٤١، وفيه: وضَدّ.

(*) ينظر: الصناعتين ٣٩٧، البديع في نقد الشعر ٨٩، الجامع الكبير ٢٤٢، جوهر الكنز ٢١٣.

(١٧٥) شعره: ٣ - ٤ (البلاغ ع٨ ١٩٧٨)

(١٧٦) شعره (شعراء عباسيون ج٢) ٢٧٠. وفي الاصل: وعدمت عاذني. والمراد بعليّ في البيت الاخير علي بن الجهم الشاعر.

(١٧٧) أخلّ به شعره.

(١٧٨) بلا عزو في الصناعتين ٧٠.

(*) في الاصل: الاعتاب، في الموضعين، والصواب ما أثبتنا. ينظر: قانون البلاغة ١٣٣، حسن التوسل ٢٢٠، نهاية الأرب ٧ / ١١٣.

(١٧٩) جمع الجواهر ٢٤٦.

(١٨٠) الخصائص ٢ / ٢٤٤ - ٢٤٥.

(١٨١) ديوانه ٣٣٢ وفيه: بالزفرات.

(١٨٢) في الأصل: نافع ابن هديم. والصواب ما أثبتنا، (تنظر: خزانة الأدب للبغدادي ٤ / ٤٨١). والبيت الثالث بلا عزو في الصناعتين ٣٢٤ والزيادة منها، والرابع نُسب الى عاصم بن هريم في النوادر في اللغة ٣٢٤.

(*) ينظر: الصناعتين ٣٩٥، العمدة ٢ / ٥٧، قانون البلاغة ٩٩، تحرير التحبير ٣٣٢.

(١٨٣) نقد الشعر ١٦٩.

(١٨٤) حلية المحاضرة ١ / ١٥٥.

(١٨٥) ديوانه ٤٩.

(١٨٦) ديوانه ٥٣. وفيه: الجَزْع.

(١٨٧) بعدها في الأصل: قبل. وهي مقحمة.

(١٨٨) ديوانه ١٤٥١.

(١٨٩) ديوانه ١٢. وفي الاصل: نزلوا.

(*) وهو تجنيس التركيب أو الجناس المركب. ينظر: البديع في نقد الشعر ٣٣، نهاية الأرب ٧ / ٩٢، جوهر الكنز ٩٧، جنى الجناس ١٢١.

(١٩٠) شعره: ٢٩٨.

(١٩١) شعره: ٢٦٩ وفيه: لا تحصين شمس العلى قابوسا.

(١٩٢) شعره: ٢٩١ - ٢٩٢ وفيه: فله الذنب.

(١٩٣) شعره: ٣٠١.

(١٩٤) أخلّ به شعره، وهو بلا عزو في جنى الجناس ١٣٤.

(*) ينظر: العمدة ٢ / ٢٨٧، معالم الكتابة ٧٢.

(*) ينظر: مفتاح العلوم ١٤٦، الايضاح ١٣١، المطول ٢٢٦.
وينظر في أنواع الاستفهام: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ١ / ١٨٣ - ٩٤.

(١٩٥) المائدة ١١٦.

(١٩٦) النبأ ١ - ٢.

(١٩٧) الشعراء ١٦٥.

(١٩٨) تنظر: الصناعتين ٤١٢.
(١٩٩) ديوانه ٧٣ ـ ٧٤.
(٢٠٠) العرجي، ديوانه ١٨٢. ونُسب الى غيره. تنظر: خزانة الأدب للبغدادي ١ / ٩٧ ـ ٩٨.
(*) ينظر: العمدة ٢ / ٤٢، قانون البلاغة ١٢٧، تحرير التحبير ٣٧٢، أنوار الربيع ٦ / ١١١.
(٢٠١) ديوانه ٤٦ عدا الرابع. والأبيات في ديوان ابن الدمينة ٢٠٣. وفي الأصل: إذا ذكرت طيب الغضاة وطيبه. وأثبتنا رواية ديواني الصمة وابن الدمينة. وفي الأصل: عبد الله بن الصمة القشيري.
(٢٠٢) ديوانه ٥٧، وفيه: مُسْبِل هطل.
(*): ويسمى العكس أيضا. ينظر: الصناعتين ٣٨٥، قانون البلاغة ١٠٩، البديع في نقد الشعر ٤٦، تحرير التحبير ٣١٨.
(٢٠٣) الصناعتين ٣٨٥. وفي الأصل: .. شكرك واشكر من. والصواب من الصناعتين.
(٢٠٤) البيان والتبيين ٣ / ١٦٣.
(٢٠٥) البيان والتبيين ٣ / ١٦٣، وفيه: لا يقين فيه من أمر نحن فيه.
(٢٠٦) البيان والتبيين ١ / ٣٩٩. وتمام القول فيه: واشتدّ مني ما كنتُ أحبُّ أن يلين. وتنظر عن الهيثم: الإصابة ٦ / ٥٧٩.
(٢٠٧) البيان والتبيين ٣ / ٢٧١ وفيه: اللهم اغنني بالافتقار اليك...
(*) ينظر: نقد الشعر ٥١ وسمّاه (نعت القوافي)، سر الفصاحة ٢٢١، قانون البلاغة ١٢٩، الجامع الكبير ٢٥٤، تحرير التحبير ٣٠٥.
(٢٠٨) في الأصل: اللتي. وهو تحريف.
(٢٠٩) ديوانه ٢ / ٢٣٣.
(٢١٠) ديوانه ٢٣٣.
(٢١١) ديوانه ٨.
(٢١٢) للشماخ، ديوانه ٢١١. وفي الأصل: أمن.
(*) ويسمّى الرجوع أيضاً. ينظر: البديع ٦٠، الصناعتين ٤١١، قانون البلاغة ١١، تحرير التحبير ٣٣١.
(٢١٣) ديوانه ٣ / ٢٩٦.
(٢١٤) أبو البيداء في قانون البلاغة ١١٢ وخزانة الأدب ٣٦٧.
(٢١٥) يزيد بن الطثرية، شعره: ٨٨.
(٢١٦) أبو البيداء الرياحي: أسعد بن عصمة، كان معلماً للصبيان بالبصرة. (الفهرست ٤٩).
(*) ينظر: نقد الشعر ٢١٨، الصناعتين ٥٥، البديع في نقد الشعر ١٤٢.
(٢١٧) تنظر: حلية المحاضرة ١ / ١٩٠.
(٢١٨) ديوانه ١ / ١٥٨.
(٢١٩) ديوانه ٣٨٨.
(*) وهو الترجيع. ينظر: شرح عقود الجمان ٧٣، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ٢ / ١٢٤ ـ ١٢٧.
(٢٢٠) الممزة ١.
(*) ينظر: الصناعتين ٤٢٦ وسمّاه (المذهب الكلامي)، معالم الكتابة ٧٢، تحرير التحبير ٣١٦، الطراز ٣ / ٨٩.
(٢٢١) البديع ٥٣.
(٢٢٢) ديوانه ٥١٤.
(٢٢٣) أخلّ به شعر اليزيديين. والصواب: ابراهيم بن المهدي كما في البديع ٥٤ والصناعتين ٤٢٦.
(٢٢٤) أخلّ به ديوانه، وهما له في البديع ٥٥ والصناعتين ٤٢٧.
(٢٢٥) ديوانه ٢ / ٣٠٧ والزيادة منه.
(٢٢٦) شعره (الطرائف الأدبية) ١٥٠.
(٢٢٧) شعره: ١ / ٣٦٥ وفيه: في الكتمان.
(*) ينظر: حلية المحاضرة ١ / ١٥٤، الصناعتين ٤٠٠، العمدة ٢ / ٣٣٣، الوافي ٢٨٥، خزانة الأدب ١٦٤.
(٢٢٨) البديع ٤٧.
(٢٢٩) بلا عزو في البديع ٤٨ والصناعتين ٤٠٠.
(٢٣٠) الأقيشر الأسدي، شعره: ٤٥.
(٢٣١) بلا عزو في البديع ٤٨.
(٢٣٢) حلية المحاضرة ١ / ١٥٤.
(٢٣٣) شعره: ١٠٠ ـ ١٠١.
(٢٣٤) ديوانه ٥٣.
(*) ينظر: حلية المحاضرة ١ / ١٦٢، العمدة ٢ / ٣، البديع في نقد الشعر ٥١ وفيه: (باب الترديد ويسمى التصدير)، جوهر الكنز ٢٥٢.
(٢٣٥) عمرو بن معد يكرب، ديوانه ١٦٩.
(٢٣٦) ديوانه ٩٤٨.
(٢٣٧) ينظر: البديع ٤٨.
(*) ينظر: قانون البلاغة ١٢٨، تحرير التحبير ٢٩٥، حسن التوسل ٢٧٢، نهاية الأرب ٧ / ١٤٧.
(٢٣٨) ديوانه ٢٢٥، وفيه: ... وجريها خذم ولحمها زيم...
(٢٣٩) ديوانه ٢ / ١١١.
(*) ينظر: العمدة ٢ / ٨٤، قانون البلاغة ١٣٠، حدائق السحر ١٧٤، كفاية الطالب ٢١٢، الجامع الكبير ٢٣٢.
(٢٤٠) العمدة ٢ / ٨٦ وفيها: وأظنه للصولي.
(٢٤١) ديوانه ١٩٣٢ وفيه: صاح بي عمرها وقد غازلتني.
(٢٤٢) بلا عزو في العمدة ٢ / ٨٨.
(٢٤٣) ديوانه ٧١ (الغزالي).
(٢٤٤) قانون البلاغة ١٣٠ وفيه: الحماسي، وهو وهم. والبيتان الثالث والرابع لعمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي في معجم البلدان ٥ / ١٨٦.
(*) ينظر: البديع ٦٢، تحرير التحبير ١٣٣، حسن التوسل ٢٢٩، الايضاح ٣٧٢.
(٢٤٥) تنظر: حلية المحاضرة ١ / ١٦٢.
(٢٤٦) ديوانه ٦٠.
(٢٤٧) النابغة الجعدي، شعره: ١٧٣ ـ ١٧٤، وليس الذبياني.
(٢٤٨) ديوانه ٢٤٧.
(*) ينظر: حلية المحاضرة ١ / ١٦٣، الصناعتين ٤١٤، العمدة ٢ / ٣٩، قانون البلاغة ١١٣.
(٢٤٩) ديوانه ١٥٢.
(٢٥٠) بلا عزو في الصناعتين ٤١٥ وفيه: وإنْ كان من عكل.
(٢٥١) ديوانه ٤ / ٢١١ ـ ٢١٢.
(٢٥٢) أخلّ بها شعره، وهما لمسلم بن الوليد، ديوانه ٢٧٠.

(٢٥٣) شعره: ١٨٨.

(٢٥٤) لمخلّ به شعره.

(٢٥٥) ديوانه ٤ / ٤٣٤.

(٢٥٦) ديوانه ١٧٤٤، ١٧٤٥، ١٧٤٨.

(٥) ينظر: الصناعتين ٣٦٤، الوافي ٢٧٤.

(٢٥٧) لم أقف على قوله في البديع.

(٢٥٨) ديوانه ١٤٠.

(٥) ينظر: قانون البلاغة ١٣٥، كفاية الطالب ١٨٥، التبيان للزملكاني ١٨٩، تحرير التحبير ١٣٨.

(٢٥٩) البديع ٦٣.

(٢٦٠) شعره: ٤١٣، وفيه: يشفيها ويرجيها.

(٢٦١) ديوانه ٥١٠ (الغزالي).

(٢٦٢) في الأصل: وقول الفضل بن الربيع. وما أثبتناه من البديع.

(٥) ينظر: حلية المحاضرة ١ / ١٦٢، الصناعتين ٤٢٤، العمدة ٢ / ٤٨، جوهر الكنز ٢٤٦.

(٢٦٣) لم أقف على قوله في البديع.

(٢٦٤) ديوانه ٤١٣ (الغزالي).

(٢٦٥) يزيد بن الطثرية، شعره: ٨٨. وقد سلف ذكره.

(٥) ينظر: قانون البلاغة ١٢٥، كفاية الطالب ١٥٦، تحرير التحبير ٢٦٠، حسن التوسل ٢٦٥.

• • •



بغية المرتاد لتصحيح الضاد
تأليف
علي بن غانم المقدسي
المتوفى سنة ١٠٠٤ هـ

تحقيق
الدكتور محمد جبار المعيبد
كلية التربية/ جامعة البصرة

تقديم

يمثّل كتابنا هذا، مع جملة أخرى من الكتب التي تعرضت لدراسة صوت الضاد، نمطا جديدا في التأليف، وان كان متأخرا بالمقارنة مع كتب الضاد والظاء التي بدىء التأليف فيها منذ القرن الرابع الهجري(١). وكان النمط الأخير يعنى باحصاء الالفاظ الضادية والظائية في المعجم العربي أو في القرآن الكريم وشرحها. وفي القرن السابع الهجري بدأ هذا النمط الجديد من الدراسات حول هذا الصوت يهتم بدراسة مخرجه وصفاته. وكان كتاب (المراد في كيفية النطق بالضاد لأبي القاسم عيسى بن العزيز اللخمي (ت ٦٢٩ هـ) - فيما أعلم - أول هذه الكتب من الدراسات. ويمثل كتاب ابن غانم المقدسي الحلقة الثالثة منها، ولكنه يعدّ أفضلها في مادته وحجمه.

المؤلف(٢)

هو نور الدين علي بن محمد بن علي بن خليل بن محمد بن ابراهيم بن موسى بن غانم بن علي بن حسن بن ابراهيم بن عبد العزيز بن سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي.

عرف ب (ابن غانم)، وهو جده السابع، ولقب ب (المقدسي) نسبة الى بيت المقدس، حيث تنتمي أسرته. كما عرف ب (القاهري) نسبة الى قاهرة المعزّ، حيث ولد وعاش ومات.

ولد في القاهرة سنة ٩٢٠ للهجرة، وبها حفظ القرآن منذ صغره. وتلاه بحفظ القراءات السبع على جمهرة كبيرة من الشيوخ، أشهرهم: شهاب الدين أحمد بن الفقيه علي بن حسن المقدسي، وقاضي القضاة محمد بن ابراهيم السديسي، وأحمد بن يونس الحلبي وغيرهم، قال المحبي: وولي المناصب الجليلة كامامة الأشرفية ومشيختها ومشيخة مدرسة السلطان حسن وغير ذلك. وحج مرتين ورحل الى القدس ثلاث مرات، وعقدت له الفتوى بالقاهرة.

توفي سنة (١٠٠٤ هـ) أربع بعد الألف، وصلّي عليه بجامع الأزهر في محفل حافل، ودفن بين القصرين بتربة المجاورين.

مؤلفاته

١ - أوضح الرمز على نظم الكنز

وهو شرح على منظومة الكنز المسماة مستحسن الطرائق في كنز الفقه والدقائق لأحمد بن أحمد المعروف بابن الفصيح الكوفي الهمداني (ت ٧٥٥ هـ). و كنز الدقائق المذكور لعبد الله بن احمد بن محمود النسفي (ت ٧١٠ هـ). ولـ « اوضح الرمز » مخطوطتان:

أ - الاولى في برلين في جزأين، الأول برقم (٤٥٨٧) والثاني برقم (٤٥٨٨).

ب - الثانية في مكتبة الزيتونة في تونس برقم (٤، ٥٨).

٢ - بغية المرتاد لتصحيح الضاد

وهو كتابنا الذي نقدمه للتحقيق.

٣ - تعليقات على الاشباه والنظائر في الفروع.

لابن نجيم المصري (ت ٩٧٠ هـ). ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ١/ ٩٩.

٤ ـ حاشية على المحيط

للفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ). ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/ ١٣٠٩، ولها مخطوط في مكتبة كوتنكن بألمانيا برقم ٣٩٧.

٥ ـ ردع الراغب عن صلاة الرغائب

ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ١/ ٤٨٠. وذكر بروكلمان ٢/ ٤٠٥ (النسخة الالمانية) أن للكتاب مخطوطة في القاهرة.

٦ ـ البديعة المهمة في بيان نقض القسمة

ذكرها البغدادي في ايضاح المكنون ١/ ١٧٣. ومنها مخطوطة في مكتبة جامعة برنستون (مجموعة كاريت) برقم (٢٠٠٢) ضمن مجموع، كتب سنة ١٠١٦ هـ، وعنوانها في هذه المخطوطة: بديعة متعلقة ببيان نقض القسمة مع الاشارة الى التسوية بين عبارتي السبكي والكشاف على وجه التحرير والانصاف وبين الرد على قول صاحب الأشباه والتنبيه على ما وقع في ذلك من الخطأ والاشتباه.

٧ ـ رسالة في الوقف

ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون ١/ ٨٩٩.

٨ ـ شرح منظومة ابن وهبان في فروع الحنفية

ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/ ١٨٦٦ والبغدادي في هدية العارفين ١/ ٧٥٠.

٩ ـ مختصر الأعلام في فضائل القدس والشام

اختصره المؤلف من كتاب لابن عساكر. منه مخطوط في دار الكتب المصرية برقم (١٢٩٧١ ح).

١٠ ـ نور الشمعة في بيان ظهر الجمعة

من مخطوطاته:

أ ـ في مكتبة الدولة في برلين مخطوطتان برقم (٣٥٩٦) و (٣٨١١).

ب ـ مخطوط في مكتبة جامعة برنستون (مجموعة يهودا) برقم (٣٠١٨).

ج ـ مخطوط في المكتبة الوطنية بباريس برقم (١١٦٠).

د ـ أربعة مخطوطات في الموصل: في المدرسة الاحمدية برقم (٢٤/٨١) مجموع، ومدرسة الخياط برقم (١٦/٢٥) مجموع، والمدرسة المحمدية برقم (٢٠/١٤) مجموع، والمدرسة الرضوانية برقم (١٨/١٢٦) مجموع.

١١ ـ ووهم البغدادي فنسب له في هدية العارفين ١/ ٧٥٠ كتابا بعنوان (الفائق في اللفظ الرائق، في الحديث)، وصواب نسبته الى جمال الدين عبد الله بن علي بن محمد الشهير بابن غانم المتوفى سنة ٧٤٤ هـ. انظر: كشف الظنون ٢/ ١٢١٧ وايضاح المكنون ٢/ ١٥٤.

كتاب بغية المرتاد

دافعُ المؤلف الرئيس لوضع كتابه ما رآه من نطق محرّف، من وجهة نظره، لهذا الصوت عند المصريين في القرن العاشر الهجري. يقول: (لّما رأيت بمحروسة القاهرة التي هي زين البلاد، كثيرا من أفاضل الناس فضلا عن الأوغاد، يخرجون عن مقتضى العقل والنقل في النطق بالضاد. . . . فأردت مع طلب جمع من الأخوان، واشارة من بعض الأعيان، أن أزيل الغبن عن عين الرشاد. .). ويوضح ابن غانم هذا النطق بقوله: (. . . فليعلم أن أصل هذه المسألة أنهم ينطقون بالضاد ممزوجة بالدال المفخّمة أو الطاء المهملة، وينكرون على من ينطق بها قريبة من الظاء. . .)، أي أن نطق المصريين للضاد في زمن المؤلف يشبه نطقهم الآن له(٣). ويرى أن النطق الصحيح قريبا من الظاء المعجمة.

أسس ابن غانم كتابه على مقدمة وفصلين وخاتمة. ففي المقدمة تناول بيان مخرج الضاد وما لها من الصفات. وجعل عنوان الفصل الأول (فيما يدل بالمعقول على أن اللفظ بالضاد كالظاء المعجمة هو المقبول)، فيما جعل عنوان الفصل الثاني (فيما يدل بالتصريح على أن التلفظ بالضاد شبيهة بالظاء هو الصحيح). حاول المؤلف في هذين الفصلين من خلال النقول عن المتقدمين، لغويين وقراءا، اثبات أن لفظ الضاد قريب من الظاء المعجمة. أما الخاتمة فجعل عنوانها (تنبيهات دافعة لتمويهات)، وتتضمن بعض الردود على من يريد مناقشة أفكار هذا الكتاب أو اثارة استفسارات حول مادته، متعرضا الى الضاد الضعيفة التي وردت في كتاب سيبويه.

ان محاولة المؤلف في كتابه هذا لتحديد مخرج الضاد، الذي طالما كثر الجدل حوله بدءا بكتاب سيبويه حتى وقتناهذا، جديرة بالتقدير والاحترام، بخاصة وهو رجل فقه وحديث، ولكنه رحمه الله كان امتدادا لسلفنا الصالح الذين كانوا موسوعيين في علمهم.

تحقيق النص ومخطوطاته

اعتمدنا في تحقيق نص هذه الرسالة خمس مخطوطات،

ليس بينها ما يمكن عدّه أصلا أو اساساً في التحقيق. لكن يمكننا ايلاء المخطوطة (ج) أهمية خاصة لكونها كتبت عن نسخة مكتوبة بخط أحد تلاميذ المصنف، على الرغم مما فيها من أوهام وتصحيفات يمكن نسبتها الى أحد الناسخين، تلميذ المصنف أو من نسخ عنه. مما يجعل الاعتماد عليها كليًا في التحقيق غير مأمون. والى جانب هذه النسخ الخمس فقد رجعنا الى ما استطعنا الرجوع اليه من مصادر المؤلف التي اعتمدها، لتصويب هذه النقول أو توثيقها.

والمخطوطات الخمس هي:

١ ـ مخطوطة مكتبة جامعة كمبرج (ورمزها: ج)

رقم هذه المخطوطة (Or.1431(8)) وتتألف من (٣٣) صفحة، في كلّ صفحة (١٧) سطرا. تتفق عموما في نصها مع مخطوطة (ر). لم يذكر اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، غير أن الناسخ نقل خاتمة النسخة التي نقل عنها وتشير الى من شهر رمضان المبارك سنة ست عشرة وألف

٢ ـ مخطوطة مكتبة جامعة برنستون (ورمزها: ر)

وتقع هذه الجامعة في مدينة نيو هافن في الولايات المتحدة الامريكية. رقم المخطوطة هو ٪(Yahuda section — 313) وتتألف من (١٦) صفحة، في كلّ صفحة (١٩) سطرا. وبسبب دقّة خطها وصغره صار من الصعب الاستفادة منها من غير الرجوع الى النسخ الأخرى. تاريخ نسخها ١١٣٠ هـ، وناسخها علي بن عبد الكريم.

٣ ـ مخطوطة برلين (ورمزها: ب)

وتوجد في المكتبة الوطنية ببرلين برقم ٪(7025) وتتألف من (١٨) صفحة، في كلّ صفحة (٢٣) سطرا. على هامش بعض صفحاتها تعليقات كتبت بخط أمين حلواني المدنيْ (ت ١٨٩٨ م). وقد ضرب المدني على بعض كلمات المتن واضعا فوقها كلمات أخرى. تاريخ نسخها سنة ١٢٨١ هـ، ولم يذكر اسم الناسخ.

٤ ـ مخطوطة مكتبة طوبقبي (ورمزها: ط)

وهذه المكتبة في استانبول، والمخطوطة فيها برقم (7732). وتتألف من (٥٨) صفحة، في كل صفحة (١١) سطرا. ويتفق نصها مع (ب) قبل أن يضرب أمين المدني على بعض كلماتها. لم يذكر الناسخ ولا تاريخ النسخ.

٥ ـ مخطوطة مكتبة جامعة كمبرج الثانية (ورمزها: ك)

ورقمها فيها (Or.19) ، وتتألف من (٣٣) صفحة، في كلّ صفحة (١٥) سطرا. وتتميز هذه المخطوط بأن ناسخها كان يتصرف في بعض كلماتها وعباراتها فيغيّر فيها ويبدّل، كما هو واضح في هامش النص المحقق. لم يذكر الناسخ ولا تاريخ النسخ.

والحمد لله على فضله

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ(١)

الحَمْدُ للهِ الذي وَفَّقَ للنُّطْقِ الفَصِيحِ مَنْ أرادَ، ووَقَفَ عن الحَقِّ الصَّريحِ مَنْ لَزِمَ العِنادَ، والسَّلامُ(٢) علَى سيِّدِنا مُحَمَّدٍ أفصَحِ(٣) مَنْ نَطَقَ بالضَّادِ، وعلَى آلِهِ وأصحابِهِ(٤) المُنْقادينَ للصَّوابِ خيرَ انقيادٍ، ورَضِيَ اللّٰهُ تَعالَى(٥) عن العُلَماءِ الأمْجادِ، خُصُوصاً الذينَ اجتهَدُوا(٦) لنَفْعِ(٧) العِبادِ، ودَوَّنُوا لَهُمْ ما إنْ(٨) نَظَرُوه بعَيْنِ التَّأمُّلِ والانتِقادِ بلَغَهم غايَةَ البُغْيَةِ والمُرادِ.

وبَعْدُ، فيَقُولُ المُفْتَقِرُ الى الغَنِيِّ الجَوادِ، عليُّ بْنُ غانِمٍ المَقْدِسيّ الحَنَفيّ الإعتقادِ(٩): لمَّا رَأيْتُ بمَحروسَةِ القاهِرةِ، التي هِيَ زَيْنُ البِلادِ(١٠) كَثيراً مِن أفاضِلِ النّاسِ فَضْلاً عن الأوغادِ(١١)، يَخْرُجُونَ عن مُقْتَضَى العَقْلِ والنَّقْلِ في النُّطْقِ بالضّادِ، ويُنكِرُونَ على مَنْ وافَقَهُما لأنَّ مُخالَفَتَهُما بينَهم أمرٌ مُعْتادٌ(١٢)، ويَرُومُونَ أن تَتْبَعَهُم من غَيْرِ أصْلٍ لَهُم اليهِ اسْتِنادٌ، سِوَى التَّوارُثِ عن الآباءِ والأجْدادِ، مِنْ غيرِ رِعايَةٍ لتَمهيدِ الأُصُولِ، ولا هِدايَةٍ لتَسْديدِ الفُصُولِ، ولا تَبْصِرَةٍ فيها(١٣) فيه إرشادٌ ثم شاعَ الإنكارُ علينا في كلِّ نادٍ، بَيْنَ كُلِّ حاضِرٍ وبادٍ. فأرَدْتُ مع(١٤) طَلَبِ جَمْعٍ من الإخوانِ، وإشارَةٍ مِن بعضِ(١٥) الأعيانِ، أنْ أُزيلَ الغَيْنَ عن(١٦) عَيْنِ الرَّشادِ، وأُفيضَ من أعيُنِ الدَّلائلِ العَقْليّةِ والنَّقْليّةِ ما يُرْوِي كُلَّ صادٍ. فشَرَعتُ فيه مُعْتَرِفاً بقِصَرِ الباعِ وقِلَّةِ الزّادِ مع(١٧) التوكُّلِ على اللّٰهِ والاعتمادِ، سائلاً من فضلِه النَّفْعَ به في المَعادِ وسَمَّيْتُه: بُغْيَةَ المُرْتادِ لتَصْحيحِ الضّادِ.

وقَبْلَ الخَوضِ في المَرامِ، لا بُدَّ من تَمهيدِ الكَلامِ، وتَحريرِ المَقامِ. فَليُعلَمْ أنَّ أصلَ هذهِ المَسألةِ[١٨] أنَّهم يَنطِقُونَ بالضَّادِ مَمزوجةً بالذَّالِ المُفخمةِ أو الطَّاءِ المُهمَلةِ، ويُنكِرُونَ[١٩] على مَنْ يَنطِقُ بها قريبةً من الظَّاءِ المُعجمةِ، بحيثُ يَتوهَّمُ بعضُهم أنَّها هي، وليسَ كما توهَّمَه.

فنقولُ: الكلامُ في إثباتِ ما أنكرُوهُ مُنحصِرٌ[٢٠] في مُقدِّمةٍ، فيما يَجبُ أنْ نُقدِّمَه، وفصلينِ مُحيطينِ من الدَّلائلِ بنوعَينِ، وخاتمةٍ لتنبيهاتٍ ودفعِ تمويهاتٍ.

أمّا

المُقدِّمةُ

ففي بَيانِ مَخرجِها وما لها من الصِّفاتِ التي نَصَّ عليها[٢١] العلماءُ الأثباتُ في الكتبِ المُعتبراتِ، ليكونَ النّاظرُ على بَصيرةٍ من[٢٢] الدلائلِ الآتياتِ. فإنَّ كُلَّ حرفٍ له لفظٌ باعتبارِ مَخرجِه وصِفتِه، فهُما يَحفظانِه[٢٣] عن زيادتِه ونُقصانِه. وعند عرضِه عليهما[٢٤] تَتحقَّقُ[٢٥] صحتُه وسقمُه، كما تَتحقَّقُ[٢٦] صَراحةُ الدينارِ من ضَربِه عند إلقائِه على صَلْدٍ[٢٧]، كما قال الامامُ الشاطبيُّ[٢٨] رضي الله عنه في «حرز الأماني[٢٩]»:

وهاكَ موازينَ الحُروفِ وما حَكى
جَهابِذةُ النُّقادِ فيها مُحصِّلا
ولا رِيبةٌ في عينِهنَّ ولا رِيا
وعندَ صَليلِ الزَّيفِ يَصدُقُ الابتِلا[٣٠]

وقد قيلَ إنَّ المَخرجَ يبينُ كميةَ الحرفِ كالميزانِ، وإنَّ الصفةَ تُبيِّنُ كيفيَّتَه كالناقدِ. أمّا مَخرجُها، فقال العلامةُ ابنُ الحاجبِ[٣١] في الشافيةِ: «وللضادِ أولُ إحدى حافتيهِ وما يليها من الأضراسِ»[٣٢]. وقال الجاربرديّ[٣٣] في «شرحِها»: «وللضاد أولُ إحدى حافتي اللسانِ وما يليها من الأضراسِ التي في الجانبِ الإيسرِ أو الإيمنِ. والحافةُ: الجانبُ. وينبغي أن تَعلمَ[٣٤] أنْ ليسَ المرادُ بأوّلِ إحدى حافتيهِ ما هو في مُقابلةِ أقصى اللسانِ وما يليه، لتأخرِ ذكرِه الضادَ عن القافِ والكافِ، فإنّه دلَّ على تأخرِ مَخرجِه عن مَخرجيهما. وإذا أخر ذكرَه عن الجيمِ والشينِ والياءِ أيضاً علم أن مُقابلَ مَخرجِها من حافةِ اللسانِ، لكنْ[٣٥] أقربُ الى مقدَّمِ الفمِ بقليلٍ، هو مَخرجُ الضادِ. ثم إنَّ اخراجَها من الجانبِ الأيسرِ أيسرُ عندَ الأكثرِ وقد يستوي الجانبانِ[٣٦] عند البعضِ»، انتهى[٣٧]. وهو يَدُلُّ على أنَّ معنى قولِهم[٣٨]: «وبعضُهم يُخرجُها من الجانبينِ، أنّه يُخرجُها من احدِهما تارةً ومن الآخرِ أخرى. وقال بعض شرّاحِ «ألفيةِ ابنِ معطٍ»[٣٩]: وكانَ عُمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه[٤٠] يُخرجها من الأيمنِ ومن الأيسرِ[٤١]، وهو ايضاً فيما ذكرناه أظهر[٤٢].

وأما صِفاتُها فمنها:

الجَهرُ[٤٣]

وهو اصطلاحاً حَبسُ عندَ النَّفسِ اللفظِ[٤٤] بالحرفِ لِقُوَّةِ الاعتمادِ عليه، ولغةً الاعلانُ[٤٥]. وضِدُّه الهَمسُ: وهو اصطلاحاً جَريُ النَّفَسِ عند اللفظِ[٤٦] بالحرفِ لضَعفِ الاعتمادِ على مَخرجِه، ولغةً الخَفاءُ. وقال ابنُ الحاجبِ في «شرحِ المفصلِ[٤٧]»: «إنَّما سُمِّيَتْ المجهورةُ مَجهورةً من قولِهم[٤٨]: جهرت بالشيءِ اذا أعلنتُه، وذلك لأنَّه لمّا امتنعَ النَّفَسُ أنْ يَجريَ معها انحصرَ الصوتُ بها فقويَ التصويتُ بها وسُمِّيَ قسيمُها مهموساً، أخذاً من الهَمسِ الذي هو الإخفاءُ. لأنّه لما جَرى النَّفَسُ معها لم يَقْوَ التصويتُ بها قُوَّتَه في المجهورةِ فصارَ في التصويتِ[٤٩] بها نوعُ خفاءٍ لانقسامِ النَّفَسِ عند النطقِ بها»، انتهى[٥٠].

وقد عَدَّها بعضُ المتأخّرينَ في[٥١] المَهموسةِ في حروفٍ أُخَرَ. قالَ ابنُ الحاجبِ: ولو قالَ هذا البعضُ إنَّها بينَ المهموسةِ والمجهورةِ لكانَ أقربَ.

ومن صفاتها:

الرخاوة[33]

وهي جَريُ الصوتِ مع لفظها لضَعْفِ الاعتماد، وهي لغةً: اللِّينُ، وضِدُّها الشِّدَّةُ: وهي حَبْسُ الصوتِ عندَ لفظها لقوة الاعتماد، وهي لغةً: القوَّةُ.

والبَيْنِيَّةُ

أيضاً، وهي كونُ الحرف يَجري معه بعضُ الصوتِ ويُحْبَس بعضُه، أو يَجري جَرياً ضعيفاً، منسوبٌ الى « بَيْنَ »، وهي[34] التوسُّطُ بينَ شيئين، كذا في « كنز[35] المعاني »[36]. في « شرح الشافية » للجار بردي، الحروفُ الشديدةُ حروفٌ يَنْحصرُ جَريُ صوتِها عند إسكانها في مَخرجها. والرخْوةُ بخلافها، فهي حروفٌ لا ينحصرُ جَريُ صوتِها عندَ إسكانها. وسُمِّيَتْ الشديدةُ شديدةً مأخوذةً من الشدَّةِ ٱلتي هي القوَّةُ، لأنَّ الصوتَ لمَّا ٱنحصَرَ في مَخرجهِ ولم يَجْرِ ٱشْتَدَّ، أي ٱمتنَعَ قَبولُه التَّليينَ[37]، لأنَّ الصوتَ إذا جَرى في مَخرجِهِ أشْبَهَ حَرْفَ اللِّينِ. والرِّخْوَةُ مَأخوذةٌ من الرِّخاوَةِ ٱلتي هيَ اللِّينُ[38] لقَبولِهِ التَّطويلَ بِجَرْيِ الصَّوتِ في مَخرجهِ عندَ النُّطْقِ[39].

ومنها الاستِعْلاء[40]

وهو ٱرتفاعُ اللِّسانِ الى الحَنَكِ الأعلَى[41]، عندَ اللَّفظِ[42]، وهوَ لُغَةً العُلُوّ[43]، فَسُمِّيَتْ به تَجَوُّزاً كما في « ليل نائم ». قيلَ: وَيَجوزُ أنْ تَكُونَ[44] تسميتُها به لِخُروجِ صوتِها من جِهَةِ العُلُوِّ، وكُلُّ مَا جَاءَ من عَالٍ فهو مُسْتَعْلٍ. وضدُّه: الإستِفالُ، وهو ٱنحِطاطُ اللِّسان عن الحَنَكِ عندَ اللَّفظِ، وهو لغةً: الانخِفَاض.

ومنها الإطْبَاقُ[45]

وهو تَلاقِي طَابِقَيِ اللِّسانِ والحَنَكِ الأعلَى عندَ اللَّفظِ[46]، وهوَ أبلَغُ من العُلُوِّ. ولغةً التلاصُقُ والتساوي، وفيه أيضاً تَجَوُّزٌ لأن المُطبَقَ إنَّما هو اللسانُ والحَنَك، وأمَّا الحرفُ فهو مُطْبَقٌ عندَه، وٱختصِرَ فقيلَ: مُطْبَقٌ، كما قيلَ للمشترك[47] فيه: مشتَرك، ومثله كثيرٌ. وضدُّه الانفتاحُ، وهو تجافي كلٍّ منهما عن الآخر، ولغةً الافتِراق.

ومنها الإصمات[48]

والمُصْمَتَةُ حروفٌ لا تَنْفرد[49] في كلمةٍ رُباعيةٍ أو خُماسيةٍ، كأنهم لمَّا لَمْ يَجعلوها مَنْطوقاً بها أصمتُوها أي جعلوها صامتةً، أو أُصْمِتَ المتكلمونَ أنْ يجعلوا منها رُباعياً أو خُماسياً، وضدُّها الذَّلاقَةُ، وهي ستةُ حروفٍ جُمِعَتْ في قولكَ: مر بنفل، سُمِّيَتْ به لخروجها من ذَلْقِ اللسانِ والشَّفةِ أي طرفيها[50]. والذَّلاقةُ: السرعةُ في النُّطْق، ولخفّتِها لا تخلو منها كلمةٌ رُباعيةٌ أو خُماسيةٌ إلَّا شاذةً أو دخيلةً في العربيَّةِ، كمسجد[51].

هذه الصفاتُ المتضادَّةُ ٱلتي لا يخلو[52] حرفٌ عنها، وبقي صفاتٌ تختصُّ ببعضِ الحروفِ.

فمنها الصتم[53]

والصتم: ما عدا حروفَ[54] الحلْقِ، سُمِّيَتْ[55] به لتمكّنها في خروجها من الفَمِ وٱستحكامِهَا فيه، ولم تُسَمَّ[56] الحلقيةُ به لعدم تمكّنِها ببعد حَيِّزِها.

ومنها التفخيم[57]

وهو تسمينُ الحرفِ. وضدُّه: التَّرقيقُ، لنحافته.[58]

ومنها الأصالة[59]

وهو كونُ الحرفِ جزءاً لكلمةٍ، ويُقابَل بـ « فعل » وتكرُّر لام المنيف.[60] ولمعرفتِها طرقٌ في التصريف، وضدّها: الزِّيادةُ، وهي بخلافها، وبَسْطُ الكلام عليْهَا في غيرِ هذا المحل.

ومنها الشَّجْرِيَّة[61]

وهي كونُها تَخرجُ من شَجْرِ الفم أي مَفْرجِه ومفتحِه

ومنها الإستطالة[81]

وهي كما قالَ الجَعْبَريُّ[82]: الإمتدادُ من أوّل حافَةِ اللسانِ الى آخرِها، لا كما قالَ مكّي[83]: لتمكّنِها بالصِّفات[84]. والفرقُ بين المستطيلِ والممدود أنّ الأولَ جرى في مخرجه والثاني جرى في نفسه.

ومنها النَّفخ

وهو صوتٌ يلحقُها عند الوقْفِ يُشْبِهُ النفخ. ذكرَ هذه الصفَةَ الجَعْبَريُّ في كُتبِه والأُستاذ أبو حيّان[85] في شرح التسهيل[86].

ومنها التفشّي[87]

حُكيَ عن بعضهم، وهو انتشار[88]، الصوت عندَ اللفظ حتى يتصلَ بحرفِ الطرف وبالعكس[89]، وهو للشين بالاتفاق.

قال الجَعْبَريّ: والتحقيقُ أنّ الضادَ انتشرَ بمخرجه وذلك بصوته.

وإنّما ذَكرنا هَذِهِ الصّفاتِ[90] مع أضدادِها لأنّ بعضَهُم وَصَفَها بصفَةٍ وبعضهم وَصَفَها بضدِّها، فذكرنا الضّدّيْن لِتعلَم الصّفةَ على القولَيْن، وللتكميل والتّمويل على ما قيلَ بضدِّها تتبيّنُ الأشياءُ[91].

الفصل الاول

فيما يَدلّ بالمعقُول على أنّ اللفْظَ بالضّادِ كالظّاءِ المُعْجَمةِ هو المَقْبولُ

وهيَ ادِلّةٌ مُتعددةٌ لاحتْ لنا بالنّظر في المنْقول:

الاول: إنّ عُلماءَ هذا الفنّ وغيرَهُم تعرّضُوا للفرقِ بينَهُما وبيّنُوا الألفاظَ التي تُقرأ[92] بالظّاءِ والّتي تُقرأ بالضّادِ، في مُؤلفاتٍ لهم مُسْتَقلّة وغيرِ مُسْتقلّة نَظْماً ونثراً. فمنهم:

١ ـ العَلاّمَةُ ابنُ الجزَريّ[93] في مُقدّمتِه[94] المشهورةِ في التّجْويد، ذكَرَ الكَلِمَاتِ الّتي بالظّاءِ الواقِعَةِ في القُرآنِ ليُعْلَمَ انّ ما عَدَاها بالضّادِ.

٢ ـ ومنهم الأمامُ الشّاطِبيّ في أبياتِه[95] التي اولُها:

رُبّ حَظٍ لِكَظْمِ غَيْظٍ عَظيم
اظفَرَ الظّفْرَ بالغَليظِ الظّلوم[96]

٣ ـ ومنهم الشيخُ عِزُّ الدينِ الرّسْعَني[97] في ابياتِه[98] التي اوّلُها:

حَفِظْتُ لَفظاً عظيمَ الوعْظِ يُوقِظُ مِنْ
ظَما لَظىً وشُواظِ الحَظْرِ والوَسَنِ

٤ ـ ومنهم الحافظُ ابو عَمْرو الدّاني[99] في أبيَاتِه[100] التي اوّلُها:

ظَفِرتْ شُواظُ بِحِفْظِها من ظلمِنا
فكظمتُ غيظَ عظيم[101] ما ظننتُ بِنا

٥ ـ ومنهم الحَريْري[102] في «مَقاماتِه»[105]، نَظَم الكلماتِ الّتي هي بالظّاءِ مُطْلقاً في أبياتٍ اوّلُها:

أيّها السّائلُ عن الضّادِ والظا ءِ لكي لا تُضِلّهُ الألفَاظُ
إنّ حِفْظَ الظاءاتِ يُغنيك فاستمعها[103] استماعَ امرئٍ له استيقَاظُ[104]

٦ ـ ومنهم الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ ابنُ مَالِكٍ[١٠٨]، عَمِلَ نحويتَيْنِ بيتاً كالحريري[١٠٩]، أوّلُها:

بِسَبْقِ شِينٍ أَوِ الجِيمِ اسْتِبَانَةُ ظَا
أَوْ كَافٍ أَوْ لامٍ أَيضاً كَاكْظُمْ مُلْتَبِطَا

٧ ـ والأديبُ الأوحَدُ محمدُ بنُ احمدَ بن جَابرٍ الهَوَاريّ[١١٠] نَظَمَ قصيدَةً بديعةً في الفَرْقِ بينَهُما[١١١]. قالَ الشِّهَابُ القَسْطلانيّ[١١٢]: لمْ يُسْبَقْ الى مِثالِهَا ولمْ يَنسجْ أحدٌ[١١٣] فيما عَلِمْتُ على مِنْوالِها. وأوّلُها:

حَمْدُ الإلـهِ أجلُّ مَا يُتَكَلَّمُ
بدءً بهِ فلَهُ الثَّنَاءُ الأقوَمُ
وعلَى النبيِّ الهاشِمِيِّ وآلِهِ
أزكَى صَلاةٍ عَرْفُها يُتَنَسَّمُ[١١٤]

٨ ـ والصَّاحبُ بنُ عَبَّادٍ[١١٥] ألَّفَ في الفَرْقِ بينَهما كتاباً نحوَ ثلثمائةِ وَرَقةٍ[١١٦]، ثُمَّ اختصرَهُ في نحوِ عَشْرةِ أوراقٍ.

وغيرُ هؤلاءِ جمعٌ كثيرٌ اعرضْنا عن ذكرِهم خوفَ الإطالةِ[١١٧]، ولهذا اقتصرْنا مِن[١١٨] كلامِهم على أوّلِ كلِّ[١١٩] مقالةٍ. فياليتَ شِعْري لولا التَّشابهُ بينَهما لفظاً والإلتباسُ، حتى خفيَ الفرقُ بينهما على كثيرٍ من النَّاس، لِمَ كانَ هذا الجمُّ الغفيرُ يُتعِبونَ القلمَ أو يسوِّدونَ القِرطاسَ.

الثاني: إن الضَّادَ ليسَتْ لُغةَ التُّركِ بَلْ مخصوصةً باللُّغةِ العربية، كما أشارَ اليه أبو الطَّيِّبِ في قولِه:

وبِهِم فَخْرُ كلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا
دَ وعَوذُ الجاني[١٢٠] وغَوثُ الطَّرِيدِ[١٢١]

ودَلَّ عليه قولُ الأستاذِ أبي حيَّان في كتابٍ له في اللُّغةِ التُّركية:[١٢٢] «حروفُ المُعجمِ في هذا اللِّسانِ ثلاثةٌ وعشرونَ حرفاً[١٢٣]»، وسَرَدَها وعن الضَّادِ جرَّدَها. ثُمَّ قالَ[١٢٤] «ومتى وُجِدَ في بعضِ الكلامِ حرفٌ غيرُ هذه فيُعلَمُ أنَّ تلكَ الكلمةَ غيرُ تركيَّةٍ بَلْ منقولةٌ من لغةٍ غيرِها[١٢٥].»

وقالَ الشِّهابُ النَّصيبي[١٢٦] في شرحِ ألفيَّةِ ابن معطٍ بعدَ ذِكْرِ مخرجِ الضَّادِ: «[١٢٧] وهو من خواصِّ اللُّغةِ العربيَّةِ لا يُوجَدُ في غيرِها[١٢٨].»

وقالَ الإمامُ البُرهانُ الجَعْبَريُّ في كتابه عُقودِ الجُمَانِ[١٢٩]:

والعُرْبُ خُصَّ بِضَادِها وتكثَّرَتْ
بالظَّا وثَا والذَّالِ[١٣٠] فاستجمعانِ[١٣١]

وقالَ في القَامُوسِ: «والضَّادُ حرفُ هجاءٍ للعربِ خاصةً». وقالَ الجَارَبَرْدِي في «شرحِ الشَّافية[١٣٢]»: «ولا ضادَ إلَّا في العربيَّةِ، ولذلكَ قالَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أنا أفصحُ من تكلَّمَ بالضَّادِ[١٣٣]»، لكنْ قالَ القَسْطلانيُّ في «لَطائفِ الإشاراتِ» بعد ذكرِ الحديثِ[١٣٤] بلفظ: أنا أفصحُ مَنْ نَطَقَ بالضَّادِ: «إلَّا أنه لا أصلَ له كما قالَ الحافِظُ الكبيرُ أسماعيلُ بنُ كَثِيرٍ الحنبلي[١٣٥]، وذكرَه الحكرى[١٣٦] في «النجوم[١٣٧]» ساكتاً عليه[١٣٨]»، انتهى.

إذا عُلِمَ ذلكَ فليسَ مفقوداً في لُغةِ التُّركِ إلَّا الضَّاد الشَّبيهة بالظَّاء، أما هذا الحرفُ الذي يُشْبِه الدَّالَ المُفخَّمةَ[١٣٩] أو الطَّاءَ المُهمَلةَ الذي يَنطِقُ بهِ أكثرُ المِصريِّينَ[١٤٠] وتُسمّيهِ بالضَّادِ الطَّائيَّةِ، فموجودٌ في لُغةِ التُّركِ بَلْ[١٤١] في أكثرِ ألفاظِهم، كما يَشهَدُ العارفُ بلغتِهم[١٤٢] بَلِ السَّامعُ لكلامِهم، والموجودُ غيرُ المفقودِ، وبذلكَ يتمُّ[١٤٣] المقصودُ.

الثالث: إنَّ الفقهاءَ ذكروا أحكامَ مَنْ يُبدِلُ الضَّادَ ظاءً، قالَ في «الذخيرة[١٤٤]»: «مَن[١٤٥] يأتي بالظَّاءِ مكانَ الضَّادِ، وبالضَّادِ مكانَ الظَّاءِ، فالذي يَنبغي أنْ تَفسُدَ[١٤٦] صلاتُه، وهو قولُ عامَّةِ المشايخِ. واستحسنَ بعضُ مشايخِنا وقالوا بعدمِ الفسادِ للضَّرورةِ في حقِّ العَوامِ.» وقالَ الشيخُ خليلٌ المالكيّ[١٤٧] في مختصرِه[١٤٨]: «وهل بلاحنٍ مُطلَقاً أو في الفاتحةِ وبغيرِ مميِّزٍ بينَ ضادٍ وظاءٍ خِلافٌ.»

وقال الإمامُ النَّوويّ[149] في مِنهاجِه[150]: ولَوْ أبدلَ ضاداً بظاء لم يَصِحّ في الأصحّ. وقال الشيخُ علاءُ الدين المَرْداوي[151] الحَنْبلي في «تنقيحه[152]»: ولو أبدل حرفاً لم يصحّ الا ضادَ «المغضوبِ عليهم ولا[153] الضالّين[154]» بظاءٍ[155] فيصحّ[156]. ولم يَتعرّضوا لأحكامِ مَنْ يُبْدِلُها بحرفٍ غيرِ الظّاءِ كما تعرّضوا لأحكامِ من يُبْدِلُها به، فلَوْلا التّشابُهُ بينَهما لما كانُوا يفعلُون ذلك.

الرابع: إنّ بعضَ العُلَماءِ وَصَفَها بالتَّفَشّي، ولا تَفَشّيَ فيها إلّا إذا كانتْ شبيهةً بالظاءِ[157]، أمّا الضّادُ الطائية فلا تَفَشّيْ فيها[158]. وقد سَبَق ذكرُ التَّفَشّي ومَعْناه ولذلكَ ما أعدناه.

الخامس: إنّهم ذَكَرُوا أنّ مِن صِفَاتِها النَّفْخَ، ويُشارِكُها فيه الظّاءُ والذالُ والزاي، ولا يتحقّقُ ذلكَ إلّا في الضاد الشَّبيهةِ بالظّاءِ، أمّا الضّادُ الطائيّةُ فلا توجدُ فيها هذهِ الصفةُ، كما يَشْهد به من أحاطَ بالمُقدّمةِ مَعرفةً. ولكونِها تُشارِكُ الزايَ والظاءَ في هذه الصفةِ ونحوِها قد يَجعلُها العَربُ في مقابِلَتِها في قَوافي الشّعر. قالَ عبدُ اللطيفِ البَغْدادي[159] في «شَرْحِ نَقْدِ الشِّعْرِ» لقُدامةَ[160] في باب (الاكفاء): «قال بعضُ العُلَماءِ اختلافُ حرفِ الرَّوِيِّ هو الاكفاء، وهو غَلَطٌ من العَرَبِ ولا يجوزُ لغيرِهم، وإنّما يَغْلَطُون فيه إذا تقارَبتِ الحُروفُ، وأنشدَ:

كأنّ أصواتَ القَطا المُنْقَضْ
بالليلِ أصواتُ الحَصا المُنْقَزِّ»

ولاشكَّ أنّ الضّادَ الطائيّةَ بَعيدةٌ عن الزاي في الصوتِ بمراحل، وأنّ القريبَ منها هي الضّادُ الشّبيهَةُ بالظاءِ. قلتُ:[161] ومن هُنا أيضاً ساغ [162] ما عَمله بعضُهم من[163] اللغزِ في الخَيمةِ بقوله:

ومَضروبةٍ من غيرِ جُرمٍ أتتْ به
إذا ما هَدى بدرُ الأنامِ أضلّتِ

وممّا يَنْحُو هذا النحْوَ ما ذكرهُ الصّلاحُ الصَّفَدي[164] في كتاب «فضّ الختام عن التّوريَةِ والاستخدام[165]» حيث قال: الاصل[166] الرابعُ: فيما يحصلُ من الوَهْمِ والاشتراكِ، أنشدني بعضُهم لأبي الحُسين الجزّار[167]، ولم أحقّق نسبةَ ذلكَ إليهِ لأنّ أبا الحُسينِ يَجلّ قدْرُه عن الوُقوعِ في مِثلِ هَذا:

وقائلٍ قالَ ما اعددتَ من أُهُبٍ
لذا الشتاءِ وذا البَرْدِ الذي عَرَضا
فقلتُ دَعْني فقدْ اعددتُ لي بَدناً
مُسلّخةً[168] وشَقاً في القلبِ قدْ قُرِضا

وقد وَهِمَ الشّاعرُ في قولِه: قُرِضَ، لأنّ الذي يُدْبَغُ به إنّما هو بالظّاءِ، وقد نصّوا على ذلك وهو أشهرُ من ان يُنبّه عليه.[169] والقرضُ بمعنى القَطْعِ بالضاد ليس إلّا، والقافيةُ ضاديةٌ كما ترى، ولكنّ الشّاعرَ ما قصَرَ[170] في قوله: وشَقّاً، وتركيبُه هذا من حَرفٍ واسمٍ، وجعلَه نوعاً من أنواعِ الفِرَاء»، انتهى. قلتُ: والعذرُ للشّاعرِ ظاهر[171] من اشتباهِ الحَرفين كما بيّنّاهُ. ولا يخفى انّ القَرَظَ في العُرْفِ نوعٌ من الفِرَاءِ وهو المناسبُ للمقامِ. فقولُهُ: الذي يُدْبَغُ به، فيه تسامحٌ. وبالجملة فلا يَبْعُد انتسابُ هذا الشِّعْرِ الحَسنِ[172] الى ابي الحسين.

السادس: إنّهم ذكرُوا من صِفاتِها الاستطالةَ، كما مَرّ ذكرُها ومعناها، وهي المُمَيّزةُ لها من الظاءِ، ولا يُوجَدُ في الضّادِ الطّائيةِ صِفَةُ الاستطالةِ.

السابع: إنهم[١٧٣] ذكروا أنّ من صفاتها الرخاوة، وهذا شديدُ الدّلالةِ عندَ مَنْ ليسَ عنده غباوةٌ. فإنّه لا رخاوةَ فيها إلّا اذا كانت شبيهةً بالظاءِ. أمّا الضادُ الطائيّةُ فمشوبةٌ بالدّالِ أو[١٧٤] الطاءِ المُهْمَلةِ، وكلٌّ منهُما حَرفٌ شديدٌ، فكذا ما هو بينهما. بَلْ مَنْ عرف معنى الشّدةِ والرّخاوةِ، وقد قدّمنا هما في المُقدِّمةِ، يجدْ هذا الحرف[١٧٥] مُتصِفاً بالشدّةِ قطعاً، مع قطعِ النظرِ عن الدّالِ والطّاءِ[١٧٦].

الثامن: إنّ هذا الحرفَ[١٧٧] صعبٌ على اللّسانِ، نصَّ على ذلكَ عُلماءُ هذا الشأنِ وفرسانُ هذا الميدانِ، وحَكمُوا بأنّ الراجلَ في التّجويدِ والإتقانِ لا يَقْدِرُ على تحقيقِها بَلْ بعض كبارِ[١٧٨] الفرسانِ. قال الإمامُ السّخاوي[١٧٩] في «عُمْدةِ المُفيدِ[١٨٠]»:

والضّادُ حرفٌ مُستطيلٌ مُطبَقٌ ... جهرٌ يكلُّ لديهِ كلُّ لسانِ

حاشا لسانٍ بالفصاحةِ قيّمٍ ... دَرِبٍ[١٨١] لأحكامِ الحروفِ مُعانِ[١٨٢]

وقالَ الأستاذُ أبو حيّان في «شرح التّسهيل»: «والضّادُ من أصعبِ الحُروفِ الّتي أنفردتْ العربُ بكثرةِ أستعماله». وقالَ الشيخُ أبو محمدٍ مكيُّ بنُ أبي طالب في «الرِّعاية»: «ولا بُدَّ[١٨٣] من التّحفّظِ بلفظِ الضّادِ حيثُ وقعَ، فهو أمرٌ يُقصّرُ فيه أكثرُ مَنْ رأيتُ مِن القُرّاءِ والأئمةِ، لصُعوبتِه[١٨٤] على مَنْ لم يُدرَّبْ[١٨٥] فيه. فلا بُدَّ للقاريءِ المُجوِّدِ أنْ يلفظَ بالضّادِ مُفخّمةً[١٨٦] مُستعليةً مُطبقةً مُستطيلةً، فيُظهرُ صوتَ خروجِ الرّيحِ عندَ ضغطِ حافةِ اللّسانِ لما[١٨٧] يليه من الأضراسِ عند اللفظِ بها. ومَتى فرّطَ في ذلكَ أتى بلفظِ الظاءِ والذّالِ[١٨٨]، فيكونُ مُبدلاً ومُغيّراً. والضّادُ من[١٨٩] أصعبِ الحُروفِ[١٩٠] على اللافظِ، فمتى لم يتكلّفْ القاريءُ إخراجَها على حقّها أتى بغيرِ لفظِها وأخلَّ بقراءتِه. ومَتى[١٩١] تكلّفَ ذلكَ وتمادى عليه صارَ له التجويدُ بلفظِها عادةً وطبعاً وسجيةً[١٩٢]».

وقالَ العلامةُ أبنُ الجَزَري في «النّشر»: «والضّادُ أنفردَ بالاستطالةِ، وليسَ من الحُروفِ ما يَعْسُر على اللسانِ مثلُه، فإنّ ألسنةَ النّاس فيه مُختلفةٌ وقلَّ مَنْ يُحسنُه، فمنهم مَنْ يُخرجُه ظاءً[١٩٣]، ومنهم من يمزجُه[١٩٤] بالذّالِ[١٩٥]، ومنهم مَنْ يجعلُه لاماً مُفخّمةً، ومنهم من يُشِمُّه الزاي. وكلُّ ذلك لا يجوزُ[١٩٦]»، انتهى.

فإذا كانتْ الضادُ العربيةُ بهذه[١٩٧] المرتبةِ من الصُّعوبةِ، وأنتَ ترى أنْ لا صُعوبةَ في الضّادِ الطائيّةِ بَلْ هيَ في غايةِ السُّهولةِ على اللّسانِ، يستوي في النُّطقِ بها[١٩٨] العالِمُ والجاهِلُ، والفارسُ في هذا الميدانِ والرّاجِلُ، فإنّكَ تحكم بانّ الضّادَ الطائيّةَ بعيدةٌ عَنْ الضّادِ العربيّةِ بمراحِلَ.

التاسع: إنّ المخرجَ المنصوصَ عليه للضّادِ في الكُتبِ المَعْروفةِ المتداوَلةِ ليسَ إلّا للضّادِ الشبيهةِ بالظاءِ المُعجَمةِ لا للطائيّةِ. فإنّهم قالوا في مَعرفةِ مَخرجِ الحرْفِ: أنْ تُسكّنه وتُدخلَ عليه همزةَ وصْلٍ وتنظرَ أين ينتهي الصوتُ، فحيثُ أنتهى فثَمّ مخرجُه. مثلاً تقولُ: أبْ، فتجدُ الشّفتينِ قد أُطبقتْ احداهما على الأخرى، وهو مخرجُ الباءِ. وأنتَ إذا نطقتَ بالضّادِ الطائيّةِ وفعلتَ ما تقدّمَ ذكرُه لا تجدُ الصوتَ ينتهي إلّا الى طرفِ اللّسانِ وأعلى الحَنَكِ، وهو مخرجُ الدّالِ والطّاءِ[١٩٩] والتّاءِ، ولم نَرَ احداً ذكرَ أنّ مخرجَ الضّادِ من هذا المحلّ، بَلْ ما ذكرناهُ لها من المخرجِ مذكورٌ في كُتبٍ لا تُحصى في عِلمِ القِراءاتِ[٢٠٠] وعِلمِ النحوِ[٢٠١]، مثل كتبِ الإمامِ العَلامةِ أبنِ الجَزري والإمامِ الشّاطبي والعَلّامةِ الجَعْبَريّ والشيخِ أبي محمد مكّي والشّيخِ جمالِ الدينِ مالكٍ وأبنِ مُعطٍ[٢٠٢] وأبنِ الحاجبِ والزمخشري[٢٠٣] وأبي حيان وغيرِهم. وما نُقلَ عن الخليل[٢٠٤] مِن[٢٠٥] أنها شجْريّةٌ فسيجيءُ الكلامُ عليه إن شاءَ الله تعالى[٢٠٦].

فإنْ قيلَ: نحنُ نَروي[٢٠٧] هذهِ الضّادَ الطائيةَ بالمُشافهةِ عن الشّيوخِ الرّاوينَ لها عن شيوخِهم بالإسنادِ المتّصلِ بأئمةِ القُرّاءِ البالغِ الى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قُلنا: لا عِبْرةَ بالرّوايةِ المُخالفةِ للدّرايةِ[٢٠٨]، إذْ شرْطُ قَبولِ القِراءةِ أنْ توافقَ العربيةَ، وقد بيّنّا مُخالفتَها لِما تواترَ في كُتبِ العَربيّةِ والقِراءاتِ[٢٠٩]. قالَ الأستاذُ أبو حَيان في «شرحِ التسهيل»: «إنّما ذكرَ النحويّون صفاتِ الحُروفِ لفائدتين، إحداهُما لأجلِ الادغامِ»، ثم قال: «والفائدةُ الثانيةُ، وهي الأولى في الحقيقةِ، بيانُ الحُروفِ[٢١٠] حتى ينطقَ مَنْ ليسَ بعربيٍّ بمِثْلِ ما ينطِقُ العربيُّ، فهو كبيانِ رفعِ الفاعلِ ونصبِ المفعولِ، فكما أنّ نصبَ الفاعلِ ورفعَ المفعولِ لحنٌ في

العربيّة كذلك(١٣) النّطق(١٤) بحروفِها مُخالفةَ مخارجِها لِمَا رُوِيَ عن العَرَبِ في النُّطقِ بها لَحْن(١٥) أيضاً. وتفصيلُ هذا الجَوابِ لا يَليقُ بهذا الكِتابِ.

العاشر: إنَّ من أوصافِها الشُّجْرِيّة، لقّبَها بها صاحبُ القدْرِ الجليلِ إمَامُ النّحْوِ الخَليل(١٦). ولا يَتأتّى ذلك إلاّ إذا كانَتْ شبيهةً بالظّاءِ، فإنَّ الضادَ الطائيّةَ تَخرجُ(١٧) من طَرَفِ اللّسانِ لا مِنْ شَجْرِ الفَمِ، وسَيأتي لذَلك مزيدُ بَيانٍ إنْ شاءَ الله.

الحادي عشر: قولُهم في صِفَةِ الإطبَاقِ: «ولولا الأطباق لصارتْ الطاءُ دالاً والصادُ سيناً والظّاءُ ذالاً ولخرجَتْ الضادُ من الكَلام اذ لا تَخرجُ من موضِعها غيرُها»، هذا نَصُّ كلامِ الأُستاذ أبي حَيان في «شَرْحِ التّسهيلِ»، ومثلهُ في شرحِ المُفَصّل لابنِ يَعيش(١٨). وهذا كمَا تَرى يَخُصّ(١٩) الضادَ الشبيهةَ بالظاءِ، أمّا الطائيّةُ فيَخرجُ(٢٠) من مَخرجِها الحروفُ الثلاثةُ النّطعيةُ، كما يَشهد به الحِسُّ بالقاعدةِ المَعروفةِ في معرفةِ مَخْرجِ الحَرْفِ. فلو كانَتْ الطائيّةُ عَربيةً(٢١) لَوُصِفَتْ بالنّطعيةِ كما وُصِفَتْ أخواتُها، ولَقَالوا: لولا الإطباقُ لصارتْ الضّادُ دالاً، بَدَلَ قولِهم: لخرجَتْ من الكلام، كَما لا يَخفى على ذوي الأفهام.

الثاني عشر: إنّ أهلَ مكةَ(٢٢)، الّتي هي مَنْشأُ النبيّ صلى الله عليه وسلّم، الذي هو سيّدُ العَرَب(٢٣)، ومَا وَالاها(٢٤) من بلادِ الحِجَازِ، الّتي هي(٢٥) على العَرَبِ وموطنُهم إنّما يَنطقونَ بالضّادِ شبيهةً بالظاءِ المُعجمة، ولا يُسمَعُ مِنْ أحَدٍ منهم هذهِ الطائيّةُ، وهُم(٢٦) نِعْمَ المُقتدى(٢٧) لِمَنْ رامَ في هذا السّبيلِ الاهتداء.

الفَصْلُ الثّاني
فيْمَا يَدلُّ بالتّصريح على أنّ التلفُّظَ بالضّادِ شبيهٌ بالظاءِ هو الصحيحُ

وهو المَنقولُ من كلامِ الفُحولِ(٢٨) المُتلقّى كلامُهم بالقَبُولِ.

الأوّلُ: كلامُ مُحمّد بنِ عَتيقِ بنِ عليّ التّجيبيّ الأزدي(٢٩) في «الدُّرَرِ المُكَلّلة في الفَرْق بينَ الحُروف المشكلة(٣٠)»:

والضّادُ والظّاءُ لقُربِ المَخْرجِ
قَد يُؤذِنانِ بالتِباسِ المَنْهَجِ

الثاني: أيضاً في كتابه المَذكورِ بعدَ ذِكره الظاء:

ويَكثُرُ التِبَاسُها بالضّادِ
إلاّ على الجَهابِذِ(٣١) النُّقّاد

الثالث: قولُ الأديب الأوحَدِ محمدِ بنِ جَابرٍ الهواريّ المذكورُ في قصيدتِه المَذكورة(٣٢):

وأقولُ فيمَا بعدُ(٣٣) ذلكَ إنّه
للظّاءِ بالضّادِ التباسٌ يُعْلَمُ
فرأيتُ خفضَ الضّادِ آكدَ وَاجبٍ
ليَبينَ أنّ الغَيْرَ(٣٤) ضَادٌ تُرسَمُ

الرابع: قَوْلُ الإمامِ السّخاوي في «عُمْدَةِ المُفيدِ» بعد أنْ ذكرَ الضادَ وأنّهُ حَرْفٌ صَعْبٌ:

مَيّزْهُ بالإيضاحِ عَن ظَاءٍ نفي
«أضْلَلْنَ(٣٥)» أو في «غِيضَ(٣٦)» يشتبهانِ
وكذَاكَ «مُحتضَر(٣٧)» و «نَاضِرةٌ إلى(٣٨)»
و «لا يحضّ(٣٩)» وخُذْه(٤٠) ذا إذعانِ(٤١)

الخامس: قَوْلُ العَلاّمةِ ابنِ الجَزَري في مُقدّمتِه المشهورةِ في التَّجْويدِ:

والضَّادُ باستِطالَةٍ ومَخْرَجِ ... مَيِّزْ من الظّاءِ وكُلّها تَجي(٤٢)

وتَقديمُ المَجرورِ يُفيدُ التَّخصيصَ فيَدلُّ على أنَّ التَّمييزَ بينَهما لَيسَ إلاّ بالمَخرجِ والاستطالةِ، وأنّها مُشارِكةٌ لها في الصَّوتِ.

السادس: قَوْلُ العَلاّمةِ البُرهانِ الجَعْبَريّ في شَرْحِ الشّاطِبيّةِ: «ولَفْظُها، يَعني لفظ(٤٣) الضّادِ، يُضارِعُ لفظَ الظّاءِ لأنّهما(٤٤) أكثرُ الحُروفِ تَناسباً في الصِّفةِ.».

السابع: قولُه في كِتابِه «عُقودُ الجُمانِ في تَجْويدِ القُرآنِ»:

والظّاءُ أخْتُ(٤٥) الضّادِ في كُلِّ الحُلَلْ ... وبالاستِطالةِ خُولِفَ الحَرْفانِ(٤٦)

أي(٤٧) مع مَخرجٍ.

الثامن: قولُ الشَّيخِ بَدرِ الدّينِ المَعروفِ(٤٨) بابنِ أمِّ قاسِم(٤٩) في «شرحِ الواضِحةِ في تَجْويدِ الفاتِحةِ(٥٠)» عندَ قَوْلِه(٥١):

وللضّادِ كالظّلالِ جَوْنُه فارِقاً ... بمَخْرَجِه مَعْ وَصْفِه المُتَغنِّد(٥٢)

بعدَ أنْ ذَكرَ مَخرجَها كما ذَكرناهُ وصِفاتِها والأبياتَ التي تدلُّ على صُعوبَتِها من كلامِ السَّخاوي التي ذكرناها(٥٣)، قالَ: وشارَك(٥٤) الظّاءُ الضّادَ في الاستعلاءِ والجَهرِ والإطْباقِ والتَّفخيمِ(٥٥) ولم يُشارِكْه في المَخرجِ، ولمُشارَكتِه له في هذه الصِّفاتِ اشتدَّ شَبهُهُ له(٥٦) وعَسُرَتْ التَّفرِقةُ بينَهما واحتِيجَ الى الرِّياضةِ التّامّةِ.(٥٧)

التاسع: قَوْلُ الشَّيخِ أبي مُحمّدٍ مَكّي بنِ أبي طالِبٍ في كتابِه «الرِّعايةِ» في بابِ الضّادِ، بَعْدَ أنْ ذَكرَ أنّه يَجِبُ التَّحفُّظُ بها إذا أتى بعدَها حرفُ إطباقٍ: وكَذلكَ إنْ(٥٨) كانَ الثّاني مُشدّداً نحوَ «يَعضُّ الظّالمُ(٥٩)»، فهذا لستَ تَخافُ(٦٠) من دُخولِ الادغامِ فيه، لأنَّ المُشدَّدَ لا يُدغَمُ فيه شيءٌ(٦١) لأنَّ التَّشديدَ الذي فيه من الإدغامِ كافٍ(٦٢)، ولا يَدخُلُ إدغامٌ على إدغامٍ(٦٣)، فاعرفْ هذا. ولكنْ يُخافُ أنْ تلفظَ(٦٤) بالأوّلِ مثلَ لفظِك(٦٥) بالثّاني لتقارُبِ المُشابهةِ(٦٦) والألفاظِ(٦٧) في الظّاءِ والضّادِ»(٦٨).

العاشر: قولُه في كتابِه المَذكورِ في بابِ الظّاءِ: «والظّاءُ حرفٌ يُشبِهُ لفظُه في السَّمعِ لفظَ الضّادِ، لأنّهما من(٦٩) الحُروفِ المُستعليةِ ومن الحُروفِ المَجهورةِ، ولَولا اختلافُ المَخرجينِ لهُما(٧٠) وزِيادةُ الإستطالةِ التي في الضّادِ، لكانَتْ الظّاءُ ضاداً(٧١)»!

الحادي عشر: قولُه في بابِ الضّادِ: والضّادُ يَشتبِهُ(٧٢) لفظُها(٧٣) بلفظِ(٧٤) الظّاءِ، لأنّها من حُروفِ الإطْباقِ ومن الحُروفِ المُستعليةِ المَجهورةِ.(٧٥) ولَولا اختلافُ المَخرجينِ وما في الضّادِ من الإستطالةِ لكانَ لفظُهما واحداً ولم يَختلِفا في السَّمعِ»(٧٦).

الثاني عشر: قَوْلُ العلاّمةِ ابنِ الجَزَري المَشهورِ(٧٧) بكَمالِ فَضلِه، الموصوفِ بأنّه لم تَسمحِ الأعصارُ بمِثلِه، وكفى بذلكَ مُوجِباً لاتِّباعِ قولِه في كتابِه «التَّمهيدِ» الذي ألّفه في القاهِرةِ المُعِزّيّةِ: «واعلَمْ أنَّ هذا الحرفَ ليسَ في الحُروفِ حرفٌ يَعسُرُ على اللِّسانِ غيرُه(٧٨)، والنّاسُ يَتفاضلونَ(٧٩) فيه فمنهم مَنْ يَجعلُه(٨٠) ظاءً مُطلقاً، لأنّه يُشارِكُ الظّاءَ في صفاتِه كلِّها ويَزيدُ عليها بالاستطالةِ، فلولا الاستطالةُ واختلافُ المَخرجينِ لكانَتْ ظاءً، وهم أكثرُ الشّاميّينَ وبعضُ أهلِ الشَّرقِ(٨١) وهذا لا يَجوزُ في كلامِ اللهِ تَعالى لمُخالفتِه المَعنى الذي أرادَهُ اللهُ تَعالى.» ثُمّ قالَ: «ومنهم مَنْ لا يُوصِلُها الى مَخرجِها بل يُخرِجُها(٨٢) دونَه مَمزوجةً بالطّاءِ المُهمَلةِ لا يَقدِرونَ على غيرِ ذلك، وهم أكثرُ المِصريّينَ وبعضُ أهلِ الغَربِ(٨٣). ومنهم من يُخرِجُها لاماً(٨٤) مُفخّمةً، وهم أكثرُ الزَّيالِعةِ(٨٥) ومَنْ ضاهاهم. واعلمْ أنَّ هذا الحرفَ بخاصّةٍ(٨٦) إذا لم يَقدِرْ الشَّخصُ على إخراجِه مِنْ مَخرجِه بطبعِه لا يَقدِرُ عليه بكُلفةٍ ولا

تعليم »، إنتهى.

وإذا وصلَ جوادُ القلَم في تتبّعِ النُقول في ميْدانِ المنقول، بعدَمَا أسلفناهُ من المعقول الى هذا الأمَدِ[287] من الإفصاحِ[288]، فقد حانَ أن يُصاحَ: أطفِىءِ المِصْباحَ فقدْ طلعَ الصباحُ. وأمّا:

الخاتِمَةُ

ففيها تنبيهاتٌ دافعةٌ لتمويهاتٍ[289]

الاول: إنّه ليسَ مُرَادي بكونِ الضّادِ شبيهةً بالظّاءِ وقريبةً منها كونَها ممزوجةً بها غايةَ الامتزاجِ، بحيثُ يخفى الفَرْقُ بينَهما على المُجيدِ لفَنِّ التَجْويدِ، فإنها حينئذٍ تكون حَرفاً خارجاً عن الحُروفِ العربيةِ المُستعملةِ، كما تقرّرَ في محله من كُتُبِ النَّحْوِ والقِرَاءاتِ، وتُسمى بالضّادِ الضَعيفَةِ[290] وهي التي لم يُشْبع[291] مخرجُها ولم يُعْتَمدْ عليهِ، ولكنْ يُخَفَّف ويُختَلس[292] فيَضْعُفُ إطباقُها كما نُقِلَ عن أبي علي[293]. وقال ابنُ خَروف[294]: هي[295] المحرّفَةُ عن مَخرجها يميناً وشمالاً كما ذَكَر سيبويه[296]، بَلْ أردتُ مَا أرادَهُ العلماءُ السابقُ ذِكرُهم في نُصوصِهم المذكورةِ في كتبِهم المَشْهورةِ.

فإنْ قلتَ: قد قالَ الجَعْبَريّ في « حُدود الإتقان[297] »:

والظّاءُ واطٍ، الضّادَ[298] في أوصافِهِ
لا قُربُهُ فتعسَّرَ[299] اللفظانِ

فنفى القربَ بينهما[300].

قلتُ: يَتعينُ حملُ القربِ المَنفيِّ هنا[301] على القُرْبِ في المَخرجِ دونَ القُرْبِ في اللّفظِ، جمْعاً بينَ كلامِهِ هذا وكلامِهِ في « شرح الشاطبية » وغيرِهِ المنقولِ عنه فيمَا مَرّ، وليوافِقَ كلامَ غيرِهِ من العُلماءِ السابقِ ذكرهم.

فإنْ قلتَ: فمَا تصنَعُ بدلائِلِك[302] النّقليّة المَنقولة[303] من كتاب « الدُرَر المُكلّلة »، فإنّهُ أثبتَ الفرقَ[304] بينَهُما صَريحاً[305].

قلتُ وبالله التَوفيقُ: يُحْمَلُ القربُ المُثبَتُ في كلامِهِ على القُرْبِ باعتبارِ آخرِ مخرجِها، والقُربِ المَنفيّ في كلامِ غيرِهِ على القرب باعتبار أول مخرجها، فاحفظْ هذا واعطفْ عليه مَا سيأتي في التنبيهِ الأخيرِ فإنّهُ به جَديرٌ.

فإنْ قيلَ: إذا كانَتْ بعيدةً عنْهَا في المَخرجِ، ولو باعتبارٍ، فما السِّرُّ في تقاربِهما لفظاً وتشابُهِهمَا سمعاً؟، فإنّ للبعدِ في المَخرج مدخلاً في البُعْدِ[306] في اللّفظ.

قلتُ: ظهرَ لي بفضلِ الله الجليلِ مَا لعلّه يَرْوي الغليلَ ويَشْفي العَليلَ[307]، وهو أنّ تشابُهَ المَخرجينِ، وإن كَانا بعيدينِ، سببٌ لتشابُهِ لفظي الحرفينِ[308]، فإنَّ مخرجَ الظّاءِ من طَرَفِ اللّسانِ وأطرافِ الأسنانِ[309]. ومخرجَ الضّادِ من حافّةِ اللّسانِ وما يَليه من الأضراسِ التي هي من جِنْسِ الأسنانِ. ولا يخفَى أنّ بينَ طرفِ اللّسانِ وحافتِه مُشابَهَةً من حيثُ أنّ كلاً منهُما نهايةُ مساحةِ جِرْمِ اللّسانِ، فالطرَفُ نهايته من جِهةِ مُقَدّمِ الفمِ، والحافةُ نهايتُه من جهةِ يَسارِ الفَمِ أو يمينِه. فمخرجُ كلٍّ من الظّاءِ والضّادِ نهايةُ اللّسانِ وبعضِ الأسنانِ، فلا جَرَمَ تَشابَهَ منهُما اللفظانِ. ولعَلّ هذا، والله سبحانَه وتعَالى أعلمُ، هُوَ السببُ في اشتراكِهما في تلكَ الصفاتِ المذكُورةِ.

قلتُ[310]: بَعْدَ مَا كتبتُ هذا بمدةٍ مَديدةٍ اطلعتُ على مَا يُوافقُه من كلامِ الإمامِ الجليلِ الشيخِ تقيِّ الدّينِ بنِ تَيْميةَ الحرّاني[311]، نَقَلَهُ عنه في « الاقناع في فقه الامام احمد »، فإنّهُ عَلّلَ لعدمِ بُطلانِ الصّلاةِ في إبدالِ ضادِ « المَغضوب » و« الضالين » ظاءً لأنّ كُلّاً منهُما مِنْ طَرَفِ اللّسانِ وبينَ الإسنانِ، ولذلكَ كانَ مخرجُ الصّوتِ واحداً، قالَهُ الشيخُ في « شرح العُمْدة »، يعني الشّيْخَ تقيَّ الدّينِ الحَنْبلي.

الثاني: إنه قَدْ يَتشبّثُ مُخَالِفُنا فيمَا قُلناهُ، بمَا عن الخَليلِ نقلنَاهُ من كونِها شَجْريةً. وقد ذكرَهُ العلاّمةُ ابنُ الجزريّ في « النشر »، ونصُّ عبارتِه: « وقالَ الخليلُ إنّها أيضاً شَجْريةٌ، يَعني من مَخرجِ الثّلاثةِ قبلَها. والشَجْرُ[312] عندَه: مَفْرَجُ الفَمِ أي مَفْتَحُه[313]. وقالَ غيرُ الخَليلِ: هُوَ مَجمع[314] اللحيَينِ عندَ العَنْفَقة[315]، فلذلكَ لَمْ تَكُنِ[316] الضّادُ منهُ[317]. فنقولُ: ذكرَ الشيخُ شِهَابُ الدّينِ القسطلاني في « لَطائف الإشارَاتِ » أنّ ابنَ الجزَريّ ردَّ كونَها شَجْريةً بمَا تقدّمَ[318] من تَعريفِ الشّجْر. وفيهِ مُناقشةٌ، وهيَ: أنّ الظاهرَ من

كلامه أنّ ابنَ الجزريّ[219] رَدَّ كونَها شَجْرِيةً مُطلقاً بالتّفسيرَيْن[220] المذكورَيْنِ سابقاً في كلامِه، وليسَ كذلكَ، بَلِ الظاهرُ أنّ ابنَ الجَزَريّ فرّعَ علَى التّفسيرِ الثّاني للشّجْرِ المنقولِ عَنْ غيرِ الخليلِ كونَها[221] ليسَتْ شَجْرِيةً عندَه. أمّا علَى التفسيرِ المنقولِ عنِ الخليلِ فهي شَجْرِيةٌ أيْ خارِجةٌ من شَجْرِ الفَمِ أيْ مفتحِه، وهو وَسطُ اللّسانِ، فإنّها تخرجُ بِمَا يُقابِلُ وسطَه من حافّتِه، ولذلكَ قالَ البُرهانُ الجَعْبَريّ في «عُقودِ الجُمانِ»:

فالضّادُ موضعُ[222] بانِيه[223]

وقالَ في شَرْحِ الشّاطبيّةِ: «والشّجْرِيةُ الخارِجةُ من وسطِ اللّسانِ مُطلقاً ومُقابِله. وقالَ ابنُ يَعيشَ في «شرحِ المفصّلِ» في تَعليلِ تسميتِها بالشّجْرِيةِ: «[224] لانَ مَبدأَها من شَجْرِ الفَمِ[225]»، أي مَفتحِه. بَلْ لو أرادَ ابنُ الجَزَريّ الرّدَّ مطلقاً يُنقَلُ البحثُ اليه.

فإنْ قِيلَ: ليسَ الحافّةُ مِمّا يَصدُقُ عليه الشّجْرُ، بَلْ مَخصوصٌ بوسطِ اللّسانِ. قلتُ: أوّلاً لا نُسلّمُ[226] ذلكَ، ولَئنْ سُلّمَ فلا يَلزَمُ من تسميتِها شَجْرِيةً أن تَخرجَ[227] من نفسِ الشّجْرِ، بَلْ يكفي خروجُها بِمَا يُقابِلُه ويَقرُبُ منه، ومَا قاربَ الشيءَ يُعطى حكمَه. وهُمْ قَدْ راعوا التغليبَ في مِثْلِ ذلكَ، الا تَراهم[228] سمّوا ستّةَ أحرفٍ ذَولقيةً، لأنّها تَخرجُ من ذَلَقِ اللّسانِ، والخارجُ منه ثلاثةٌ فقط والثلاثةُ الباقيةُ الباقيةُ لا عَمَلَ للسانِ فيها بَلْ هي شفهيةٌ، وهيَ الباءُ والفاءُ والميمُ، فكأنّهم أطلقوا عليها ذلكَ لمُشابهتِها للذّولقيةِ في السّرْعةِ والخِفّةِ.

فإنْ قيلَ: فحينئذٍ يَتّجِهُ أنْ يُقالَ[229] في كلامِ ابنِ الجَزَريّ في «النشر»: إذا[230] كانَ مَعناهُ ما ذكرتَ فلا يكونُ شيءٌ من الحُروفِ شَجْرياً اذ ليسَ شيءٌ منها يَخرجُ من مَجمعِ اللّحيينِ عندَ العَنفقةِ، فَلِمَ خُصّتِ الضّادُ بنفي كونِها شَجْرِيةً.

قلتُ: الظّاهرُ أنّ الوجهَ في تخصيصِها بالذّكرِ كونُ الكلامِ في بيانِ مَخرجِها دُونَ البَقيّةِ من الشّجْرِيةِ. وبعدَ اللّتيا والتي لا يَشهدُ كونَها شَجْرِيةً لِمَنْ يَنطقُ بها طائيةً، بل[231] يَشهدُ كَمَا يَشهدُ به مَنْ عَرفَ الشّجْرَ وطالعَ «النشر»، وإنْ خَفِيَ عليه أحكامُ العَشْرِ.

الثالثُ: إنّ بعضَهم قد يَعترضُ علَى استدلالِنا علَى كَونِ الضّادِ الطّائيةِ السّهلةِ علَى اللّسانِ ليسَتْ ضاداً عربيةً بِمَا بيّناهُ من صُعوبتِها، ومَا نقلْناهُ في ذلكَ بأنّ المُرادَ بصُعوبتِها أنّها صعبةٌ علَى العَجَمِ والتُّرْكِ ونحوِهم مِمّن[232] سِوَى العَرَبِ. أمّا علَى أمثالِه من العَرَبِ فلا صُعوبةَ فيها، فأقولُ قولاً مُنصفاً بيّناً: ما أنتَ[233] من ذاكَ[234] القَبيلِ ولا أنا، نَعَمْ الأعرابُ الخُلّصُ سُكّانُ مَهابي[235] الرّيحِ، من كلّ ما ضغِ قَيصُومٍ وشيحٍ، يُسلّمُ لَهُم دَعْوى سُهولةِ لَفظِها الفصيحِ، لا[236] لأمثالِنا مِمّنْ قُصاراه بَعْدَ الجُهْدِ الوُصولُ الى التّصحيحِ. كيفَ وقدْ كانَ مثلُ الشّاطبيّ وابنِ الجَزَريّ يَصفُها بالصُّعوبةِ مُطلقاً. ونَصّ سيبويهِ[237] علَى أنّها تَتكلّفُ من الجانبين. وقد أسلفْنا في كلامِ أبي مُحمّدٍ مكيّ مَا يَدُلّ علَى صُعوبتِها علَى الاكابرِ فَضْلاً عن الأصاغرِ. وقالَ بعضُهم في شَرْحِ قولِ الجَعْبَريّ في «عُقودِ الجُمانِ[238]» عن الضّادِ[239]:

واحذَرْ يُرى ظاءً فقد والاهُ
في الخَمسِ الأواخِرِ فافرِقَنْ بلسانِ[240]

حَذّرَ[241] مِنْ أنْ يَتساهلَ القارئُ في خُروجِ الضّادِ، فيُخرجُها مِن مَخرجِ الظّاءِ، وإنّما نَصّوا على ذلكَ وحَذّروا منهُ دُونَ غيرِه لأجْلِ صُعوبةِ لفظِها علَى أكثرِ الفُضلاءِ والتباسِها على أكابرِ[242] العُلماءِ، وذلكَ أنّ مَخرجَ الضّادِ من إحدَى حافّتَي اللّسانِ ومَا يَليه من الأضراسِ، ومَخرجُ الظّاءِ من رأسِ اللّسانِ وأطرافِ الثّنايا العُليا، وآخرُ الحافّةِ يُلاقي طَرفَ رأسِ اللّسانِ فيَشتركانِ إفراداً[243] ويَتجانسانِ في التّفخيمِ والجهرِ والإستعلاءِ والإطباقِ والرّخاوةِ وكثيرٍ من السّلبياتِ[244]. وهذه مَواردُ الاختلاطِ[245]، ولوْلا استطالةُ الضّادِ واختلافُ[246] المَخرجِ لكانَتْ ظاءً»، انتهى[247].

واذا عَلِمتَ مَا بينَهُما من الاشتراكِ، ومَا[248] نَصّ عليهِ العُلماءُ فيها من الاشتباهِ، تحقّقتَ أنّ[249] مَنْ ينطقُ بالضّادِ من مَخرجِها الخالصِ، مَعَ تحصيلِ صِفاتِها المُميّزةِ لها حقّ عن الظّاءِ، فهو في أعلَى مَراتبِ النّطقِ بها من الفَصاحةِ. ودونَه مَنْ يَنطقُ بها من مَخرجِها مَشوبةً بالظّاءِ لكنْ من مَخرجِها وبينَهُما نوعُ فَرْقٍ. ودونَه مَنْ يَنطِقُ بها ظاءً خالصةً، ومَنْ يُشِمّها الذالَ ومن يُشمّها الزّاي[250]، ومَنْ يَجعلُها لاماً مُفخّمةً، وكذا مَنْ يَنطقُ بالضّادِ طائيةً[251] فهو من أسفلِ المَراتبِ النُّطقيةِ بالنّسبةِ إلى مَنْ سبقَ ذكرُه. أعني مَنْ يَنطِقُ بها من مَخرجِها المَنصوصِ مع تحصيلِ وصفِها المَخصوصِ، فإنّه يَدُلّ حرفاً بحرفٍ غيرِ مُوافقٍ له في المَخرجِ وغيرِ مُشتبهٍ به شديدِ[252] الاشتباهِ، كما لا يَخفَى علَى العارفِ بصفاتِها.

والقولُ بصحّةِ صلاةِ مَنْ ينطِقُ بها(٢٥٣) ليسَ أولى من القولِ بصحّةِ صلاةِ من ينطق بها مَشُوبةً بالظّاء، لأنّ كثيراً(٢٥٤) مِمَّنْ قالَ من العُلَماءِ بصحّةِ مُبْدِلها(٢٥٥) عَلَّله بالاشتباه، ولا اشْتباهَ(٢٥٦) بينَها وبينَ حَرفٍ من الحُروفِ كالظّاءِ المُعْجمة(٢٥٧). وأمّا مَنْ ينطِقُ بها من مَخرجِها بصفَاتِها مُشْتَبِهةً على بَعضِ النّاسِ بالظّاءِ المُعْجَمة فلا شَكَّ في صِحّةِ صَلاتِه بالإجاعِ، وهو الذي أقولُ به وأفعلُه، ولا يَنبَغي أنْ يُظَنَّ بي خلافُ ذلكَ.

وحيثُ أنجزَ الكلامَ الى ذكرِ الاحكامِ، فَلْنَذكُرْ نُبْذَةً لطيفةً من أقوالِ(٢٥٨) الفُقهاءِ في صَلاةِ مَنْ يُبْدِلُ هذا الحَرفَ(٢٥٩) على مَذهبِ إمامِنا الاعظمِ أبي حَنيفةَ بوّأه(٢٦٠) الله(٢٦١) أعلى المَنازِلِ الشّريفةِ فنقولُ:

ذُكِرَ في «فَتاوي قاضي خان»(٢٦٢) إن(٢٦٣) [مَنْ](٢٦٤) قرَأ «غيرِ(٢٦٥) المَغضوبِ» بالظّاءِ أوْ بالذّال(٢٦٦) تَفْسُدُ صَلاتُه(٢٦٧)، ولو(٢٦٨) قَرَأ «الضالين»(٢٦٩) بالظّاءِ أوْ بالذّال لا تَفسُدُ صَلاتُه(٢٧٠) وبالدّالِ(٢٧١) تَفْسُدُ»، انتهى. فَخَصَّ الفسادَ بمَنْ(٢٧٣) يُبدِلُها بالدّالِ لِبُعدِ مَخرجِها عنْها في الجُمْلةِ وعدمِ التّشابُه بينَهما لفظاً.

وقالَ في «السّراجِ الوَهّاجِ» شرحِ القُدُوري(٢٧٤): إذا اخطأ القارىءُ فادخَلَ حرفاً مكانَ حرفٍ، نُظِرَتْ إن كانَ بينَهُما قُرْبٌ في المَخرجِ أو كانَا من مَخرجٍ واحدٍ لا تفسدُ صلاتُه، كما إذا قرَأ «فلا تَكْهَر»(٢٧٥)، وأمّا إذا قرَأ مكانَ الضّادِ أوْ على العكسِ تفسُدُ صَلاتُه، وعليه أكثرُ العُلماءِ. وعن مُحمدِ بنِ سَلمةَ(٢٧٦): لا تفسدُ، لأنّ العَجَمَ لا يُميِّزُونَ بينَ ذلكَ.

وفي «الفَتاوى البَزّازيّة(٢٧٧)»: الأصلُ انه إنْ أمكنَ الفَصْلُ بين الحرْفين، بلا كُلْفةٍ(٢٧٨)، كالصّادِ(٢٧٩) مع الطّاءِ المُهْمَلةِ(٢٨٠)، كأنْ قرَأ: «الطالحاتِ» مكانَ «الصّالحاتِ» فسدَ عندَ الكُلِّ، وإنْ لم يُمكنْ إلاّ بمَشقّةٍ(٢٨١) كالظّاءِ المُعجمة(٢٨٢) مع الضّاد، والصّادِ مَعَ السّينِ، والطّاءِ مع التّاءِ، اختَلفُوا، فالاكثرُ(٢٨٣) على أنّها لا تَفسدُ لعُمومِ البَلْوى.

وعن أبي منصورٍ العِراقيّ(٢٨٤) كُلّ كَلِمةٍ فيها غينٌ(٢٨٥) او خاء او قافٌ او طاءٌ او تاءٌ، وفيها سينٌ او صَادٌ، فقرأ السّينَ مَكانَ الصّادِ أو بالعَكسِ جازَ. وإنْ لَمْ يكنْ واحدٌ من هذهِ الحُروفِ مع السّينِ والصّادِ وتَغيّرَ المَعنى، نحوَ «الصَّمَد» بالسين او «المَغضوب» بالظاء، او «الضّالين» بالذّالِ أوْ الظّاءِ، (٢٨٦) قيل: لا تفسدُ لعُمومِ البَلْوى، فإنّ العَوامَ لا يَعرفونَ مَخارجَ الحُروفِ. وكثيرٌ من المَشَايخ، كالأمامِ الصُّفّار(٢٨٧)، ومُحمّدِ بنِ سَلَمةَ أفتَوا به. وأطلقَ البعضُ القولَ(٢٨٨) بالفَسادِ إنْ تغيّرَ المَعنى.

وقالَ(٢٨٩) القاضي أبو الحَسَنِ(٢٩٠) والقاضي أبو عاصم(٢٩١): إنْ تَعمّدَ فسدَ، وإنْ جَرَى على لسانِهِ أوْ كانَ لا يَعرفُ التّمييزَ لا تفسدُ، وهو أعدلُ الأقاويلِ وهو المُختارُ.

وفي «فَتاوى الحجة(٢٩٢)»: لو قالَ «ولا(٢٩٣) الضّالين» بالظّاءِ، و(٢٩٤) «غيرِ المَغضُوب» بالدّالِ أوْ بالذّالِ، قالَ أبو مُطيع(٢٩٥): تَفْسُدُ صلاتُه، وتابعَهُ كثيرٌ من المَشايخِ، لأنّ الظاءَ غيرُ الضّادِ فكأنّه قرَأ حرفاً آخر. وقالَ: كانَ(٢٩٦) صاحبُ المُضْمَراتِ(٢٩٧) يُفتي في حَقّ الفُقهاءِ ومَنْ يَعرفُ الفَرقَ بقَوْلِ أبي مُطيعٍ بإعادةِ الصَّلاةِ، ويفتي(٢٩٨) في حَقّ العَوامِ بقولِ محمد بن سَلَمةَ، اختياراً للاحتياطِ(٢٩٩) في موضِعه والرُّخْصَةِ في موضعها»، إنتهى.

فالحَاصلُ أنّ فيه ثلاثةَ أقوالٍ: قولٌ بالصّحّةِ مُطلقاً، وقولٌ بالفَسادِ مُطلقاً، وقولٌ بالتّفصيلِ، وهو الذي عليه(٣٠٠) التعويلُ، وهو أنْ يُفتَى بالصحّةِ(٣٠١) في حَقّ العَوامِ ومَنْ هوَ بمَخارجِ الحُروفِ جاهلٌ، وبعدمِ الصحّةِ في حَقّ الفُقهاءِ وذوي(٣٠٢) الفَضائلِ.

فنقولُ بَعْدَ إرخاءِ العِنانِ عن مُراعاةِ قَولِ أكثرِ العلماءِ الأماثلِ، مَنْ أرادَ أنْ يرفعَ نفسَه عن مَنزلِ العَوامِ السافلِ، ويكونَ من ذوي الفَضلِ(٣٠٣) الكاملِ، فعليهِ بسُلوكِ ما أوضحناهُ من المَنْهجِ، والعملِ بمَا أفصحناهُ عما لهذا الحرفِ من الصفةِ والمخرجِ، والتعمّلِ فيه فالجِدُّ يفتحُ كلَّ بابٍ مُرْتَجٍ، والتأملِ الصادقِ مع الأنصافِ ليظهرَ الخالصُ من البَهْرجِ(٣٠٤)، فما كلُّ سوداءَ فَحمةٌ ولا كلُّ بيضاءَ شَحْمةٌ(٣٠٥). ومن قَصَدَ(٣٠٦) الحَقَّ وهو في طلبِه عَليُّ الهمّةِ، إذا شامَ سبيلاً اليه أمَّه. ولا يَقولُ: «إنّا وجَدْنا اباءَنا على أُمّةٍ(٣٠٧)»، فإنّ الله قد لامَ قائلَ ذلكَ(٣٠٨) وذمه، فإنْ وصلَ(٣٠٩) بالتأمّلِ والتّعمُّلِ الى تجويدِ اللّفظِ(٣١٠) به والتّحقيقِ، فليشكُرْ(٣١١) مولاهُ على حسنِ التوفيقِ، وإلاّ فهو(٣١٢) بقَبولِ العُذْرِ حقيقٌ. هذا ما تَيسّرَ لي(٣١٣) من التعليق، مع قِلّةِ الزادِ في هذا الطريق، وكَثرةِ مُوجباتِ التّعويقِ، ومُراعاةِ الإيجازِ ومُجانبةِ التّطويلِ، وحسبُنا الله ونِعْمَ الوكيلِ.

ذُكِرَ في المَنقولِ منها ما صُورتُه(٣١٤):

تمّتْ الرسالةُ الميمونةُ بحمدِ الله والمَعُونة على يدِ أقلِّ تلامذةِ مؤلفِها تُرابِ أقدامِ الفُضلاءِ والإخيارِ عليِّ بنِ محمدِ بنِ مصطفى الحزينةُ داره، غفرَ الله ذنوبَه بالنبي المختار واله الابرار واصحابه الاطهار في الثالث من شهر رمضانَ المبارك سنة ست عشرة والف

هوامش المقدمة

(١) انظر: كتب الضاد والظاء عند الدارسين العرب، للدكتور محمد جبار المعيبد، مجلة معهد المخطوطات العربية، الجزء الثاني من المجلد الثلاثون (١٩٨٦).

(٢) انظر في ترجمته:

ريحانة الالبا / للخفاجي ٢ / ٢ ٥ - ٥٥

خلاصة الأثر / للمحبي ٣ / ١٨٠ - ١٨٥

البدر الطالع / للشوكاني ١ / ٤٩١

هدية العارفين / للبغدادي ١ / ٧٥٠

تاريخ الإدب العربي / بروكلمان (النسخة الالمانية) ٢ / ٣١٢ والملحق ٢ / ٣٩٥

الاعلام للزركلي ٥ / ١٦٦

معجم المؤلفين / كحالة ٧ / ١٩٥

(٣) انظر: مقدمة الدكتور رمضان عبد التواب لكتاب (زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد الظاء) لابن الانباري، ص ١٥ وما بعدها.

هوامش النص

١ - بعده في ط: وبه ثقتي. وفي ك: وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه اجمعين، وهي عبارة مكررة لما سيأتي من تحميد وتصلية.

٢ - والسلام: انفردت بها نسخة ج.

٣ - في ب: الفضل.

٤ - في ك، ب، ط: وصحبهم.

٥ - تعالى: ساقطة من ب.

٦ - بعده في ط: منهم.

٧ - في ب: في نفع.

٨ - أن: ساقطة من ج.

٩ - في ب - الحقي للمذهب والاعتقاد.

١٠ - في ب: زينة.

١١ - في ط: عن الارائل والاوغاد.

١٢ - في ك: فيه امر يبهم معتاد.

١٣ - في ر، ب: لما.

١٤ - في ب: كما.

١٥ - في ب: واشار بعض الاعيان، في ط: وإشارة بعض الاعيان.

١٦ - في ر: من عين.

١٧ - في ب: وقلة المراد.

١٨ - بعده في ط: واساس هذه القضية المضلة.

١٩ - في ك: وقد ينكرون.

٢٠ - في ك: منحصر.

٢١ - في ر: عليه.

٢٢ - في ط: في.

٢٣ - زاد الناسخ في حاشية ب: فيها، قبل يحفظانه.

٢٤ - في ر: عليها فيها.

٢٥ - في ج: يتحقق... كما يتحقق.

٢٦ - زاد الناسخ في حاشية ب: (الناقد)، بعد (يتحقق).

٢٧ - في ر: صليل.

٢٨ - هو القاسم بن فيره بن خلف الشاطبي. توفي سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م؛ انظر: كحالة، معجم المؤلفين ٨ / ١١٠.

٢٩ - عنوان الكتاب: «حرز الاماني ووجه التهاني وهو قصيدة تعرف بالشاطبية، طبعت اكثر من مرة.

٣٠ - حرز الاماني ص ٧٠

٣١ - هو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب. توفي سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٦ م؛ انظر: كحالة، المصدر السابق ٦ / ٢٦٥.

٣٢ - الشافية ص ٢٠٥.

٣٣ - في ر: جاربردي، وهو احمد بن الحسن الجاربردي. توفي سنة ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م؛ انظر: كحالة، المصدر السابق ١ / ١٩٨ - ٩

٣٤ - في ر، ط: يعلم.

٣٥ - في ر: لكنه.

٣٦ - في ر: الجانبين.

٣٧ - شرح الشافية ص ٢٠٤.

٣٨ - في ك: معنى قول بعضهم.

٣٩ - في الاصول كلها: ابن معطي. وهو يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور. توفي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م؛ انظر: كحالة، المصدر السابق ١٣ / ٢٠٩.

٤٠ - في ب: رضي الله تعالى عنه.

٤١ - انظر: الزمخشري، الكشاف ٢ / ٥٢٨؛ القسطلاني، لطائف الاشارات ١ / ١٩٢؛ همع الهوامع للسيوطي ٢ / ٢٢٨.

٤٢ - اظهر: ساقطة من ب.

٤٣ - انظر عن مصطلحي الجهر والهمس: سيبويه، الكتاب، ٤ / ٤٣٤ ابن جني، سر صناعة الاعراب ١ / ٦٩؛ مكي بن ابي طالب، الرعاية ٩٢ - ١٣؛ ابن عصفور، الممتع ٢ / ٦٧١ - ٢؛ الاستراباذي، شرح الشافية ٣ / ٢٥٨ - ٩. ابن يعيش، المصدر السابق ١٠ / ١٢٨ - ٩

٤٤ - في ر: التلفظ.

٤٥ - في ر: هو الاعلان.

٤٦ - في ر: التلفظ.

٤٧ - عنوان الكتاب: الايضاح في شرح المفصل (كشف الظنون ١٧٧٤)، انظر عن مخطوطاته:

Brockelmann, GAL, I, P. 347, sup. I, p. 510

٤٨ - في ك: من مجهورة قولهم..

٤٩ - في ر: بالتصويت.

٥٠ - ابن الحاجب، شرح المفصل (نسخة المتحف البريطاني) ص ١٩٩ أ

٥١ - في ط: من.

٥٢ - انظر عن مصطلحي الرخاوة والشدة: سيبويه، المصدر السابق، ٤ / ٤٣٤؛ ابن جني، المصدر السابق، ١ / ٦٩ - ٧٠؛ مكي بن ابي طالب، المصدر السابق، ٩٣ - ١٥؛ ابن عصفور، المصدر السابق، ١ / ٦٧٢ - ١٣؛ الاستراباذي، المصدر السابق، ٣ / ٢٦٠؛ ابن يعيش، المصدر السابق ١٠ / ١٢٩؛ ابن الجزري، النشر، ١ / ٢٠٢.

٥٣ - في ب، ر: وهو.

٥٤ - في ك: اثر المثل.

٥٥ ـ عنوان الكتاب: كنز المعاني في شرح حرز الاماني، لابراهيم بن عمر الجعبري، توفي سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م. منه نسخ خطية في دار الكتب المصرية برقم ٢٣١١٣ ب، وجستربتي برقم ٤٧٣٥، ومكتبة الأوقاف ببغداد برقم ٢٢٣٢.

٥٦ ـ في الاصول جميعها: للتلين، والتصويب عن شرح الشافية.

٥٧ ـ والرخوة. . . هي التلين: ساقط من ر.

٥٨ ـ شرح الشافية للجاربردي ٢٠٩.

٥٩ ـ انظر عن مصطلح الاستعلاء: ابن جني، المصدر السابق، ١ / ٧١، مكي بن ابي طالب، المصدر السابق ٩٩، ابن عصفور، المصدر السابق ٢ / ٦٧٥، ابن يعيش، المصدر السابق، ١٠ / ١٢٩، ابن الجزري، المصدر السابق، ١ / ٢٠٢.

٦٠ ـ في ج: الاعلا.

٦١ ـ في ر: التلفظ.

٦٢ ـ في ك: العلق.

٦٣ ـ في ب، ك، ج: يكون.

٦٤ ـ في ب: عالي.

٦٥ ـ انظر عن مصطلح الاطباق: سيبويه، المصدر السابق ٤ / ٤٣٦؛ ابن جني، المصدر السابق، ١ / ٧٠، مكي بن ابي طالب، المصدر السابق ٩٨، ابن عصفور، المصدر السابق، ٢ / ٦٧٤، الاستراباذي، المصدر السابق، ٣ / ٢٦٢، ابن يعيش، المصدر السابق، ١٠ / ١٢٨.

٦٦ ـ في ر: التلفظ.

٦٧ ـ في ب: المشترك.

٦٨ ـ انظر عن مصطلحي الإصمات والإذلاق: ابن جني، المصدر السابق ١ / ٧٤ ـ ٥؛ مكي بن ابي طالب، المصدر السابق ١١٠ ـ ١١١؛ ابن عصفور، المصدر السابق ٢ / ٦٧٦ ـ ٧؛ الاستراباذي، المصدر السابق ٣ / ٢٦٢؛ ابن يعيش، المصدر السابق ١٠ / ١٣٠.

٦٩ ـ في ك: لا تتصور.

٧٠ ـ في الاصول جميعها: طرفها.

٧١ ـ زاد الناسخ في حاشية ب: وضطوس، وجاءت في النص في ر.

٧٢ ـ في ك: لايخ.

٧٣ ـ انظر عن مصطلح المصمت (أو الصُّم): مكي بن أبي طالب، المصدر السابق ١١١ ـ ٢، لسان العرب، مادة / صمم.

٧٤ ـ في ك: حروف ما عدا حروف . .

٧٥ ـ في ب: وسميت.

٧٦ ـ في الأصول جميعها، عدا ك: ولم يسم.

٧٧ ـ انظر عن مصطلح التفخيم: مكي بن ابي طالب، المصدر السابق ١٠٤، ابن الجزري، المصدر السابق ١ / ٢٠٢ ـ ٣.

٧٨ ـ في ط: انحاله، وفي ك: النحالية.

٧٩ ـ انظر عن مصطلح الأصالة: مكي بن أبي طالب، المصدر السابق، ٩٧.

٨٠ ـ اي لام الزيادة في لعلل.

٨١ ـ انظر عن مصطلح الشجرية: مكي ابن أبي طالب، المصدر السابق، ١١٤، ابن يعيش، المصدر السابق ١٠ / ١٢٤.

٨٢ ـ انظر عن مصطلح الاستطالة: مكي بن أبي طالب، المصدر السابق؛ ابن عصفور، المصدر السابق ٢ / ٦٧٧ ـ ٨؛ ابن الجزري، المصدر السابق ١ / ٢٠٥.

٨٣ ـ في ج: قال الجعبري وهي الامتداد؛ كما: سقطت من ك، ط.

٨٤ ـ هو مكي بن أبي طالب، توفي سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م، انظر: كحالة، معجم المؤلفين ١٣ / ٣٠.

٨٥ ـ مكي بن أبي طالب، الرعاية ١٠٩.

٨٦ ـ الصفة: ساقطة من ر.

٨٧ ـ هو أبو حيّان محمد بن يوسف بن حيان النحوي، توفي سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م، انظر: كحالة، المصدر السابق ١٢ / ١٣٠ ـ ١.

٨٨ ـ الكتاب شرح لكتاب التسهيل لابن مالك النحوي، وعنوانه: التذييل والتكميل في شرح التسهيل، منه مخطوط في دار الكتب المصرية برقم ٦٢ نحو.

٨٩ ـ انظر عن مصطلح التفشي: مكي بن أبي طالب، المصدر السابق، ١٠٩ ـ ١١٠؛ ابن الجزري، المصدر السابق، ١ / ٢٠٥.

٩٠ ـ في ب: إنشاء.

٩١ ـ وبالعكس: ساقطة من ر.

٩٢ ـ لم يذكر المؤلف صفةً ذكرها الدارسون المتقدمون وهي صفة الانحراف او التعلق الجانبي، انظر: ابن الجزري، المصدر السابق، ١ / ٢٠٤.

٩٣ ـ بعده في ر: والله تعالى اعلم.

٩٤ ـ في ب: التي هي تقرأ.

٩٥ ـ هو شمس الدين محمد بن محمد بن محمد الجزري، توفي ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م، انظر: كحالة، المصدر السابق، ١١ / ٢٩١.

٩٦ ـ هو الكتاب الشهير بالمقدمة الجزرية، طبع أكثر من مرة.

٩٧ ـ أبياته بعنوان (منظومة في ظاءات القرآن)، منه نسخة خطية في المدينة، مكتبة عارف حكمت ضمن مجموع برقم ٣٩ علوم القرآن.

٩٨ ـ في ر: الكظوم، وفي ك: العظيم.

٩٩ ـ هو عبد الرزاق بن رزق الله الرسعني، توفي ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م، انظر: كحالة، المصدر السابق ٥ / ٢١٧ ـ ٨.

١٠٠ ـ الشهيرة (بدرة القارىء)، في ٣٢ بيتا. انظر عن مخطوطاته مقالة (كتب الضاد والظاء عند الدارسين العرب)، مجلة معهد المخطوطات ٣٠ / ٢ (١٩٨٦).

١٠١ ـ هو عثمان بن سعيد بن عثمان، توفي سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م، انظر كحالة، معجم المؤلفين ٦ / ٢٥٤ ـ ٥.

١٠٢ ـ وعددها اربعة ابيات، نشرها مع شرحها لأبي عمرو الدكتور محسن جمال الدين في مجلة البلاغ، مجلد ٣: ١ ـ ٢ ص ١٣ ـ ١٥، بغداد ١٩٧٠.

١٠٣ ـ في ر: غيظ غليظ.

١٠٤ ـ هو القاسم بن علي بن محمد البصري، توفي ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م. انظر: كحالة، المصدر السابق ٨ / ١٠٨.

١٠٥ ـ ذكر الحريري قصيدته المذكورة في المقامة الحلبية، وله ايضا كتاب بعنوان: الفرق بين الضاد والظاء، منه مخطوطتان، في برلين برقم ٧٠٢٢ والتيمورية بالقاهرة برقم ٥٤٣ لغة.

١٠٦ ـ في الاصول جميعها: فاسمعها، والتصويب من المقامات ص ٣٨٣.

١٠٧ ـ في ك: استيقاظا.

١٠٨ ـ هو محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الاندلسي، توفي ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ م. انظر: كحالة، معجم المؤلفين ١٠ / ٢٣٤.

١٠٩ ـ قصيدة ابن مالك في ٦٢ بيتا، وقد شرحها المؤلف في كتاب عنوانه: الاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد، نشرت في بغداد ١٩٧٢. وقول المقدسي: كالحريري، يفهم منه أن عدد ابيات قصيدة ابن مالك كعدد ابيات قصيدة الحريري، مع أن قصيدة الحريري في ١٩ بيتا.

١١٠ ـ الاندلسي، توفي ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م. انظر: كحالة، معجم المؤلفين ٨ / ٢٩٤.

١١١ ـ عنوانها: تنبيه الكتاب في الضاد والظاء، مخطوطة في مكتبة حسن حسني باشا (استانبول) برقم ٩١.

١١٢ ـ هو احمد بن محمد بن ابي بكر، توفي ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م. انظر: كحالة، المصدر السابق، ٢ / ٨٥.

١١٣ ـ أحد: ساقطة من ب.

١١٤ ـ وقد زاد الناسخ في هامش نسخة ب (ومنها، وهو بعده:

وصلى صحابته مصابيح الهدى ... ما اعقب الاصباح ليل مظلم
والقول فيما بين ذلك انه ... للظاء بالضاد التباس يعلم
فرايت حصر الظاء آكد واجب ... ليبين أن الغير ضاد ترسم

وقد شرح هذه المنظومة العلامة الرعيني الأندلسي الغرناطي ، انتهى .)

١١٥ ـ توفي ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م. انظر : كحالة ، المصدر السابق ، ٢ / ٢٧٤ .

١١٦ ـ نُشِرَ الكتابُ في بغداد ١٩٥٨ بتحقيق محمد حسن آل ياسين ، بعنوان : الفرق بين الضاد والظاء ، ويبدو أن المنشور هو المختصر .

١١٧ ـ انظر مقالنا : كتب الضاد والظاء عند الدارسين العرب ، مجلة معهد المخطوطات العربية (الكويت) ، الجزء الثاني من المجلد الثلاثين (١٩٨٦) .

١١٨ ـ في ج : في .

١١٩ ـ كل : ساقطة من ر .

١٢٠ ـ في ب : وعون .

١٢١ ـ ابن جني ، الفسر شرح ديوان المتنبي ٢ / ٣٢١ .

١٢٢ ـ عنوانه : الإدراك للسان الاتراك ، طبع في استانبول ١٩٣١ .

١٢٣ ـ المصدر السابق ١٠١ .

١٢٤ ـ ثم قال : ساقطة من ك .

١٢٥ ـ المصدر السابق ١٠١ .

١٢٦ ـ في ك : النصير ، والشباب النصيبي لا اعرفه .

١٢٧ ـ في ك : في .

١٢٨ ـ لا يوجد في غيرها : ساقطة من ك .

١٢٩ ـ في ط : عقود الجمان في تجويد القرآن ، وهو منظومة نونية في ٨٢٢ بيتاً (كشف الظنون ١١٥٤) ، منه مخطوطتان : في باريس برقم ٥٩٣٧ والتيمورية بالقاهرة برقم ٣٨٩ تفسير . والبيت ص ٦ من نسخة باريس .

١٣٠ ـ في ط ، ك : والضاد .

١٣١ ـ كذا رواية البيت في الاصول المخطوطة ، وفي مخطوطة باريس : والعرب خص بطائها وتكثرت بالظا وثا والضاد فاستمعان .

١٣٢ ـ بعده في ج : لابن الحاجب .

١٣٣ ـ الجاربردي ، شرح الشافية ٢٠٦ .

١٣٤ ـ بلفظ : ساقطة من ك .

١٣٥ ـ في ب ، ك ، ط : الحافظ ابن كثير ، توفي ٧٧٤ هـ / ١٣٨٣ م ، انظر : كحالة ، معجم المؤلفين ٢ / ٢٨٣ .

١٣٦ ـ هو محمد بن سليمان الحكري ، توفي ٨٧١ هـ / ١٤٦٦ م ، انظر : كحالة ، معجم المؤلفين ١٠ / ٥٠ .

١٣٧ ـ عنوانه : النجوم الزاهرة في السبعة المتواترة (كشف الظنون ١٩٣٢)

١٣٨ ـ لطائف الاشارات ١ / ١٩٢ .

١٣٩ ـ في ك : الذال المعجمة .

١٤٠ ـ في حاشية ب (قد تحقق أن اصلها سرى الى المصريين من الاقباط)

١٤١ ـ بل : ساقطة من ر .

١٤٢ ـ في ب : للفتهم .

١٤٣ ـ في ب : ثم .

١٤٤ ـ لا اعرف الكتاب ولا مؤلفه .

١٤٥ ـ من : ساقطة من جميع النسخ عدا ب .

١٤٦ ـ في ط : يفسد .

١٤٧ ـ هو خليل بن اسحاق بن موسى بن شعيب الفقيه المالكي ، توفي ٧٦٧ هـ / ١٣٦٦ م . انظر : كحالة ، معجم المؤلفين ٤ / ١١٣ .

١٤٨ ـ عنوان الكتاب : المختصر في الفقه المالكي ، مخطوط في باريس برقم ١٠٧٧٢ / ١ ودار الكتب المصرية برقم ٢٠٥٢٢ ب .

١٤٩ ـ هو يحيى بن شرف النووي ، توفي ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م ، انظر ، كحالة ، المصدر السابق ١٣ / ٢٠٢ .

١٥٠ ـ عنوانه : منهاج الطالبين ، مخطوط في دار الكتب المصرية برقم ٢٢٩٦٠ ب .

١٥١ ـ هو ابو الحسن علي بن سليمان المرداوي ، توفي ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م انظر : كحالة ، معجم المؤلفين ٧ / ١٠٢ .

١٥٢ ـ عنوان الكتاب : التنقيح المشبع في تحرير احكام المقنع ، منه نسخة خطية في مكتبة جامعة برنستون برقم ٧٤ ب .

١٥٣ ـ لا : ساقطة من ج ، ط ، ك .

١٥٤ ـ سورة الفاتحة ١ : ٧

١٥٥ ـ بظاء : ساقطة من ك .

١٥٦ ـ في ط : فتصح .

١٥٧ ـ كذا ، ولم ينسب احد من المتقدمين صفة التفشي الى الظاء .

١٥٨ ـ عبارة : الا اذا . . . فلا تفشي فيها ، ساقطة من ر .

١٥٩ ـ هو عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي ، توفي ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م . انظر : كحالة ، المصدر السابق ٦ / ١٥ ـ ٦ .

١٦٠ ـ لعبد اللطيف البغدادي كتابان على نقد الشعر ، أوّلهما : تكملة الصناعة في شرح نقد قدامة ، والثاني : كشف الظلامة عن قدامة (كشف الظنون ١٩٧٣) .

١٦١ ـ من هنا الى قوله : . . فلا يبعد انتساب هذا الشعر الحسن الى ابي الحسن ، ساقط من ك ، ط .

١٦٢ ـ في ب : صاغ .

١٦٣ ـ في ب : في .

١٦٤ ـ هو خليل بن ايبك بن عبد الله الصفدي ، توفي ٧٦٤ هـ / ١٢٦٣ م . انظر : كحالة ، معجم المؤلفين ٤ / ١٤ ـ ٥ .

Brockelmann, GAL, II, p. 33, sup. II, p. 29.

١٦٥ ـ انظر عن مخطوطاته :

١٦٦ ـ الاصل : ساقط من ب .

١٦٧ ـ هو يحيى بن عبد العظيم بن يحيى الجزار ، توفي ٦٧٩ هـ / ١٢٨١ م ، انظر : كحالة ، المصدر السابق ١٣ / ٢٠٧ .

١٦٨ ـ في ج : مشلخا .

١٦٩ ـ في ج : تنبه .

١٧٠ ـ في ج : ما اقصره .

١٧١ ـ في ر : واضح .

١٧٢ ـ في ب : لابي .

١٧٣ ـ اسم : ساقطة من ب .

١٧٤ ـ في ك : و .

١٧٥ ـ في هامش ط : أي الضاد الطائية .

١٧٦ ـ في ط : والظاء .

١٧٧ ـ في هامش ط : أي الضاد الحقيقية .

١٧٨ ـ كبار : ساقطة من ط ، وفي ب ، ك : كبر ، وفي ر : اكابر .

١٧٩ ـ هو علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد ، توفي ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م . انظر : معجم المؤلفين ٧ / ٢٠٩ .

١٨٠ ـ عنوانه : عمدة المفيد وعدة المجيد في معرفة لفظ التجويد (كشف الظنون ١١٧١) ، منه نسخ خطية في برلين برقم ٤٩٧ ، ومكتبة جامعة برنستون برقم ٦٢٠ / ٦ هـ ، والتيمورية بالقاهرة بالارقام : ٢٢٦ ، ٢٤٣ ، ٤٦٢ ، ٣٠٥ . والأبيات مخرجة من نسخة برنستون .

١٨١ ـ في ط : ذرب .

١٨٢ ـ في ك ، ط : معاني .

١٨٣ ـ في الرعاية : ولابد له .

١٨٤ ـ في الرعاية : لصعوبة .

١٨٥ ـ في ط : يذرب .

١٨٦ ـ مفخمة : ساقطة من ك .

١٨٧ ـ في الرعاية : منطبقة .

١٨٨ - في الرعاية: بما يليه.
١٨٩ - في الرعاية: او بلفظ الذال.
١٩٠ - من: ساقطة من الرعاية.
١٩١ - بعدها في الرعاية: تكلفا في المخرج ولشدها صعوبة . .
١٩٢ - في الرعاية: ومن.
١٩٣ - الرعاية: ١٥٨ - ٩.
١٩٤ - في ب، ك: طاء.
١٩٥ - في ك: يمزجها، وفي ب: يخرجه.
١٩٦ - كذا في النشر و ط، وفي ب، ك: بالدال، ولعل ما في النسختين الأخيرتين هو الصواب.
١٩٧ - ابن الجزري، النشر في القراءات العشر ٢ / ٢١٩.
١٩٨ - في ط: بهذا.
١٩٩ - في ك: لما.
٢٠٠ - في ب: الضاد.
٢٠١ - في ك: والظاء.
٢٠٢ - في ب: القرآن
٢٠٣ - في ر: او النحو.
٢٠٤ - في الاصول جميعها: ابن معطي.
٢٠٥ - هو جار الله محمود بن عمر الزمخشري، توفي ٥٣٨ هـ / ١١٤٨ م. انظر: كحالة، معجم المؤلفين
٢٠٦ - هو الخليل بن احمد الفراهيدي، توفي ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م. انظر: كحالة، المصدر السابق ٤ / ١١٢.
٢٠٧ - من: ساقطة من ب.
٢٠٨ - تعالى: ساقطة من ر.
٢٠٩ - في هامش نسخة ب هذه الايات:

سكان مصر واهل مصر جميعهم إجماعهم في رتبة الآحاد
لا ينقلون عن الثقة رواية ابدا روايتهم عن الاوغاد

٢١٠ - في حاشية ر: (قوله: المخالفة للدراية، إنّ الدراية الحاصلة من القواعد العربية الدراية المجردة كما يشهد به السياق، ويُرد عليه أنه لا تدخل الدراية في هذا الباب كما لا يخفى. سيد احمد).
٢١١ - في ب: والقرآن، وفي ر، والقراءة.
٢١٢ - في ر: الحروف العربية.
٢١٣ - في ب: فكذلك.
٢١٤ - في ك: بالنطق.
٢١٥ - لحن ساقطة من ك.
٢١٦ - العين ١ / ٥٨.
٢١٧ - في ك: يخرج.
٢١٨ - هذا النص في الاصل نص سيبويه الكتاب ٤ / ٤٣٦ نقله عنه المتأخرون، انظر: ابن جني، سر صناعة الاعراب ١ / ٧٠، ابن عصفور، الممتع في التصريف ٢ / ٦٧٤، الاستراباذي، شرح الشافية ٣ / ٢٦٢، ابن يعيش، شرح المفصل ١٠ / ١٢٩.
٢١٩ - في ك: عض.
٢٢٠ - في ب: فتخرج.
٢٢١ - في ك: غريبة.

٢٢٢ - في حاشية ب تعليق هذا نصه:

(قوله: اهل مكة، لعل هذا في زمان المؤلف، وأمّا الآن فأكثر أهل مكة مصريون وهنديون (كذا) وجاويون واتراك، وقد خلطوا اللغة العربية بالعجمية (كذا)، فلا صحة في كلامهم. نعم إن اراد بأهل مكة ما حولها من الاعراب كبني فهم وبني هذيل فهم الى الان ينطقون بالضاد شبيهة بالظاء، انتهى، امين حلواني مدني).
انظر ترجمة امين حلواني في: كحالة، المصدر السابق ٣ / ٦٠.
٢٢٣ - في ب، ر: سيد العرب والعجم.
٢٢٤ - في ر: والاه.
٢٢٥ - هي: ساقطة من ك.
٢٢٦ - في ج: وهو.
٢٢٧ - في ر: المقتدا.
٢٢٨ - في ج: العلماء الفحول.
٢٢٩ - كذا في الأصول جميعها: الازدي، وفي مصادر ترجمته: اللاردي، انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات ٤ / ٨٠ وكحالة، معجم والمؤلفين ١٠ / ٢٨٠، توفي ٦٤٦هـ / ١٢٤٨ م.
٢٣٠ - ذُكر الكتابُ بالعنوان نفسه في كشف الظنون ٧٤٩ ولكنه نُسبَ الى محمد بن مكي بن محمد الانصاري الأزدي الحنفي المُتوفى سنة ٥٦٥ هـ.
٢٣١ - في ر: الجهابذة.
٢٣٢ - زاد الناسخ بعدها في ب: قَبْلُ حيثُ قال.
٢٣٣ - البيتان مرّا في هامش ص ١٣، والرواية هناك: بين.
٢٣٤ - في ك: العين.
٢٣٥ - من قوله تعالى: « ربِّ إنّهنّ أضللْنَ كثيرا »، ابراهيم ١٤ ، ٣٦.
٢٣٦ - من قوله تعالى: « وغيضَ الماءُ وقُضيَ الأمرُ »، هود ١١: ٤٤.
٢٣٧ - من قوله تعالى: « كل شِرْب مُحتضر »، ٥٤: ٢٨، وفي الاصول جميعها: محضرة، والتصويب من عمدة المفيد (نسخة برنستون المخطوطة) برقم ٦٢٠ هـ.
٢٣٨ - من قوله تعالى: « نَاضِرةٌ الى ربّها نَاظِرة »، القيامة ٧٥: ٢٢.
٢٣٩ - من قوله تعالى: « ولا يحض على طعام المسكين »، الحاقة ٦٩: ٣٤ والماعون ١٠٧: ٣.
٢٤٠ - في ك: فخله
٢٤١ - يُريد أن هذه الالفاظ المذكورة بالاضافة الى: (حظ ونفس) قد جاءت في القرآن بمعان اخرى بالظاء.
٢٤٢ - وكلها تجي: انفردت بها ر، وتوبلت على المقدمة الجزرية.
٢٤٣ - لفظ: ساقطة من ك، ط، ر.
٢٤٤ - في ك: الا الى ان بينهما تناسبا.
٢٤٥ - في ر: اخو
٢٤٦ - عقود الجمان (نسخة باريس) ص ٢٢ ب.
٢٤٧ - أي: انفردت بها نسخة ب.
٢٤٨ - في ط: الشهير.
٢٤٩ - هو حسن بن قاسم المرادي، توفي ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م، انظر: كحالة، معجم المؤلفين ٣ / ٢٧١
٢٥٠ - الكتاب شرح لكتاب الواضحة للجعبري، طبع في بيروت بتحقيق عبد الهادي الفضلي، دون تاريخ.
٢٥١ - اي قول الجعبري مؤلف الواضحة، وهي منظومة في ٢٢ بيتا.
٢٥٢ - البيت ورد محرفا في الاصول جميعها، والتصويب عن الشرح المطبوع.
٢٥٣ - في ج: ذكرها.
٢٥٤ - شارك: ساقطة من ج.
٢٥٥ - اقول: والرخاوة.
٢٥٦ - كذا في الاصول جميعها، وفي الشرح المطبوع: به، ولعله الصواب.
٢٥٧ - شرح الواضحة ٦١
٢٥٨ - في ك: ان ، وفي ج: اذا.

٢٥٩ - الفرقان ٢٥ : ٢٧ ، وبعدها في الرعاية : وبعض الظالمين.
٢٦٠ - في ر: فلهذا السبب لا يخالف، وفي الرعاية: ليس يخالف.
٢٦١ - في الرعاية: لا يدغم في شيء ابدا.
٢٦٢ - في ر: كاف من الادغام، وفي ك، ط، ج والرعاية: كان.
٢٦٣ - على ادغام: ساقط من ب، ك، ر.
٢٦٤ - في ط: نخاف ان نلفظ، وفي الرعاية: يلفظ.
٢٦٥ - في ر: تلفظك.
٢٦٦ - في الرعاية: التشابه.
٢٦٧ - في ك: والمتشابهة.
٢٦٨ - الرعاية ١٥٩ - ٦٠.
٢٦٩ - في الرعاية: من حروف الاطباق ومن الحروف المستعلية . .
٢٧٠ - في الرعاية: بينهما.
٢٧١ - الرعاية ١٩٤.
٢٧٢ - في ط، ر، ب: يُشبه.
٢٧٣ - في ط: لفظه.
٢٧٤ - في ط، ر، ب: لفظ.
٢٧٥ - في الرعاية: و من الحروف المجهورة.
٢٧٦ - الرعاية ١٥٨.
٢٧٧ - في ط: المشهود.
٢٧٨ - في ج: عسرة.
٢٧٩ - كذا في ك، وفي بقية الاصول: يتفاضلون.
٢٨٠ - في ك: من يجعله عسرة.
٢٨١ - في ط، ج: الشرق.
٢٨٢ - يخرجها: ساقطة من ب.
٢٨٣ - في ج: أهل المغرب.
٢٨٤ - في ك: فالا.
٢٨٥ - في ر: وهم الزيالع، نسبة الى زيلع، وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان ٢ / ٩٦٧ موضعين بهذا الاسم، الاول جزيرة من جزائر اليمن، والثاني: قرية في الحبشة على ساحل البحر.
٢٨٦ - في ب، ج، ط: خاصة.
٢٨٧ - في ب: الابد.
٢٨٨ - في ب، ر: الايضاح.
٢٨٩ - في ب: لدفع لمويهات.
٢٩٠ - انظر عن الضاد الضعيفة: سيبويه، الكتاب ٤ / ٤٣٢؛ ابن عصفور الممتع في التصريف ٢ / ٦٦٦؛ ابن الأنباري، أسرار العربية ٤١٩؛ ابن الحاجب، شرح الشافية ٣ / ٢٥٦؛ ابن يعيش، شرح المفصل ١٠ / ١٢٧ - ١٨؛ الزبيدي، تاج العروس / باب الضاد المعجمة.
٢٩١ - كذا في ر، وفي بقية الاصول: لم يَتَسَمّع، انظر: السيوطي، همع الهوامع ٢ / ٢٣٠.
٢٩٢ - في ك، ج: ومختلس.
٢٩٣ - لعله ابو علي الفارسي، والنص في همع الهوامع ٢ / ٢٣٠.
٢٩٤ - هو علي بن محمد بن علي الاندلسي، توفي ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م، انظر: كحالة، معجم المؤلفين ٧ / ٢٢١.
٢٩٥ - هي: ساقطة من ر.
٢٩٦ - الكتاب ٢ / ٤٥٢.
٢٩٧ - ذكره المرادي في شرح الواضحة ص ٦١ وحاجي خليفة في كشف الظنون ٣٩٦.
٢٩٨ - نقل المرادي هذا البيت وفيه: والضاد واطرِه الظاء . . .
٣٠٠ - انفردت ط بهذه العبارة.

٣٠١ - في ر: ها هنا.
٣٠٢ - في ج: بأوّل دلائلك.
٣٠٣ - في ج: المنقول.
٣٠٤ - في ر: الغرب.
٣٠٥ - صريحا: ساقطة من ط.
٣٠٦ - في ب، ضُرب على: (في البعيد).
٣٠٧ - ويشفي الغليل: ساقطة من ب.
٣٠٨ - في ك: لتفظي بطرفين.
٣٠٩ - في ب، ضُرِبَ على: (الاسنان)، وابْدِلَتْ بـ (: الثنايا).
٣١٠ - من هنا حتى نهاية عبارته: يعني الشيخ تقي الدين الحنبلي، ساقط من جميع النسخ عدا ج.
٣١١ - هو تقي الدين احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، توفي ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م، انظر: كحالة، معجم المؤلفين ١ / ٢٦١ - ٢.
٣١٢ - في النشر، والشجرة.
٣١٣ - العين ١ / ٥٨
٣١٤ - اللحي: منبت اللحية من الانسان.
٣١٥ - العنفقة: ما بين الشفة السفلى والذقن، وقيل: ما بين الذقن وطرف الشفة السفلى.
٣١٦ - في ب، ك: يكن.
٣١٧ - ابن الجزري، النشر في القراءات العشر ٢ / ٢٠٠.
٣١٨ - في ب: رده بما تقدم.
٣١٩ - ان ابن الجزري: ساقطة من ج.
٣٢٠ - في ر: بالتفسير.
٣٢١ - في ب: من كونها.
٣٢٢ - في ب، ك: مع.
٣٢٣ - عقود الجمان نسخة باريس ص ٥، وتتمته:

فالضاد موضع بيانه وصغيرها أصلية والطاء والحرفان

٣٢٤ - في الاصول جميعا: فإنّ، والتصويب من شرح المفصل.
٣٢٥ - شرح المفصل ١٠ / ١٢٤
٣٢٦ - في ر: لانتم.
٣٢٧ - في ك: يخرج.
٣٢٨ - في ب: ترى هم.
٣٢٩ - ان يقال: ساقطة من ب.
٣٣٠ - في ب: اذ.
٣٣١ - من هنا الى قوله: احكام العشر، ساقط من ط، ب.
٣٣٢ - في ط، ج: مما.
٣٣٣ - في ر، ج: لا انت.
٣٣٤ - في ب: هناك.
٣٣٥ - في ب: مهب.
٣٣٦ - عبارة: لا لامثالنا . . . التصحيح، ساقط من ك.

٣٣٧ - وصف سيبويه لمخرج الضاد ليس فيه ما يدل على انها تخرج من الجانبين، يقول: (ومن بين اول حافة اللسان وما يليها من الاضراس مخرج الضاد). الكتاب ٤ / ٤٣٣، المتاخرون اجتهدوا وفسّروا الوصف المذكور بما يُفهم منه احدى الجهتين او الجهتان معاً، لكنه في وصفه مخرج الضاد الضعيفة أشار الى الجهتين، قال: (إلاّ أنّ الضاد الضعيفة تتكلف من الجانب الايمن وان شئت تكلفتها من الجانب الايسر)، الكتاب ٤ / ٤٣٢.

٣٣٨ - في ب، ط، ج: المفقود.
٣٣٩ - من الضاد: ساقطة من ب، ط: ر.
٣٤٠ - كذا رواية البيت في ر، وفي ط، ك: بلساني، وفي ب: افترق بلساني. وفي عقود الجمان ص ١٨أ: فافرقا.
٣٤١ - في ب: حذرا.
٣٤٢ - في ك: الاكابر، وفي ج: اكثر.
٣٤٣ - في ج، ك، ر: طرف الراس، وفي ط: طرف اللسان.
٣٤٤ - في ر: فيشتركان اخراجا من وجه..
٣٤٥ - كذا في الاصول جميعها.
٣٤٦ - وهذه موارد الاختلاط: ساقطة من ر.
٣٤٧ - اختلاف: ساقطة من ج.
٣٤٨ - انتهى: ساقطة من ب.
٣٤٩ - في ر: بما
٣٥٠ - ان: ساقطة من ب.
٣٥١ - ومن يشمها الزاي: ساقطة من ب
٣٥٢ - في ك: الظائية.
٣٥٣ - شديدة: ساقطة من ك:، وفي ط: قوى اشتباه.
٣٥٤ - في ب، ك: ، لما.
٣٥٥ - كثيرا: ساقطة من ب.
٣٥٦ - في ك: مبديا.
٣٥٧ - ولا اشتباه: ساقطة من ر.
٣٥٨ - في ب اصلحت عبارة (كالظاء المعجمة) بخط آخر الى (كالطاء المهملة)، زيد بعدها، (والدال).
٣٥٩ - في ب: قول
٣٦٠ - الحرف: ساقطة من ر.
٣٦١ - في ك: نواه.
٣٦٢ - في ر: رحمه الله بواه..
٣٦٣ - هو الحسن بن منصور بن محمود المعروف بقاضي خان، توفي ٥٩٢ هـ / ١١٩٦ م، انظر: كحالة، معجم المؤلفين ٣ / ٢٩٧. وكتابه الفتاوى في اربع مجلدات (كشف الظنون ١٢٢٧)، منه نسخ خطية في مكتبة الاوقاف ببغداد بالارقام ٩٢٨ - ٩٣٣.
٣٦٤ - ان: ساقطة من ك، ج، ط.
٣٦٥ - ما بين المضادتين زيادة يقتضيها السياق.
٣٦٦ - غير: ساقطة من ر.
٣٦٧ - كذا في ر، وفي بقية الاصول: بالظاء او بالذال.
٣٦٨ - تفسد صلاته: ساقطة من ط، ب.
٣٦٩ - في ط، ب: او.
٣٧٠ - في ك: الظالين.
٣٧١ - صلاته: ساقطة من ب، ج.
٣٧٢ - في ك: وبالذال.
٣٧٣ - في ب: بالفساد من.
٣٧٤ - عنوان الكتاب: السراج الوهاج الموضح لكل طالب محتاج، لابي بكر بن علي المعروف بـ الحدادي العبادي، توفي ٨٠٠ هـ / ١٣٩٨ م، وهو شرح لمختصر القدوري (احمد بن محمد البغدادي القدوري، توفي ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م) في فروع الحنفية. انظر: كشف الظنون ١٦٣١.
٣٧٥ - اي: «فلا تجهر»، الاسراء ١٧: ١١٠. وفي حاشية ب تعليق لأمين مدني هذا نصه: (قوله: تكهر، لعل مقصده ان المصريين ينطقون بالجيم مبدلة بالكاف الفارسية التي يجعلون (كذا) تحتها العجم ثلاث نقط، اي شبيهة لها في السمع. امين.)
٣٧٦ - لعله محمد بن سلمة المرادي الفقيه المصري، توفي ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م، انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات ٣ / ١٢١.
٣٧٧ - عنوان الكتاب: الفتاوي البزازية او الجامع الوجيز، لمحمد بن شهاب بن يوسف الكردري الشهير بالبزاز، توفي ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م. من كتابه الفتاوى نسخ خطية في مكتبة الفاتيكان برقم ١٥١٦، ومكتبة الاوقاف ببغداد بالارقام ٩٠٠ - ٩٠٦، ودار الكتب المصرية برقم ٢٢٧٨٢ ب.
٣٧٨ - في ب: فلا كلفة.
٣٧٩ - في ب: كالضاد..
٣٨٠ - المهملة: ساقطة من ط.
٣٨١ - في ب: بالمشقة.
٣٨٢ - المعجمة: ساقطة من ط، ب.
٣٨٣ - في ر: والاكثر.
٣٨٤ - لا اعرفه.
٣٨٥ - في ب: غين.
٣٨٦ - في ك: قليل.
٣٨٧ - لعله احمد بن اسحاق بن شيبب الفقيه الحنفي، توفي ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م، انظر: كحالة، معجم المؤلفين ١ / ١٦١.
٣٨٨ - القول: ساقط من ب، ط.
٣٨٩ - في ب: فقال.
٣٩٠ - لعله ابو الحسن شريح بن محمد بن شريح، توفي ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م، صاحب كتاب نهاية الاتقان في تجويد القرآن، انظر: النشر ٢ / ٢٠٣.
٣٩١ - لا اعرفه.
٣٩٢ - ذُكِرَ الكتابُ في كشف الظنون ١٢٢٢ من غير أنْ يُذْكَرَ مؤلِّفُه.
٣٩٣ - ولا: ساقطة من ب.
٣٩٤ - سقطت الواو من جميع النسخ عدا ب.
٣٩٥ - لا اعرفه.
٣٩٦ - كان: ساقطة من ط، ب.
٣٩٧ - عنوانه: جامع المضمرات والمشكلات في شرح القدوري، ليوسف بن عمر الكادوري، توفي ٨٣٢ هـ / ١٤٢٩ م، انظر: كحالة، معجم المؤلفين ١٣ / ٣٢٠ وكشف الظنون ١٦٣٢.
٣٩٨ - في ط: وتنفي.
٣٩٩ - في ك: لاحتياط.
٤٠٠ - في ط: ينبني عليه.
٤٠١ - بالصحة: ساقطة من ك.
٤٠٢ - اكثر: ساقطة من ب.
٤٠٣ - في ك: النضائل.
٤٠٤ - في ك: الخاص من المرج.
٤٠٥ - هذا مثل، انظر: مجمع الامثال للميداني ٢ / ٢٨١ والمستقصى للزمخشري ٢ / ٣٢٨ وفيها (ما كل بيضاء شحمة ولا كل سوداء تمرة).
٤٠٦ - في ط: قصده.
٤٠٧ - الزخرف ٤٣: ٢٢ - ٢٣.
٤٠٨ - في ط، ب: ذاك.
٤٠٩ - في ر: وصل اليه.
٤١٠ - في ط: التلفظ.
٤١١ - في ك: وليشكر.
٤١٢ - في ط: فهو حينئذ
٤١٣ - لي: ساقطة من ب.
٤١٤ - هذه خاتمة ج، ولا خاتمة في ك. اما ر فخاتمتها (تمت الرسالة المسماة بغية

المرتاد لتصحيح الضاد للشيخ علي بن غانم المقدسي الحنفي من يد الفقير علي بن عبد الكريم الغلاي عفا عنه للعفو الرحيم العلي (؟) في اليوم الثاني من شهر جماد الاول (كذا) لسنة ثلاثين ومائة بعد الالف.) وخاتمة ب (تمت بحمد الله وبعونه وحسن توفيقه على يد كاتبها والحمد لله رب العالمين آمين سنة ١٢٨١). اما ط فخاتمتها (تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه وصلى الله على سيدنا محمد وسلم).

المصادر

الادراك للسان الأتراك
لأبي حيان النحوي الاندلسي
تحقيق: جعفر اوغلي أحمد
استانبول (مطبعة الاوقاف) ١٩٣٠

أسرار العربية
لأبي البركات بن الأنباري
تحقيق: محمد بهجة البيطار
دمشق (مجمع اللغة العربية) ١٩٥٧

الاعلام
لخير الدين الزركلي
القاهرة (مطبعة كوستاتوماس) ٥٤ - ١٩٥٩

الايضاح في شرح المفصل
لرضي الدين علي بن الحاجب
مخطوط في المتحف البريطاني بلندن
برقم Or. 7759

حرز الاماني ووجه التهاني
للقاسم بن فيره الشاطبي
القاهرة ١٨٦٥ م

الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق التلاوة
لمكي بن أبي طالب
تحقيق: احمد حسن فرحات
دمشق (دار المعارف للطباعة) ١٩٧٣

زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء
لأبي البركات بن الانباري
تحقيق: د. رمضان عبد التواب
بيروت (دار الامانة - مؤسسة الرسالة) ١٩٧١

سر صناعة الاعراب
لأبي الفتح بن جني
تحقيق: ابراهيم مصطفى وآخرين
القاهرة ١٩٥٤ (الجزء الاول)

الشافية
لرضي الدين علي بن الحاجب
طهران (؟) ١٨٥٥

شرح الشافية
لرضي الدين الاسترابادي
تحقيق: محيي الدين عبد الحميد وآخرين
القاهرة (مطبعة حجازي) ٥٦ - ١٣٥٨ هـ

شرح الشافية
لأحمد بن الحسن الجاربردي
طهران (؟) ١٨٥٥ م

شرح المفصل
ليعيش بن يعيش
القاهرة (المطبعة المنيرية)، بلا تاريخ.

شرح الواضحة في تجويد الفاتحة
للحسن بن قاسم المرادي
تحقيق: عبد الهادي الفضلي
بيروت، بلا تاريخ (١٩٨٢؟)

عقود الجمان في تجويد القرآن
لابراهيم بن عمر الجعبري
مخطوط في المكتبة الوطنية بباريس برقم (5937)

عمدة المفيد وعدة المجيد في معرفة لفظ التجويد
لعلي بن محمد السخاوي
مخطوط في مكتبة جامعة برنستون (مجموعة كاريت)
برقم (620, 6H)

الفسر، شرح ديوان المتنبي
لأبي الفتح بن جني
تحقيق: صفاء خلوصي
بغداد ٦٩ - ١٩٧٨ (جزآن)

الكتاب
لعمرو بن عثمان المعروف بسيبويه
تحقيق: عبد السلام هارون
القاهرة (الهيئة المصرية) ٦٦ - ١٩٧٧

كتب الضاد والظاء عند الدارسين العرب
د. محمد جبار المعيد
مجلة (معهد المخطوطات العربية)
الكويت، الجزء الثاني / المجلد الثلاثون (١٩٨٦)

الكشاف عن حقائق التنزيل
لجار الله الزمخشري
القاهرة (البابي الحلبي) ١٩٤٨ (٣ أجزاء)

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون
لحاجي خليفة
استانبول (مطبعة المعارف) ٤١ - ١٩٤٣

لطائف الاشارات
لأحمد بن محمد القسطلاني
تحقيق: د. عبد الصبور شاهين
القاهرة ١٩٧٢ (الجزء الاول)

مجمع الأمثال
لأحمد بن محمد الميداني
تحقيق: محيي الدين عبد الحميد
القاهرة ١٩٥٥ (جزآن)

المستقصى في أمثال العرب
لجار الله الزمخشري
الهند (حيدر آباد الدكن) ١٩٦٢

معجم البلدان
لياقوت الحموي
تحقيق: ويستنفيلد
ليبزك ١٨٦٦ - ١٨٧٠

معجم المؤلفين
لعمر رضا كحالة
بيروت ١٩٥٧ (١٥ جزءا)

المقامات
للقاسم بن علي الحريري
تحقيق: ف. ستاينكاس
لندن ١٨٩٧ م

الممتع في التصريف
لعلي بن مؤمن المعروف بابن عصفور
تحقيق: د. فخر الدين قباوة
حلب ١٩٧٠ (جزآن)

النشر في القراءات العشر
لمحمد بن محمد المعروف بابن الجزري
تحقيق: علي محمد الضباع
القاهرة (بلا تاريخ)، جزآن.

الوافي بالوفيات
لخليل بن أيبك الصفدي
تحقيق: هلموت ريتر وآخرين
ويسبادن - بيروت ١٩٣١ - ١٩٧٩

همع الهوامع
لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٢٧ هـ

* * *



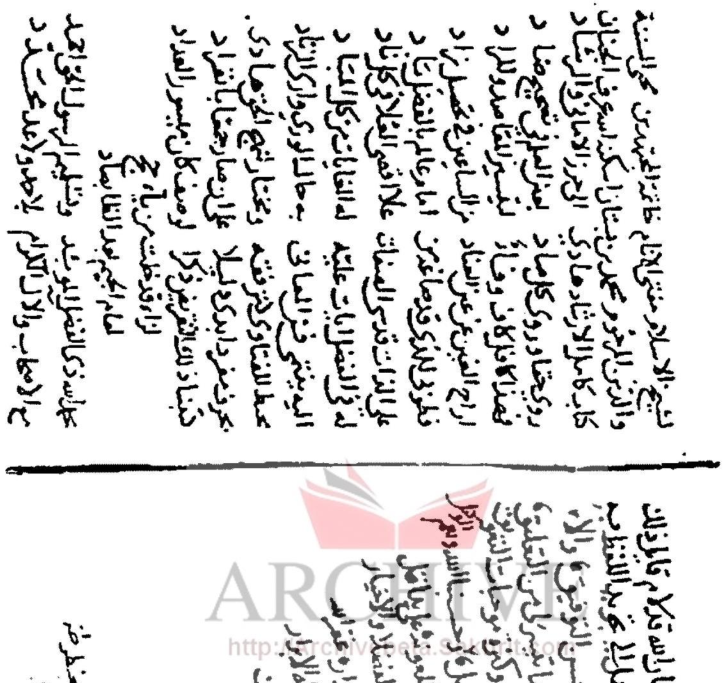
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وفق للنطق الفصيح من أراد، ونفى عن الحق الصريح من لزم العناد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح من نطق بالضاد، وعلى آله وأصحابه المتعادين للصواب خير انقياد، ورضي الله تعالى عن العلماء الأمجاد خصوصاً الذين اجتهدوا لنفع العباد، ودونوا لهم ما نظروه بعين التأمل والانتقاد، بلغهم غاية البغية والمراد.

نقول المفتقر إلى الغني الجواد، علي بن غانم المقدسي الحنفي الاعتقاد، لما رأيت بمحروسة القاهرة التي هي زين البلاد، كثيراً من أفاضل الناس فضلاً عن الأوغاد، يخرجون عن مقتضى العقل والنقل في النطق بالضاد، وينكرون على من وافقهما لأن مخالفتهما بينهم أمر معتاد، ويرومون أن يتبعهم من غير أصل لهم إليه استناد، سوى التوارث عن الآباء والأجداد، من غير دراية لتمهيد الأصول ولا هداية لتشييد الفصول ولا تبصرة فيما فيه إرشاد [illegible]

في كل ناد، بين كل حاضر وباد، فازددت مع طلب جمع من الإخوان وإشارة من بعض الأعيان أن أزيل الغين عن عين الرشاد، وأفيض من عين الأدلة العقلية والنقلية ما يروي كل صاد، فشرعت فيه معترفاً بقصر الباع وقلة الزاد، مع التوكل على الله والاعتماد، سائلاً من فضله النفع به في المعاد، وسميته بغية المرتاد لتصحيح الضاد، قبل الخوض في المرام لابد من تمهيد الكلام وتحرير المقام فليعلم أن أصل هذه المسألة أنهم ينطقون بالضاد ممزوجة بالدال المعجمة والطاء المهملة وينكرون على من ينطق بها قريبة من الظاء المعجمة بحيث يتوهم بعضهم أنها هي وليس كما توهمه فنقول الكلام في إثبات ما أنكروه منحصر في مقدمة فيما يجب أن نقدمه وفصلين محيطين من الدلائل بنوعين وخاتمة لتنبيهات ودفع تمويهات. أما المقدمة ففي بيان مخرجها وما لها من الصفات التي نص عليها العلماء الأثبات في الكتب المعتبرات [illegible] على بصيرة من الدلائل الآتيات فأقول

الصفحة الأولى من مخطوطة كمبرج (ج)



الصفحة الأخيرة من مخطوطة كمبرج (ج)

غرائب خَلق الانسان

لابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠ هـ

تحقيق

د. محمود جاسم الدرويش

معهد المعلمين المركزي ـ بغداد

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدّمة :

« غرائب خلق الانسان » لابن خالويه واحدٌ من بحوث التراث اللغوي المهمة التي تناولت موضوعاً اهتمّ به اللغويون القدماء، وهو موضوع التأليف في خلق الانسان.

ولم يقتصر التأليف في خلق الانسان على عالم وزمن معيّنين، بل استمر التأليف حتى عصور قريبة.

وقد فصل اللغويون القول في التأليف في خلق الانسان، فذكروا أسماء أعضاء الانسان وصفاتهِ وأحوالهُ وتناولوا كلّ عضو من أعضائهِ، فذكروا الدّاء والأدواء التي تصيبه وأحواله الخلقية من صِغَرٍ وكِبَرٍ، وسعةٌ وضيقٍ، وطول وقصر، وسواد وبياض. إن تراث العرب في موضوع خلق الانسان ثروة علمية كبيرة يجب نشرها لتأخذ مكانها بين الكتب الأخرى في المكتبة العربية.

ومن تراث خلق الانسان: « غرائب خلق الانسان » لابن خالويه الذي نعدّهُ اليوم للنشرِ بَعْدَ أَنْ ظَلَّ طيلة عشرة قرون بعيداً عن أيدي الدّارسين.

فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كُنّا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله، إنّهُ نعم المولى ونعمَ النّصير.

المؤلف:

أبو عبد الله الحسين بن أحمد، المعروف بابن خَالَوَيْهِ اللغوي النّحوي، البغدادي المنشأ، الحلبي المسكن والخاتمة.

دخلَ بغداد طالباً للعلمِ سنة ٣١٤ هـ، وقرأ القرآن على ابن مجاهد المتوفّى سنة ٣٢٤ هـ، والنحو والأدب على ابن دريد المتوفّى سنة ٣٢١ هـ، وأبي بكر الأنباري المتوفّى سنة ٣٢٨ هـ، ونفطويه المتوفّى سنة ٣٢٣ هـ، وأخذ اللغة كذلك عن أبي عمر الزاهد المتوفّى سنة ٣٤٥ هـ.

واختصَّ ابن خالويْهِ بسيفِ الدولة الحمداني وبنيهِ، وقرأ عليه آل حمدان، وكانوا يجلّونه ويكرمونه، فانتشر علمهُ وذاعَ صيتهُ.

وله مناظرات مع أبي الطّيّب اللغوي، ومنافسة شديدة مع أبي علي النحوي.

وقد درسَ على ابن خالويه عدد من العلماء أشهرهم:

١ ـ عبد المنعم بن غلبون، توفّي سنة ٣٨٠ هـ.
٢ ـ أبو بكر الخوارزمي، توفّي سنة ٣٨٣ هـ.
٣ ـ المعافى بن زكريا النهرواني، توفّي سنة ٣٩٠ هـ.
٤ ـ سعيد بن سعيد الفارقي، توفّي سنة ٣٩١ هـ.
٥ ـ أبو الحسن السلامي، توفّي سنة ٣٩٤ هـ.
٦ ـ الحسن بن سليمان.
٧ ـ أبو علي الحسين بن علي الرُّهاوي.

وابن خالويه شخصية بارزة، وله قدم راسخة في الدراسات اللغوية والنحوية، وقد صنّف كتباً كثيرة في علوم القرآن والحديث واللغة والنحو والأدب.

آثاره:

ترك لنا ابن خالويه تراثاً ضخماً من المؤلفات في مختلف موضوعات العربية وآدابها، وقد تحدّث الباحث بالتفصيل عن آثار المؤلف في دراسته: ابن خالويه وجهوده في اللغة، وبينّ آثاره المطبوعة والمخطوطة والمفقودة منها[1].

غرائب خلق الانسان:

غرائب خلق الانسان باب من أبواب الجزء الخامس من كتاب (ليس في كلام العرب)، وهذا الكتاب ما زال مخطوطاً، وقد سمّاه المؤلف بغرائب خلق الانسان، إيّ أنّه أراد أنْ يذكر الغريب من خلق الانسان، وهذا يَدُلُّ على أنّ المؤلف قد كان يعرف من غرائب خلق الانسان ما لم يعرفه غيره من علماء اللغة.

وقد بدأ ابن خالويه بذكر الشفة وختمهُ بالصفات. وقد استشهد ابن خالويه بسبعة أبيات من الشِّعْر، وبعشرة من الرَّجز.

مخطوطة الكتاب:

اعتمدت في تحقيق هذا البحث على نسخة فريدة نادرة من كتاب (ليس في كلام العرب) لابن خالويه تقع في (١٧١) ورقة، وضمنها (غرائب خلق الانسان)، الذي يقع في خمس ورقات من (ق ٨٠ ب ـ ق ٨٤ أ).

ولا وجود لتأريخ النّسخ في آخر الكتاب ولا لأسم النّاسخ، ولكن تأريخ نسخ المخطوطة يرقى الى القرن السابع الهجري، وأصل المخطوطة في المكتبة السليمانية عن نسخة باستانبول، ومنه صورة في معهد المخطوطات المصورة بالقاهرة تحت رقم (٢٢٢) لغة.

ولأبُدَّ لي أخيراً أنْ أشكر الأخ الكريم صبيح الشاني الذي صوّر لي المخطوطة، راجياً له كلَّ خير.

وأرجو أنْ أكونَ قد قدَّمت في نشري لهذا البحث مادة جديدة تضاف الى ما نُشِرَ من كتب خلق الانسان[1].

والحمدُ لله أوّلاً وآخراً.

النّصُّ المُحقَّقُ

(٨٠ ب) قالَ ابنُ خالَوَيْهِ: من غرائبِ خَلْقِ الأنسانِ وطرائفِ الألفاظِ ما أذكرهُ لكَ:

شفةٌ منفلجةٌ مثلُ فلجاة[1]: مَشْقُوقَةٌ من أسفل.

وعَينٌ شوصاءُ: جاحظةٌ. ودحقاءُ مثلُها.

وعَقْدُ[2] اللسانِ: أصلُهُ، وأنشدَ:

لَوْ انَّ أبا لَيلى مَريضٌ شِفَاؤُهُ
دَمٌ مِنْ لِهَاتِي أوْ دَمٌ مِنْ بَنَانِيَا
لشَرَّطْتُ أطْرافِي لَهُ في شِفَائِهِ
وقَطَّعْتُ مِنْ حِداة[3] عقدَ لِسانِيا

فأمَّا المعروف فإنَّهُ يُقالُ لأصْلِ اللسانِ: الحَكَدَةُ،[4] والعُكْدَةُ[5]، والعَكَرَةُ.[6]

والعقدُ غريبٌ.

ولحيَةٌ كُثْحُمَةٌ:[7] أي ضخمةٌ، مثلُ المِلْوَقَةِ.[8] وأُلثغَ غَيْنَهُ، ولقها: ضَرَبها، (٨١ أ) وأنْشصَ[9] الحدقةَ منْ موضعِها: [اقتلعها][10].

ورجلٌ أقصَمُ[11] وجمَلٌ أقصَمُ: ذهبَتْ أسنانُهُ.

قالَ: والمطعمةُ هيَ الحنجرةُ، وهيَ الغَلْصَمَةُ[12]. وذأّتَهُ: خنَقَهُ.[13]

قالَ: والفَليفُ: عِرْقٌ يجري في العَضُدِ إلى نُغْضِ[14] الكَتِفِ، وهوَ عِرْقُ الواهنةِ[15].

والأمْدَشُ والمَدْشاءُ، مثلُ الأَحْمَشِ والحَمْشاءِ: قِلّةُ اللّحمِ والدِّقّةِ[16]

وقيلَ: المَدْشاءُ:[17] الخَمْقاءُ، وقيلَ: الخَفِيفَةُ.

ويُقالُ: مالكَ في بني فلانٍ مَغْسَمٌ ولا مَزْغَمٌ، بمعنى مَطْمَعٍ.[18]

وقَدَمٌ كَرْشَاءُ: لا أخمصَ لها، وقَصُرَتْ[19] أصابِعُهَا، وهيَ فَطْحَاء أيضاً وكَزْمَاءُ[20] الأصابعِ.

والرَّحْاءُ[21] مثلُ الكرْشاءِ، والفطحاءُ عَريضةٌ.

وكلُّ نعامةٍ رَوْحَاء: بعيدةُ ما بينَ الرِّجْلَيْنِ[22]

والزَّجَجُ[23] في الانسانِ: دِقَّةُ الحاجبِ.

والزَّجَجُ في الأبلِ: حديدُ المنسمينِ، وروَحٌ في رِجْلَيهِ: تباعدٌ[24].

قالَ: والفَقَدُ[25] لا يكونُ إلاّ في الرِّجْلَيْنِ.

والكَوَعُ[26] لا يكونُ إلاّ في اليدينِ.

والصَّنَفُ[27] شِبْهُ الرَّوَحِ، ضِدّ الصَّكَكِ.
قال: وإنّما سُمّيَتِ النّعامةُ صكّاء لا صْطِكاكِ عرقوبيها.[28]
واللَّصَبُ في اللحيين: التصاقُ أحدِهما بالآخرِ.[29]
قال: والذَّوَطُ:[30] طولُ الحنكِ الأعلى على الأسفلِ.
(٨١ب) والفَقَمُ[31] ضدّهُ، طول الأسفلِ على الأعلى.
والخَفَلَّجُ:[32] الأفحجُ السّاقينِ.
والحاجبُ الزُّعازِبُ:[33] قصيرُ الشَّعَرِ.
وشَعَرٌ جَثْلٌ:[34] شديدُ الجُعُودةِ، مثلُ المُقَلْفِطِ،[35] شَعَرُ الزّنجِ، وهوَ المُلتفُّ الشَّعَرِ.

والصَّادُ:[36] عِرْقٌ بَيْنَ[37] الأنفِ والعَيْنِ.
وعَيْنٌ بَجْلاءُ[38]، مثلُ نجلاءَ:[39] الواسعةُ الضَّخْمَةُ.
وعَيْنٌ سادّةٌ مثلهُ القائمة.[40]
قال: ويُقالُ للصّبيّ: أعْجَمُ، ما دام لا يتكلّمُ
وقال:[41] الصّبيُّ أعْجَمُ إلّا بالبكاءِ.
وكانَ رجلٌ ماتَتْ امرأتُهُ ولَهُ منها صَبِيٌّ رضيعٌ، فقالَ:[42]

وأعْجَمُ إلّا بالبكاءِ اقتليه
قليلُ الرّضا عَنْهُ فكيفَ أعاتبه

ولآخرَ[43] مثلهُ ماتت امرأتُهُ:

فَواللهِ ما أدري إذا الليلُ جَنّنا
وذكرناها أيُّنا هو أوجعُ

أمحتلجٌ عن ثدي أمّ حبيبةٍ
أم العزبُ النّائي بهِ كلُّ مضجعِ

والخَزْعَلَةُ:[44] أسْوأُ العَرَجِ، وكذلك الخَقَلَّجُ[45].
وقيلَ: بَلِ الخَزْعَلَةُ أهْوَنُ العَرَجِ.
وهوَ مَنْحُورٌ بعُنُقِهِ، إذا كانَ يَخْرُجُ عُنُقُهُ من مَنْحَرِهِ.

والأرْبِيَّةُ: الغُدّةُ التي [إذا نُكِبَ الرّجُلُ في رِجْلِهِ وَرِمَتْ].[46]
وأمّا الغُنْدُبَةُ،[47] فلا تكونُ إلّا في الحَلْقِ.
قال: وتُسمّى الكَمَرَةُ: (٨٢أ) الحَوْقاءُ.[48]
والحُوقُ[49] مثلهُ، والحَوْقَلَةُ[50]، والحوثرة،[51] والقِمْعالةُ،[52]
والكَمَرَةُ،[53] والحَشَفَةُ،[54] والفَنْطَلِيسُ.[55]
وكَمَرَةٌ فَهْبَلِسٌ[56] كُبَاسٌ.[57]

وقَدْ تقدّمَ مِنْ أسمائهِ ما كَفَى.
وأنشدَ:[58]

كَبْسَاءُ خَرْقَاءُ مِتَامٌ إذا وَقَفَتْ
في مَهْبِلٍ أدْرَكَتْ داءَ المُخَاقيقِ

أي: جوانب الفَرْجِ..[59]
وأنشدَ:[60]

كَمَرَةٌ ذاتُ حُرُوقٍ فوقها
مثلُ الرّحا مُطياً شقوقها
تبيتُ ترمي بالصياحِ فوقها
أبتْ عَجُوزٌ خلقٌ أفيقها
يدعزُ كلُّ أهلها حقيقها

وقالَ آخرُ:[61]

يا أيُّها الشّيخُ الطويلُ المُوقِ
اغْمِزْ[62] بهنّ وَضَحَ الطّريقِ
غَمْزَكَ بالكَبْساءِ ذاتِ الحُوقِ
بَيْنَ مَناطَيّ[63] رَكَبٍ محلوقِ
أعانهُ أسملهُ بالضّيقِ[64]

قالَ: والمقلوذُ: [المُزَيَّنُ][65]
والمقلوذُ ليسَ إلّا من كلامِ المولّدينَ،
وكأنّهُ حَسَنُ القَدّ إلى التّرقُوةِ.
والحَنْجُورُ:[66] الحُلْقُومُ.
والبَرْشَمَةُ:[67] إدامةُ النّظرِ.
والخُفْشَةُ:[68] عظمةُ الذّراعِ.
والحُذُنّةُ:[69] الأذُنُ.
(٨٢ ب) والحَرْكَكَةُ والحَرْقَفَةُ واحدٌ.[70]
وتَفَشّغَ[71] ولدُهُ: كثروا.
تَفَشّغَ فيهِ الشّيبُ: انتشرَ
وكَثُرَ، حرقَ شعرهُ، اشتفَ وزيّفَ صاحبَهُ وغيرَهُ.
ومَغَدَهُ:[72] نَتَفَهُ.
وَخَيَّطَ في رأسِهِ القَتيرُ: أي الشّيبُ.[73]
ويُقالُ: اعْلَنْكَكَ الشّعَرُ واعلنكسَ: كَثُرَ.[74]
والعَنْجَلُ:[75] العظيمُ البطنِ.
والحَشْوَرُ[76] مثلهُ.
والجَهْضَمُ:[77] الضّخْمُ الهامَةِ.
والشَّفَلَّحُ:[78] الواسعُ المَنْخِرَيْنِ، العظيم الشّفَتينِ.

والقَفَنْدَرُ:[٧٩] الضَخْمُ الرِّجْلِ.
والضَّيْطَرُ:[٨٠] العظيمُ الشفه، الكثيرُ السَّهَرِ.
والعَكَوَّكُ[٨١] والبَلَنْدَحُ:[٨٢] السَّمِينُ جميعاً.
والمُؤَوَّمُ:[٨٣] الرَّأْسِ، مثلُ الجَهْضَمِ.[٨٤]
المُطَهَّمُ:[٨٥] التامُّ كلُّ شيءٍ منهُ.
والسَّمَعْمَعُ[٨٦] ضِدُّ المُؤَوَّمِ، وهوَ الصَّغيرُ الرَّأْسِ.
واليَهْفُوفُ:[٨٧] الحديدُ القَلْبِ.
والجَرَنْفَسُ:[٨٨] العظيمُ.
والإِسْجادُ:[٨٩] إدامةُ النَّظَرِ.
والإِسْجادُ:[٩٠] دراهمُ اليهودِ.
والوَغْفُ:[٩١] ضَعْفُ البَصَرِ.
والشَّرْمَحُ[٩٢] والشَّعْشَعُ:[٩٣] الطُّويلُ.
وكذلكَ الجُعْشُوشُ.[٩٤]
والضُّبارِكُ[٩٥] مثلهُ.
والقَيْلَمُ:[٩٦] العظيمُ، وقَدْ ذُكِرَ فيما مَضَىٰ أَنْ
القَيْلَمَ ثلاثةُ[٩٧] أشياءَ.
والعَبْهَرُ:[٩٨] الطويلُ، وهوَ النَّرْجِسُ[٩٩] (٨٣ أ) أيضاً.
والمُتآزِفُ:[١٠٠] القَصيرُ.
حَدَّثنا ابنُ دُرَيْدٍ،[١٠١] عَنْ أبي حاتِمٍ،[١٠٢] عن الأصمعي[١٠٣]
قالَ: قالَ رَجُلٌ لأعرابيٍّ: ما المُتآزِفُ؟ قالَ: المتكاكِىءُ،
قالَ لهُ: فما المتكاكِىءُ؟ قالَ: الحِنْزَقْرُ، قالَ: فما الحِنْزَقْرُ؟ قالَ:
أَنْتَ أَحمقُ.[١٠٤]
والكُوتِيُّ:[١٠٥] القَصيرُ.
والجُعْبُوبُ[١٠٦] مثلهُ.
والحَفَيْتَأُ[١٠٧] مثلهُ.
والحَمْحَمُ:[١٠٨] الأَسودُ.
والأَسْحَمُ:[١٠٩] سَوادٌ يضربُ الىٰ الصُّفْرَةِ.
ورَجُلٌ نَبّاجٌ[١١٠] وفَدّادٌ:[١١١] شديدُ الصَّوْتِ.
والأَزْمَلُ:[١١٢] الصَّوْتُ.
والأَزْمُولُ:[١١٣] الذي يظلعُ في مِشْيَتِهِ.
وسَمِعْتُ نعبةَ[١١٤] فُلانٍ: أي كلاماً حسناً.
والظُّلُبُ:[١١٥] الصَّخَبُ.
والنَّجِيطُ[١١٦] والنَّشِيجُ[١١٧] والنُّحُوبُ[١١٨] بمعنىً واحدٍ.
والرَّجُلُ الحُذاقيُّ:[١١٩] الفصيح.
ورَجُلٌ هَوْبٌ:[١٢٠] كثيرُ الكلامِ.
ورَجُلٌ مُنَقِّحٌ[١٢١] الكلامِ: أيْ يفتشهُ وينظرُ فيهِ.
وفي فُلانٍ خَلْخانيةٌ:[١٢٢] أي عُجْمَةٌ.

ورَجُلٌ فَكِهٌ:[١٢٣] طَيِّبُ النَّفْسِ، ضَحّاكٌ مَزّاحٌ.
والدَّغْشَمُ:[١٢٤] السَّهْلُ اللَّيِّنُ.
فأمّا الخِضْرِمُ[١٢٥] والخِضَمُّ[١٢٦] والقَلَمَّسُ[١٢٧] والعِيضَمُّ:[١٢٨] فكلُّهُ
الواسِعُ الخُلُقِ.
والفَنَعُ:[١٢٩] الكَرَمُ والمِسْكُ والسَّخاءُ والكثيرُ.
وأنشَدَ[١٣٠] (٨٣ ب):

وقَـدْ أَجُـودُ ومَـا مَـالِي بِـذِي فَـنَـعٍ
وأَكْـتُـمُ الـسِّـرَّ فـيـهِ ضَـرْبَـةُ الـعُـنُـقِ

والغَيْدَاقُ:[١٣١] الكريمُ.
والغَيْدَاقُ: النّاعمُ.
والأَبِخُ:[١٣٢] البَخِيلُ المشؤُوم والذي إذا سُئِلَ تَنَحْنَحَ.
المُبْتَقِعُ:[١٣٣] السّائِلُ المُلْحِفُ.
والبَلَنْدَدُ:[١٣٤] الفاحِشُ.
والفَلْحَسُ:[١٣٥] الحريصُ، والكلبُ، والمرأةُ الرَّسْحاءُ[١٣٦].
والمُنْظَوانُ:[١٣٧] الفاحِشُ، مثلُ البَلَنْدَدِ.
ورَجُلٌ مُكْلَنْدِدٌ، ودَمَكْمَكٌ، وصَمَحْمَحٌ، مُكْلَنْدِي، وخَبَعْثَنَةٌ:
كلُّ ذلكَ الشَّدِيدُ.[١٣٨]
والتميمُ:[١٣٩] الشَّدِيدُ، والتَّميمُ: التعويذُ.
والعَمَلَّسُ والغَمَلَّسُ[١٤٠] جميعاً: القَوِيُّ على السَّفَرِ.
والغَشَمْشَمُ:[١٤١] الرّاكِبُ رأسَهُ في الظُّلْمِ لا يثنيهِ شَيْءٌ.
والخَلاّصُ:[١٤٢] الشُّجاعُ.
والمِجْهاجُ:[١٤٣] النَّفُورُ.
والزُّمَّخُ:[١٤٤] الضَّعيفُ. والوَغْبُ[١٤٥] مثلهُ.
والزِّنْجِيلُ والزِّنْجِيلُ:[١٤٦] الضَّعيفُ.
واللُّعْمَظُ واللُّعْمُوظُ:[١٤٧] الحَرِيصُ.
والمُتَرَبِّعُ:[١٤٨] الذي يؤذي النّاسَ.
والقَمَلِيُّ:[١٤٩] الحقيرُ منَ النّاسِ.
والمُخْسَلُ:[١٥٠] المَرْذُولُ.
والمَخْسُولُ والحُمّانُ:[١٥١] كلُّ ذلكَ الأرذالُ الأخساءُ.
والضَّكْضَكَةُ:[١٥٢] سُرْعَةُ المشي.
وكذلكَ القَذَفانُ[١٥٣] والذَّمَيانُ[١٥٤] والضَّيَطانُ[١٥٥]
والخَيَطانُ:[١٥٦] كلّهُ الأسراعُ.
(٨٤ أ) والنَّحْظَلة:[١٥٧] القَفْزُ.
والشَّعشاعُ:[١٥٨] الحَسَنُ.
وكذلكَ الفَدْغَمُ،[١٥٩] والخَليقُ[١٦٠] مثلهُ.
ورَجُلٌ بِزْنِعَةٌ:[١٦١] أي حسنُ القيامِ على مالهِ.

الهوامش

(١) ينظر في ابن خالويه وآثاره: ابن خالويه وجهوده في اللغة، للمؤلف، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦، ص ١٣ - ٣٨.

(٢) ذكر الدكتور نهاد حسوبي صالح الكتب التي أُلّفت في خلق الانسان، وبيّن المخطوطة والمطبوعة والمفقودة منها. (ينظر: كتب خلق الانسان دراسة منهجية لغوية، رسالة دكتوراه، جامعة بغداد / كلية الآداب ١٩٨٧ م، ص ٨ - ١٩).

(١) خلق الانسان: الأصمعي، عبد الملك بن قريب، ت ٢١٦ هـ، تس: هفنر، نشرهُ ضمن الكنز اللغوي، ١٩٠٣ م، ص ٢٢٨.

خلق الانسان: ثابت بن أبي ثابت، من علماء القرن الثالث الهجري، تس: عبد الستار أحمد فرّاج، الكويت ١٩٦٥ م، ص ١١٧

(٢) وردت في المعجمات بهاء. ينظر: اللسان والتاج (عقد). غاية الاحسان في خلق الانسان: السيوطي، جلال الدين، ت ٩١١ هـ، تس: د. نهاد حسوبي صالح، ضمن رسالة دكتوراه، جامعة بغداد / كلية الآداب، ١٩٨٧ م، ص ٢٥٤.

(٣) الجذأة: سالفة عُنُق الفرس، وهي ما تقدَّم من عنقه.

(٤) ينظر: اللسان (حكد).

(٥) اللسان والتاج (عكر). وترد بالتحريك أيضاً (العَكَدَة).

(٦) خلق الانسان: الاسكافي، أبو عبد الله الخطيب، ت ٤٢١ هـ، تس: كامل سعيد عواد، المجلة العلمية لجامعة صلاح الدين، المجلد الثامن، العدد الأول، ١٩٨٢ م، ص ٢٧٢.

(٧) خلق الانسان، ثابت، ص ١٩٩.

(٨) ينظر: خلق الانسان، الأصمعي، ص ٢٣.

(٩) اللسان والتاج (نشص).

(١٠) ينظر: القاموس المحيط، الفيروز ابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، ت ٨١٧ هـ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، ج ٢ / ٣١٩.

(١١) خلق الانسان، الأصمعي، ص ١٩٢.

خلق الانسان: الزجاج، أبو اسحاق ابراهيم بن السري، ت ٣١١ هـ، تس: د. ابراهيم السامرائي، مستل من المجلد العاشر من مجلة المجمع العلمي العراقي، ١٩٦٣ م، ص ٢٦.

(١٢) خلق الانسان، الأصمعي، ص ١٩٧، خلق الانسان، الزجاج، ص ٢٩.

(١٣) اللسان والتاج (ذأت).

(١٤) الأصل: نصف. والنغض: مرجع الكتف، وهو موضعها الذي تزول عنه فترجع إليه. (خلق الانسان للاسكافي ص ٢٧٥).

(١٥) ينظر: المخصص: ابن سيده، علي بن اسماعيل، ت ٤٥٨ هـ، بولاق ١٣١٨ هـ، ج ١ / ١٦٤، ١٦٧.

اللسان (نلق). غاية الاحسان ٢٧٦.

(١٦) خلق الانسان للأصمعي ٢٢٦، خلق الانسان لثابت ٢٣٢.

(١٧) ينظر: اللسان (مقش).

(١٨) اللسان (هسم، زعم).

(١٩) الأصل: بقصة. ينظر: خلق الانسان لثابت ٣٢٥، التاج (كرش).

(٢٠) القدم الكزماء: قصيرة الاصابع. (خلق الانسان للأصمعي ٢٢٨، خلق الانسان لثابت ٣٢٥، خلق الانسان للزجاج ٤٩، المخصص ٢ / ٥٨).

(٢١) خلق الانسان للأصمعي ٢٢٧، المخصص ٢ / ٥٧، غاية الاحسان ٣٤٠.

(٢٢) ينظر: القاموس المحيط ١ / ٢٢٤، غاية الاحسان ٣٤٢.

(٢٣) خلق الانسان للزجاج ١٨، مختصر الوجوه في اللغة: الخوارزمي، محمد بن أحمد، ت ٣٨٣ هـ، اعتناء مصطفى أحمد الزرقا، ص ٥١. (نشر مع كتاب: كفاية المتحفظ).

خلق الانسان لثابت ١٠٤.

(٢٤) ينظر: اللسان والتاج (زجج).

(٢٥) ينظر: خلق الانسان للأصمعي ٢٢٧، خلق الانسان لثابت ٣٢٦، المخصص ٢ / ٥٢.

والفَدَد أن يكون رأس القدم مائلاً الى وحشيّ الرِّجْل ... (غاية الاحسان ٣٤٠).

(٢٦) ينظر: خلق الانسان لثابت ٢٣٣، غاية الاحسان ٣٤٠.

(٢٧) خلق الانسان للأصمعي ٢٢٨، خلق الانسان للزجاج ٤٩، خلق الانسان لثابت ٣١٨، المخصص ٢ / ٥٢.

(٢٨) ينظر: اللسان (صكك).

(٢٩) ينظر: اللسان والتاج (لصب).

(٣٠) ينظر: خلق الانسان للأصمعي ١٩٥، خلق الانسان لثابت ١٦١، خلق الانسان للزجاج ٢٨.

مقالة في أسماء أعضاء الانسان: ابن فارس، أحمد، ت ٣٩٥ هـ، تس: د. فيصل دبدوب، دمشق ١٩٦٧ م ص ١٧.

(٣١) اللسان (لحج). وينظر: خلق الانسان للأصمعي ٢٢٥، المخصص ٢ / ٥٠.

(٣٣) ينظر: اللسان (زغب).
(٣٤) الأصل: حسك. ينظر: خلق الانسان للأصمعي ١٧١، اللسان (جثل).
(٣٥) خلق الانسان للأصمعي ١٧٢، خلق الانسان للزجاج ١١، خلق الانسان لثابت ٦٣
(٣٦) غاية الاحسان ٢١٨، وينظر: المخصص ١ / ٩٧، اللسان (صيد).
(٣٧) الأصل: في. والصحيح ما أثبته.
(٣٨) خلق الانسان لثابت ١٢٧.
(٣٩) غاية الاحسان ٢٢٨.
(٤٠) غاية الاحسان ٢٣٠.
(٤١) الأصل: قال.
(٤٢) لم أقف عليه.
(٤٣) لم أقف عليه.
(٤٤) خلق الانسان لثابت ٣٢٨.
(٤٥) القاموس المحيط ١ / ١٨٣.
(٤٦) ما بين القوسين من: خلق الانسان للأصمعي ٢٢٥، خلق الانسان لثابت ٣١٢.
(٤٧) الغُنْدُبَةُ: لحمة صلبة حوالي الحلقوم. (اللسان والتاج: غندب، القاموس المحيط).
(٤٨) ينظر: المخصص ٢ / ٣٣، غاية الاحسان ٣١٤.
(٤٩) غاية الاحسان ٣١٤.
(٥٠) غاية الاحسان ٣١٢.
(٥١) غاية الاحسان ٣١٢.
(٥٢) القمحدة: أعظم القبائل. (المخصص ٢ / ٣٤، غاية الاحسان ٣١٤).
(٥٣، ٥٤، ٥٥) المخصص ٢ / ٣٣، ٣٤، غاية الاحسان ٣١٢، ٣١٣.
(٥٦) المخصص ٢ / ٣٤، غاية الاحسان ٣١٣.
(٥٧) غاية الاحسان ٣١٤.
(٥٨) للعين المنقري في: اللسان والتاج (لحق).
(٥٩) ينظر: المخصص ٢ / ٣٩، غاية الاحسان ٣٢٣.
(٦٠) لم أقف عليه.
(٦١) بلا عزو في: خلق الانسان لثابت ٢٨٣، ٢٨٤
جمهرة اللغة: ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، ت ٣٢١ هـ، نشر كرنكو، حيدر آباد، ١٣٤٤ هـ، ج ٢ / ١٨٤.
اللسان (قنف، فوق، حوق). مع اختلاف في الرواية.
(٦٢) الأصل: أم. والتصحيح من اللسان (فوق).
(٦٣) الأصل: سماطي. والتصحيح من اللسان والتاج (فوق).
(٦٤) الصّيق: الصوت.
(٦٥) اللسان (قَنْذَ)، والزيادة منه.
(٦٦) اللسان (حنجر)، غاية الاحسان ٢٦٦.
(٦٧) ينظر: خلق الانسان للأصمعي ١٨٧، خلق الانسان لثابت ٣٥، خلق الانسان للزجاج ٢١.
(٦٨) خلق الانسان لثابت ٢٢٠، غاية الاحسان ٢٧٦.
(٦٩) شرح مقصورة ابن دريد: ابن خالويه، الحسين بن أحمد، ت ٣٧٠ هـ، تح: محمود جاسم محمد الدّرويش، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م، ص ٤١٩.
(٧٠) الحرككة والحرقفة: رؤوس الوركين. (ينظر: اللسان: حركك، حرقف، خلق الانسان لثابت ٣٠٣).
(٧١) اللسان والتاج (قشغ).
(٧٢) اللسان (مقد)
(٧٣) شرح مقصورة ابن دريد لابن خالويه ٥٣٤، غاية الاحسان ٢١٣.
(٧٤) اللسان (علك، علكس).
(٧٥) المخصص ٢ / ٢٩، غاية الاحسان ٢٩٨.
(٧٦) المخصص ٢ / ٢٩، اللسان (حشر).
(٧٧) القاموس المحيط ٤ / ٩٢.
(٧٨) المخصص ١ / ١٣٣، اللسان والتاج (شفلح)، غاية الاحسان ٢٤٢.
(٧٩) المخصص ٢ / ٦٠، القاموس المحيط ٢ / ١٢١، غاية الاحسان ٣٤١.

(٨٠) لم أقف عليه.

(٨١) اللسان (عكك).

(٨٢) اللسان (بلدح).

(٨٣) ينظر: خلق الانسان للأصمعي ١٧٠، خلق الانسان لثابت ٥٩، خلق الانسان للزجاج ١٠.

(٨٤) ينظر: زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء: أبو البركات الأنباري، تح: د. رمضان عبد التواب، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧١ م، ص ٧٥. غاية الاحسان ٢١٢.

(٨٥) اللسان (طهم).

(٨٦) ينظر: خلق الانسان لثابت ٢٩٨، المخصص ١ / ٦١، وفيه: الصممع.

(٨٧) اللسان (هقف).

(٨٨) اللسان (جرفس).

(٨٩) ينظر: خلق الانسان لثابت ٢٠٥، اللسان والتاج (سجد).

(٩٠) ينظر: اللسان (وَعَفَ، وَخَفَ).

(٩٢) المخصص ٢ / ٦٩، غاية الاحسان ١٩٨.

(٩٣) المخصص ٢ / ٦٥، غاية الاحسان ١٩٩.

(٩٤) اللسان (جمش).

(٩٥) اللسان (ضبرك).

(٩٦) اللسان (فلم)، القاموس المحيط ٤ / ١٦٠.

(٩٧) الفيلم: الجُمّة العظيمة، والفيلم: الجبان، والفيلم: العظيم.

(٩٨) اللسان (جبهر).

(٩٩) النَّرجِسُ: من الرياحين، مُعَرَّب، والنّون زائدة، لأنَّهُ ليس في كلامهم فَعْلِل. (اللسان: رجس).

(١٠٠) اللسان (أزف).

(١٠١) هو أبو بكر محمد بن الحسن، من أعلام النحو واللّغة، وكان شاعراً، اشتهر. بمقصورته، ت ٣٢١ هـ. (انباه الرواة: القفطي، جمال الدين، علي بن يوسف، ت ٦٤٦ هـ، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، مط دار الكتب ١٩٥٥ م - ١٩٧٣، ج ٣ / ٩٢ - ١٠٠.

بغية الوعاة: السيوطي، جلال الدين، ت ٩١١ هـ، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، البابي الحلبي بمصر ١٩٦٥ م).

(١٠٢) هو أبو حاتم السجستاني، سهل بن محمد، عالم باللغة والشعر والقراءات، ت ٢٥٥ هـ. (مراتب النحويين البصريين: السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، ت ٣٦٨ هـ، تح: طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، مط البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٥ م، ص ٧٠.

الفهرست: ابن النديم، محمد بن اسحاق، ت ٣٨٠ هـ، مط الاستقامة، القاهرة، ص ٩٢).

(١٠٣) هو عبد الملك بن قريب، ت ٢١٦ هـ. (المراتب ٤٦. الجرح والتعديل: ابن أبي حاتم الرازي، عبد الرحمن بن محمد، ت ٣٢٧ هـ، حيدر آباد، ص ٢ / ٢ / ٣٦٣.

طبقات القرّاء (غاية النهاية): ابن الجزري، محمد بن محمد، ت ٨٣٣ هـ، تح: برجستراسر وبرتزل، القاهرة، ١٩٣٢ - ١٩٣٥ م، ج ١ / ٤٧٠).

(١٠٤) ينظر: اللسان (أزف، جنْزَقر).

(١٠٥) اللسان (كوت).

(١٠٦) القاموس المحيط ١ /٤٧، غاية الاحسان ١٩٩.

(١٠٧) القلب والابدال: ابن السكيت، يعقوب بن اسحاق، ت ٢٤٤هـ، نشر ضمن الكنز اللغوي، ص٤٢.

اللسان (حفت).

(١٠٨) اللسان (حم)..

(١٠٩) اللسان (سحم)..

(١١٠) اللسان والتاج (نبج)، القاموس المحيط ١ /٢٠٨.

(١١١) اللسان والتاج (فند)، القاموس المحيط ١/ ٣٢١.

(١١٢) اللسان (زمل).

(١١٣) اللسان (زمل)..

(١١٤) ينظر: اللسان (نحب).

(١١٥) القاموس المحيط ١ /٩٩.

(١١٦) النَّحِيط: صوت معه توجّع. (اللسان: نحط).

(١١٧) النشيج: صوت معه توجّع وبكاء.. (اللسان: نشج).

(١١٨) النحوب: البكاء بصوت طويل ومَدّ. (اللسان: نحب).

(١١٩) اللسان (حلق) . .

(١٢٠) اللسان والتاج (هوب) ، القاموس المحيط ١/١٤١ ، غاية الاحسان ٢٥٦ . .

(١٢١) اللسان (نفح) . .

(١٢٢) ينظر : خلق الانسان لثابت ١٨٣ ، غاية الاحسان ٢٥٥ .

(١٢٣) اللسان (فكه) . .

(١٢٤) القاموس المحيط ٤/ ١١٥ .

(١٢٥) القاموس المحيط ٤/ ١٠٨ .

(١٢٦) ينظر : اللسان (عضم) .

(١٢٧) التاج (قلمس) . .

(١٢٨) ينظر : اللسان (عضم) . .

(١٢٩) اللسان (قنع) ، القاموس المحيط ٣/ ٦٤ .

(١٣٠) لأبي محجن الثقفي ، ديوانه ، صنعة أبي هلال العسكري ، تس : د . صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٩ ، ٢١ .
والبيت ملفق من بيتين . .

(١٣١) القاموس المحيط ٣/ ٢٧١ . .

(١٣٢) أساس البلاغة : الزمخشري ، محمود بن عمر ، ت ٥٣٨ هـ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٥ م ، (أنح) . .
القاموس المحيط ١/ ٢١٤ .

(١٣٣) اللسان (هبلع ، لخف) . .
والالخاف : شدّة الالحاح في المسألة . .

(١٣٤) ينظر : اللسان (لدد) . .

(١٣٥) اللسان (فلحس) . .

(١٣٦) الرُّسحاء : الصغيرة العَجُز .

(١٣٧) اللسان (عنظ) ، القاموس المحيط ٢/ ٣٩٧ .

(١٣٨) اللسان (كلد) نمك ، صمع ، خبعثن) .

(١٣٩) اللسان (لمم) .

(١٤٠) ينظر : اللسان (عملسٌ ، غملسٌ) .

(١٤١) كفاية المتحفظ : ابن الاجدابي ، ابراهيم بن اسماعيل ، ت ٤٧٠ هـ ، المطبعة العلمية ، حلب ١٣٤٣ هـ ، ص ٣ .
اللسان (قشم) . .

(١٤٢) اللسان (علس) . .

(١٤٣) اللسان (مجج) ، القاموس المحيط ١/ ٢١٢ .

(١٤٤) اللسان (زمج) ، القاموس المحيط ١/ ٢٢٦ .

(١٤٥) اللسان (وغب) .

(١٤٦) اللسان (زنجل) .

(١٤٧) كفاية المتحفظ ٣ .

(١٤٨) اللسان (زبج) .

(١٤٩) اللسان (نمل) ، القاموس المحيط ٤/ ٤١ .

(١٥٠) اللسان (غسل) ، القاموس المحيط ٣/ ٣٦٨ .

(١٥١) ينظر : اللسان (لحن) . .

(١٥٢) اللسان (ضكك) ، القاموس المحيط ٣/ ٣١١ .

(١٥٣) اللسان (نمي)

(١٥٥) ينظر : اللسان (ضبط) . .

(١٥٦) ينظر : اللسان (عبط) .

(١٥٧) ينظر : اللسان (حظل) . .

(١٥٨) اللسان (شمع) ، القاموس المحيط ٣/ ٤٥ .

(١٥٩) اللسان والتاج (لدقم) .

(١٦٠) اللسان (خلق) .

(١٦١) اللسان (رنغ) ، القاموس المحيط ٣/ ٦٦ .



الصفحة الأخيرة


بسم الله الرحمن الرحيم وبه نثق
باب ــــ قال ابن خالويه ايده الله
تقول من قولهم جاء الرجل يتقطقط وجاء يتريس
إلا العامري فإنه قال جاء فلان يتبربر إذا جاء
بارزا ومثله جاء فلان يضرب أصدريه ومثله
جاء يضرب عطفيه والصقلان الجاه بان يتبهلص
إذا جاء فارغا من غير ضيعة وجاء يتصفح إذا جاء
وليس معه إما سلب وإما هلك ماله ومثله يتصفع
أي جاء لا شيء معه يتقدقد ومثله وجاء يتبهنس
ويتبهلس إذا جاء متبخترا ويقال مضطربا كأنه يهوذ
إلا أنه لا شيء معه وجاءت به لفلان أي جاء في ثوب واحد وتقلقل
أسنانك تقولها رأيت رجالا متعلقا إليه أمل وقال
فلان يتقطقط إذا مر فأسرع نحوا وقال أبو
العامري يقال مر فلان يتقطقط ويتطعطع على
المكان إذا أهشبى إليه فأما قولهم تقطقطت الدلو

الصفحة الأولى

شعر ابي عامر بن مَسْلَمة

صنعة
هدى شوكة بهنام

المقدمة:

حظيت الاندلس بطبيعة جميلة خلابة جعلتها مُلهم شعرائها، فقد كان الادباء الاندلسيون ومنهم الشعراء يعشقون الطبيعة الاندلسية ويطلقون عنان قريحتهم في وصفها والتغني بها وتشبيهها بالانسان ومحاكاتها وكأنها شخص ناطق يشعر بالحزن والفرح والحب.

ومن هؤلاء الشعراء ابو عامر بن مسلمة، وقد ولد سنة ثلاث او اربع وثلاثين واربعمائة للهجرة[1]، في زمن الملوك الطوائف، وهو من اهل قرطبة، واسمه الكامل: محمد ابن محمد ابن عبد الله بن محمد ابن مسلمة، اخذ العلم عن شيوخ ذوي معرفة بالعلم، حيث روى عن ابي الحجاج الاعلم الاديب، وكذلك اخذ عن ابي القاسم حاتم بن محمد الطرابلسي، وابي محمد علي بن احمد بن حزم الحافظ وغيرهم. وكانت له عناية بالعلم وسماعه وجمعه، ومعرفة بالأدب واللغة والخبر ومعاني الشعر. ومن يملك هذه المعرفة بعلوم الادب واللغة لابد وان يكون له تلاميذ يروون عنه علمه حيث يقول ابن بشكوال: «وقد اخذ عنه بعض شيوخنا، وجلة اصحابنا، فكان ذو جلالة ونباهة وصيانة»[2]

وعلى الرغم من ولادته في قرطبة فقد انتقل الى اشبيلية وسكن فيها واتصل بالمعتضد بن عباد (تولى الخلافة من سنة ٤٣٤ هـ - ٤٦٤ هـ) والّف له كتابه «حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح» واختص بالمعتضد ونادمه وتحيّز له لأملاك قديمة كانت له في بلده[3]، فعاش بفضله ولم يتدخل في شؤونه الا زيارات قليلة ومنادمة في بعض الايام. حتى جذبه اليه وغلبه مضطراً، ولم يزل ابو عامر يتخادع عن ذلك دفعا لشرّه وحفاظاً على بقية حياته حتى مات مستوراً بما له[4]. وابن خاقان يرى انه اطمأن الى المعتضد واغترّ بمداراته وأنس الى مؤانسته حتى اغتاله، ونلاحظ هنا بأن خاقان لم يبين كيف اغتاله المعتضد وذكر فقط ما نصه: «واختصّ بالمعتضد اختصاصا جرّعه رداه، وصرعه في مداه، فقد كان في المعتضد من حلم تحفظه الارواح وتهاونه باللوام في ذلك واللوّاح، فاطمأن اليه ابو عامر واغترّ، وأنس الى ما بَسَمَ من مؤانسته وافترّ، حتى امكنته في اغتياله فرصة، لم يعلق فيها حصة، ولم يطلق عليه الا انه زلّت به قَدَمُه فسقط في البحيرة وانكفى، ولم يُعلم به الا بعدما طفا، فأخرج وقد قضى، وأدرج منه في الكَفَن حُسام المجد منتضى»[5]

اما الحجاري فيشير الى موته برواية اخرى تختلف عن ابن خاقان وابن بسام حيث قال: «انه هاجر من قرطبة الى اشبيلية للمعتضد[6] ابن عباد، وندم لما رآه من استحالته، فداراه مدة حياته، واسألهُ كيف نجا!»[7]. وكانت وفاته يوم الثلاثاء السابع

عشر من صفر سنة احدى عشرة وخمسمائة وحمل الى اشبيلية فدفن بها.(٨)

وابن مسلمة من بيت علم وشرف ووزارة، حيث كان والده شاعراً(٩) وقومه من المتقدمين في الوزارة والادب، وجدهم ابان ابن عبيد مولى معاوية بن ابي سفيان.(١٠) وابو عامر كان بمنزلة الفص من الخاتم، فهو احد جهابذة الكلام وممن جمع بين النثر والنظم، وله مراسلات بينه وبين الادباء مثل ابي علي ادريس بن اليمان(١١) وابي جعفر ابن الأبّار(١٢)، حيث كان يعقد المجالس بداره، وكتابه حديقة الارتياح ذكر لما قيل في الراح والرياض والبساتين.(١٣)

سمات شعره:

تميز شعر ابن مسلمة بوصف الطبيعة، وعلى وجه الخصوص الازهار بانواعها من بهار وورد وخيري وبنفسج ونيلوفر وآس ونواوير، وذلك في مقطوعات صغيرة نادرا ما تصل الى ثمانية عشر بيتا، حيث يتعامل مع الزهرة، وكأنها حبيبة فيتغزل بها بشتى الاوصاف: يشتاق، يحب، يعاتب، يشكو الضنى، يصف الجمال، خاصة جمال العيون. كما يشبه الزهرة دائماً بانواع الاحجار الكريمة من زمرد، ياقوت، جواهر، فيروزج، ولازورد، وقد جمعتُ اغلب شعره الذي يحمل هذه الاوصاف من كتاب البديع في وصف الربيع حيث ضم مجموعة كبيرة من اشعاره في شتى اوصاف الورد الذي يزيّن فصل الربيع، وهو المصدر الذي انفرد بذكر هذا اللون من الشعر، فابن مسلمة يشترك مع غيره من شعراء الاندلس في هذا اللون من النظم الذي خلب لُبَّ الشخصية الاندلسية عندما تلتقي بالطبيعة وتواجهها فتراها سرعان ما تستجيب لها ملبية دعوتها الى الاستمتاع بما تزخر به من مفاتن، ويرى الدكتور احسان عباس ان هذه المقطعات الصغيرة في وصف صنوف الازهار (تمثل بطاقات) المهاداة بين الاصدقاء، وليس لديهم من غاية سوى طلب الصورة المبتكرة، ووجد الدكتور بدير متولي حميد ان هذا الاتجاه ضرب من التخصص خاصة حين يختار الشاعر زهرة واحدة لينظم فيها.(١٤)

ونجد ان اشعاره مكتوبة على شكل رسائل يبعثها الى الادباء في عدة ابيات من الشعر وفي وصف معين فيجيبه الاديب المرسل اليه بابيات في الوزن والقافية نفسها ليطري عليه وعلى ادبه ووصفه للورد، وكان ابن الابار احد الادباء الذين اكثر التراسل معهم، وتشبه هذه الرسائل المعارضات الشعرية التي ينظمها الادباء والتي تتفق فيها القصيدتان في البحر والروي والموضوع وتكون معارضة تامة ووافية.(١٥)

وكان ابن مسلمة يضمن شعره ووصفه للزهور مدح ابن عباد ذي الوزارتين القاضي اسماعيل علي ابن ايوب.(١٦)

ولغة ابن مسلمة واضحة وسهلة ومعبّرة وبعيدة عن المحسنات البديعية والتكلف.

وقد مدح ابو الوليد الحميري (صاحب كتاب البديع) ابن مسلمة بانه خبير بمعنى الظرف والادب، اي عالم بانواع الادب فقال:

« وكان كتب إليّ مع هذه القطعة بيتين وهما:

اسْئَلْ ابا عامرٍ عنه ابنَ مسلمةٍ
تَسْئلْ خبيرا بمعنى الظُّرف والادبِ
إن صار قومٌ الى قَصْفٍ على مهلٍ
طواهُمُ بخُطا التقريبِ والخَبَبِ(١٧)

كما مدحه الشاعر ابن زيدون(١٨) شاعر الاندلس المعروف حين ورد اشبيلية فنزل بدار الوزير ابي عامر بن مسلمة وهو يعقد مجلسا ادبيا بداره فصنع فيه ابياتا مدحه فيها ومدح مجلسه وتوصل الى مدح المعتضد، وفي مقطوعة اخرى يفضل ابن زيدون الشاعر ابن مسلمة على الورد والنرجس، وارى ان ذلك من مبالغات الشعراء التي يقصد بها المحاباة والاطراء.

قال ابن زيدون:

عُمِّرَ من يعمرُ ذا المجلسا
اطولَ عُمرٍ يبهج الانفسا
وبعد ذا عُوِّضَ من داره
عَدْناً ومن ديباجه السُّندسا
ولُقِّيَ النورَ بها والرضى
ووُقِّيَ الأسواء والأبؤسا
ودامَ عبّادٌ لعضد الهدى
يحرسُ حتى يفنيَ الأحرسا
معتضدٌ بالله إحسانُهُ
جمٌّ اذا ما الدهرُ يوماً أسا
الملكُ الغمرُ الندى المقتني
من كل حمدٍ علقَه الأنفسا
إن رام يوماً وصفَ عليائه
مفوّهٌ مقتدرٌ أُخرِسا

لا زالَ بدراً طالعاً نيّراً
يكشفُ عن آمالنا الحِنْدِسا

والمقطوعة الاخرى:
ابرزها فقد حَسُنَ المجلسُ
وقد آن ان تترع الأكؤسُ
ولا تنسَ انّ أوانَ الربيع
اذا لم تجدْ فقْده الانفسُ
فإن خلالَ ابي عامرٍ
بها يَحتقرُ الوردُ والنرجسُ[19]

شعره

(١)

- الهمزة -

قال ابو الوليد الحميري: ومن الفائت الفائق والرائع الرائق في وصْفه قطعةٌ خاطبني بها الوزيرُ ابو عامر بن مسلمة ويعث بها مطيّبا وهي: (الكامل)

(١) يا واجِدَ الأُدباءِ والشعراءِ
وابنَ الكرامِ السادَةِ النُجباءِ
(٢) اني بعثتَ مطيّباً نقْتهُ
من روضِ داري دارِكَ الغنّاءِ
(٣) من آسه لا زلتَ تأسو عاطِراً
وتبيدُ ما يَغْدُو من الاعداءِ
(٤) يحكي بطيبِ عَرفِه وبحسْنِه
خُلُقاً خليقاً مِنكَ بالاطْراءِ
(٥) هو كالسَّماء اذا بَدَتْ مُخْضَرّةً
لاحَتْ عليها انجُمُ الجوزاءِ
(٦) فاقبلْهُ مِن صَبِّ بحُبّكَ وُدُّهُ
الّا تزالَ اخا عُلاً وَعَلاءِ

(٢)

قال ابن بسام: نقلت من خطه قال: كتبت يوما بهذه الابيات إلى الاديبين ابي علي ادريس وابي جعفر بن الأبّار مستدعيا لهما:

(١) أيا شقيقي إخاءٍ
ويا قسيمَي صفاءٍ
(٢) ومن هما في ذوي الفهـ
ـم جوهرُ الادباءِ
(٣) تفضْلا وأجيبا
الى نديٍّ نداءِ
(٤) لتانسا بحديثٍ
وقهوةٍ وغناءِ

قال: فأجابني ادريس:
يا صنْوَ ماءِ السماء
في رقّةٍ وصفاءِ

ويا سراجَ ضياءٍ يجلو دجى الظلماءِ
بهرتَ سيما ذُكاءٍ[1] في بهجةٍ وذكاء
وحزتَ في العلياءِ قوادِمَ الجوزاءِ
يا حاتم الكرماءِ وأحمدَ الشعراءِ
بادهتنا بلآلٍ سواطعِ اللألاءِ
كروضُ حُسْنٍ كدرٌ على طلّ الحسناءِ
يقودُ في كلّ معنى معنى الغنى والغناءِ
وقد اجبنا الى ما دعوت من آلاء
[لا زال] نجمك اسمى من نجم كل سماء

(٣)

- الباء -

وخرج الى تلك الخميلة والربيع قد نشر رداه، ونثر على معاطف الغصون نداه، فأقام بها، وقال:

(١) وخميلةٍ رَقَمَ الزمانُ اديمَها
بمفضّضٍ ومفتّمٍ ومَشُوبِ
(٢) رشفتُ قُبَيلَ الصُبْحِ ريقَ غمامةٍ
رشْفَ المحُبّ مَراشِفَ المحبوبِ
(٣) وطردتُ في اكنافِها ملكَ الصِّبا
وقعدتُ واستوزرتُ كُلَّ اديبِ
(٤) وادرْتُ فيها اللهو حتّى مُدارِهِ
مع كلّ وضّاح الجبينِ حَسيبِ

(٤)

- الجيم -

ومن المعاني الجزلة في الكلمات العذبة ما انشدني لنفسه فيه ابو عامر بن مسلمة وكتب به الى ذي الوزارتين ابي ايوب بن عباد - ابقاه الله - في زمن البنفسج . وهو (مجتث):

(١) يا مَنْ تحلّ بـهِ الفخـ ... ـرُوالسـنـاءُ يُـتـوّجْ
(٢) ومَن بجُـودِ يَديـهِ ... بـابُ الغنا غـيْرُ مُرْتـج
(٣) ومَن بـطيـبِ ثـنـاهُ ... نـارُ الـعُـلا تـتـأجّـجْ
(٤) اذا انـتـشيْتَ فـعَـرّجْ ... عـلى رِيـاضِ البنفسج
(٥) تجِدْ به روضَ حُسْنٍ ... في ثـوْبِ ارضٍ مـدبّـجْ
(٦) فثمّ فـاعْكف وبـاكِرْ ... مُـدامـةً تـتـبـوهَـجْ
(٧) تـرى زمـرّدَ أرضٍ ... مِـنـهُ اليـواقيتُ تُـنْـتَـجْ
(٨) كـأنـهُ لُجّـةُ الـبـحْـ ... ـرِ غـاصَ فيهـا مُـلَجّـجْ
(٩) فـأخـرَجَ الـزّرقَ لكنْ ... بـغـيـرِهـا لم يُـعَـرّجْ
(١٠) حكى حُسـامَ أبي أيّـ ... ـوب الـمـتـضـرّج

(٥)

وقال:

(١) ومهفـهفٍ غضّ الشبـاب منعّـمٍ ... فـيـه أطـرْتُ الى الجِماحِ جناحي
(٢) قـد جـاء يسعى بـالـمدام فقلت لا ... اني هـجـرتُ تـعـاطيَ الأقـداحِ
(٣) لا تـسقني راحَ الكؤوسِ وسقّني ... سحـرَ العيون يَقُمْ مقامَ الـراحِ
(٤) فـأقـامَ لي مـن لحـظِهِ ورضـابـه ... راحـاً وقـام الخـدُّ بـالـتـفـاحِ
(٥) وضـلـلتُ في لـيـلٍ فـأبـدى غُـرّةً ... أغـنـتْ عـن المـصـبـاحِ والإصبـاحِ

(٦)

- الحاء -

وله ايضا فيه قطعة موصولة بمدح ذي الوزارتين القاضي أطال الله عمره، كما اطاب ذكره - وهي: (طويل):

(١) أرى في البَهـارِ النّـرجِسِيّ تـلألُؤا ... عيـونَ الـورى مشغـوفَـةً بـالتماجـهِ
(٢) كـأنّ الرياض الخضرَ صُغْنَ لباسَهُ ... بـشَـكْـلَيْنِ من مـاءِ الـغَـمـامِ وراجـهِ
(٣) او الـدهـر رداه سـروراً بشخصـه ... رداءيـنِ مـن إسْـفـارِهِ وصـبـاحِـهِ
(٤) فـحُـلّـتُـهُ في لَـوْنِهـا ذهـبِـيّـةٌ ... وفـضـيّـةُ الـنـاة عَـقْـدٍ وشـاحِـهِ
(٥) جـالُ بِـهِ حَـلُّ الـرّبـيـعُ غـرارَهُ ... ومـنـه كُـسـى لا شـكَّ نـور أقـاحـه
(٦) كما قد تحلُّ الدّهرُ من بعد عُطلةٍ ... بجُـودِ ابْنِ عبّـادٍ وفَضْـلِ سمـاحـهِ
(٧) بـه نـيلَتِ الآمـالُ في كـلّ بغْـيـةٍ ... ويُـوشـر بُـردُ الأمْنِ تحت جنـاحـهِ

(٧)

وقال الوزير ابو عامر بن مسلمة يصفه بأبدع واعرب وهو (رجز):

(١) وروضـةٍ محـفـوفَـةٍ ... بكُـلِّ حُـسْـنٍ مُـقْـتَـرَحْ
(٢) تجيرِيهـا بخـلْـقِـهِ ... عن كـلِّ نـوْرٍ مُـنْـتَـزَحْ
(٣) يكتُمُ أسْرارَ الهوى ... فـإن اتى الـلـيْـلِ يَـبُـحْ
(٤) مـغـتَـبِـقٌ لَـيْس يَـرى ... في دينِـهِ ان يصْـطَـبِـحْ

(٨)

ومن الصفات السنية المحكمة قول الوزير ابي عامر بن مسلمة وهو (خفيف):

(١) يـا نـديمي قـم اصْـطَـبِـحْ ... وعـلى الـعُـودِ فـاقْـتَـرِحْ
(٢) انمـا الـعَـيْـشُ بـالـشّـبـا ... بِ وبـالـنـايِ والـقَـدَحْ
(٣) وتـأمّـلْ حُـسْـنَ الـشّـقـا ... ئِـقِ تـنـشَـطْ الى المـدَحْ

(٤) مِثْلَ كأسِ العقيقِ في
قاعِهِ المِسْكُ يَلْتَمِعْ

(٩)

وكتب الوزير ابو عامر بن مسلمة الى ذي الوزارتين ابي عمرو عبّاد ـ اعزه الله وأحسن ذكره ـ في زمن الورد يصفه أحسنَ الوصف وابدع التشبيه انشدنيه وهو (رجز):

(١) عَبّادُ يا خَيْرَ الورى	ومن به تزهى المِدَحْ
(٢) يا قمرَ الأرض ومَنْ	علا سناءً ورَجَحْ
(٣) أما ترى الوَرْدَ وقدْ	رَنا بطَرْفٍ ولَمَحْ
(٤) كأنَّهُ دمٌ جَرَى	على حُلِيٍّ بيض وُضَحْ
(٥) او خَدُّ غَضٍّ عضَّهُ	لحظُ مُحِبٍّ فانْجَرَحْ
(٦) كأنَّما نسيمُهُ	عن خُلُقٍ مِنْكَ نَفَحْ

(١٠)
(الدال)

وله:
(١) حج الحجيج منىً ففازوا بالمنى
وتفرقت عن خيفه الأشهادُ
(٢) ولنا بوجهك حجة مبرورة
في كل يوم تنقضي وتعادُ

(١١)
(الراء)

قال الحميري بعد كلام: فجاوبه الوزير ابو عامر بن مسلمة بديهة بأبيات تشاكلها براعة وتشابهها براعة. وهي (بسيط):
(١) في النَّرجس الغضِّ شبهٌ لا خفاء به
للمتوسِّمين يُرى في طالع الزَّهَرِ
(٢) فصفرةُ الشمس قد ردتْه صُفرتَها
وقدُّ مُبيضِّهُ من صفحةِ القمرِ
(٣) كأنَّ ياقوتةً صفراءَ قد طُبِعتْ
في غُصنه حولَهُ ستٌّ من الدُّرَرِ
(٤) حُسْنٌ يَدُلُّ على إتقانِ صانِعِهِ
سُبحانه مبدِعِ الأخلاقِ والصُّوَرِ

(١٢)

وله فيه قطعة تُوازي هذه جمالاً وتُضاهيها كمالاً كتب بها الى أبي ـ وقاه الله بي ـ ويبعث معها بهارا مُبكّراً: (متقارب)
(١) أيا ماجداً لم يزلْ جُودُهُ
يلوحُ كما لاحَ ضَوْءُ النَّهارِ
(٢) ويا مَن أحلَّ بأمواله
سَماحاً أحلَّ بصوبِ القطارِ
(٣) بعثتُ إليك بِنَوْرِ البَهارِ
حكى فِضَّةً حولَ محضِ النُّضارِ
(٤) هو الدرّ نُظِّمَ مِن بَيْنِهِ
يواقيتُ فاقعةُ الاصفرارِ
(٥) او الماءُ صُيِّرَ مِن فوقه
اذا ما تأمَّلْتَهُ ضَوْءُ نارِ
(٦) نهارٌ ولكنَّهُ باهرٌ
فعُوِّضَ من ذاك باسمِ البَهارِ
(٧) كما بهرتْ مِنْكَ سِيما العُلَى
فألبستِ البدرَ ثوبَ السِّرارِ
(٨) بقيتَ ووُقِّيتَ صرفَ الرَّدَى
فإنَّكَ في كل أمرٍ مُداري

(١٣)

قال (ابن مسلمة): ويلغني ان ابن الابار صدَّ عنه يوما مر بهواه، وواصل سواه، فكتبت اليه:

(١) قد هَجَرَ الانسُ والسرورُ	إذ هجَر الشادنُ النَّفورُ
(٢) وغُيِّضَتْ غيضةُ التَّمنِّي	فطرفُ نوّارها حسيرُ
(٣) واقفرَ الرَّبْعُ بعد أُنسٍ	فعمرُ لهوِ الفتى قصيرُ

قال: فراجعني بهذه الابيات:

يا من تزدهي الدهور ... ومَن له تخضعُ البدورُ
ومن اذا احتلَّ في عُلاهُ ... فكلُّ جفنٍ به قريرُ
قد عُوتِبَ الشادِنُ الغريرُ ... فعادَ من وصلِهِ اليَسيرُ
ومَنَّ لي بالجواب تيهاً ... وهو بما قلتُهُ خبير
فافترَّ عن واضحٍ شنيب ... فيه لميتِ الهوى نشور
ثم تلاقت لنا عُيونٌ ... تخالفت تحتها الصدور
ترجَمَ بالثغرِ عن مَعانٍ ... ضَنَّ بإعلانها الضميرُ
ولم نزل نُعمِلُ الحميّا ... واللحظُ ما بيننا سفيرُ
مدامةٌ أفنتِ الليالي ... وارضعت ثديها الدهورُ
تخالُها في الكؤوس تِبراً ... وهي لشرّابها سرورُ
حتى اذا ما الصدودُ أودى. ... تناولتْ مَزْجَها الثغورُ
فاهنأ بما قد هَنا مُحِبٌّ ... خطرُك في نفسِهِ خطيرُ
كانَ لكَ اللهُ مِنْ وَلِيّ ... وَقَى به دَهرَنا الغرورُ
إن الورى اصبحوا أجاجاً ... وانكَ السائغُ النميرُ
لَطُفتَ ظرفاً وطبتَ حتى ... ترجَمَ عن خلقك العبيرُ
لا زلتَ بالفضلِ لي مَليّا ... فانني بالغِنا فقيرُ

(١٤)

وانشدني لنفسه فيه الوزير ابو عامر بن مسلمة ابياتا مطبوعة محكمة وهي: (بسيط)

(١) وسوسن راق مرآهُ ومَخبَرُهُ
وجلَّ في أعينِ النظّارِ مَنظَرُهُ
(٢) كأنه اكؤسِ البِلّور قد صُنِعت
مُسدَّساتٍ تعالى الله مُظهِرُهُ
(٣) وبينها ألسُنٌ قد طُرِّفتْ ذَهَباً
من بينِها قائمٌ بالمِلْكِ تُؤثِرُهُ
(٤) كأنهُ خَلْقُ مِيمٍ في تحقُّقِهِ
مِدادُهُ ذَوْبُ عِقْيانٍ يُعَصْفِرُهُ

(١٥)

وللوزير ابي عامر بن مسلمة ابيات محكمة في تفضيله انشدنيها موصولة بمدح ذي الوزارتين القاضي ـ ادام الله علوه وكبت عدوه ـ وهي: (رمل)

(١) أصفرُ الخِيريّ عندي ... ارفعُ الخيريّ قدرًا
(٢) فهوَ لا يمنع عَرْفا ... وهو لا يحميك عِطرا
(٣) مِثل لون الذهب الخا ... لِصِ لكن فاقَ نشْرا
(٤) وغدا يحكي اليواقيـ ... ـتَ إذا ما كُنَّ صُفْرا
(٥) مِثلُه استوجَبَ مِني ... ابداً شُكْراً وشُكْرا
(٦) مثل ما استوجَب قاضي الـ ... ـعدْلِ من ذا الخلْق شكرا
(٧) ملِكٌ غُرٌّ أياديـ ... ـه على الأسماعِ تُتْرا
(٨) ملكٌ ما زالَ يُوليـ ... ـنيَ تقريبا وبِرّا
(٩) قارضَ الله أياديـ ... ـه معطيلا منه عمرا

(١٦)

وله:

(١) ربُّ ليلٍ طال لا صُبْحَ لهُ ... ذي نجومٍ اقسمتْ ان لا تغورْ
(٢) قد هتكنا جُنْحَهُ من فَلَقٍ ... من خمورٍ ووجوهٍ كالبدور
(٣) إذ بَدَتْ تشبهها في كاسها ... نارُ ابراهيم في بردٍ ونورْ
(٤) صرعَتْنا إذ علونا ظهرها ... في ميادين التصابي والسرور
(٥) وكأنّا حينَ قمنا معشرٌ ... نُشِروا بعدَ ممَاتٍ من قبور

(١٧)

وللوزير ابي عامر بن مسلمة في وصف الجُلّنار(١) ابيات بديعة رفيعة المقدار وهي: (منسرح)

(١) وجُلّنارٍ بنَورِهِ يزْهَرْ ... اوراقُهُ فِتنَةٌ لِمَنْ ابْصَرْ
(٢) قد شَبَّهَ الورد في تضاعُفِهِ ... وقارب اللون حُلّةَ المُعصْفَرْ
(٣) مِثْلَ ثمارِ الرُّمانِ زاهِرَةً ... لكنّه منظرٌ بلا مَخبَرْ

قوله: منظر بلا مخبر اراد انه لا يعقد كما يعقدُ نَوْر الرُّمان(٢)

(١٨)

وانشد(*) له في المعتضد المذكور:

(١) أيا ملك الأملاكِ والسَّيِّدَ الذي
يسيرُ على سُبْلِ الرشادِ بمِقْبَاسِ
(٢) عهدتُك سَمْحَ الكف بالجود، كيف قد
بخِلْتَ بِشُرْكِ المجْدِ أجمَعَ للنّاسِ؟!

[١٩]
[السين]

وللوزير ابي عامر (بن مسلمة) ايضا قطعة بديهية سريّة كلها سنية قالها وبين يديه ثلاثة (*) انوار: خِيريّ وبنفسج وبهار وانشد: (كامل):

(١) وثلاثة لما اجتمعن بمجلسي
اقررن عينَ تنزُّهي وتأنُّسي
(٢) نمّامُ طيبٍ في بهارٍ باهرٍ
وبنفسجٍ أضحى حبيبَ الانفُسِ
(٣) فالسّبقُ منها للبهار لأنه
باتٍ ونَوْرُ الرّوْض لم يَتحسّسِ
(٤) ثُمَّ البنفسجُ فهْوَ يتلوه لنا
راقتْ ملاحته فاصبح مُؤنِسي
(٥) يحكي لنا المِسْكَ الفتيتَ بلوْنه
في ارضٍ عَنبرةٍ كلون السُّندسِ
(٦) والخير في الخيري إلا أنه
يُخفي النسيمَ نهاره بالمجلسِ
(٧) ويُذيعه بالليلِ فهْو بفعْله
وبِصُنْعِه هذا صديقُ الجِنْدِسِ
(٨) فاقت نواويرُ الرياض تلوُّناً
فغدتْ لها مثلَ النجومِ الكُنّسِ

(٢٠)

وكتب الوزير ابو عامر بن مسلمة وبين يديه ورد وسُوسان ونَيلوفر الى صاحب الشرطة ابي بكر بن القوطية يسئله وصْفَها وشرط في رغبته ان يكون اول الشعر: (كامل).

وثلثة لما اجتمعن بمجلس(١) نبّهْنَ مِنّي هِمّةً لم تنعُسِ

(٢١)
(الضاد)

وانشدني لنفسه الوزير ابو عامر بن مسلمة قطعة يصف فيها البهار والبنفسج بأوصاف غريبة ويشبهها بتشبيهات عجيبة. (كامل)

(١) قَدِم البهارُ مع البنفسج
فاشرَبَنْ عليهما بين الرياض الغضَّة
(٢) هذا كمعشوق وعاشقه وذا
مثلُ الحزين دموعُه مُرْفَضَّة
(٣) وترى البهار كأنه ياقوتة
صفراءُ تحملها أكُفُّ بَضّة
(٤) قد سُترت خلْرَ الرقيب معاصماً
بمطارفٍ خُضْرٍ وابدت فِضّة
(٥) وجرى النُضار بها فحسُن خلقَها
كمثال ممشوق تشكّى مَرْضَة
(٦) وكأن ذاك بخدّها وبنحرها
عند العِيانِ لنا بقايا عضّة

قوله: كأن ذاك اشار الى البنفسج اذ بعُد ذِكْرُهُ لاشتغاله بوصف البهار.

(٢٢)
(الظاء)

وكتب ابو جعفر بن الابار الى الوزير ابي عامر ابن مسلمة في زمن الربيع يصف الورد ويحضّه على ايثار الأنس وجلاء صدإ النفس فاحسن إحسانا يقرب على متأمّليه ويبعد على متناوليه ووصف الورد بعد صدر متقدم من الشعر: (كامل):
فجاوبه الوزير ابو عامر بن مسلمة بأبيات بديعة الصفات نزيعة(١) الكلمات وهي (كامل):

(١) يا واحدَ الادباءِ غيرَ مدافَعٍ
ومن اغتدى في الفَهم ناراً تلتظي
(٢) وافاني النَّيِّرُ البديعُ نظامُهُ
فأزاح عنّي كل أمرٍ مُحفِظِ
(٣) فخراً لورد الروض إذ حاز المدى
ببدائعٍ من ذهنك المُتَيقِّظِ
(٤) الورد عندي في الخدودِ نفاسةً
ورياسةً منها بُقَبّل او يُلْحَظِ
(٥) هو آخر وله التقدُّم أوّلاً
كم آخِرٍ قد حاز مفخرَ مَن حظي
(٦) وقد اعتمدتُ على الّذي خبّرته
في نظمك الزاري بلفظ اللفظ

(٧) وفضفضتُها صفراءُ يُعشي ضوءُها
حدَقَ العيونِ الرّانياتِ اللحْظِ

(٢٣)

(العين)

وانشدني لنفسه فيه[1] الوزير ابو عامر بن مسلمة قطعة غريبة التشبيهات عجيبة الصفات وهي (بسيط مخلّع):

(١) قد جاءَنا رائِدُ الرّبيعِ   بمنظرٍ رائقٍ بَديعِ
(٢) هو البَهارُ الذي تعلّى   وجلّ في حُسنِهِ الرّفيعِ
(٣) كأنّهُ مُقْلَةٌ تشكّى   الى الحياقِلَةَ الهجوعِ
(٤) أكُفُّ كافورةٍ قد اوْمَتْ   بكاسِ تِبْرٍ الى الرّبيعِ
(٥) او شُعلة النّارِ وسْطَ ماءٍ   جُسّدَ من ثُوبه النّصوعِ

(٢٤)

وانشدني لنفسه فيه[1] الوزير ابو عامر بن مسلمة ابياتا رائقة تضمنت اوصافا رائعة موصولة بمدح الحاجب: (سريع):

(١) يا حَبّذا النّيلوفَرُ الطّالِعُ   ومجتلاهُ الناضِرُ الناصِعُ
(٢) كأنّهُ مَخزَنةٌ من مَهاً   في وَسطِها زُمُرُّذٌ ساطِعُ
(٣) وحَوْلَهُ ألسِنَةٌ بِتّةٌ   من فِضّةٍ أتْقَنَها صانِعُ
(٤) كلّ لِسانٍ أبيضَ ناصِعٌ   والطَّرْفُ مِنْهُ اصفرٌ فاقِعُ
(٥) قامَ على خضراءَ مِنْ سُوقِهِ   فكلُّ إبريقٍ لَهُ راكِعُ
(٦) ركُوعَ أمْلاكِ الورى للذي   نداهُ دان والحيا شابِعُ
(٧) ذاكَ ابنُ عبّادٍ سليلُ العُلى   الحاجبُ المرتَفِعُ الرّافِعُ
(٨) دامَ دوام الدّهرِ في عِزّةٍ   تَبقى ويبقى الحاسِدُ الخاضِعُ

(٢٥)

وللوزير ابي عامر بن مسلمة فيه[1] ابيات حسنة السبك جيدة الحبك وهي: (سريع)

(١) يا زَهَرَ اللّوْزِ لقدْ فُقْتَ في الـ
إحْسانِ والحُسنِ فأنتَ البديعْ
(٢) قد حُزْتَ حُسْنَين وحازت نوا
وير الرُّبى حُسْناً فأنتَ الرفيعْ
(٣) تَعْلُو بهارَ الرّوض حُسْناً فقَدْ
اصبحتَ مخصوصاً بحُب الربيعْ
(٤) قد أمّكَ الوُصّافُ إذ شَبّهُوا
غيرك بالخدّ وجارَ الجميعْ
(٥) ...... كالمشرَب في حُمّرَة
مَنْ بَرّهُ اصبحَ لا يستطيعْ
(٦) ...... قلتُ اذا عايَنوا
جمالَكَ النّورَيْنِ عندَ الطُّلُوعْ
(٧) ...... النّواوِيرَ اغْتِلاءً فما
في زَهْرِها غيْرُ سميع مُطيعْ

(٢٦)

وقال الوزير ابو عامر بن مسلمة يصفه[1] بوصف ابدع فيه واغرب وأنبأ عن حذقه واعرب، انشدنيه موصولا بوصف الحاجب - ادام الله عزّه ووصل حرزه - وهو (سريع)

(١) أهلاً وسهلاً بوفود الربيع
وثغرِهِ البسّام عند الطلوع
(٢) كأنما انواره حُلّة
من وشي صنعاءَ السّريّ الرفيعْ
(٣) اخْبِبْ به من زائرٍ زاهرٍ
دعا الى اللّهوِ فكُنتُ السميعْ
(٤) بثّ على الارض درانيكَهُ
فكل ما تُبْصِرِ منها بديع
(٥) كأنما الحاجب ذو المَنّ والـ
إحسان اسماعيل مولى الجميع
(٦) اهدى إليه طِيبَ أخلاقه
فنحنُ منها دَهْرَنا في ربيع
(٧) لا زال يبقى سالماً مادعت
قُمْرِيَّةٌ في فَنَنٍ ذي فروعْ

وللوزير ابي عامر بن مسلمة قطعة بديعة مطبوعة اشار فيها الى تفضيل البهار على النرجس وهي: (مجتث):

(١) ونرجسٍ هبَّ يزنو بمقلةٍ ليس تطرفْ
(٢) مثلَ النجوم تساقطْ تن في رداءٍ مفوَّفْ
(٣) يحكي البهارَ ولكنْ بهارُنا منهُ اصلفْ
(٤) لهُ فضيلةُ سبْقٍ لغيرهِ ليس تُعرفْ
(٥) فمجْ عليهِ فدتكَ الـ نفوسُ واشربْ لتطرُفْ

(٢٨)
(القاف)

فمن بديعها ورفيعها[1] قول الوزير ابي عامر بن مسلمة وهو (متقارب)

(١) ألا حبذا السوسن الأزرقُ
ويا حبذا حُسنُهُ المونقُ
(٢) حكى لونُهُ لونَ فيروزجٍ
جرى وسطَهُ ذهبٌ مشرقُ

(٢٩)
(الكاف)

وللوزير ابي عامر بن مسلمة فيه[1] وصف رائق وتشبيه وصله بمدح ذي الوزارتين المذكور - اعزّه الله واسبغ عليه نعماه - وهو (رمل):

(١) وذكيُّ العرفِ لاقا نا على كرسيِّ ملْكِه
(٢) أرضُهُ الخضراءُ بحرٌ نورُهُ فيه كفُلْكِه
(٣) ياسمينٌ قد غدَتْ أن جوارُنا طوعاً لِمُلْكِه
(٤) طوّعَ حرّ الشعر عبدا وقد اومي لِسِلْكِه
(٥) ماجدٌ ينقادُ منهُ الـ ادبُ الغض لِمُلْكِه
(٦) مالهُ يوقنُ منهُ ومناويهِ بِهُلْكِه

(٣٠)
(الميم)

(١) واني لاهواهُ وأبغي اكتتامَهُ
وتأبى امارات اللقاء تكتُّما
(٢) لسانيَ في حكمي ولكنْ مُقْلَتي
ولونيَ ما إن يقبلانِ تحكُّما

(٣١)
(النون)

قال الوزير ابو عامر، وبعث اليَّ ابو الاصبغ بن عبد العزيز[1] باكورَ بهارٍ وكتب معها:

(١) وبهارٍ المُّ قبل الأوانِ
في بهاءٍ يروقُ رأيَ العيانِ
(٢) أمكن القطفَ في مدى شهر تشريـ
ـنَ على غير عادةِ الإمكانِ
(٣) سبقَ الزهرَ في الفضائلِ طراً
وكسا بالجمالِ فضلَ الزمانِ

قال: فأجبته:

(١) يا إماماً في السبقِ يومَ الرهان كل حين يؤمُّني بالأماني
(٢) وصل النرجسُ المبكرُ يحكي سُبْقَ عبادِ المليكِ اليماني
(٣) يا بهارَ الرياضِ أنت بهارٌ باهر الانوار والريحانِ

(٣٢)

قال ابن مسلمة: وكتب اليَّ ابن الابار ايضا بهذه الابيات:

(١) يا مُفصِحَ الكفِّ واللسانِ بالطولِ طوراً وبالبيانِ
(٢) عنديَ مَنْ عنده فؤادي ومن تجنّبه قد براني
(٣) أظنّها نومَةً لقردي او غفلةَ الخيرِّ من زماني
(٤) وليس سرُّ السرور الأ ضرَّةَ أخلاقِكَ الحسانِ

قال فأجبته:

(١) يا مالكَ السحرِ والبيانِ وناظم الدرّ والجمانِ

(٢) اكرمْ بمولىً أجاب عبدا — فـأقبل الـدهـر بـالأمـان
(٣) وانتزحتْ دولةُ التنائي — واقتربتْ دولـة الـتـداني
(٤) وكلُّ شيءٍ يكونُ عندي — ملكُكَ يا ناظر الـزمـانِ
(٥) وقد بعثت المدام تحكي — جزءاً من اخلاقِكَ الحسان

(٣٣)

قال الوزير ابو عامر: وكتبتُ الى ابن الابار يوماً بهذه الابيات:

(١) قل لأبي جعفرِ المنتقى
من سرِّ قحطانٍ وخولانِ
(٢) انظرْ الى الظبي الأنيقِ الذي
يختالُ في أبرادِ إحسان
(٣) كأنما مقلتُهُ بابلٌ
حُفَّتْ بسحرِ الإنسِ والجانِ
(٤) كأنما شاربُهُ بهجةً
زمردٌ من فوقِ مرجانِ
(٥) كأنما اردافُه عالجٌ
وقدُّهُ غصنٌ من البانِ

قال: فأجابني بابيات منها قوله:

وابأبي ذاكَ الغزال الذي — يجولُ في سرٍّ واعلانِ
مقرطقٌ يبسمُ عن لؤلؤ — رَصَّعَهُ الحسنُ بمرجان
أفديه من احورَ أجفانُهُ — نامَتْ لكي تُسهرَ اجفاني
لما بدا لي جيدُهُ مُتلعا — قلتُ لمن قد ظلَّ يلحاني
لا فزتُ منه بجميع المنى — ان كان هذا عند رضوان
من اين للظبي كأجفانِهِ — او مثلِ ذاكَ الخوطِ للبانِ

(٣٤)

وللوزير ابي عامر (بن مسلمة) ايضا قطعة في جملة من النواوير وعدة من الازاهير ابدع من المتقدِّمة على ان لا ابدعَ، وارفعُ منها على ان لا ارفعَ، تضمنت من التشبيهات غريبها، ومن الصفات عجيبها انشدنيها موصولة بمدح ذي الوزارتين القاضي - وصل الله حُرمته وادام عزّته - وهي: (رجز):

(١) وروضةٍ مُشْرِقةٍ — بكلِّ نَوْرٍ مُجتبى
(٢) فيها بهارٌ باهرٌ — ونرجس يشكو الضنى
(٣) وياسمينٍ ارضُه — ونَوْره تلوَّنا
(٤) كالليل مخضراً ولـ — كن بالنجوم زُيِّنا
(٥) فاجتنِ ورداً وارداً — وسوسَناً مُلَسَّنا
(٦) وحوله نيلوفرٌ — فِتنةُ رانٍ ان رَنا
(٧) تخالُهُ مضاربا — من المَها ترُوقُنا
(٨) والآسُ آسٍ كاسِيهِ — بنَوْره قد حُسِّنا
(٩) تنويرُهُ جواهرٌ — من غير بحرٍ تُقتنى
(١٠) وحبُّه من سَبَجٍ — او سُندُس قد لُوِّنا
(١١) وقد بدا فيها البنفسـ — جُ الندي الغضُّ الجنى
(١٢) وأرضُه مطارفٌ — خضر أتتنا بالمُنى
(١٣) طابت بطيب ماجدٍ — فاق سَناءً وسَنا
(١٤) ذاك ابن عبّاد عما — دي وسراجي في الدُّنا
(١٥) فهو يُشير الحقَّ والـ — عَدْلَ ويُحيي السُّنَنا
(١٦) ونَوره بِسك نَبيـ — تُ حُسنه يُفتِنُنا
(١٧) قاضٍ بنشرِ عَدْله — طابت لنا أزمُنُنا
(١٨) لا زال يبقى ما علا — قُمريُّ أيكٍ فَنَنا

(٣٥)

قال ابو الوليد: انشدني لنفسه فيه(١) الوزير ابو عامر بن مسلمة بيتين بديعين في التمثيل، رفيعين في التشبيه وهما: (سريع):

(١) واقحوانٍ راقني نَورُهُ — إذ ظلَّ يرنو بعيونٍ حسانْ
(٢) كأنه مُدهُنةٌ من مهاً — محكمةٌ في وَسطها زعفرانْ

(٣٦)

(الياء)

وله في وصف مشروب زبيب:

(١) مُزَّةٌ ماتت زمانا — بحجابٍ يحتويها

(٢) لَبِثَتْ في بطن امّ … غَيَّبَتْها عن بنيها
(٣) أَخَذَتْها الشمسَ دهرا … ثم عاد الروحُ فيها
(٤) كان ماء المزن عيسى … إذ وضعناه بفيها
(٥) فانبرى منها سراجٌ … رائقٌ مَنْ يجتليها
(٦) وبدتْ منها شموسٌ … غَرَبَتْ في مُطْلِعيها
(٧) غَرَبَتْ البابُنا إذ … غَرَبَتْ في شاربيها

والمصحفي قبله القائل:

ولما تولى بابنة الكرم جائرٌ … عليها فاصلاها بزعمكم الشمسا
ولم يبقَ من جُثمانها غيرُ جلدها … غدت للّذي تحويه من روحها رَمْسا
وصلتْ بها الماءَ القراحَ محافظاً … فراحَ لها جسماً وراحتْ له نفسا

وذكر الوزير ابو عامر انه ما رآه ولا نظر اليه، ولا اعتمد عليه، ولا قصده ولو سمعه لما اورده.

شعر منسوب اليه

وقال ابو اسحاق ابراهيم بن خيرة الصباغ مما أنشده له ابو عامر ابن مسلمة في كتاب « حديقة الارتياح »

يومٌ كأن سحابه … لبست عماني المصامت
حُجِبتْ به شمس الضحى … بمثالِ أجنحة الفواختْ
فالغيثُ يبكي فَقْدَها … والبرقُ يضحكُ مثلَ شامتْ
والرعدُ يخطبُ مُفْصحاً … والجوُّ كالمحزون ساكتْ
والروض يسقيه الحيا … والنَّوْرُ ينظرُ مثل باهتْ
فاشربْ ولُذْ بجنّةٍ … واطْرَبْ فإنَّ العمرَ فائتْ

هوامش المقدمة

(١) الصلة لابن بشكوال ت: ٥٧٨ هـ، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦ م ص ٢ / ٥٧١.
(٢) المصدر نفسه
(٣) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة لابن بسام تح: د. احسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٨ م، ص ٢ / ١ / ١٠٥.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) مطمح الانفس في ملح أهل الاندلس لابن خاقان، تح: هدى شوكة بهنام، مجلة المورد، ق١، م ١٠ / ع ٢، س ١٩٨١ ص ١٧١.
(٦) تولى الخلافة من سنة ٤٣٤ هـ الى سنة ٤٦٤ هـ.
(٧) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي تح: د. شوقي ضيف، دار المعارف ١٩٦٤ م، ١ / ٩٦ - ٩٧.
(٨) الصلة ٢ / ٥٧١.
(٩) البديع في وصف الربيع لابي الوليد الحميري، نشره هنري بيريس، الرباط، المطبعة الاقتصادية ١٢١ - ١٢٢. ،ونشره د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان، مطبعة المدني.
(١٠) المغرب ١ / ٩٦ - ٩٧.
(١١) ادريس بن اليمان، ابو علي: شاعر جليل عالم، يتجنب الملوك ليغّق عليهم ذكره ابو عامر بن شهيد فنسبه الى بلده فقال: اليابسي وينسبه آخرون فيقولون الشبيني لان الغالب على بلده شجرة الشين وشجرة الصنوبر وشعره كثير مجموع (جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس لابي عبد الله الحميدي، القاهرة، الدار المصرية، ١٩٦٦، ١٧٠).
(١٢) ابو جعفر بن الابار: احمد بن محمد الخولاني المعروف بابن الابار ابو جعفر شاعر من شعراء اشبيلية كثير الشعر، ذكره الحميدي وقال كان حيا في حدود الثلاثين واربعمائة. (الجذوة ١١٥، بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس، لاحمد بن يحيى الضبي، مجريط، مطبعة روخس ١٨٨٤ م، ١٧٠) (١٣) البغية ٨٠
(١٤) د. منجد مصطفى بهجت: الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط غرناطة ٩٢ - ٨٩٧ هـ جامعة الموصل، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ١٩٨٨ م، ٢٩٠ - ٢٩١.
(١٥) المصدر السابق ٢٧٥
(١٦) ذو الوزارتين القاضي اسماعيل علي بن ايوب: عباد بن محمد بن اسماعيل ابو عمرو الملقب بالمعتضد بالله صاحب اشبيلية كان في ايام ابيه يقود جيشه لقتال بني الافطس وتولى الامر بعد وفاته سنة (٤٣٣ هـ) فلقب كابيه بالحاجب كان شجاعا حازما بمنت يلسد الملوك طمح الى الاستيلاء على جزيرة الاندلس فدان له اكثر ملوكها واستولى على غربها، طالت مدته ونفقت بضاعة الادب في عصره، وكان يطرب للشعر ويقوله، وقد جمع له ديوان في نحو ستين ورقة توفي باشبيلية سنة ٤٦١ هـ، ومولده كان سنة ٤٠٤ هـ (وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان لابي العباس شمس الدين بن خلكان، تح د. احسان عباس بيروت، دار الثقافة ١٩٧١، ٢ / ٢٨)
(١٧) البديع ١١٨.
(١٨) توفي سنة ٤٦٣ هـ.
(١٩) نفح الطيب ٣ / ٢٧٣

هوامش الشعر

(١)

(٢) بعثت: في الاصل (بتشديد التاء)
تك: في الاصل (تَكَّكَ). دارك الصواب قوله دارَكَ اي (تَكَّةٌ دارُكِ) وكسر الراء لاستقامة القافية باعتباران الفناء صفة للدار ويجب كسرها لان المقطوعة مكسورة. او ان يقول (تَكُّه... لدارك) وهنا لا يستقيم الوزن
(٣) تأسو: تعزى اي ان عطر الآس يبعد عنك الاحزان ويسليك.
التخريج: البديع في وصف الربيع ص ٨٧

(٢)

(١) ذكاء: الشمس
التخريج: الذخيرة ٢ / ١ / ١٠٦ - ١٠٧.

(٣)

(١) اديم مفضض: الاديم: وجه الارض، اديم مفضض اي ان الخميلة من اثمارها مفضضة ومقسمة ومفوفة. والرّقم: الكتابة والرقمة: جانب الوادي وقيل: الروضة، ولعل المقصود: ان الخميلة مكتوبة بالاثمار التي تلمع وتضيء كلمعان الفضة ومقسمة بانواع الاثمار والازهار وما تختلط به من الوان هذه الازهار.
التخريج: مطمح الانفس (مجلة المورد م ١٠ / ع ٢ / ١٩٨٢ ص ١٧٢ القسم الاول من المطمح)

(٤)

(٨) ملجج، لجة البحر، معظم البحر من لجة الماء: معظمه اي غطس في معظم الماء. والقصيدة في وصف اليضج.
التخريج: البديع ١٠٥ - ١٠٦

(٥)

(١) الجماح: الاسراع
التخريج: الذخيرة ٢ / ١ / ١٠٩

(٦)

(١) البهار: بالفتح العَرار الذي يقال له عين البَقر وهو بهار البرّ وهو نبت جعد له فقاحة صفراء تنبت ايام الربيع يقال لها عرارة والعرار هو بهار البر وهو طيب الريح الواحدة عرارة.
التخريج: البديع ١٠٣

(٧)

(٤) الغبوق: الشرب بالعشي وقد غبقه من باب نصر فاغتبق هو.
التخريج: البديع ١١١

(٨)

(٢) وبالنأي: في الاصل وبالنأي، والنأي: البُعد
(٤) شبه قطرات الشراب المتراقصة في الكأس بفصوص العقيق وهو نوع من الحجر الثمين.
التخريج: البديع ١٥٢

(٩)

التخريج: البديع ١٢٣

(١٠)

التخريج: الجذوة ٦٦، البغية ٨١

وقد وردت القطعة في المطمح ص ١٧١ مجلة المورد ١ / م ١٠ / ع ٢ / س ١٩٨١
البيت الثاني: في الجذوة والبغية (القتضي)

(١١)

(٢) رفته: اي ردّت عليه صفرتها او البسه صَفرتها

التخريج: البديع ١٠٣

(١٢)

(٧) السرار، سَرَرُ الشهر آخر ليلة منه، وهو مشتق من قولهم استسرّ القمر اي خفي ليلة السِّرار فربما كان ليلتين اي اخفت معالمه القمر.
التخريج: البديع ١٠١ - ١٠٢

(١٣)

(١) الشادن: شدن الغزال فهو شادن اذا قوي وطلع قرناه واستغنى عن امه.
التخريج: الذخيرة ٢ / ١ / ١٠٩ - ١١١.

(١٤)

(٤) العقيان: الذهب الخالص قيل وهو: ما ينبت نباتا وليس مما يحصّل من الحجارة.
خلق ميم في تعطفه: اي ان ورد السوسن مدور ومعطوف مثل حرف الميم (م) فهو يشبه هذا الحرف في ميلانه.
التخريج: الجذوة ٦٥ - ٦٦، البغية ٨٠ - ٨١ وردت القطعة بثلاثة ابيات فقط البديع ١٣٤ بأربعة ابيات.
البغية: البيت الاول (الناظر منظره)
البيت الثاني (قد وضعت... تعلى الله)
البيت الثالث (قد طرقت.. قايم)
وردت الابيات الثلاثة الاولى في المطمح (مجلة المورد م ١٠ / ع ٢ / ١٧١
البيت الثالث (قد طرقت)

(١٥)

(٧) فترا: ترى يترى كرمى تراخى واترى عمل اعمالا متواترة بين كل عملين فترة.
التخريج: البديع ٨٣

(١٦)

التخريج: نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، لشهاب الدين احمد بن محمد المقري، تح د. احسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨ م، ٣ / ٤٨٥.

(١٧)

(١) الجلنار: بضم الجيم وفتح اللام المشددة زهر الرمان معرّب كلنار ويقال من ابتلع ثلاث حبات منه من اصغر ما يكون لم يرمد في تلك السنة.
(٢) هذا الشرح ورد بعد المقطوعة في كتاب البديع.
التخريج: البديع ١٥٩ - ١٦٠

(١٨)

(١) مقباس: القَبَس بفتحتين - شعلة من نار وكذا المقباس وقبس منه نارا.
(٥) انشد الحجاري هذه المقطوعة.
التخريج: المغرب ١ / ٩٧

(١٩)

(٥) في البديع: ثلثة.
(٥) القنيت: المتكسر القت
(٧) الحِنْبِس: بالكسر الليل المظلم والظلمة ج حنابس
(٨) الكنّس: الكواكب لانها تكنِس في المغيب اي تستتر.
التخريج: البديع ٣٩ - ٤٠.

(٢٠)

(١) (في هامش الصفحة) هذا المصراع لابن هانىء الاندلسي. راجع الكتاب نفسه ورقة ١٧ و) البديع ص ٣٣ (ورقة ١٧ و) ولابي القاسم بن هانىء قطعة بديعية سريّة كلها سنيّة يصف فيها الورد والياسمين والنرجس صنعها في مجلس جعفر بن الاندلسية وقيل في مجلس جعفر بن فلاح. وهي: (كامل)[1]

وثلاثة لم تجتمع في مجلس   الا لمثلك والاديب أريبُ ؛

(وفي هامش الصفحة: توجد هذه القطعة دون البيت الثالث في ديوان ابن هانىء الاندلسي ط. مصر للدكتور زاهد علي ص ١١٩).
التخريج: البديع ٣٦

(٢١)

(٤) المطارف: جمع مطرف بضم الميم وكسرها، وهي اردية من خز مربعة لها اعلام وأصله الضم.
التخريج: البديع ٣٧ - ٣٨.

(٢٢)

(١) في الاصل: بزبعة، ولعلها بريقة اي بُراقة
التخريج: البديع ١٢٦ - ١٢٧.

(٢٣)

(١) ويقصد بذلك البهار
التخريج: البديع ١٠١

(٢٤)

(١) يقصد النيلوفر
(٢) في الاصل (حزنةً من مهى)، والحزنة: من الحَزْن: ما غلظ من الارض والمها: البقرة الوحشية.
التخريج: البديع ١٤٣ - ١٤٤.

(٢٥)

(١) يقصد نور اللوز
(٥ ، ٦ ، ٧) النقاط الموضوعة اشارة الى بياض في الاصل.
التخريج: البديع ١٤٨.

(٢٦)

(١) يقصد الربيع
التخريج: البديع ١٦، ووردت الابيات الثلاثة الاولى في المغرب ١ / ٩٧ نقلا عن الذخيرة بأنها مما انشدها ابن بسام لابن مسلمة.
البيت الثاني (كأنما ازهاره)
البيت الثالث (الى الأنس)
وفي الذخيرة ٢ / ١ / ١١١ وردت الابيات الاربعة الاولى برواية البديع.

(٢٧)

(٢) بُرْد مفوّف: فيه خطوط بيض، وبرد مفوف ايضا: رقيق
التخريج: البديع ٨٢

(٢٨)

(١) يقصد بديعها ورفيعها: اي بديع الاوصاف ورفيعها في زهر الخُرّم
التخريج: البديع ١٣٩

(٢٩)

(١) يقصد الياسمين

(٣) في الاصل: (بلّيكة)
التخريج: البديع ٩٢

(٣٠)

التخريج: المغرب ١ / ٩٧

(٣١)

(١) ابو الاصبغ بن عبد العزيز الوزير: اديب شاعر ذكره ابو عامر بن مسلمة وذكر انه كتب اليه مع ورد موجز في يوم ريح ومطر، مطلعها: ولما رأى البين ثكل البهار على الورد والنيم المسعدات (البغية ٢ ٥٠٢).
التخريج: الذخيرة ٢ / ١ / ١٠٧.

(٣٢)

التخريج: الذخيرة ٢ / ١ / ١١٢

(٣٣)

(٥) عالج: عالِجٌ: موضع بالبادية فيه رمل والعالج بعير يرعاه.
التخريج: الذخيرة ٢ / ١ / ١١١، مخطوطة لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة لاسعد بن مماتي ورقة ٢٣. ورد البيتان الرابع والخامس في هذه المخطوطة مع اختلاف في رواية من البيت الرابع اذ ورد على الصورة التالية

(كأنما شاديه بهجَةٌ   زمردٌ من فوق مرجان

والمخطوطة من مصورات المجمع العلمي العراقي رقمها (٢٦٣٦)

(٣٤)

(٨) الآس: شجر
(١٠) السبج: الخرز الاسود
(١٤) سراجي: من السراج: المصباح
(١٨) الايك: الشجر الكثير الملتف الواحدة: ايكة
والفَنَن: الغصن جمعه الافنان ثم الافانين
والقمري: منسوب الى طير قُمْرٍ بوزن حُمْرٍ جمع أقمر وهو الابيض.
التخريج: البديع ٣٨ - ٣٩.

(٣٥)

(١) يقصد: الاقحوان
(٢) اللُّدْغة: نقرة في الجبل يستنقع فيها الماء
مها: في الاصل (مهىً)
التخريج: البديع ١٤٩

(٣٦)

(١) المزة: الشراب المزء ورمان مزٌّ: بين الحلو والحامض.
التخريج: الذخيرة ٢ / ١ / ١٠٨ - ١٠٩.

شعر منسوب اليه

التخريج: نفح الطيب ٣ / ٤٨٥، المغرب ١ / ٢٦٥ وقد وردت خمسة ابيات بالرواية التالية: الاول: همامي، الذخيرة ٢ / ١ / ٢١٠، وقد وردت احدى عشر بيتا برواية مختلفة الاول: همامي، الثاني: كمثال، السادس: فاطرب ولذّ بحسه واشرب وفي المغرب انه من الشعراء المتصدين من اشبيلية.
اما في المطمح (١٧١ - ١٧٢ / ع ٢ / م ١٠ / ١٩٨١ من مجلة المورد) فقد نسبها الى ابن مسلمة واورد منها اربعة ابيات فقط وكذلك في جذوة المقتبس ١٥٤. برواية مختلفة وكذلك في سرور النفس بمدارك الحواس الخمس لابي العباس التيفاشي، تحقيق د. احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ص ٢٦١، فقد وردت اربعة ابيات منسوبة الى ابن مسلمة برواية مختلفة.

كشاف المواد اللغوية
في معجم العين

اعداد

عبدالعزيز ابراهيم

الديوانية / حيّ الجزائر

تقديم :

إن صنعة أول معجم في أية لغة من اللغات على نحو وترتيب جديدين لاسابق لهما لهو من أعمال الصفوة العباقرة الخالدين[1] . والخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ - ١٧٥ هـ) هو واحد من هؤلاء والذي صنع العين .

قال عنه الاستاذ أحمد أمين[2] : اول من فكر في هذا الموضوع في اللغة العربية الخليل بن أحمد ، فكّر أن يجتمع كل ماعرف من ألفاظ العرب في كتاب مرتب .

ولم يكن عمل الخليل سهلاً يسيراً بل كان عظيماً تمثلت فيه ملكة الابداع وعبّر فيه عن احساسه باللغة في ألفاظها ودلالاتها ماجعله يصنّف هذا المعجم العظيم تصنيفاً صوتياً حسب مخارج الحروف ونطقها في العربية ، هذه العناية بالأصوات والذوق مستمدة من شدة إلفه للعربية فاستطاع أن يهتدي إلى ماهو صحيح من العربية وماهو دخيل عليها[3] .

وقد سلك الخليل طريقة في جمع مادته إعتمدت على[1] :

١ - جمع اللغة عن طريق الرواية والسماع عن فصحاء العرب والوافدين والأخذ عن شيوخه كأبي الخطاب الأخفش وأبي عمرو بن العلاء . .

٢ - احصاء اللغة إحصاءً رياضياً يشمل ما استعمل وما أهمل وان كان لم يذكر في كتاب العين إلا ماكان مستعملاً .

٣ - تصنيف الكلمات بحسب اصولها وقد وجد أنها ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية . .

٤ - النظر في كل طائفة على حدة ، نظر في الثنائيات فوجدها تتصرف على وجهين يتأتيان من صورتها الأصلية ومقلوبها . . الخ .

لقد سمّى الخليل كتابه (العين) وهذا يعني أنه ابتدأ بصوت العين واتبع نظاماً خاصاً ابتدعه ، فلم يتبع النظام الأبجدي ولم يتبع نظام الالفباء المجائي[5] .

انّ الأصوات اللغويّة عند الخليل والتي رتّب معجمه عليها هي :

(ع ح هـ خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ث ذ / ر ل ن / ف ب م / و ا ي الهمزة) .

هذا الترتيب يلاقي فيه الباحثون صعوبة في استخراج المادة اللغويّة وقد سجّل الأستاذ أحمد أمين[1] ثلاثة عيوب عليه هي :

١ - صعوبة الأخذ منه لصعوبة ترتيبه ، لأنه رتب حروفه

حسب المخارج . . ولأنه خلط بين الثلاثي المضاعف والرباعي المضاعف .

٢ ـ أنه يذكر كلمة ومقلوبها ، فيذكر في مادة (ع ب د) مثلاً : ب ع د ، د ب ع . . الخ فمن الصعب عند البحث عن كلمة معرفة أيُّها الأصل وأيُّها المقلوب .

٣ ـ أنه وقع فيه تصحيف كثير لما علمت من أن الكتابة في ذلك العصر لم تكن تنقط ، وحروف اللغة العربية فضلاً عن ذلك متقاربة في الشكل .

وقد رد الدكتور مهدي المخزومي على اعتراضاته هذه(٧) ، ونضيف اليها مايلي :

١ ـ أن صنع فهرسة موحدة للمواد اللغويَّة ـ كهذا الكشاف ـ قد حلَّ هذه الصعوبة ويسَّر للدارسين الفائدة .

٢ ـ أن تحقيق العين وصدوره مطبوعاً بجهد عالمين لغويين قد حلَّ ـ ماحدث في العين من تصحيف أو تحريف بفعل النُّساخ . ليس غير .

لقد كان للخليل فضلٌ على من ألف بعده ويظهر ذلك من خلال الآتي(٨) :

١ ـ ان فكرة جمع اللغة في كتاب وعمل الخليل في هذا الشأن أول عمل من نوعه .

٢ ـ انهم بنوا فصول معاجمهم على الأصول التي سار عليها الخليل .

٣ ـ أنهم كانوا يستعينون ـ كما كان الخليل يفعل ـ على توضيح المعنى بايرادهم كثيراً من الشواهد من الشعر والأمثال ومن القرآن الكريم .

إن المادة اللغويَّة في العين تظهر من خلال الحشو ـ شرح الألفاظ ـ وطريقته في معالجتها تدل على اهتمامه براد المشتقات والصيغ المختلفة لها . وقد درست هذه من ـلال مقدمة المحققين(٩) وآخرين(١٠) .

إنَّ معجم العين باجزائه الثمانية وعدد صفحاته التي قاربت ثلاثة آلاف وخمسمائة صفحة قد ضمَّ « ٥٨٨٦ »(١١) مادة لغوية . بذل في تحقيقه عالمان جليلان جهداً كبيراً حتى أخرجا هذه الرائعة من روائع لغتنا العربية ولكنه لايخلو من هفوات طباعية اعتذر الدكتور مهدي المخزومي(١٢) للدارسين عنها وردُّ ذلك الى ان الكتاب « أحيط طبعه بظروف جد صعبة ، فلم يتح لهذا الكتاب الجليل أن يطبع في مطبعة واحدة(١٣) ، فقد توزعته مطابع في الكويت وفي لبنان وفي الأردن وفي العراق ولم يتيسر لنا في كل هذه الأجزاء أن نصحح المسودات أكثر من مرة واحدة . . . » .

خطة بناء الكشـاف :

من أجل تسهيل الفائدة للباحثين والدارسين لمعجم العين ولصعوبة تحديد المفردة اللغوية فيه لاعتماد الخليل في ترتيبه على مخارج الحروف ونظام التقليبات ، قمت بنصعة هذا الكشاف الذي يضم المواد اللغويَّة في معجم العين بأجزائه الثمانية معتمداً الحروف الهجائية . ولاأنكر فائدتي من الفهارس الملحقة في أجزاء العين (ثبت المواد اللغويَّة) التي رتبها المحققان الفاضلان ، ولكن مايلاحظ عليها مايلي :

١ ـ رتبت هذه الفهارس حسب الحروف الهجائية ماعدا الجزء الخامس الذي رتبت مواده حسب ورودها في صفحات الكتاب .

٢ ـ وردت بعض الأخطاء المطبعية وتمثلت في ترتيب المادة(١٤) أو تكرار المادة(١٥) أو في بعض الأحيان الخطأ في المادة نفسها(١٦) .

وقد اتخذت الخطوات التالية لبناء هذا الكشاف :

١ ـ تمَّ ترتيب هذا الكشاف حسب حروف الهجاء (أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و ي) لكونها سهلة شائعة الاستعمال(١٧) .

٢ ـ رتبت المادة اللغويَّة حسب الحرف الذي يلي حرف الهجاء . وقد بدأت بالثنائي ثمَّ الثلاثي ثمَّ الرباعي . . مثاله (دح ، دحر ، دحرج . .) أو (صقر ، صقع ، صقعر . .) الخ .

٣ ـ بدأت في كل مادة بالثنائي والذي يتكون من حرف الهجاء

مع ماينصل به من حروف أخرى مكونة المادة اللغويّة . مثاله (تو ، توب ، توج ، تور .. الخ) وهكذا في الحروف الأخرى .

٤ ـ تعتمد الاحالات على الجزء والصفحة التي وضعت أمام كل مادة لغوية . والمقصود بالمادة اللغويّة هي التي وضعها الخليل سواء أكانت حرفاً أم فعلاً أم إسماً .

٥ ـ أقصد بالرموز التالية مايلي :

= : ينظر ، مثاله (خيعل = خعل) أي تنظر هذه المادة ضمن إحالة (خعل ١/١١٩) .

↓ : وهي اشارة الى مادة لها احالة اخرى . مثاله :

↓ حنكل ٣/٣٢٥ ، شنظر ٤/٤٦٠

↓ ٣/٣٢٦ ، ٦/٣٠١

٦ ـ تنظر المواد المدرجة ادناه ضمن الحروف الآتية[١٥] :

ارجحن ـ رجحن (حرف الراء) ، اسحنطر ، اسحنفر ، اسحنكك

سحنطر ، سحنفر ، سحنكك (حرف السين) .

٧ ـ ذكرت تحت كل حرف هجائي ثمّ ترتيب الكشاف على ضوئه عدد المواد الداخلة ضمن الحرف نفسه ، مع العلم بأنه لم يدخل في حساب المواد اللغويّة ، المادة المكررة إحالتها أو احالة ضمن المادة .

أرجو أن أكون بعملي هذا قد خدمت تراثنا العربي العظيم . . .

الهوامش :

١ ـ العين ١ / ٨ . ٢ ـ ضحى الإسلام ٢ / ٢٦٦ .

٣ ـ رواية اللغة / ١١٣ .

٤ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي ، أعماله ومنهجه / ١٥٠ ـ ١٥١ .

٥ ـ العين ١/٩ . ٦ ـ ضحى الإسلام ٢/٢٦٩ .

٧ ـ الخليل بن أحمد / ١٥٥ . ٨ ـ المصدر نفسه / ١٥٧ . ٩ ـ العين ١/٥ ـ ٤٤ .

١٠ ـ درست المادة اللغوية لمعجم العين في مؤلفات حديثة ، نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر :

١ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي ، اعماله ومنهجه .

٢ ـ الدراسات اللغوية عند العرب الى نهاية القرن الثالث (٢٣٠ـ٢٥٩) .

٣ ـ رواية اللغة / (١١١ـ١٣٢) .

٤ ـ العربية بين أمسها وحاضرها / (٣٨ ـ ٤٣) .

٥ ـ مع المصادر في اللغة والأدب / (٢/٢٩ ـ ٣٣) .

٦ ـ المعجم العربي نشأته وتطوره / (١/٢١٨ ـ ٣١٢) .

١١ ـ توزعت المواد اللغوية في كتاب العين في أجزائه الثمانية على الشكل الآتي :

ج / ٤ فيه (١٢٢١) ، ج٥ فيه (٨٥٩) ، ج٣ فيه (٨٢١) ج/٧ فيه (٧٨٩) ، ج٨ فيه (٧٢١) ، ج٢ فيه (٥٥٩) ج/٦ فيه (٥٢٩) ، ج١ فيه (٣٨٧) « حسب كثرتها » .

١٢ ـ العين ٨/٤٧٠ .

١٣ ـ طباعة العين / المكان والزمان وعدد الصفحات في كل جزء .

ج١/ طبع في مطابع الرسالة/ الكويت . صدر عن دار الرشيد للنشر بغداد/ ١٩٨٠ ص٣٨٧ .

ج٢/ طبع في مطابع دار الحرية/ بغداد صدر عن دار الرشيد/ ١٩٨١ ص٣٦٨ .

ج٣/ طبع في دار الخلود/ بيروت صدر عن دار الرشيد/ بغداد/ ١٩٨١ ص ٤٤٠ .

ج٤/ طبع في مطابع شركة المطابع النموذجية / عمان ـ الأردن / صدر عن دار الرشيد بغداد/ ١٩٨٢ ص٤٨٦ مع ملحق مرفق مع الجزء الثامن .

ج٥/ طبع في مطابع كويت تايمز/ الكويت/ وصدر عن دار الرشيد/ بغداد/ ١٩٨٢ ص٤٦٤ .

ج٦/ طبع في مطابع كويت تايمز / الكويت/ صدر عن دار الرشيد/ بغداد/ ١٩٨٢ ص٣٢٦ .

ج٧/ طبع في دار الحرية للطباعة وصدر من دار الشؤون الثقافية / بغداد/ ١٩٨٤ ص ٤٩٧ .

ج٨/ طبع في مطابع دار الحرية للطباعة وصدر من دار الشؤون الثقافية / بغداد/ ١٩٨٥ ص٤٧٠ مع ملحق لفائت الجزء الرابع . وبذلك يكون مجموع صفحاته (٣٤٤٣) قياس ٢٤×١٧سم .

١٤ ـ مثالها المواد ، كنسبح / ٣/٣٢٥ ، كلجب ٣/٣٢٤ ، مشق ٥/٤٧ ، صفحاتها ٣/٤٣٧ ، ٥/٤٥٣ (ثبت المواد اللغوية) .

١٥ ـ مثالها (وشب ٦/٢٩١ في ج٦/٣٢٦ ، نعب ٢/١٦٠ في ج٢/٣٦٧ .

١٦ - مثالها (نقر ٥/٢١٩ في ج٥/٤٦٣) والصحيح نقى ، زبق ٥/٩٣ في ج٥/٤٤٦ والصحيح بزق .

١٧ - فضل ابن دريد ترتيب المود اللغوية حسب الألف باء بقوله : وطالبها من هذه الجهة بعيداً من الحيرة مشفياً على المراد بخلاف نظام المخارج - ينظر المعجم العربي ٢/٤٠٤ عن الجمهرة ١/٣ .

١٨ - يقول الخليل بن احمد في مقدمة العين ١/٤٩ : « الألف التي في استحفكك واقشعرَّ واسحنفر واسبكرَّ ليست من اصل البناء وإنما أدخلت هذه الألفات في الأفعال وامثالها من الكلام . لتكون الألف عماداً وسلماً للسان الى حرف البناء ، لأن اللسان لاينطلق بالساكن في الحروف فيحتاج الى ألف الوصل . . واعلم أن الراء في اقشعرَّ واسبكرهما راءان أدغمت واحدة في الأخرى والتشديد علامة الادغام » .

مصادر الدراسة والكشاف

١ - الخليل بن احمد الفراهيدي أعماله ومنهجه / د. مهدي المخزومي / مطبعة الزهراء بغداد/ ١٩٦٠ .

٢ - الدراسات اللغوية عند العرب الى نهاية القرن الثالث / محمد حسين آل ياسين منشورات دار مكتبة الحياة / بيروت / ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م الطبعة الأولى .

٣ - رواية اللغة / د. عبدالحميد الشلقاني / دار المعارف بمصر / القاهرة ١٩٧١ م .

٤ - ضحى الإسلام / أحمد أمين / مكتبة النهضة المصرية/ القاهرة ١٩٦١ م ط/٦ .

٥ - العربية بين أمسها وحاضرها / د. ابراهيم السامرائي / منشورات وزارة الثقافة والفنون / دار الحرية للطباعة/ بغداد ١٩٧٨م .

٦ - العين / لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي / تحقيق د. مهدي المخزومي ود. ابراهيم السامرائي / منشورات وزارة الاعلام / بغداد ١٩٨٠ م - ١٩٨٥ م (ثمانية أجزاء) .

٧ - مع المصادر في اللغة والأدب / د. ابراهيم السامرائي / منشورات وزارة الثقافة والاعلام / دار الرشيد للنشر / بغداد ١٩٨١ م ج٢ .

٨ - المعجم العربي ، نشأته وتطوره / د. حسين نصار / مكتبة مصر ، ط/الثانية ، (جزءان) القاهرة ١٩٦٨م .

كشاف المواد اللغويّة في معجم العين

الجيم

« ٢٥٧ »

الخاء

« ٢٥١ »

الذال

«٧٠»

الضاد

«١٢١»

الطاء

«١٤٢»

النون

(٣٤٥)

الهاء
« ٢٣٩ »

• • •

مخطوطات طبية عربية في مكتبة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن

تأليف

آدم غاسك Adam Gacek

ترجمة

د. عدنان جواد الطعمة

باحث علمي ـ جامعة ماربورغ ـ معهد الفارماكولوجي وعلم السموم

لم تكن فكرة اصدار فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الدراسات الشرقية والافريقية حديثة. كانت ولادة هذه الفكرة اولا في سنة ١٩٢٩ عندما كان كل من الاستاذ ر. ل. تورنر R.L. Turner مديرا واميناً للمكتبة والدكتور اي. جي. اربري A. J. Arberry مساعد امين المكتبة في الدائرة الهندية في حينه، حيث ألفا معاً قائمة المخطوطات العربية والفارسية واستمرا في طريقهما لاعداد وتصحيح النسخة المعدّة للطبع.

ومن ناحية ثانية فقد ظهرت مجموعة من الصعوبات والعقبات لا سيما بسبب نشوب الحرب والتنازل عن الطباعة الفعلية للنصوص الى بيروت، حيث كان المشروع في عام ١٩٥٠ ملغيا ومهجوراً. ولذلك فمن دواعي سروري الواضح بانه كان باستطاعتي إحياء الفكرة لاجراء الترتيبات اللازمة لفهرس كامل شامل للمخطوطات العربية مع تفصيلات ببليوغرافية تامة ولاعداد فهارس للكتاب. وبالرغم من ازدياد ومضاعفة عدد المخطوطات عن المحاولة المبكرة الاولى فانّ الكتاب قد تحقق في غضون مدة اكثر من ستة اشهر بقليل.

والفخر لهذا الانجاز يعود الى إستجابة مؤلف الفهرس آدم غاسيك Adam Gacek الذي كان اول من جاء الى المكتبة في شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٧٨ لاعداد فهرس للمجموعة الغنية للمخطوطات العربية العائدة لمؤسسة الملك فيصل الوقفية

استغرقت هذه المهمة مدة سنتين وتسعة شهور قدّم فيها خبرة وتضحية معتبرتين حيث أتمّه في خريف عام ١٩٨٠.

وقد وافق على تشكيل لجنة اضافية تتعهد بفهرسة المخطوطات العربية لنشرها ضمن مطبوعات المدرسة الخاصة. انّ نتائج جهوده واضحة في هذا المجلد.

تشتمل المخطوطات على كافة صنوف الموضوعات، ويمكن الاطلاع عليها في فهرس الموضوعات. وانّ قسماً من المخطوطات نادر وفريد. اختيرت نماذج مصوّرات المخطوطات بدقة متناهية لاظهار روائع الخطوط والتزيينات والتجليد.

نأمل أن يكون الفهرس مفيداً وقيّما للباحثين ليس فقط لمنتسبي جامعة لندن فحسب، بل في كل مكان من العالم. نتقدم بالشكر الى السيد بي. جي. هوني Mr. P. J. Honey رئيس لجنة المكتبة والى مدير المكتبة الاستاذ سي.دي. كُوان Prof. C. D. Cowan لمساندتهما المشروع وتحمل نفقات الانتاج من أموال المدرسة، والى السيد أم. جي. دالي Mr. M. J. Daly موظف المنشورات للاجراءات والاتصالات مع المطبعة وللارشادات الفنية والتكنولوجية.

في. تي. آج. باري
V. T. H. Parry
امين المكتبة (مكتبي)

رقم المخطوط ٣٨ (١٢٩٩٨)

بذل الماعون في فوائد الطاعون
لمؤلفه شهاب الدين الفضل أحمد بن نور الدين علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م)
أوله: (الحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من حال اهل النار.... اما بعد فقد تكرر سؤال الاخوان نفع الله بهم في جميع الاخبار الواردة في الطاعون مع شرح غريبها وتيسير معانيها..)
١٠٠ ورقة، قياس المخطوط ٢٠ × ١٤،٥ سم، وقياس الكتابة ١٥،٥ × ٩،٥ سم.

عدد الاسطر في الصفحة ٢٣، بورقة خطوط مائية، والخط نسخي غير منتظم، والنصوص مزخرفة، والغلاف مجلد ربع تجليد مغطى بقماش، بدون مقلب والكتاب في توضيح الاخبار الواردة في الطاعون. ألف في سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م. نسخه وراجعه الناسخ في ربيع الثاني ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م.
وقد أكلت العثة بعض أوراق المخطوط، عليه بقع مائية.(٦)

رقم المخطوط ٣٢١ (٤٦٣٤٣)

شرح كليات القانون
لمؤلفه: علي بن ابي الحزم النفيسي القرشي (ت ـ ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م)
اوله: (قال رحمه الله الفن الثالث من الكتاب الاول فصل وخمسة تعاليم الفصل في سبب الصحة والمرض وضرورة الموت. اما ذكر سبب الصحة والمرض في اول الكلام في حفظ الصحة من جهة وذلك لأنّ حفظ الصحة انما يمكن بحصول اسبابها ورفع اسباب المرض..)
عدد اوراقه (١ ب ـ ٩١ آ)، قياس المخطوط ٣١ × ٥، ٢١ سم، وقياس الكتابة ٢٤،٥ × ١٢،٥ سم، عدد الاسطر في الصفحة ٢٧. الورق شرقي، بخط نسخي واضح. كتبت حافة المخطوط بالمداد الاحمر والأزرق والمتن بالمداد الاحمر. الغلاف جلدي بني مختوم بالكبس بالحرارة، وهو بدون مقلب،

وهو شرح لكليات القانون في الطب لابن سينا، الشيخ الرئيس ابي علي الحسين بن عبد الله المتوفي سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م. الموجود منه، هو قطعة تحتوي على اول وقسم من التعليم الثاني للفن الثالث. وتاريخ نسخها مجهول (وهي ترقى للقرن الثاني عشر الهجري القرن الثامن عشر للميلاد).(٧)

رقم المخطوط ٣٦٤ (٤٦٢٣٨)

تسهيل المنافع في الطب والحكمة
لمؤلفه: ابراهيم بن عبد الرحمن بن علي بن ابي بكر الأزرق، ألّفه بعد سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م
اوله: (الحمد لله المتعالي عن الانداد المتقدس عن الاضداد المتنزه عن الاولاد الباقي عن الاباد المطلع على سر القلب وضمير الفؤاد.. اما بعد فان الطب علم عظيم نفعه وقدر وعلى شرفه وفخره.....)
عدد أوراقه ٣٤٢ (٦٨٤ صفحة)، قياس المخطوط ٢٣ × ٥، ١٦ سم، وقياس الكتابة ١٧،٥ × ١٠،٥ سم. عدد الاسطر في الصفحة ١٨ ـ ١٩. ورقه ذو خطوط (رسوم) مائية. كتب بخط مغربي حديث واضح بالمداد الاسود والأحمر. أوراق المخطوط مفككة، وهو غير مجلّد.
مختصر في الطب، رتبه المؤلف في خمسة اقسام، حيث اعتمد على الكتابين التاليين:
١ ـ شفاء الاجسام، لجمال الدين محمد بن ابي الغيث الكمراني المتوفي سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م، راجع حاجي خليفة ٢ / ١٠٤٩ وكحالة ١١ / ١١٣.
٢ ـ كتاب الرحمة، لمؤلفه محمد المهدوي بن علي بن ابراهيم الصّنوبري، المتوفي سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م، راجع ذيل بروكلمان ٢ / ٢٥٢.
لم يذكر تاريخ النسخ هو يرقى الى القرن الثالث عشر الهجري

رقم المخطوط ٣٦١ (٤٦٣٤٣)

التحفة السعديّة
لمؤلفها: محمود بن مسعود الشيرازي (المتوفي سنة ٧١٠ هـ / ١٣١١ م)
أولها: (ان اولى ما افتتح عليها به خطاب واحرى ما ابتدى به كتاب حمد الله تعالى المنعم بحيوية النفوس وصحة الاجسام.. اما بعد فان أحوج خلق الله اليه محمود بن مسعود الشيرازي... يقول لما كان اعذب مشارب النعم واخصب مراتع الحكم وارحب مرابع الكرم..)

عدد اوراق المخطوط (٩٣ ب ـ ٣٣٦ أ)، قياس المخطوط ٣١ × ٢١،٥ سم، وقياس الكتابة ٢٤ × ١٣ سم، عدد الاسطر في الصفحة ٢٧، كتب المتن بالمداد الاحمر والأسود. وان محتويات وتفصيلات هذا المخطوط تختلف عما ورد في المخطوط رقم ٣٢١. وهو شرح لكليات القانون في الطب (راجع رقم ٣٢١).

وان الموجود من هذا المخطوط قطعة تحتوي على الفصل الاول من التعليم الخامس، وهي غير مؤرخة (الا انها ترقى للقرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي).[4]

رقم المخطوط ٣٨٩ (٩٠٩١٣)

الوصلة الى الحبيب في وصف الطيبات والطيب

لمؤلفها: كمال الدين عمر بن احمد بن العديم الحلبي (المتوفى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م)

أولها: (الحمد لله الواحد الخلاق المتكفل بالارزاق المستحق للمحامد على الاطلاق... وبعد فانه لما كان معظم اللذات الدنيوية والاخروية في تناول شهي المآكل والمشارب وكان تطييب الثياب والبدن مما يقرب الى الاحباب الحبائب.. فلهذا جمعت هذا الكتاب وسميته الوصلة الى الحبيب في وصف الطيبات والطيب ولم اضع فيه شيئا الا بعد ان ركبته مرارا وتناولته مدرارا..)

عدد اوراق المخطوط ١٦٤ ورقة، وقياسه ٢٤ × ٢٢،٥ سم، وقياس الكتابة ٢٠ × ١٤ سم، عدد الاسطر في الصفحة ١٧، ورقه مسطر، والخط نسخي واضح بالمداد الأسود. الغلاف مجلد بقماش أزرق حديث بدون مقلب.

رسالة في تحضير واستعمال العطور والمعاجين والأطياب والاصباغ الى آخرها، لغرض المعالجة والتجميل. كتبت على وجه واحد من الاوراق. وهي بدون تاريخ (الا انها ترقي لأوائل القرن العشرين الميلادي). نقلت عن نسخة محفوظة في دار الكتب الظاهرية، حيث قوبلت وفحصت من قبل الدكتور دي. اس. رايس

مع نسخة المدرسة الاحمدية في حلب. وقد جلّدت نسختان مصورتان لمخطوطة حلب مع هذا المخطوط. (المجلد).[5]

المصادر والهوامش

(١) بروكلمان ٢ / ٨٢ (رقم ٢٠) Brockelmann GAL II, 82 (no.20):

بروكلمان / الذيل ٢ / ٧٤ Brockelmann GAL, S II,74

(٢) بروكلمان ١ /٥٩٧ (رقم ٨٢، شرح ب) ط Brockelmann, GAL 1 / 597, no.82,

بروكلمان / الذيل ١ / ٨٢٤ Brockelmann, GAL S I/824

(٣) ذيل بروكلمان ٢ / ٢٥٢، ١٧٠ Brockelmann, GAL : S II, 252,170.

حاجي خليفة ١ / ٤٠٧ H. KH. I,407

(٤) بروكلمان ١ / ٥٩٧ (رقم ٨٢، شرح سي)

Brockelmann, GAL 1, 597 (no.82, cml. c)

ذيل بروكلمان ١ / ٨٢٤ Brockelmann, GAL: S I,824

(٥) بروكلمان ١ /٤٠٥، (رقم ٤) Brockelmann, GAL 1, 405, no.4

ذيل بروكلمان ١ / ٥٦٩ brockelmann, GAl: S I,569

قراءة اولى في
كتاب المنصوري لابي بكر الرازي

تحقيق
الدكتور حازم البكري الصديقي

مناقشة
د. كمال السامرائي

المجمع العلمي العراقي

يتفق اكثر المؤرخين على ان ابا بكر الرازي من أعلام الاطباء المسلمين الكبار ان لم يكن في مقدمتهم، وهو ينافس إبن سينا في الطب السريري إلا انه لا يدانيه في الطب النظري والتأليف فيه، فهو أي أبو بكر الرازي في الطب العملي لا يبارى، وابن سينا محاضر في فنون الطب لا ينازعه احد فيها. والرازي موسوعي المعرفة الا ان الطب هو الغالب عليه، وابن سينا عالم في كل علم، إلا انه فيلسوف قبل كل شيء.

ولابي بكر الرازي زهاء مائتين وثمانين كتابا، يقرب من نصفها في الطب اوما له علاقة به، اشهرها كتابان هما: الحادي في الطب، وكتاب المنصوري في الطب الذي نحن الآن بصدد الكلام عنه.

وكتاب الحاوي مصدر مهم لكثير مما الفه الرازي في علوم الطب، ومنها كتاب المنصوري، ونعرف يقيناً ان كتاب الحاوي قد أخذ من مؤلفه جلّ عمره بدءً من يوم تعلمه الطب، وقد لا يكون اتمّه حين وافته المنية. والمطبوع منه بحيدر آباد الدكن اثنان وعشرون مجلداً اكثرها في علاج الامراض بالادوية المفردة والمركبة. أما كتاب المنصوري فهو بعشرين مقالة حجمها جميعاً ليس اكبر إلا قليلاً من مجلد واحد من كتاب الحاوي المطبوع.

واكثر مضامين كتاب المنصوري في الطب السريري وبعضها القليل في علوم الطب الاساسية (الكليات، وهي العلوم التي لم يتناولها الرازي في كتاب الحاوي. ولم يغفل الرازي في كتاب المنصوري ما هو جدير بالذكر في الطب وخصوصاً في قسمه العملي، وهو يشرح كل ذلك باقتضاب غير مخل أو باسهاب غير ممل تبعاً لاهمية الموضوع، او خطورة ماله علاقة بالصحة، وكانه يجيب على اسئلة تثيرها الافكار الآنية، بلغة كانها كتبت في هذا اليوم الذي نحن فيه، فالكتاب بهذه الصورة مفيد لكل قارىء طبيباً كان أم غير طبيب، وبالتالي هو بمثابة كتاب منزلي يرشد الى علاج الحالات المرضية الطارئة حين يعزّ وجود الطبيب المعالج. فهو بهذا النطاق ليس مرجعاً مشبعاً لباحث، ولا هو محض مؤشرات لا يفهمها إلا المتمرس بصناعة الطب. كما ان اسلوبه الانشائي خالٍ من التعقيد والغموض واللموز المألوفة في كثير من المؤلفات الطبية القديمة بل حتى في بعض مؤلفات الرازي نفسه.

وكتاب المنصوري بعشر مقالات، تختلف حجوم كل واحدة منها تبعاً لاهمية الموضوع الذي تتضمنه؛ ففي المقالة الأولى (سبعة وعشرون) فصلاً في ما بين ص ٢٩ وصفحة ٧٨: وصف فيها سبعاً وعشرين جهازاً وعضواً من جسم الانسان، وهذا اكثر مما كتبه الرازي في أي كتاب آخر من كتبه. وقد سمى الرازي هذه المقالة (المدخل في الطب) ذلك لانه يعتبر علم التشريح اول علوم الطب التي يجب ان يتعلّمها من يبتغي إمتهان صناعة الطب، كما يضعه في مقدمة ما يُسأل عنه التلميذ عند تخرجه على شيخه في هذه الصناعة.

وفي الصفحة (٥٨) من هذه المقالة ثلاث صور لبطون الدماغ، وبهذه يكون كتاب المنصوري أول كتاب طبي بالعربية زينه مؤلفه بالرسوم.

وفي احدى فقرات هذه المقالة يذكر الرازي ان الجنين الذكر يكتمل نموه قبل الأنثى، إلا انه لم يذكر تبعاً لذلك فيما اذا يولد قبل اكتمال أيام الحمل به مثلما ذكر ذلك غيره من الاطباء الذين خلفوه في بحث هذا الموضوع.

وفي المقالة الثانية من كتاب المنصوري سبع وخمسون فصلاً (ص ٧٩ ـ ١٠٩) يسهب فيها الرازي في موضوع الأمزجة والأخلاط، والاستدلال عليهما من أخلاق الشخص وخلقته من سماجة أو ملاحة، أو شجاعة أو جبن، وتأثيرهما على السحنة وسيماء الوجه، ولون الشعر، والعينين وغير ذلك من هذه الملامح الجسدية. كما يتناول الرازي في هذه المقالة غلبة الأخلاط وعلاماتها وأعراضها المرضيّة التي يستفاد منها عند شرى العبيد، وبهذا يكون الرازي أول من كتب من الاطباء العرب بهذا الموضوع.

وكانت الأغذية من المواد العلاجية وتوصف أنواعها وكميتها للمريض كما يوصف الدواء، فتضارعه أهمية وفائدة، ولهذا خصص لها الرازي المقالة الثالثة بكاملها، وهي بأربعة عشر فصلاً (ص ١٠٩ ـ ٢٠١) ضمّنها معلومات وافية في طعوم الأغذية، وأوقات تناولها في حالتي الصحة والمرض، وذكر منها خمساً وستين مادة غذائية ومائة وخمسين دواء مفرداً ومركباً؛ مع شرح كل واحد منها، وتأثيرها النوعي على جملة أجهزة الجسم، وعلى كل عضو فيه منفرداً.

اما المقالة الرابعة فهي في حفظ الصحة بواحد وثلاثين فصلاً (ص ٢٠٣ ـ ٢٣٦) تناول فيها العوامل الطارئة على الانسان، و (الاسباب) الستة التي يعيشها يومياً، وهي الحركة والسكون، والمأكل والمشرب، والامتلاء والاستفراغ. وللرازي المبادرة الاولى في ذكر هذه الاسباب (العوامل)، ولم ينافسه في القدم بذكرها إلا ابن ربن الطبري..

كما تطرق الرازي في هذه المقالة الى ما يعين على الحبل وما يمنعه، والى تدبير صحة الحامل وصحة وليدها، واختيار الظئر له. كذلك تطرق الى تأثير الأهوية في نقل الاوبئة وانتشارها. وختم الرازي هذه المقالة بفصل في محنة الطبيب الماهر.

والمقالة الخامسة في موضوع الزينة، وهي بخمس وسبعين فصلاً (ص ٢٣٧ ـ ٢٨٠) يفهم من مضامينها عظيم اهتمام الناس عهدئذٍ بمخبرهم، وجمال هيئتهم، فكتب الرازي بهذا النطاق في انبات الشعر على غير طبيعته، أو في غير مواضعه، وفي منع تساقطه، وفي خضابه اذا شاب، وحلقه اذا طال. كما تناول البحث موضوع مرض السعفة في الوجه والراس، والبرش والنمش والبهق والكلف في الجلد وآثار الجدري عليه، والجذام، وبخر الأنف والفم، وشقاق الشفة، والسمنة المفرطة، والهزال الشديد وحالات أخرى تمس الشخصية والقيافة.

كذلك تطرق في هذه المقالة الى مشكلة الباه ومعالجة حالاته المختلفة لتحقيق المتعة واللذة الجنسية فيما بين الزوجين. ويختم الرازي هذه المقالة بموضوع الخمور وتناولها ومعالجة الخمار حتى لا يفقد الشارب هيبته.

اما المقالة السادسة فهي تسعة عشر فصلاً (ص ٢٨١ ـ ٣٠٠) خصصها لأمور المسافرين براً وبحراً، وتفادي العطش والبرد والحر، والتجمّد من الصقيع، والاحتياط من الجوع، والاعياء، ودفع مضار ماء الشرب الرديء، وما يمنع تولد القمل في الراس والثياب، وشقاق العقب، والسجح من الركوب، وما الى ذلك مما يتعرض له المسافر في تطوافه اذا طال

وجعل الرازي المقالة السابعة في الطب الجراحي بسبع وعشرين فصلاً (ص ٣٠١ ـ ٣٣٦) بما في ذلك معالجة الكسور، وتدبير القروح، وبط الخراج، ورفع الخنازير، والغدد اللمفاوية المتضمنة، والاورام الصلبة، والاورام الحارة، والداحس، وعلاج النملة، والنار الفارسية، وتوقيف النزف الدموي، وتطبيق الحجامة، والعلق، وعمل الفصد. وختم الرازي هذه المقالة بفصل في (مخاريق المايتين). وتكشف هذه المقالة عن نزعة الرازي الى العلاج بالجراحة اضافة الى العلاجات الطبية التقليدية المألوفة وهي طريقة لم يسبق الرازي اليها أحد من الاطباء العرب.

وتختص المقالة الثامنة (ص ٣٣٧ ـ ٣٧٦) بأنواع السموم وترياقاتها في سبع وعشرين فصلاً، يتناول فيها تداوي نهش الافاعي ولدغ العقارب والزنابير، كما ضمنها مضادات لحالات التسمم بالاغذية والادوية.

اما المقالة التاسعة (ص ٣٧٧ ـ ٤٥٨) فهي بخمس وتسعين فصلاً في مفردات أمراض الانسان عامة من الراس الى القدم، جهازاً جهازاً وعضواً عضواً. ومما يجتنب الانتباه في

هذه المقالة ذكر الرازي لمرض الهيضة؛ وهو مرض لم يعنَ به الاطباء الأولون قدر عنايتهم بمرض الطاعون، وكلاهما من الأوبئة القتالة التي سموها الموتان.

وكرّس الرازي المقالة العاشرة (ص ٤٥٩ ـ ٥٢١) لأجناس الحميّات باربعة وثلاثين فصلاً، يصف فيها اعراض وعلامات كل منها بتفصيل سريري شامل واف. فيذكر حمى الدق (السل) وهو ينفي ان يكون لها دواءً شافياً وخصوصاً في عمر ما بعد الصبا. وهذه ملاحظة لم يذكرها طبيب آخر سبق الرازي أو من لحقه إلا بعد قرون عدّة ـ كما وصف مرض الجدري والحصبة بدقة سريرية وإحاطة لم يدانيه فيها اي طبيب سبقه أو عاصره، وصارت نصوصه في هذين المرضين مصدراً مهماً لمن كتب عنها بعد ذلك. كما وصف في هذه المقالة حمى النافض (الملاريا) والحميات الوبائية، وعزاها جميعاً الى فساد الهواء، وهو بهذا لم يبتعد كثيراً عن حقيقة وسائل انتقال الأوبئة من مكان الى مكان ومن بلد الى بلد. كذلك تطرق في هذه المقالة الى ازمان الأمراض بحسب الفصول ودورات الامراض وبحراناتها وايامها بالاستناد الى فحص البول والنبض معتبراً كليهما أساساً في تشخيص الامراض وتطورها الى الأحسن أو الاسوء. وختم الرازي هذه المقالة بفصل في تدبير الناقه من الامراض.

وقد حقق هذا الكتاب القيم الدكتور حازم البكري الصدّيقي على أربع مخطوطات اعتمد منها مخطوطة مدرسة التربية الاسلامية في الكرخ، ونشر التحقيق معهد المخطوطات العربية بالكويت سنة ١٩٨٧ في سبعمائة واثنتين وثلاثين صفحة بورق صقيل، وحرف معتدل الحجم، وحبر متساوي الطبع، وبغلاف سميك مزوّق ببساطة وذوق.

وقد عانى المحقق جهداً مشكوراً في تحقيق هذا الكتاب القيم حتى اخرجه بما يرضي القارىء الحريص على ضبط النصوص؛ كما زوّده بترجمة مختصرة لمؤلف الكتاب ابي بكر الرازي، وقائمة بمراجع التحقيق بعشرة مصادر تراثية، وعشرين مصدر حديث، وسبع فهارس هي: فهرس للكلمات والتعابير الفنية الواردة في أصل الكتاب (ص ٥ ـ ٥٧٥) وفهرس لاسماء الادوية المفردة (ص ٥٧٥ ـ ٧) وفهرس لاسماء الأمراض عامة (ص ٦٤٧ ـ ٦٦٧) وفهرس لاسماء الحيوان (ص ٦٦٧ ـ ٦٨٢) وفهرس للأطعمة (ص ٦٩٨ ـ ٧٠٥) وفهرس للادوية المركبة (ص ٦٩٧ ـ ٧٠٤) وفهرس للأوزان والمكاييل (ص ٧٠٦ ـ ٧٠٩).

وفيما يلي ملاحظاتي على هذا الكتاب المحقق بحسب تسلسل ابوابه ومقالاته وملاحقه، بما في ذلك (المقدمة) التي دبجها المحقق، والهوامش التي الحقها بالفصول والنصوص، والترجمة التي كتبها للرازي، ثم ملاحظاتي على الفهارس التي خُتم بها الكتاب.

(أ) ملاحظات على كتاب المنصوري

ثمة ملاحظات على كتاب المنصوري منصبة على منهج الرازي في هذا الكتاب لا على مضامينه العلمية، إذ لا يصح نقد هذا القسم من الكتاب بالمفاهيم العلمية الراهنة، فلكل زمان علمه الذي لا يتفق بالحتمية مع علم زمان آخر، وإلا لنقضنا اكثر مضامين هذا الكتاب، وكذلك كثيراً من كتب التراث في الطب العربي. وفيما يلي بعض من تلك الملاحظات.

(١) ادخل الرازي في موضوع تدبير الصحة (المقالة الرابعة) فصلاً في (محنة الطبيب) وفي موضوع الطب الجراحي (المقالة السابعة) فصلاً في مخاريق المائتين. وهو يقصد بتعبير محنة الطبيب وسائل معرفة افضل وامهر الاطباء علماً وعملاً، ويقصد بتعبير مخاريق الاطباء الذين انتحلوا صناعة الطب بالدجل والشعوذة. وواضح جداً ان أياً من هذين الفصلين له مكان فسيح في اي موضوع سريري بهذا الكتاب. وقد يكون من الافضل والاكثر إنسجاماً لو خصص الرازي لكلا الفصلين معاً مقالة بمفردها في طريقة التفريق بين الطبيب الحاذق والطبيب الجاهل.

(٢) نسب الرازي تعبير مخاريق الى تعبير آخر اكثر غرابة وغموضاً فقال مخاريق (المايتين) وقد ورد هذا التعبير الاخير في بعض نسخ كتاب المنصوري المخطوطة: مشايين (مجلة المشرق ٥٤/١٩٦٠/ ص ٤٧١) وقد يكون ما اثبته المحقق هو الذي اراد به الرازي.

(٣) وفي فصل الشقاق في القُبل (ص ٤٤٩) يصف الرازي شقاق المقعدة (لا القبل) بعض الادوية الحيوانية والنباتية لتستعمل موضوعياً لهذه الحالة المرضية، ولم يتطرق باي قدر الى شقاق القبل الذي جعله عنوان هذا الفصل. وهذا ما يجلب الظن الى ان ثمة عبارة أو اكثر قد سقطت من سياق المتن اثناء النسخ او اثناء طبع الكتاب.

(٤) ويتناول الرازي موضوع السرطان (ص ٤٥٠) وكأنه مرض قابل للشفاء، فلا يذكر ولو باشارة عابرة الى كون هذا المرض عضال لا برء منه، كما كتب ذلك بوضوح وتكرار في كتابه الحاوي.

(٥) إبتدع الرازي تعبير الزكمة (ص ٤٦٥) لحالة الاصابة بالزكام أو لمرض الزكام نفسه، ومعنى هذه الكلمة في اللغة هو الشخص الغليظ الطبع، أو هو آخر ولد لأبويه، وكلا المعنيين بعيدين عن مرض الزكام. الذي سماه الرازي الزكمة.

(٦) واستعمل الرازي تعبير (تقرّح القطاة) وهو يقصد بذلك ما عرفه الاطباء الذين خلفوا الرازي (بالناقبة) او بالقرحةُ الناقبة التي تظهر على مكانات الجسم حين يطول عليها اضطجاع المريض.

(ب) ملاحظات على تحقيق الكتاب

(١) يتعرض المحقق الفاضل في (التقديم) الذي استهل به تحقيق كتاب المنصوري الى الاغلاط اللغوية والنحوية التي وردت في مخطوطات هذا الكتاب، وهو ينسب بعضها الى المؤلف وبعضها الآخر الى النسّاخ، وقد يصح ان تنسب هذه الاغلاط الى المؤلف اذا تكررت في نسخ المخطوطات الاربعة التي اعتمدها المحقق، أما اذا جاءت متفرقة عليها فاكثر الاحتمال انها من عمل النساخ. وقد لاحظ المحقق ذلك حين ورد الخلط بين المذكر والمؤنث في النسخ الاربعة إلا انه لم يستنتج من ذلك انها كانت من صنع المؤلف او من صنع النسّاخ.

(٢) نقد المحقق بعض التعابير التي وردت في متن الكتاب مثل (استسقاط القوة) اي اثارة سقوط القوة، والانفشاش كمصدر للفعل فشّ، والبواقي كجمع لكلمة الباقي، والانكسار كمصدر للفعل كسر. وقد الرازي اذا فعل ذلك انقياداً للحس الفني الذي لا يخضع دائماً لقواعد اللغة. أما اعتراض المحقق على تعبير (زعران) جمعاً لمن هم ذوو شعر قليل، فان (الازعر) لغة من كان شعره قليلاً. واعتراض المحقق على تعبير (غاذي) اي مغذّي، فهذا ايضاً اعتراض يمكن ردّه اذا تذكرنا أن للطبيب المشهور احمد بن ابي الاشعث كتاب باسم (الغاذي والمغتذي) فكلا الطبيبين على صواب.

(٣) في فصل العروق (ص ٥٣ ـ ٥٤) ومنابتها وانبثاثها في الجسم ودخولها في القلب وخروجها منه الخ، قال المحقق (هذه قول خاطىء، واضاف: وأول من اثبت هذا الخطأ هو ابن النفيس) ثم قال.. (وقد دونه في كتاب احتفظ به قبل ان ينشر معلوماته، ثم توفي واصبحت معلوماته في طي النسيان).

ان ابن النفيس لم يحتفظ بسر اكتشافه للدورة الدموية في الرئة بل ادخله في كتابه شرح تشريح القانون لابن سينا. وقد عثر اندريا الباكو على مخطوطة هذا الشرح فنقل مما فيها عالم التشريح الفرنسي سرفيتس الى اللاتينية ومنها أخذ العالم الانكليزي وليم هارفي في كتابه عن النبض والقلب، واستقرت نسبة اكتشاف كامل الدورة الدموية خطأ الى هارفي الى ان نشر الشاب المصري محيي الدين التطاوي اطروحته التي سمّاها: الدورة الدموية عند ابن النفيس وفيها ظهرت الحقيقة في ان أول من اكتشف الدورة الدموية في الرئة المكمّلة للدورة الدموية عامة هو ابن النفيس.

(٤) في هامش صفحة (٧٩ ـ ٨٠) قال المحقق: صنف العرب الغذاء المهظوم (الكيموس) الى اربعة أجناس هي الاخلاط الخ، واشار في هذه المعلومات الى علي بن عيسى الكحال في كتابه تذكرة الكحالين (ص ٣٦٦) والى حنين بن اسحاق في كتابه المقالات العشر (ص ١٥٢)

ان أصل الاخلاط الأربعة من الكيموس إلا ان أياً منها ليس كيموساً كما يذكر المحقق الفاضل، بل هو مواد سيالة من نوع آخر غير الكيموس بالرغم من انه من هذه المادة. وعلي بن عيسى الكحال في كتابه تذكرة الكحالين لا يشير الى تكوّن الاخلاط وطبائعها ولا الى قواها. وحنين بن اسحاق هو الطبيب العربي الوحيد الذي تناول بحث قوى الادوية، ثم تناولها من بعده ابن جزلة البغدادي بشكل مختصر في كتابه منهاج البيان فيما يحتاجه الانسان. وبأي حال فان قوى الادوية بدرجاتها الاربعة التراخية ولا تماثل بالضرورة طبائع العناصر الاربعة الأول، فان طبائع هذه العناصر تنحصر في جوهرها ولا تتعدى الى ما تؤول اليه عند تكون الاخلاط.

(٥) نهج المحقق في تفسير التعابير الفنية وغيرها الواردة في الكتاب باشارة اليها في الهوامش التي وضعها في أواخر الصفحات، وفي هذه الهوامش يحيل القارىء الى تفسيرها في فهرس موضوعها بآخر الكتاب بعبارة (راجع هذه الكلمة في الفهرس الفلاني). وتتكرر هذه العبارة اكثر من سبع مرات في بعض الصفحات، وهذه الطريقة من الفهرسة متعبة ومربكة وقد يكون الافضل ان تفسر التعابير في هوامش الصفحة التي ورد فيها التعبير.

(ج) ترجمة الرازي

قال المحقق عن الرازي هو ابو بكر محمد بن (يحيى) المعروف بالرازي، ولم يذكر المحقق مصدره في اسم جده (يحيى)، وهذا التوثيق مهم جداً لمن عني بتسجيل سيرة الرازي، فقد إعتقد بعض الباحثين ان عائلة الرازي كانت مغمورة إجتماعياً أو فقيرة الحال فلم يُعرف عن شجرة عائلة

الرازي إلا اسم ابيه، وقيل كان له أخ لم يعرف اسمه، كما له اخت لا يعرف اسمها ايضاً. اما اسم خديجة الذي خلعته (هونكة) المستشرقة الالمانية على اخته فهذا محض اختلاق لا تسنده رواية.

(٣) وقال المحقق في ترجمة الرازي (وبعد سنوات قضاها (الرازي) في الري استدعي الى بغداد للنظر في امر تشييد بيمارستان كبير، فلبّى الدعوة وانتقل اليها) ان ما يعرف عن سيرة الرازي انه دخل بغداد مرتين على الأقل، إلا انه لم يعرف كم استقر فيها في كل مرة. والارجح انه دخل بغداد في صباه لا في الثلاثين من عمره او بعد ذلك كما في كتاب عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ومن تبعه من المؤرخين القدماء والمحدثين. وكان مجيئه الى بغداد رغبة منه لرؤية عاصمة الخلافة التي وصلت اخبارها الى الري كاكبر مدينة إسلامية، اي ان الرازي لم يستدع الى بغداد من قبل احد. وفي مكتبة بودليانا باكسفورد مخطوطة للرازي باسم (تجارب البيمارستان) ورد فيها انه تعلّم الطب في مستشفى ببغداد لا في الري، كما ان ابن ابي اصيبعة يذكر في كتابه طبقات الاطباء: انه دخل احد بيمارستانات بغداد (والارجح هو بيمارستان المعتضدي) ورأى فيه اعاجيب خلق الانسان والقوارير المملثة بالادوية التي تستعمل لمعالجة المرضى، فدفعه كل ذلك الى تعلّم الطب، وهكذا بدأ يتعلّمه في بغداد، اي انه لم يكن طبيباً حين دخل بغداد، وفي هذه الحاضرة إستقى معلوماته الأولى في هذه الصناعة حتى اتقنها وأجاد ممارستها، وتبوّأ رآستها على الاطباء المسلمين.

(ل) ملاحظات عن الفهارس

ختم المحقق الكتاب بثمانية فهارس (ص ٥٣٣ ـ ٧٣٢) استوعبت ربع حجم الكتاب تقريباً، هي: فهرس الكلمات الواردة (في الكتاب)، فهرس الادوية المفردة، فهرس الامراض، فهرس الحيوان، فهرس الأطعمة، فهرس الأدوية المركبة، فهرس الاوزان والمكاييل، وفهرس المحتويات. وقد جعلت هذه الفهارس الكتاب متكاملاً من الوجهة المنهجية، فالفهارس ضرورية في اي كتاب، نظرياً كان أم علمياً. وحبذا لو وضع المؤلف فهرس (المحتويات) (ص ٧١١ ـ ٧٣٢) في صدر الكتاب لا في آخره، وهو ما اعتاد ان يضعه المؤلفون قديماً وحديثاً، ومنهم ابو بكر الرازي في كتاب المنصوري.

وقد وضع المحقق في مقدمة كل فهرس جرداً لمفردات ما يتضمنه ذلك الفهرس من غير زيادة أو نقصان، وواضح جداً ان ذلك ليس له ضرورة ولا منه فائدة، فضلاً عن انه ملأ عدة صفحات من الابواب المخصصة للفهارس. ثم عاد المحقق يفسر التعابير التي وردت في قائمة الجرد دون ان يشير الى مواضعها في صفحات الكتاب ليعرف القارىء مدلول كل منها في سياق النص؛ وهذا ما يضعف من قيمة الفهرس، بل يجعله لا يحقق فائدته للقارىء، إذ كيف يعرف القارىء عن مرضى الجذام والسرطان مثلاً فيما اذا كان الكتاب قد احتواهما في فصوله؟، وماكتبه الرازي في موضوعيهما؟

اما الفهرس الذي سماه للأدوية المركبة (ص ٦٩٧ ـ ٧٠٤) فان مفرداته ما هي إلا صفات (وصفات) لمعالجة بعض الأمراض، تختلف تراكيبها باختلاف الاطباء المعالجين. أما ما يسمى بالادوية المركبة فهي ادوية تراكيبها واسماءها الصيدلانية متفق عليها وهي دوماً مستحضرة وجاهزه للاستعمال. من هذه الادوية المركبة ما يعرف بالسفوفات، والفراغر، والنطولات، والمراهم، والجوارشنات وغيرها. وقد وضعت لهذه الادوية المركبة كتب اختصت بها ربما كان اولها كتاب الكندي، اما اشهرها فهو كتاب سهلان بن عثمان بن كيسان. وأبو بكر الرازي لم ينس الفرق بين الدواء المركب والوصفات الدوائية فذكر هذه الادوية الأخيرة في كتاب المنصوري باسم (صفات) اكثر من سبع مرات (ص ٢٢٣، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٩٢). وعلى هذا فالأصح ان يذكر هذا الفهرس باسم (فهرس الصفات).

كلمة شكر وتقدير

واخيراً يسرني ان اسجل ثنائي الجزيل على المحقق الفاضل الدكتور حازم البكري الصدّيقي لما قدّمه من خدمة جليلة الى المعنيين بالتراث الطبي بتحقيق هذا الكتاب القيم الذي كنا نترقب منذ عشرات السنين، تحقيقه، بفارغ الصبر، وها نحن نرى الآن فراغ المكتبة التراثية في الطب العربي قد إمتلأ بهذا الكتاب النفيس.

• • •

ملتقى ابن باديس الثالث
للفكر والثقافة الوطنية
(التراث ومناهج تحقيقه)

في الجزائر الباسلة، بلد المليون شهيد، نظّم معهد الآداب واللغة العربية بجامعة قسنطينة ملتقى ابن باديس الثالث للفكر والثقافة الوطنية (التراث ومناهج تحقيقه) في الأيام ٢١، ٢٢، ٢٣، من شهر مايس ١٩٨٩ م الموافق ١٦، ١٧، ١٨، من شوال ١٤٠٩ هـ.

وقد شارك في هذا الملتقى تسعة اساتذة من العراق ومصر وتونس والجزائر وهم:

١) الدكتور حسين نصار: قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ـ مصر

٢) الدكتور طه عبد الرحمن: كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط ـ المغرب

٣) الدكتور حاتم صالح الضامن: رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة بغداد ـ العراق

٤) الدكتور هادي نهر: قسم اللغة العربية بكلية الآداب بالجامعة المستنصرية ـ العراق.

٥) الدكتور عبد الحفيظ منصور: خبير المخطوطات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس.

٦) الاستاذ عبد الكريم عوفي: معهد الآداب واللغة العربية بجامعة قسنطينة ـ الجزائر.

٧) الاستاذ عمار زعموش: معهد الآداب واللغة العربية بجامعة قسنطينة ـ الجزائر.

٨) الاستاذ منصور عفيفي: معهد الحضارة الاسلامية بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية ـ الجزائر.

٩) الاستاذ محي الدين مختار: معهد علم الاجتماع بجامعة قسنطينة ـ الجزائر.

● ● ●

افتتح الملتقى في الساعة التاسعة من صباح يوم الاحد ٨٩/٥/٢١ بكلمة ترحيب ألقاها الدكتور عبد الله بو خلخال رئيس المجلس العلمي بمعهد الآداب واللغة العربية بجامعة قسنطينة. ثم تلاه الدكتور الرشيد بو شعير مدير المعهد فألقى كلمة المعهد التي بيّن فيها أهمية التراث ووجوب نفض الغبار الذي علق به، وأكّد أنّ اختيار التحقيق في محور هذا الملتقى ضرورة ملحة لأنه اصبح علما قائما بذاته، وطالب بوجوب ادخال علم التحقيق كمقياس ضروري في الدراسات العليا وختم كلمته بذكر المحاور الخمسة التي ستدور حولها أعمال الملتقى وهي:

١) التراث وأثره في تطور النهضة الفكرية.
٢) مناهج التحقيق عند القدماء والمحدثين.
٣) حماية المخطوطات (فهرستها وصيانتها).
٤) التعريف بمراكز المخطوطات في الجزائر.
٥) تجارب في تحقيق التراث.

ثم ألقى السيد نائب رئيس جامعة قسنطينة كلمة رحّب فيها بالحضور باسم الجامعة ومديرها.

وتبعه الدكتور عبد الحفيظ منصور فألقى كلمة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وتمنيات مديرها الدكتور مسارع الراوي بالنجاح لأعمال الملتقى.

ثم ألقى الدكتور حسين نصار كلمة الاساتذة المشاركين في الملتقى مشيداً باهتمام الاخوة في جامعة قسنطينة بالتراث وتخصيص هذا الملتقى له.

وبعد استراحة قصيرة انطلقت أعمال الملتقى بالمحاضرة الأولى للدكتور طه عبد الرحمن من المغرب: (علوم الآلة وتكامل التراث) ودارت حول الآليات التي تحكم نصوص التراث في عمل التحقيق، ويقصد الباحث بعلوم الآلة الأساليب والمناهج التي اعتمد عليها القدماء خاصة في وضع نصوصهم على اختلاف تخصصاتها. ودعا الباحث الى منهج علمي في البحث أسماه (المنهج التداولي) وهو عبارة عن فلسفة عملية لتقويم التراث.

وقد أعقبت البحث مناقشات ومداخلات ثرية وممتعة تركت انطباعاً حسناً لدى الحاضرين.

وكانت المحاضرة الثانية للدكتور هادي نهر من العراق: (التراث: ما هيته، مفهومه، شروط استقرائه) تناول فيها تحديد مفهوم التراث في المعجمات وفي دلالات المصطلحات، وأشار الى أنّ التراث الفكري لا يزال يعاني من الطمس والاتلاف نتيجة جهله.

وأشار الى ضرورة وجود بواعث احياء هذا التراث. وقد أعقب هذه المحاضرة مداخلات كثيرة أجاب عنها المحاضر.

وكانت المحاضرة الثالثة للدكتور حسين نصار من مصر: (مناهج التحقيق عند القدماء والمحدثين) والاعتماد على النسخ المختلفة وتصحيحها ومقابلتها، وأثر ثقافة المحقق واطلاعه الواسع في جودة التحقيق وصحته.

* * *

وفي اليوم الثاني من الملتقى ٢٢ / ٥ / ٨٩ كانت المحاضرة الأولى للدكتور حاتم صالح الضامن من العراق. (المدرسة العراقية في تحقيق التراث) تناول فيها وصف اهتمام القيادة الثورية في العراق في توجيه الطاقات المبدعة ورعايتها للقيام باحياء التراث العربي الاسلامي، وأشار الى النهضة العلمية في العراق المتمثلة أوّلاً في نشر وجمع شعر الشعراء الذين لم تصل الينا دواوينهم والتي أربت على الثلاثمئة مجموع، وثانياً في تحقيق كتب التراث الأخرى التي أربت على الاربعمئة كتاب، ثم عدد بعدها السمات التي تميزت بها المدرسة العراقية في تحقيق التراث.

وأكّد الباحث أنّ العراق كان وما زال موطناً للتراث وسنداً قوياً للعاملين فيه.

وردّاً على سؤال حول تعريب المصطلحات العلمية في العراق أجاب الباحث أنّ المجمع العلمي العراقي قد عرّب نحو عشرة آلاف مصطلح طُبعت في ستة اجزاء كبيرة وثمانية صغيرة، ووعد بارسالها هدية من المجمع الى جامعة قسنطينة.

وبعد انتهاء المحاضرة عقّب الشيخ الزهراوي بكلمة أثنى فيها على جهود العراق وسعيه في نشر التراث وصموده وانتصاره على العدو الايراني.

ثم كانت المحاضرة الثانية للاستاذ عبد الكريم عوفي من الجزائر: (التعريف بمراكز المخطوطات في الجزائر).

والمحاضرة الثالثة لهذا اليوم كانت للاستاذ عمار زعموش من الجزائر: (اشكالية التراث) تناول فيها الاشكالية التراثية في نسقها الاجتماعي والثقافي وعلاقتها بطموحات البناء الوطني الذي رافقته مماحكات حول رفض التراث أو العودة اليه.

وقد حظيت هذه المحاضرة بمداخلات كثيرة من الحاضرين لما فيها من جرأة.

* * *

وفي اليوم الثالث والأخير من الملتقى ٢٣ / ٥ أُلقيت ثلاث محاضرات:

الأولى: (فهرسة المخطوط العلمي وتحقيقه) للدكتور عبد الحفيظ منصور من تونس، ذكر فيها أنّ عدد المخطوطات العربية تجاوز المليونين، ثم استعرض تجاربه الشخصية في تحقيق المخطوطات وفهرستها، وطالب بوضع فهارس للمخطوطات في كلّ بلد.

والثانية: (المستشرقون ودورهم في تحقيق التراث الاسلامي) للاستاذ منصور عفيفي من الجزائر، أوضح فيها أنّه رغم تعدد أهداف المستشرقين في نشر الذخائر الاسلامية فلا يمكن الجزم بجمل هذه الأعمال كلها تُبنى في أساسها على الرغبة في خدمة الاسلام. ثم بيّن أوهام قسم من المستشرقين في تحقيقاتهم.

والثالثة: (دور التراث في وحدة الفكر والثقافة العربية الاسلامية) للاستاذ محيي الدين مختار من الجزائر، أكّد فيها أنّه من خلال الميراث العربي الاسلامي بدأ المسلمون صناعة الفكر الاسلامي الذي نسميه الآن بالتراث، وأشار الى أنّ الدعوة الى دراسة التراث الفكري العربي الاسلامي ليست دعوة الى الجمود والرجعية كما يتوهم قسم من الناس.

ثم ألقى الدكتور الرشيد بو شعير مدير المعهد كلمة الختام أشار فيها الى أنّ موضوع الملتقى لا يُعدّ كمالياً بل هو أساسي بالنسبة الى وجودنا وثقافتنا ومستقبلنا، فالأمة التي تفقد تراثها تفقد تاريخها.

وبعد استراحة قصيرة تليت التوصيات التي توجت بها أعمال الملتقى وهي:

أولاً ـ ضرورة تصوير المخطوطات المتناثرة في العالم.

ثانياً ـ العناية بترميم المخطوطات.

ثالثاً ـ إقامة معارض سنوية للمخطوطات.

رابعاً ـ اقتراح جوائز لاحسن مخطوط محقق.

خامساً ـ تدريس علم تحقيق المخطوطات في الدراسات العليا.

سادساً ـ اعتماد التحقيق وتشجيعه في رسائل الماجستير والدكتوراه.

سابعاً ـ تثمين مجلة المورد العراقية ومجلة معهد المخطوطات العربية لاثرهما الكبير في نشر التراث والتعريف به.

ثامناً ـ تبادل المطبوعات التراثية بين الجامعات العربية.

« خاص بالمورد »

الجزائر ـ قسنطينة